كتاب

خطط الشام

الجزء الثاني

تأليف

محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي

كتاب
خطط الشام

الجزء الثاني

تأليف

محمد كرد علي

رئيس المجمع العلمي العربي

الدولة النورية

«من سنة ٥٢٢ الى سنة ٥٦٩»

فتنة الاسماعيلية ووقعة دمشق

لم يكف الشام تفرق كلمة امرائه واستصفاء الفرنج لسواحله في الربع الاول من القرن السادس ، حتى مني بعدو داخلي يقاتل اهله في عقر دارهم ويستنجد بالفرنج على ارهاقه ، و يغتال امراءه اخيارهم واشرارهم ، ونعني بهم الباطنية الذين كانوا يسمون القرامطة قديمًا ويسمون في هذا الدور بالباطنية او الاسماعيلية . فقد انتشر مذهبهم في كل بلد و كثر الدعاة اليه ، وكانت دار الدعوة في حلب ولكن دمشق كانت موطن التنفيذ والعمل . فان ابناء هذا المذهب ودوا لو يؤسسون دولة في العراق او الشام ولكنهم أخفقوا غير مرة ، ولما شعروا بضعف امراء الشام وتشتتهم ، واشتغال قلوب معظمهم بقتال الصليبيين ، ايقنوا ان الفرصة قد سنحت فسار داعيتهم بهرام من العراق الى الشام ودعا بدمشق الى مذهبه فتبعه خلق كثير من العوام وسفهاء الجهال والفلاحين ، وواثقه الوزير ابو يعلى طاهر بن سعد المزدقاني فأظهر دعوته علنًا ، بعد ان كان يختفي و يطوف البلاد والمعاقل ولا يعلم به احد ، فعظمت به و بشيعته المصيبة . وسكت عن هؤلاء الباطنية العلماء وحملة الشريعة خوفًا من بطشهم ، ولما استفحل امرهم في حلب ودمشق اضطر صاحب دمشق ظهير الدين طغتكين ان يسلمهم قلعة بانياس دفعًا لشرهم ليسلطهم على الفرنج و يقطع تسلطهم على المسلمين ، فعدّ الناس ذلك من غلطاته .

عظم امر بهرام بالشام وملك عدة حصون بالجبال وقاتل اهل وادي التيم وكان سكانه من النصيرية والدروز والمجوس وغيرهم واسم أميرهم الضحاك بن جندل ، ثم قتل بهرام وقام مقامه في قلعة بانياس رجل منهم اسمه اسماعيل ، وأقام الوزير المزدقاني عوض بهرام بدمشق رجلاً اسمه ابوالوفا ، وعظم ابوالوفا حتى صار الحكم له بدمشق ، فكاتب الفرنج ليسلم اليهم دمشق ويعوضوه بصور وجعلوا موعدهم يوم الجمعة ليجعل أصحابه على باب الجامع وعلم صاحب دمشق بالامر فقتل الوزير المزدقاني وامر الناس فثاروا بالاسماعيلية فقتل بدمشق ستة آلاف اسماعيلي (٥٢٣) وقال سبط ابن الجوزي : وكان عدة من قتل من الاسماعيلية عشرة آلاف على ما قيل ولم يتعرضوا لحُرَمهم ولا لاموالهم ، ووصل الفرنج في الميعاد وحصروا دمشق فلم يظفروا بشيء ، واشتد الشتاء فرحلوا كالمنهزمين وتبعهم صاحب دمشق بالعسكر فقتلوا عدة كثيرة منهم ، وسلَّم اسماعيل الباطني قلعة بانياس الى الفرنج وصار معهم .

قال ابن الاثير : ولما بلغ الفرنج قتل المزدقاني والاسماعيلية بدمشق عظم عليهم ذلك وتأسفوا على دمشق اذ لم يتم لهم ملكها فاجتمعوا كلهم صاحب القدس وصاحب انطاكية وصاحب طرابلس وغيرهم من الفرنج وقمامصتهم ، ومن وصل اليهم من البحر للتجارة والزيارة في خلق عظيم نحو الفي فارس ، واما الراجل فلا يحصى . وروى ابن القلانسي : انهم يزيدون على ستين الفاً فارساً وراجلاً وساروا الى دمشق ليحصروها ولما سمع تاج الملوك بذلك جمع العرب والتركمان فاجتمع معهم ثمانية آلاف فارس ووصل الفرنج فنازلوا البلد وارسلوا الى اعمال دمشق لجمع الميرة والاغارة على البلاد فلما سمع تاج الملوك ان جمعاً كثيراً قد ساروا الى حوران لنهبه واحضار الميرة كما نهب صاحب القدس (٥٢١) وادي موسى وسبى اهله وشردهم ، سير اليهم اميراً من امرائه يعرف بشمس الخواص في جمع من المسلمين فلقوا الفرنج فواقعوهم واقتتلوا وصبر بعضهم لبعض فظفر بهم المسلمون وقتلوهم فلم يفلت منهم غير مقدمهم ومعه اربعون رجلاً ، واخذوا ما معهم وعادوا الى دمشق لم يمسسهم قرح ، فلما علم من عليها من الفرنج ذلك داخلهم الرعب فرحلوا عنها شبه المنهزمين ، فتبعهم المسلمون يقتلون كل من تخلف منهم .

ولما استولى الفرنج على قلعة بانياس بنزول صاحبها الباطني عنها وانضمامه اليهم سقطت بايديهم ايضاً قلعة القدموس وكانت للباطنية . وباحراز هاتين القلعتين قوي امر الفرنج وان عظمت خسائرهم المادية وعاد الناس فأمنوا وخرجوا بعدفشل الصليبيين في فتح دمشق وايقنوا : « ان الفرنج لايكاد يجتمع لهم بعد هذه الكائنة شمل لفناء ابطالهم واجتياح رجالهم وذهاب اثقالهم » .

✲ ✲ ✲

دخول آل زنكي الشام كانت مملكة حلب للبرسقي وبها ولده مسعود فلما قتل البرسقي استخلف مسعود الامير قيماز بحلب وسار الى الموصل ثم استخلف على حلب قتلغ ابه السلطاني فاساء السيرة ومد يده الى اموال الناس لا سيما التركات فانه اخذها وتقرب اليه الاشرار فنفرت قلوب الناس منه . وكان سليمان بن عبدالجبار ابن أُرتق الذي كان صاحبها اولاً مقيماً بحلب فاجتمع اليه احداثها وملكوه المدينة وقتلغ في القلعة وسمع الفرنج اختلافهم فجاءهم جوسلين صاحب انطاكية فصانعوه بمال فرحل بعد ان خندق الحلبيون حول القلعة فمنع الداخل والخارج اليها من ظاهر البلد واشرف الناس على الخطر العظيم ، وارسل عماد الدين زنكي صاحب الموصل عسكراً مع القائد قراقوش الى حلب ومعه توقيع السلطان محمود بالشام فاجاب اهل حلب اليه وتقدم عسكر زنكي الى سليمان وقتلغ بالمسير الى زنكي فاجابا فلما وصلا الموصل اصلح زنكي بين سليمان وقتلغ ولم يرد واحداً منهما الى حلب ، وسار زنكي الى حلب وملك في طريقه منبج وبزاعة وتلقاه اهل حلب ودخل ورتب الامور وملكها وقلعتها (٥٢٢) . قال ابن الاثير : ولولا ان الله تعالى قد منّ على المسلمين بملك اتابك لبلاد الشام لملكها الفرنج لانهم كانوا يحصرون بعض البلاد الشامية .

ثم عزم عماد الدين زنكي على الجهاد وارسل صاحب دمشق يلتمس منه المعونة على حرب الفرنج وبادر الى تجريد وجوه عسكره ، وكتب الى ولده بهاء الدين سونج بحماة يأمره بالخروج في عسكره والاختلاط بالعسكر الدمشقي ، فخرج من حماه الى مخيم عماد الدين اتابك فاحسن لقاءه ثم غدر به وقبض عمادالدين على سونج وعلى جماعة المقدمين واعتقلهم في حلب ، وزحف من يومه على حماة وهي خالية من حماتها فملكها ،

ورحل الى حمص وكان صاحبها قيرخان بن قراجه معه ، وطلب منه تسليم حمص فراسل نوابه وولده فيها فلم يلتفتوا الى مقاله ، فاقام عماد الدين عليها مدة طويلة يبالغ في محاربة اهلها فلم يتهيأ له ما اراد فرحل عنها الى الموصل .

وطلب صاحب دمشق الى صاحب الموصل ان يطلق ولده ومن اعتقلهم من الامراء والمقدمين فطلب عنهم خمسين الف دينار ، فأجاب تاج الملوك الى تحصيلها ، ولم يطلق عماد الدين ابن تاج الملوك سونج ومن معه من الامراء الا في سنة ٥٢٥ .
ومات الخصي صاحب صرخد فاستولت سريته على قلعتها ، وارسلت الى دُبيْس بن صدقة صاحب الحلة تستدعيه من العراق للتزوج به ، وتسليم صرخد بما فيها من مال وغيره اليه ، فسار دبيس الى الشام فضلّ به الادلاء بنواحي دمشق فنزل بناس من كلب كانوا شرقي الغوطة فحملوه الى صاحب دمشق تاج الملوك ، ولما سمع عماد الدين زنكي بأسر دبيس ارسل الى تاج الملوك يطلبه و يبذل له اطلاق ولده سونج ومن معه من الامراء فأجابه تاج الملوك الى ذلك واطلق عماد الدين سونج ورفاقه .

وفي سنة ٥٢٤ جمع عماد الدين عساكره وسار من الموصل الى الشام وقصد حصن الاثارب ، وكان اهله على اتصال بالفرنج يقاسمون الحلبيين على جميع اعمال حلب الغربية ، فالتقوا وعسكر عماد الدين واشتد القتال وانتصر المسلمون وانهزم الفرنج ووقع كثير من فرسانهم في الاسر وكثر القتل فيهم ، واخذ المسلمون الاثارب عنوة وقتلوا واسروا كل من فيها ثم خربها عماد الدين .

* * *

استنجاد بعض الصليبيين بالمسلمين واستقرار حال دمشق

بينا كانت دمشق مغتبطة بتاج الملوك بوري لشجاعته ، وقد سد مسد ابيه في كفايته وكفاحه ، ناداه الاجل سنة ٥٢٦ عقيب جرح كان به من الباطنية ووصى بالملك بعده لولده شمس الملوك اسماعيل ووصى ببعلبك واعمالها لولده شمس الدولة محمد . ولما استقر اسماعيل بن بوري في ملك دمشق واستقر اخوه في بعلبك استولى محمد على حصن الرأس وحصن اللبوة فكاتب اسماعيل اخاه في اعادتهما فلم يقبل ، فسار صاحب دمشق وفتح حصن اللبوة ثم فتح حصن الرأس وقرر امرهما ،

ثم حصر اخاه في بعلبك فسأله الصلح فأجابه اليه ، واعاد عليه بعلبك واعمالها واستقرت امورهما ٠

ودخلت سنة ٥٢٧ فسار شمس الملوك اسماعيل صاحب دمشق على غفلة من الفرنج الى حصن بانياس وفتحه وذلك لما بلغه من عزمهم على نقض الموادعة المستقرة ، وهال الفرنج ما وقع لقلعة بانياس واكثروا التعجب من تسهل الامر في فتحها مع حصانتها وكثرة الرجال فيها في اقرب مدة ٠ وفتح شمس الملوك حماة وقلعتها وقتل من كان بها ، وحصر قلعة شيزر فصانعه صاحبها بمال حمله اليه ٠ وفي هذه السنة اجتمعت التراكمين وقصدوا طرابلس فخرج من بها من الفرنج اليهم واقتتلوا فانهزم الفرنج وسار القومص صاحب طرابلس ومن في صحبته فانحصروا في قلعة بعرين فحصرهم التركمان بها ، ثم هرب القومص من القلعة وخلى قلعة بعرين ٠ ثم جمع الفرنج جموعهم وقصدوا التركمان ليرحلوهم عن بعرين فاقتتلوا وانحاز الفرنج الى نحو رفنية وعاد التركمان عنهم ٠

وقع الخلاف بين الفرنج من غير عادة جارية لهم بذلك ونشبت الحرب بينهم وقتل منهم جماعة والسبب في ذلك اختلاف طفيف نشأ بين امرائهم حدا بصاحب يافا ان يستنجد بالمسلمين في عسقلان فساعدوه حتى خربت البلاد الى حدود مدينة ارسوف ، وعقد صاحب يافا معاهدة مع المسلمين فجاء صاحب القدس وحاصره ، ولكن المسلمين اهتبلوا الغرة فجاسوا خلال ديار الفرنج واخذوا يناوشونهم القتال ، فخاف صاحب بيت المقدس العاقبة واراد مشاغلة المسلمين فأغار على اطراف حلب ، فنهض اليه الامير سوار النائب في عسكر حلب ومن انضاف اليه من التركمان وتحاربوا اياماً وتطاردوا الى ان وصلوا الى ارض قنسرين فحمل الفرنج عليهم فكسروهم كسرة عظيمة ، فعاود سوار النهوض اليهم في من بقي من عسكره والاتراك فلقوا فريقاً من الفرنج فأوقعوا به وكسروه ، فانكفأت الفرنج الى بلادها مهزومة ، وانتهى الى سوار خبر خيل الرها فنهض وحسان البعلبكي فأوقعوا بهم وقتلوهم عن آخرهم وأغار سوار على الفرنج في تل باشر فقتل منهم الف فارس وراجل وقاتلهم ايضاً في موضع يعرف بنوار في عسكر حلب وما انضاف اليه من التركمان وكانت

الحرب بين الفريقين سجالاً . واشترى الاسماعيلية قلعة القدموس من صاحبها ابن عمرون وصعدوا اليها وقاموا بحرب من يجاورهم من المسلمين والفرنج وكانوا كلهم يكرهون مجاورتهم .

وفي سنة ٥٢٨ سار شمس الملوك الى شقيف تيرون وانتزعه من ابن ضحاك بن جندل التيمي المتغلب عليه . وانتهى الى شمس الملوك ان الفرنج اعتزموا على نقض المستقر من الهدنة وقصد اعمال دمشق ، وشرعوا باخراب امهات الضياع في حوران ، فوقع التطارد بين الفريقين عدة ايام ثم اغفلهم شمس الملوك وقصد بلادهم عكا والناصرة وطبرية وما جاورها فظفر وغنم وسبى ورجع سالمًا على طريق الشعراء في نفسه وجملته ، فذل الفرنج وطلبوا تقرير الصلح بينهم . وفي هذه السنة أوقع صاحب ملطية بالفرنج الذين بالشام فقتل كثيراً منهم .

* * *

خيانة صاحب دمشق وقتل امه له

ومما خدم عماد الدين زنكي ان شمس الملوك اسمعيل صاحب دمشق كان لاول جلوسه على عرش ابيه اقر الولاة على حالهم وسار بسيرته مدة فنفس من خناق البلاد وساعده اختلاف الصليبيين ثم تغيرت نيته وكثرت قبائحه ومصادرة المتصرفين والاخيار المستورين بفنون قبيحة في العقوبات ، واضمر السوء لاصحاب ابيه وقبض على خواصهم واركان دولته فنفرت القلوب منه . وكان (٥٢٧) وثب عليه احد مماليك جده طغتكين وهو في الصيد بناحية صيدنايا وجبة عسال من عمل جبل سنير فاخطأه ، وقرره شمس الملوك فقال : ما اردت الا راحة المسلمين من شرك وظلمك ثم اقر على جماعة من شدة الضرب فضرب شمس الملوك اعناقهم من غير تحقيق وقتل اخاه الاكبر سونج صاحب حماة الذي كان في اسر عماد الدين قتله بالجوع في بيت فعظم ذلك على الناس ونفر من ظلمه المساكين والضعفاء والصناع والمتعيشون والفلاحون وامتهن العسكرية والرعية .

واهم ما قضى عليه على ما يظهر اضطهاده رجال الدولة فتآمروا عليه ورأوا السبيل الى النيل منه خصوصاً لما بعث الى عماد الدين زنكي حين عرف اعتزامه على قصد دمشق لمنازلتها يبعثه على سرعة الوصول اليها ويمكنه من الانتقام من كل من يكرهه

من المقدمين والامراء والاعيان باهلاكهم واخذ اموالهم واخراجهم من منازلهم وكتب اليه انه اذا تأخر استدعى الفرنج من بلادهم وسلم اليهم دمشق بما فيها ، واسرّ ذلك في نفسه ولم يبده لاحد من وجوه دولته واهل بطانته ، وشرع في نقل المال والمتاع الى حصن ضرخد . فاجتمع اعيان الدولة وانهوا الحال الى والدته الخاتون صفوة الملك ، فدبرت عليه من قتله من غلمانها ، غير راحمة له ولا متألمة لفقده ، لما عرفت من قبيح فعله وفساد عقله وسوء سيرته . ونودي بشعار اخيه شهاب الدين محمود بن تاج الملوك . وجاء عماد الدين زنكي وخيم بارض عذراء فلما طال الامر راسل عماد الدين في طلب الصلح على ان يخرج الامير شهاب الدين محمود اليه لوطء بساط ولد السلطان الواصل معه و يخلع عليه و يعيده الى بلده فلم يجب الى ذلك ، وتقررت الحال على خروج اخيه تاج الملوك بهرام شاه .

قُتل شمس الملوك باتفاق رأي والدته مع ارباب الدولة في دمشق لما بدا من ظلمه واستصراخه الافرنج بعد يأسه من معونة عماد الدين زنكي ، وكان جده طغتكين مثلاً سائراً في غزوه لهم المرة بعد المرة ، ومداراتهم احياناً بالحيلة ، وجمع شمل امراء الشام على قصدهم ابداً ، ومصانعة خلفاء بغداد وخلفاء مصر حتى ينجدوا البلاد المحتلة ولو بالقليل من قوتهم المادية والمعنوية ، ولكن ابن ابنه سلك غير طريقته فقتلته امه ورجال دولته . وقد قيل لولا اربع لصلح امر الناس «جهل غالب ، وامل كاذب ، وحرص دائب ، وهوى جاذب» . وكانت هذه الاعمال المنكرة من بعض صغار الملوك الذين لا يحرصون الا على مصلحتهم الخاصة واذا تأثرت اقل تأثر عمدوا الى وضع ايديهم في ايدي اعدائهم — من موجبات بقاء الافرنج في ثغور الشام وانطاكية والرها وطبرية والناصرة والقدس واستيلائهم على كثير من معاقل البلاد . ولو لم يكن شجر الخلاف بين ملوك الفرنج في هذا الدور لسهل عليهم ملك المدن الاربع دمشق وحماة وحمص وحلب بالنظر لخلل الدول المستولية عليها ، واضطرارها الى قتال اعدائها من المسلمين واعدائها من الصليبيين بل اعدائها الداخلين امثال شمس الملوك . وللناقد البصير بعد هذا ان يقول ان دولة اتابك طغتكين كانت عزيزة الجانب في اولها فاصبحت ذليلة وعبئًا ثقيلاً على الشام بعد بطنين من مؤسسها .

توحيد الحكم على يد زنكي وقضاؤه على امارة صليبية

بعد تقلقل امر آل طغتكين اخذت روح آل زنكي تسري في البلاد ، فنهض الامير مسعود سوار نائب زنكي في حلب سنة ٥٣٠ فيمن انضم اليه من التركمان ، وجرد جيشه على الاعمال الفرنجية فاستولى على اكثرها ، وغزا اللاذقية واعمالها بغتة وعاد من هذه الغزاة الى شيزر ومعه زيادة عن سبعة آلاف اسير بين رجل وامرأة وصبي وصبية ومائة الف دابة ، وحاز او اجتاح اكثر من مائة قرية كبيرة وصغيرة فامتلأت الشام من الاسارى ورجعوا بهم الى حلب وديار بكر والجزيرة .

هذا ما وقع من الاحداث في العقد الثالث من القرن السادس ، واهم ما حدث ظهور دولة عماد الدين زنكي صاحب الموصل في حلب وايقانه انه لا سبيل الى دفع الصليبيين عن الشام الا اذا كان امر المسلمين يرجع الى ملك واحد ، وانه اذا تقدم بجيشه قليلاً بعد اخذه حلب استولى على دمشق ، وانقذ البلاد من فوضى آل الاتابك طغتكين وضعفهم ، فقد كثر هجوم عماد الدين زنكي على حمص (٥٣٠) فتسلمها صاحب دمشق من اولاد قيرخان بن قراجه وعوضهم عنها تدمر ، فتابع عسكر زنكي بحلب وحماة الغارة على حمص لما رأوا خروجها الى صاحب دمشق ، فأرسل هذا الى عماد الدين في الصلح فاستقر بينهما . وكف عسكر عماد الدين عن حمص وحدثت فتنة بدمشق بين صاحبها والجند وعاد عماد الدين فنازل حمص (٥٣١) وبها صاحبها معين الدين اتسز فلم يظفر بها ، فرحل عنها الى بعرين وحصر قلعتها وهي للفرنج وضيق عليها ، فجمع الفرنج ملوكهم ورجالهم وساروا الى زنكي ليرحلوه عن بعرين فلما وصلوا اليه جرى بينهم قتال شديد فانهزمت الفرنج ، وعاود عماد الدين حصار الحصن فطلب الفرنج الامان ، فقرر عليهم تسليم الحصن وخمسين الف دينار فأجابوا الى ذلك ، وكان زنكي في مدة مقامه على حصار بعرين قد فتح من الفرنج المعرة وكفر طاب ومنع اتابك زنكي في هذه الوقعة عن الفرنج كل شيء حتى الاخبار فكان من بحصن بعرين منهم لا يعلم شيئاً من اخبار بلادهم لشدة ضبط الطرق وهيبته على جنوده . وملك عماد الدين (٥٣٢) زنكي حصن المجدل وكان لصاحب دمشق ، ودخل مستحفظ بانياس ابراهيم بن طرغت تحت طاعته ، وسار الى حمص

وحصرها ثم رحل عنها الى سلمية بسبب نزول ملك الروم على حلب ، ثم عاد الى حمص فسلمت اليه المدينة وقلعتها وكان شرع اهل حلب في تحصينها وحفر خنادقها والتحصن من الروم بها ، واغارت خيل الصليبيين على اطراف حلب ، وتملكوا حصن بزاعة ثم نصبوا خيامهم على نهر قويق فخرجت اليهم فرقة وافرة من احداث حلب فقاتلتهم وظفرت بهم ، ونهض الامير سوار في عسكر حلب وادرك الصليبيين في الاثارب فاوقع بهم وقهرهم ونزل ملك الروم هذه السنة (٥٣٢) على بزاعة وحاصرها حتى ملكها بالامان واسر من فيها ثم غدر بهم ونادى مناديه من تنصر فهو آمن ومن ابى فهو مقتول اومأسور فتنصر منهم نحو اربعمائة انسان منهم القاضي والشهود ثم رحل عنها الى شيزر وترك فيها واليًا يحفظها مع جماعة واقام عشرة ايام يدخن على مغارات اختفى فيها جماعة فهلكوا بالدخان وكان سكان بزاعة خمسة آلاف وثمانمائة نسمة ، وعاد عماد الدين وحاصرها حتى ملكها في المحرم سنة ٥٣٣ وخرب الحصن والبلد عامر . وفي سنة ٥٣٣ سار من مصر عسكر الى وادي موسى فحاصر حصن الوعيرة ثمانية ايام وعاد بعد ما توجه الى الشوبك واغار عليها وترك هناك اميرين على الحصار . وتزوج عماد الدين ام شهاب الدين محمود صاحب دمشق زمرد خاتون بنت جاولي وهي التي قتلت ابنها شمس الملوك اسمعيل وذلك طمعًا من عماد الدين في الاستيلاء على دمشق لما رأى من نفوذ هذه المرأة في الدولة . وكثيراً ما حدث ان كان في بعض الدول كلمة نافذة للنساء من آل بيت الدولة وغيرة صادقة في كف خصمائها عنها ووقايتها من السقوط .

وكان متملك الروم خرج في السنة الفائتة واشتغل بقتال الارمن وصاحب انطاكية وغيره من الفرنج وعمر ميناء الاسكندرونة ثم سار الى بزاعة وملكها وغدر باهلها ثم رحل عنها الى حلب فجرى بينه وبين اهلها قتال كثير فعاد عنها الى الاثارب وملكها وسار نحو شيزر وحاصرها اربعة وعشرين يوماً فانجدها عماد الدين حتى اضطر متملك الروم الى الرحيل فظفر عماد الدين بكثير ممن تخلف منهم . وكان زنكي يرسل الى ملك الروم يوهمه بان فرنج الشام خائفون منه فلو فارق مكانه تخلفوا عنه ، ويرسل الى فرنج الشام يخوفهم من ملك الروم ويقول لهم ان ملك بالشام حصنًا واحداً ملك بلادكم جميعًا ، فاستشعر كل من صاحبه فرحل ملك الروم عنها . ونهض هذه السنة الامير

بزواج في فريق وافر من العسكر الدمشقي والتركمان الى ناحية طرابلس فظهر اليه قومصها والتقيا فكسره بزواج وقتل منهم جماعة وافرة وملك حصن وادي ابن الاحمر وغيره . ونهض ابن صلاح والي حماة في رجاله الى حصن الخربة فملكه .

قويت دولة عماد الدين زنكي بعد استيلائه على حلب وحماة وحمص والمعرة وكفرطاب وبعلبك وغيرها ، وانحاشه القتل في الفرنج واستيلائه على بعض معاقلهم ، فلم يسع شهاب الدين محموداً صاحب دمشق الا مهادنته على قاعدة احكمت بينهما ، واصبح القول الفصل لعماد الدين دون شهاب الدين في شؤون الشام . اما الفرنج في انطاكية فلما ارتاح بالهم من جهة ملك الروم وصالحوه على ما اشترط ، عادوا هذه السنة فنقضوا الهدنة المستقرة بين عماد الدين وبينهم وقبضوا في انطاكية خمسمائة رجل من تجار المسلمين واهل حلب والسفار .

وبينا كان عماد الدين يدبر ويفكر ويهتم لاخذ دمشق نعى الناعي (٥٣٣) شهاب الدين محمود بن تاج الملوك بوري بن ظهير الدين اتابك ، قتله غلمانه في فراشه فتولى بعده اخوه الامير جمال الدين محمد بن تاج الملوك صاحب بعلبك فبعثت والدته الخاتون صفوة الملك والدة الامير شهاب الدين الى زوجها عماد الدين زنكي ، وهو على الموصل ، تبعث همته على النهوض لطلب الثأر ، فجاء وفتح الاثارب وبعلبك . وقال بعض المؤرخين : ان زنكي أمن قلعة بعلبك وتسلمها ثم غدر باهلها فأمر ببعضهم فصلبوا فاستقبح الناس ذلك منه .

ولما رأى جمال الدين صاحب دمشق ان دولة عماد الدين زنكي ستكون لها الغلبة على دولته اعتضد بالفرنج على مال يحمل اليهم ليدفعوا عن دمشق عادية عماد الدين ، فسار هذا طالباً للقاء الفرنج ان قربوا منه ثم عاد الى الغوطة ونزل بعذراء فأحرق عدة ضياع من المرج والغوطة الى حرستا التين ورحل متثاقلاً . وكان الشرط بين الفرنج وصاحب دمشق ان يكون في جملة المبذول لهم انتزاع ثغر بانياس من يد ابراهيم بن طرغت ، فاتفق ان نهض هذا الى ناحية صور للاغارة عليها ، فصادفه ريمند صاحب انطاكية واصلاً في الفرنج على انجاد اهل دمشق ، فالتقيا فكسره وقتل في الوقعة ومعه نفر يسير من اصحابه ، وعاد من بقي منهم الى بانياس

فتحصنوا بها وجمعوا اليها رجال وادي التيم فنهض اليها الامير معين الدين اتسز في عسكر دمشق وحارب بانياس بالمنجنيقات ومعه فريق وافر من عسكر الفرنج ففتحها وسلمها اليهم ·

وجاء عماد الدين بعسكره هذه السنة ايضاً الى دمشق وقرب من السور ، وكان قد فرق عسكره في حوران والغوطة والمرج وسائر الاطراف للغارة ، ونشبت الحرب بينه وبين عسكر دمشق ، ثم سار عائداً على الطريق الشمالية بالغنائم الدثرة · وسار اتابك الشهيد الى بلاد الفرنج فأغار عليها واجتمع ملوك الفرنج وساروا اليه · وفي الروضتين ان الشهيد لقيهم بالقرب من حصن بارين وهو للفرنج ، فصبر الفريقان صبراً لم يسمع بمثله ، فحاصره حصراً شديداً فراسلوه في طلب الامان ، وكان حصن بارين من اضر بلاد الفرنج على المسلمين ، فان اهله كانوا قد خربوا ما بين حماة وحلب من البلاد ونهبوها وتقطعت السبل ، كان اتابك استولى على هذا الحصن سنة ٥٣١ واعطى الامان لمن فيه وقرر عليهم تسليمه ومن المال خمسين الف دينار يحملونها اليه · وظهرت عسكرية عسقلان على خيل الفرنج (٥٣٥) الفائزين عليها فعادوا مفلولين · وملك الباطنية حصن مصياف وكان واليه مملوكاً لبني منقذ اصحاب شيزر فاحتال عليه الاسماعيلية ومكروا به حتى صعدوا اليه وقتلوه · واغار الامير لجه التركي (٥٣٦) النازح عن دمشق الى خدمة عماد الدين اتابك على بلد الفرنج وظفر بخيلهم وفتك بهم فقتل منهم سبعمائة رجل · وظهر (٥٣٧) صاحب انطاكية في ناحية بزاعة فثناه عنها النائب في حفظ حلب وحال بينه وبينها · وظهر متملك الروم في الثغور دفعة ثانية وبرز اليه صاحب انطاكية واصلح امره معه · وفي سنة ٥٣٧ خرجت فرقة وافرة من الفرنج الى ناحية بعلبك للعيث فيها فقتل المسلمون اكثرهم وعادوا الى بعلبك سالمين · وظفر عسكر حلب بفرقة كبيرة من التجار والاجناد خارجين من انطاكية تريد بلاد الفرنج فاوقعوا بها وقتلوا من كان معها من خيالة الفرنج ·

وفي سنة ٥٣٩ فتح عماد الدين زنكي الرها من الفرنج بالسيف بعد حصار ثمانية وعشرين يوماً ثم تسلم مدينة سروج وسائر الاماكن التي كانت بيد الفرنج شرقي الفرات · وكان لا يمر بعمل من اعمالها ولا معقل من معاقلها فينزل عليه الاسلام اليه في الحال ، وهزم

التركمان الفرنج الذين انتدبوا من انطاكية لانجاد اهل الرها شرهزيمة ، وتمكن السيف في اكثر الراجل وتفرقوا في اعمالهم ومعاقلهم مفلولين . اي ان عماد الدين اتى بيأسه على امارة الشمال الصليبية برمتها وهي احدى الامارات الاربع التي اقامها الصليبيون في الشام فلم يبق لهم الا امارة انطاكية وهي تمتد الى قيليقية وامارة طرابلس وامارة القدس .

* * *

الحال بعد نصف قرن من نزول الصليبيين نصف قرن مضى على دخول الصليبيين الشام وهي اذا ماخلا فيها سيد قام سيد، يشتد في دفعهم عن البلاد او يحافظ على الحالة الحاضرة على الاقل، وكما رأى من يعتد بعقلهم وغيرتهم من امراء المسلمين عدم وفاء الصليبيين للعهود زادوا في قتالهم وغزوهم والتخريب في حصونهم وارضهم ، وهذه الاراضي اي القرى والمزارع كانت ملك الفلاحين من المسلمين والمسيحيين ، والويل لمن كان صقعهم في طريق المهاجمين والمدافعين فان مزرعته وداره الى بوار ، ولا سيما اعمال حلب وطرابلس لقربهما من امارتين افرنجيتين قويتين واعمال حوران والسواد والبلقاء وجبل عوف وجبل الشراة فان المتكفل بغزوها صاحب القدس وهو اقوى ملوك الفرنج في الشام ، واليه يرجع في المهمات والقضايا العظيمة ، وهو ينجد اصحاب الرها وانطاكية وطرابلس يوم الشدائد .

وكان آل تنوخ وآل معن حجازاً في اعالي سواحل لبنان او جبال فينيقية بين املاك الصليبيين واملاك صاحب دمشق ولهم الاثر المذكور في ذلك ، ولذلك كان يتنازعهم المستولي على دمشق والمتولون للساحل ولكن خدمتهم للمسلمين اكثر بالطبع وهواهم مع ابناء دينهم وعلى نحو ذلك كان الدروز وقد قاتلوا في صفوف المسلمين فاظهروا من الشجاعة والنجدة ما تقر به العيون . ومن الغريب ان شيعة جبل عاملة كانوا من حزب الصليبيين على المسلمين الا قليلا وكأنهم اضطروا الى ذلك اضطراراً لان بلادهم في قبضة الصليبيين كما كان هوى الموارنة لمكان الدين مع الصليبيين ومن الموارنة ادلاء لهؤلاء وعمال وتراجمة عندهم ، وكان بطاركة الفرنج يتنقلون في قرى لبنان الساحلية ولهم السلطان الاكبر على امراء تلك البلاد من الفرنج .

وكانت قوى فريق المسلمين وفريق الدخلاء على بلادهم متعادلة في الغالب ، ينال كل منهما من جاره و يغزوه في عقر داره ، و يعود وقد ملئت ايدي المتحاربين بالغنائم والاسرى . والفرنج يأتيهم المدد كل سنة على طريق البحر على الاغلب ، والبحر لا يحمل الناس كالبر ، والمسلمون تأتيهم النجدات من مصر في الجنوب ومن العراق في الشرق ومن ديار بكر وديار مضر وآسيا الصغرى . والفرنج مؤلفون بحسب عناصرهم من طليان وفرنسيس والمان ، وجيوش المسلمين مؤلفة من تركمان واكراد وعرب .

وما غفل فريق عن فريق سنة واحدة خلال هذه المدة . ولم يكتب لاحد عظماء الامراء في الاسلام ان يطول عهده وترسخ قدمه في الملك والسلطان حتى يحمل حملة رجل واحد على الفرنج ، فان دمشق وحلب وعليهما في الجنوب والشمال المعول في الحرب لانهما المعسكران العظيمان في داخلية البلاد كثيراً ما شغلا بانفسهما ورد دسائس الذين يتربصون الدوائر بملوكهما ، والفرقة الباطنية التي كان المقصد من الاغضاء عنها ان تقف سداً في وجه الاعداء لما عرف به اربابها من الشدة والمضاء ، اصبحت آلة شر على المسلمين لا لهم في اكثر الاحيان ، ولم يخلصوا لمن انشقوا عنهم مذهباً وان لم ينشقوا عنهم قوميةً .

فاقتضت الحال ان يتولى امر الامة بعد تتش وآق سنقر و بزان وابن عمار وابن منقذ ومسعود وطغتكين وبوري وزنكي امراء من عيار ارقى و بسلطة اعظم ، تكون اجزاء حكومتهم اكثر تجانساً من ذي قبل ، اذ ليس الزمن زمن ملك وامارة ، ولا عهد سكة مضروبة ، وخطبة مخطوبة ، بل العهد عهد عمل بالقرائح والعقول ، وعمل بالسلاح والكراع ، وعمل بالخطط العسكرية والخدع الحربية ، وقت كله جد في جد ، والا فالعدو يتقدم ، والاسلام يهلك و يعدم ، وعمل عظيم كهذا متوقف على قيام زعيم كبير يلتف الناس حوله عن رضى ، و يجذب قلوبهم بصالح اعماله لا ببهرج مقامه ولطف مقاله ، و يبهرهم بلامع اخلاصه ، لا ببريق الذهب على كرسيه وتاجه .

* * *

صفات عماد الدين زنكي وتولي ابنه نور الدين } بدأ العقد الرابع من القرن السادس وفيه قتل عماد الدين زنكي على قلعة جعبر بيد جماعة من مماليكه . وكانت صفاته صفات حربية راقية اشتهر بشجاعته ونجدته ، اشتهاره ببطشه وشدته ، وكان يحب التوسع في الملك والذبّ عن حوزة الاسلام ، و يدرك بثاقب نظره ان الاعداء محيطة بمملكته لا ينجيها منهم الا القضاء على احدى أماراتهم في الرها وما اليها ، ولا يثق بأسهم بمناوشات وحروب تستصفى معها بعض القلاع والحصون ثم يستعيدونها و بالعكس ، وما دامت دمشق لم تدخل في سلطانه لا يقوى ملكه بالشام الاسلامية مع ملكه الموصل على ردّ عوادي الدهر ودفع غوائل العدو . توفرت في شخصه شروط التوسع في الملك ، وعرف ادارة الممالك بالعمل ورثها من ابيه آق سنقر وبذّه فيها ، فكان مربيًا فاضلاً شهماً مشهوداً له بذلك ، دفع اليه السلطان محمود لما تولى الموصل ولديه آلب أرسلان وفروخ شاه المعروف بالخفاجي ليربيهما فلذا قيل له اتابك .

فمن صفات عماد الدين انه كان ينهي أصحابه عن شراء الملك و يقول ان الاقطاع تغني عنها ، ومتى كانت البلاد لنا فلا حاجة اليها ، ومتى ذهبت البلاد منا ذهبت الاملاك معها ، ومتى كان لاصحاب السلطان ملك تعدوا على الرعية وظلموهم ، على حين كانت الاقطاعات في عهده للامراء والقواد وارباب الدولة شائعة غير منكرة عند المسلمين وعند الصليبيين في هذه الديار . قيل للشهيد اتابك زنكي ان هذا كمال الدين بن الشهرزوري يحصل له في كل سنة منك مايزيد على عشرة آلاف دينار اميرية وغيره يقنع منك بخمسمائة دينار . فقال لهم : بهذا العقل والرأي تدبرون دولتي ؟ ! ان كمال الدين يقلّ له هذا القدر وغيره يكثر له خمسمائة دينار . فان شغلاً واحداً يقوم به كمال الدين خير من مائة الف دينار . وكان كما قال . وهذا اكبر دليل على حرصه على رجاله ولا تقوم دولة الا بامثال الوزير الشهرزوري .

وكانت له عناية باخبار البلاد يتنشّدها و يغرّم عليها الاموال الطائلة ، فيقف على اخبار الملوك ساعة بساعة ، واذا جاءه رسول لا يمكنه من الحديث مع احد الرعية لئلا ينتشر الخبر في البلد . وكان يفرق الاموال في القلاع والبلاد فلا يجعلها في

مكان واحد و يقول : اذا كانت الاموال في موضع واحد وحدث حادث وانا في موضع آخر لم انتفع بها وذهبت ، واذا كانت متفرقة لم يحل بيني وبينها رجعت الى بعضها . وكانت البلاد قبل ان يملكها خراباً من الظلم وتنقل الولاة ومجاورة الفرنج فعمرها وامتلأت اهلاً وسكاناً وقبل ان يجيء زنكي الى الشام اشتدت صولة الصليبيين واتسعت مملكتهم من ناحية ماردين وشيحان الى عريش مصر وانقطعت الطرق الى دمشق الا على الرحبة والبر ، وجعلوا على كل بلد جاورهم خراجاً واتاوة يأخذونها منهم ليكفوا اذيتهم عنهم . وكان مهيباً شديد الوطأة على من يعبثون بحياة الامة . بلغه ان بعض الولاة تعرض لامرأة فقلع عينيه وجب مذاكيره فخاف الولاة وانزجروا وكان شديد الغيرة ولا سيما على نساء الاجناد . وكان يقول : ان لم تحفظ نساء الاجناد والا فسدت لكثرة غيبة ازواجهن في الاسفار . ترجمه العماد الكاتب بقوله : كان زنكي ابن آق سنقر جباراً عسوفاً ، بنكباء النكبات عصوفاً ، نمري الخلق ، اسدي الخنق ، لا ينكر العنف ، ولا يعرف العرف ، قد استولى على الشام من سنة ٥٢٢ الى ان قتل في سنة ٥٤١ وهو مرهوب لسطوه اهـ . وبعض هذه الصفات تنزهت منها نفس ابنه نور الدين محمود وهذا الرجل الذى كان ينتظر لانقاذ الشام مما حل به من الويلات ، فانه جمع الصفات الحسنة في ابيه وتجرد عن الصفات الرديئة فيه .

كان نور الدين في قلعة جعبر يوم مقتل ابيه عماد الدين بيد المماليك فسمي الشهيد فاخذ في الحال خاتمه وهو ميت من اصبعه وسار الى حلب فملكها ، وارسل كبراء دولة زنكي الى ولده سيف الدين غازي بن زنكي يعلمونه الحال وهو بشهرزور ، فسار الى الموصل واستقر في ملكها . قال ابن عساكر : وسير نور الدين الملك آلب ارسلان بن السلطان محمود بن محمد الى الموصل مع جماعة من اكابر دولة ابيه وقال لهم ان وصل اخي سيف الدين غازي الى الموصل فهي له ، وانتم في خدمته وان تأخر فانا اقرر امور الشام واتوجه اليكم . ولما انتهى نعيُ عماد الدين الى صاحب دمشق خف في الحال الى حصن بعلبك وحصره وكان متوليه نجم الدين ايوب بن شادي والد صلاح الدين يوسف ، فخاف ان لا يتمكن اولاد زنكي من انجاده بالعاجل فصالح صاحب دمشق

وسلم القلعة اليه ، واخذ منه اقطاعاً ومالاً وملكه عدة قرى من بلاد دمشق ٠

ولم يكد نور الدين يتربع في دست الحكم بحلب حتى بدت آيات فضله ، وصحة حكمه وعقله وحزمه ، وباستيلائه على الاعمال ظهر نبوغه فدخلت الشام في حياة سياسة جديدة بعد تقلقل امر الدولة الاتابكية بدمشق ودخول الوهن على فروعها بعد زوال اصلها الثابت ظهير الدين طُغتكين ٠ وسار نور الدين على قدم ابيه عماد الدين في التقرب من ملوك الاطراف فخطب ابنة معين الدين اتسز الملك الحقيقي لدمشق ، والحاكم المتحكم في سياستها ليتم له بالصهر والقرابة ما كان ابوه يرمي اليه بزواجه بام شهاب الدين محمود فلم يتم له ، وتزوج نور الدين بعد ذلك بابنة صاحب قونية واقصرا فأمن بهذا الزواج من غارة يغيرها صاحب آسيا الصغرى على الشام ، ومن تسرّب عسكر الصليبيين عن طريق الروم الى بلاده

بعد ان أُصيب جوسلين صاحب الرها بتمزيق شمل امارته قبل سنتين على يد عماد الدين زنكي ، جمع الفرنج من كل ناحية وقصد مدينة الرها على غفلة بموافقة النصارى المقيمين بها فاستولى عليها وقتل من بها من المسلمين فنهض نور الدين (٥٤١) فيمن انضاف اليه من التركمان فأستعاد البلد وقتل كثيراً من ارمنها ، ومحق السيف كل من ظفر به من نصاراها ٠ واستنجد صاحب دمشق بنور الدين على قتال والي صرخد الذي كان خرج الى ناحية الفرنج للاستنصار بهم ، فجاء نور الدين في عسكر حسن من حلب فاجتمع الجيشان على حلب ، وبلغ صاحبي حلب ودمشق ان الفرنج احتشدوا قاصدين بُصرى فحال عسكر المسلمين بينهم وبين الوصول اليها ، واستظهر عسكر المسلمين على الفرنج فولوا الادبار فتسلم صاحب دمشق حصني بصرى وصرخد ٠

* * *

الحملة الصليبية الثانية وغزوتها دمشق

وفتح نور الدين في السنة التالية (٥٤٢) مدينة ارتاح بالسيف وحصر ثامولة(؟) وبسرفوث وكفرلاما من اعمال الفرنج ٠ قال صاحب الكامل : كان الفرنج بعد قتل والد نور الدين قد طمعوا وظنوا انهم بعده يستردون ما اخذه ، فلما رأوا من نور الدين هذا الجد في اول امره علموا ان ما املوه بعيد وخاب ظنهم واملهم وبينا كان نور الدين يجمع شمله

لضرب الفرنج في مقتل من مقاتلهم للقضاء على قوتهم التي ظهر له ضعفها يوم استرد ابوه منهم الرها ، وردت الاخبار من قسطنطينية ان حملة عظيمة قادمة من بلاد الفرنج وهي المعروفة بالحملة الصليبية الثانية مؤلفة من فرنسيس بقيادة لويز السابع والمان بزعامة كونراد الثالث وفي الجيش انكليز وفلامنديون وطليان ومن هؤلاء البنادقة والجنوية والبياسنة (البيزيون) وذلك لانجاد الصليبيين في الشام ، اذ ساءت حالهم بعد سقوط الرها وقلّ فارسهم وراجلهم لان سيوف التركمان والاكراد والعرب قد حصدتهم ، وعلى كثرة تناسلهم مدة نصف قرن اصبحوا في قلة واصبح اعداؤهم في كثرة .

تجمعت هذه الحملة بتحميس القديس برناردوس في الغرب وكان له كما لرؤساء الدين السلطان الاكبر على النفوس يصرفها كما يشاء . وذكر المؤرخون ان عدد هذا الجيش كان الف الف عنان من الرجالة والفرسان وقيل اكثر من ذلك وفي التاريخ العام ان كلاً من الجيش الالماني والجيش الافرنسي كان مؤلفاً من سبعين الف فارس ماعدا الرجالة الذين لايحصى عددهم وان الروم قدروا مجموعه سبعمائة الف رجل . قال وهو تقدير ظاهر المبالغة . واختار هذا الجيش طريق البر وعرض عليه روجر صاحب بوليه وصقلية ان يسافر بحراً لانه كان ينوي الاستعانة بجيش الصليبيين ليدفع المسلمين عن بلاده ، وكانوا احتلوا سركوزة ، فلقي جيش الصليبيين من صاحب القسطنطينية وامراء بني سلجوق في آسيا الصغرى ضروب القهر والموت . قال مؤرخونا واستمر القتل فيهم اي في الصليبيين الى ان هلك العدد الدثر منهم ، وحل بهم من عدم القوت والعلوفات والمير وغلاء السعر ما افنى الكثير منهم .

وصلت مراكب الفرنج (٥٤٣) الى ساحل البحر كصور وعكا واجمع من كان بها من الفرنج بعدما فني منهم اي من القادمين من طريق البر بالقتل والمرض والجوع نحو مائة الف انسان ان يقصدوا بيت المقدس . ولما قضوا مفروض حجهم عاد من عاد بعد ذلك الى بلادهم في البحر ، وبقي ملك الالمان اكبر ملوكهم ومن هو دونه وصلى الصليبيون في القدس صلاة الموت ، وعادوا الى عكا وفرقوا المال في العسكر وكان مقدار ما فرقوه سبعمائة الف دينار ولم يعينوا لهم وجهة وما كانت وجهتهم الا فتح دمشق فورّوا بغيرها وهربوا المسلمين بين ايديهم . ولم يشعر اهل دمشق الا وملك

الالمان قد ضرب خيمته على باب مدينتهم في الميدان الاخضر · وكان الفرنج في نحو خمسين الفاً من الخيل والرجل وقيل اكثر من ذلك · ويقول ابن منقذ ان ملك الالمان لما وصل الى الشام اجتمع اليه كل من في ارجاء الساحل من الفرنج ، فقصدوا اولاً المنزل المعروف بمنازل العسكر فصادفوا الماء مقطوعاً عنه ، فقصدوا ناحية المزة ووصلت طلائعهم الى الميدان الاخضر فنشبت الحرب بين الفريقين ، واجتمع عليهم من الاجناد والاتراك والتركمان واحداث البلد والمطوعة والغزاة الجمّ الغفير ، وكانت المكاتبات قد نفذت الى ولاة الاطراف بالاستصراخ ، واخذت خيل التركمان تتواصل فلما ضاق الامر بالفرنج بعد اربعة ايام ورأوا شدة عزيمة المسلمين في قتالهم رحلوا مفلولين ·

ويرى مؤرخو الحروب الصليبية من الفرنج ان جيش الحملة الصليبية الثانية كان اكثر نظاماً وقيادة من جيش الحملة الاولى وليس فيه المتشردون والاشقياء بل كان مؤلفاً من فرسان وبارونات وغيرهم أُخذوا بالحماسة الدينية وساروا في قيادة ملكين عظيمين · وفي التاريخ العام ان هذه الحملة الصليبية الكبرى لم تجد نفعاً البتة حتى استغربت حالها امم النصرانية فبحث بعضهم عن الخطايا التي استحقت بارتكابها هذه الكارثة ونسبت اخرى هزيمة الحملة لخداع الروم او لخيانة نصارى الشرق وذكروا ان الصليبيين في القدس قد ارتشوا من امير دمشق بمبلغ مائتين وخمسين الف دينار وان الامير ارسل المال زيوفاً او نحاساً طُلي بالذهب ·

انكسر الجيش الذي قاتل دمشق بقيادة كونراد الالماني ولويز السابع الفرنسوي وبودوين الثالث ملك القدس في بساتين المزة ولحق فلُّهم بالساحل ، بعد ان قطعوا اشجار الحدائق للتحصن بها وأحرقوا الربوة والقبة المهدوية · وقد وصف ابو الحكم الاندلسي جيش الفرنجة على دمشق في مخيمه ومعتركه ومجتلده ومنهزمه وصفاً جميلاً قال :

بشطي نهر داريا امور ما تؤاتينا
وأقوام رأوا سفك الـ ـدما في جلق دينا
أتانا مائتا الف عديداً او يزيدونا

فبعضهم من اندلس وبعضٌ من فلسطينا
ومن عكا ومن صور ومن صيدا وتبنينا
اذا أبصرتهم أبصر ت أقواماً مجانينا
ولكن حرقوا في عا جل الحال البساتينا
وجازوا المرج والتعدي ل أيضاً والميادينا
تخالهم وقد ركبوا قطائرها حراذينا
وبين خيامهم ضموا الـ خنازر والقرابينا
ورايات وصلبانا على مسجد خاتونا

ومن توفيق صاحب دمشق يومئذٍ وهو مجير الدين أُرتق بن محمد بن بوري بن طغتكين ان الحكم وتدبير المملكة كان لمعين الدين اتسز مملوك جده طغتكين ، وكان عاقلاً ديناً محسناً لعسكره فاستنجد بصاحب الموصل سيف الدين غازي بن زنكي وصاحب حلب نور الدين محمود بن زنكي ، فجاء الشقيقان في جيش لجب ، وانضم جيشهما بل روحه وروح ابيهما الى روح مملوك طغتكين مؤسس الدولة الأتابكية ، مع تحمس الامة ومعرفتها حق المعرفة ان الفرنج اذا أخذوا دمشق سقطت بلاد الشام كلها ، وربما تعدوها الى الحجاز وهناك الطامة العظمى على المسلمين ، وكان اجتماع آل زنكي الاقوياء مع صاحب دمشق الضعيف في سلطانه فاتحةً لعمل عظيم يتوقع منهم في الشام ، وان ملكها سيؤول اليهم بحكم الطبيعة . ولم يرض سيف الدين ولا نور الدين ان يناقشا مجير الدين ومعين الدين الحساب عما قدماه وقالاه ، بل مرا بالاحقاد مرَّ الكرام وجعلوا الاقاويل دبر آذانهم وعند الشدائد تذهب الاحقاد .

ذكروا ان معين الدين اتسز كان قد كاتب سيف الدين غازي صاحب الموصل قبل نزول الفرنج على دمشق ، يستصرخ به ويخبره بشدة بأس الفرنج ويقول له : ادركنا فسار سيف الدين في عشرين الف فارس فنزل جيرة حمص وبعث الى معين الدين يقول : « قد حضرت بجند طمّ ولم أترك ببلادي من يحمل السلاح ، فان انا جئت الفرنج وكانت علينا الهزيمة وليست دمشق لي ولا لي بها نائب لم يسلم منا احد واخذت الفرنج دمشق وغيرها فان احببت ان أُقاتلهم فسلم البلد الى من اثق به ، وانا

احلف لك ان كانت النصرة لنا عليهم انني لا ادخل الى دمشق وارجع الى بلادي »
فمطله معين الدين وبعث الى السواحل يقول : « هذا ملك الشرق نازل على حمص وليس لكم به طاقة ، فان رحلتم والا سلمت دمشق اليه وهو بيبدكم وانا أعطيكم بانياس» اي ان معين الدين اتسز آثر ان يتخلى عن بانياس مفتاح دمشق الاكبر من جهة بلاد الفرنج ، ولا يجعل لسيف الدين غازي اصبعاً في بلده ، لعلمه ان دولة آل زنكي في عنفوان امرها غضة الاهاب ودولتهم هرمة ، والفتى يغلب الهرم ويخلفه بحكم الطبيعة .

* * *

تقدم نور الدين في فتوحه

ولما رحل الفرنج عن دمشق كتب القومص صاحب طرابلس الى معين الدين والى نور الدين يستنجدهما على ولد الفنس صاحب صقلية الذي اخذ منه حصن العريمة ، ويريدهما على اخذه خوفاً منه على بلده ، وكتبا الى سيف الدين يطلبان منه المدد فامدهما ، فحصروا الحصن ونقبوا السور ، فاذعن الفرنج واستسلموا والقوا بايديهم ، فملك المسلمون الحصن واخربوه واخذوا كل من فيه .

وعاد عسكر سيف الدين الى الموصل وعسكر نور الدين الى حلب واخذ هذا بجمع اطرافه وتوجه الى ما داني بلاده من بلاد الفرنج وظفر بعدة وافرة منهم وجمع صاحب انطاكية رجاله فصد نور الدين على حين غفلة منه ، ونال من عسكره حتى اضطر نور الدين ان يهرب بنفسه وعسكره الى حلب . وفي هذه السنة (٥٤٣) نادى منادي نور الدين في حلب بابطال الاذان بحي على خير العمل في اواخر اذان الغداة ، واعاد اذان اهل السنة ففرح الناس فابطل بذلك اثراً عظيماً من آثار الدولة العلوية الفاطمية .

لم تثبط هزيمة نور الدين يوم انطاكية من عزيمته ، وقصد الفرنج فكان بينه وبينهم مصاف بارض يغرى من العمق فانهزم الفرنج الى حصن حارم وكانوا هزموا المسلمين اولاً بهذا الموضع ، وقتل منهم وأسر جماعة كثيرة فأرسل منهم جماعة مع غنائم كثيرة الى اخيه سيف الدين صاحب الموصل . وفي هذه السنة سار نور الدين

الى بصرى وقد اجتمع الفرنج قضهم وقضيضهم ، فالتقى بهم هنالك واقتتلوا اشد قتال فهزمهم نور الدين ٠

وكثر عيث الفرنج في صور وعكا والثغور (٥٤٤) بعد رحيلهم عن دمشق وفساد شروط الهدنة المستقرة بين صاحب دمشق وبينهم ، كانوا يعيثون في عمل دمشق ، ويفحشون في التخريب ويمعنون في الغارة ، فاغار عليهم العسكر الشامي والتركماني والعرب الى ان اضطروا الى تجديد الهدنة مع صاحب دمشق سنتين ٠ واغار صاحب انطاكية على الاعمال الحلبية فدفعه نور الدين صاحبها ، وكان عسكر نور الدين يناهز الستة آلاف فارس سوى الاتباع والسواد ، والفرنج في زهاء اربعمائة فارس طعانة والف راجل مقاتلة سوى الاتباع فلم ينج منهم الا نفر يسير ثم نزل نور الدين في العسكر على باب انطاكية وقد خلت من حماتها فاستمال اهلها في التسليم فأمهلوا ، ثم نهض الى افامية فسلم الفرنج اليه البلد بعد حصارها واجتمع من بالشام من الفرنج وساروا نحو نور الدين ليرحلوه عنهم ، فلم يصلوا الا وقد ملك حصن افامية وملأه ذخائر وسلاحاً ورجالاً واقتضت الحال بعد ذلك مهادنة من في انطاكية وتقرر ان يكون ما قرب من الاعمـال الحلبية لنور الدين ، وما قرب من انطاكية لهم ٠ وقد عاون نور الدين في هذه الوقعة الامير بزان في عسكر دمشق وعسكر اخيه سيف الدين غازي والجزيرة ، وقتل من الفرنج الف وخمسمائة وأُسر مثلهم ، وقتل البرنس وحمل رأسه الى نور الدين ٠ قال العماد : وكانت هذه الكسرة على إنب وإنب حصن من اعمال عزاز ٠

وظهرت الفرنج في الاعمال الدمشقية للعيث فيها واتصل بنور الدين افسادهم في الاعمال الحورانية بالنهب والسبي فعزم على التأهب لقصدهم فسار وكف ايدي اصحابه عن العيث والفساد في الضياع ، وامر باحسان الرأي في الفلاحين والتخفيف عنهم ٠ وكتب الى دمشق يستدعي منهم المعونة على ذلك بالف فارس ، وقد كان رؤساؤها عاهدوا الفرنج ان يكونوا يداً واحدة على من يقصدهم من عساكر المسلمين فاحتج عليه وغوالط ، فلما عرف ذلك رحل ونزل بمرج يبوس وبعض العسكر بيعفور ، ثم رحل من منزله بالاعوج ونزل على جسر الخشب المعروف بمنازل العسكر ، وراسل مجير الدين والرئيس بدمشق

بانه لم يقصد محاربتهم وانما دعاه الي ذلك كثرة شكاية المسلمين من اهل حوران والعربان وعجز امراء دمشق عن حفظ اعمالها واستصراخهم بالفرنج على محاربته ، وبذلهم لهم أموال الضعفاء والمساكين من الرعية ظلماً لهم ، فكان الجواب عن هذه الرسالة « ليس بيننا وبينك الا السيف وسيوافينا من الفرنج ما يعيننا على دفعك ان قصدتنا ونزلت علينا » فلما عاد الرسول بهذا الجواب اكثر التعجب منه والانكار له ، وعزم على الزحف الى دمشق . وما ندري اذا كان ذلك الجواب صدر قبل وفاة معين الدين اتسز والي دمشق وصاحب امرها نيابة عن اولاد طغتكين ، وكان اتسز صالحاً عادلاً محسناً كافاً عن الظلم متجنباً للمآثم ، محباً للعلماء والفقراء ، بذل مجهوده في حفظ بيت سيده طغتكين فلما مات أخذ ملك مجير الدين في الانحلال ، وآل الى الاضمحلال .

* * *

انحلال دولة مجير الدين وتوفيق نور الدين

آذنت شمس الدولة الاتابكية دولة ابناء طغتكين بالمغيب لهلاك الرجال الغيورين عليها ، ولانار بابها أخذوا يتقوون بالفرنج على ابناء نحلتهم حباً بان يبقوا في ملكهم ورفاهيتهم « وصواب الرأي بالدول يبقى ببقائها و يذهب بذهابها » . ولكن دولة نور الدين التي أصبح لها المقام الاسنى في الشام بعد ان حالف التوفيق اعلامها اكثر من مرة في سنين قليلة أخذت النفوس تتطلع اليها ، وتعلق الآمال الطيبة عليها . وقد كانت دمشق التي أجابت نورالدين بهذا الجواب الفظ نشبت فيها هذه السنة فتنة بين الاجناد والمقدمين والرعاع والفلاحين وذلك لاستيحاش الرئيس في دمشق من مجيرالدين صاحبها ولم تزل الفتنة ثائرة الى ان ابعد من التمس ابعاده من خواص مجير الدين وسكنت الفتنة .

ولكن هذه الفوضى في دمشق يصعب دواءها ، وليست المسألة مسألة تقريب رجل او رجال من اركان الدولة او اصطلام ثائر وخارج على الجماعة ، وقد سرت روح الغضب حتى الى اقرب الناس من الآل الملوكي ، وقوة نور الدين تشتد وشأنها ودعوته ترداد انتشاراً اليوم بعد اليوم ، فلم يسع اولي الامر في دمشق سنة ٥٤٠ الا تقرير الصلح بينهم وبينه ، فاقيمت الخطبة لنور الدين على منبر دمشق بعد الخليفة

والسلطان ، وضربت السكة باسمه وخلع نور الدين على مجير الدين خلعة السلطنة والطوق والسوارين وخلع على الرئيس ابن الصوفي خلعة الوزارة فبذلا له الطاعة واعادهما الى عملها وطيب قلوبهما « ورحل الى حلب والقلوب معه لما غمر العالم من خيره » . عمل مجير الدين وابن الصوفي هذا العمل مكرهين امام قوة قاهرة ، عملاه وهما يسران حسواً في ارتغاء على امل ان يقلبا لنور الدين ظهر المجن و ينتقمامنه باعتصامهما بالصليبيين حتى اضطر في السنة التالية (٥٤٦) ان يسوق عسكره الى دمشق فنزل اوائل جنده على ارض عذراء وقصد فريق وافر منهم ناحية السهم والنيرب في سفح قاسيون وكمنوا عند الجبل لعسكر دمشق ، ثم وصل نور الدين في عسكره ونزل على عيون فاسريا ما بين عذراء ودومة وامتد عسكره الى ضمير ونزلوا في ارض حجيرا وراوية في الجنوب في خلق كثير ، ثم نزل في ارض مشهد القدم وما والاه من الشرق والغرب ، وكان مبلغ منتهى الخيم الى المسجد الجديد قبلي البلد اي ان العسكر النوري احاط بدمشق من اطرافها الاربعة فنزل كما قال المؤرخ منزلاً ما نزله احد من مقدمي العساكر فيما سلف من السنين ، وارسل نور الدين الى مجير الدين يقول : « كنت انفقت معكم وحلفت لكم ، والآن قد صح عندي انكم ظاهرتم الفرنج فان اعطيتموني عساكركم لاجاهد في سبيل الله رجعت عنكم » فلم يرد جواباً . وجرى بين اوائل العسكر وبين من ظهر اليه من البلد مناوشات ولم يزل نور الدين مهملاً للزحف على البلد اشفاقاً من قتل النفوس واثخان الجراح في مقاتلة الجهتين حتى انطلقت ايدي المفسدين من الفريقين في العيث ، وحصدت زراعات المرج والغوطة وضواحي البلد ، وخربت مساكن القرى ونقلت انقاضها الى البلد ، وزاد الاضرار بار بابها من التُنَّاء والفلاحين ، وتزايد طمع الرعاع والاوباش في التناهي والفساد ، ثم رحل العسكر النوري ونزل في اراضي فذايا وحلفبلتا المصاقبة للبلد ، ونشبت المطاردة وكثرت الجراح في خيالة البلد ورجالته ، ثم رحل نور الدين الى ناحية داريا لتواصل الارجاف بقرب عسكر الفرنج من البلد للانجاد ليكون قريباً من معابرهم ، وبعد ذلك رحل الى ناحية الزبداني استجراراً لهم ، وجعل من عسكره اربعة آلاف فارس ليكونوا في اعمال حوران مع العرب لقصد الفرنج ولقائهم ، ونزل الفرنج على

نهر الاعوج ، وخرج مجير الدين ومؤيده في خواصها واجتمعا بملكهم وما صادفوا عنده شيئاً مما هجس في النفوس من كثرة ولا قوة ، وتقرر بينهم النزول بالعسكرين على حصن بصرى لتملكه واستغلال اعماله . ثم رحل عسكر الفرنج الى رأس الماء ولم يتهيأ خروج العسكر الدمشقي اليهم لعجزهم واختلافهم ، وقصد من كان بحوران من العسكر النوري ومن انضاف اليهم من العرب ناحية الفرنج للايقاع بهم فالتجأ عسكر الفرنج الى لجاة حوران للاعتصام بها . ثم زحف نور الدين على دمشق وقد رأى خيانة صاحبها وماشاته للفرنج حرصاً على دمشق من السقوط في يد العسكر النوري الذي عرضه صاحبه فذكر انه بلغ كمال ثلاثين الف مقاتل . وكان العسكر النوري يزداد كل يوم قوة وعسكر دمشق ضعفاً . وتحرج نور الدين من قتال المسلمين وما زال يميل الى حقن الدماء لعلمه بان خيانة حكومتها لاتكون وان تكون سبباً للعبث بالغرض المقدس الذي يرمي اليه من انقاذ البلاد ولطالما قال : « اني أرفه المسلمين ليكون بذل نفوسهم في مجاهدة اعدائهم » .

قال في مرآة الزمان : وتواترت الاخبار بمجيء الفرنج لنصرة مجيرالدين فضاقت صدور العلماء والزهاد من هذه الحالة ، ولما قرب الفرنج من داريا أشار على نورالدين خواصه وقالوا : نبقى بين الفرنج وبين عسكر دمشق فارتفع الى الزبداني ووصل الفرنج الى داريا في جمع قليل وخرج مجير الدين والمؤيد اليهم واجتمعا بملكهم فما صادفا عندهم من القوة ما كانا يظنان ، فاتفقا على نزول الفرنج على بصرى فانها عصت على مجير الدين ، ورحلوا الى رأس الماء ، وضايق الفرنج بصرى فلم يظفروا منها بطائل ، فعادوا الى بلادهم وبعثوا يطلبون من مجير الدين ما قرر لهم من المال ، فعاد الى دمشق فنودي في دمشق بالعسكر الاحداث بالخروج الى قتاله فلم يخرج الا القليل لما وقر في نفوسهم من استنجاد مجير الدين وابن الصوفي بالفرنج . ولما تجلت لمجير الدين غلطته في مفاوضة الصليبيين للخلاص من نورالدين لم يستطع حفظاً لملكه الا قبول الشروط التي وضعها نور الدين عليه ، ودخل مجير الدين على نور الدين في حلب فبالغ هذا في اكرامه وقرر معه تقريرات اقترحها ، ومن صارع الحق صرعه .

* * *

مقاصد نور الدين وفتحه دمشق) كانت همة نورالدين منصرفة في كل أطواره الى توحيد القوةالاسلامية فيالبلاد ، والامارات الاسلامية كما في التاريخ العام كانت على عهد الحروب الصليبية تتألف وتتمزق على الدوام بحسب طوالع الحروب والدسائس التي تقوم ثورتهـا بين الامراء ، وبحسب انتقال الملك وتقسيمه ، وامتياز الأسر وكان ولا سيما في جبال الشام من الامراء من لم تكن ارضهم تتجاوز ربض قلاعهم وضاحيتها كصاحب شيزر ، ولذلك عامل نور الدين مجيرالدين صاحب دمشق على ما بدر منه من الاغلاط النابية عن حد الوطنية والقواعد الشرعية معاملة رفق واغضـاء ، لان المقصد جمع شمل البلاد ، والسؤدد مع السواد . ومما أفاد في هذا العقد وصول الاسطول المصري الى الساحل في سبعين مركبًا حربيًا مشحوناً بالرجال واقترابه من يافا فقتل وأسر وأحرق واستولى على عدة وافرة من مراكب الفرنج والروم ، ثم قصد ثغر عكا وصيدا وبيروت وطرابلس وفعل فيهـا مثل ذلك . قال ابن ميسر : وظفر الاسطول المصري بجماعة من حجاج الفرنج فقتلوهم عن آخرهم ، وبلغ ذلك نور الدين محمود بن زنكي ملك الشام فهمّ بقصد الفرنج في البر ليكون هو في البر والاسطول المصري في البحر فعاقه عن ذلك الشغل باصلاح دمشق ولو اتفق مسيره مع الاسطول كان يحصل الغرض من الفرنج ، وكان من جملة ماانفقه العادل بن السلار على هذا الاسطول ثلاثمائة الف دينار .

بيد انه لم تقف همته عند هذه الغاية واهتبل الغرة وشغل المحتلين في الساحل بما نزل عليهم من بلاء الاسطول المصري ، فغزا بلاد الشمال وأسر جوسلين صاحب تل باشر وملك قلاعه وهي تل باشر — وكان الامير حسان المنبجي قد فتحها باسم نور الدين وهو على ابواب دمشق (٥٤٦) — وعينتاب ودلوك — وكان القتال على هذه شديداً جداً — وعزاز وتل خالد وقورس والراوندان و برج الرصاص وحصن البارة و كفر سود وحصن بسرفوت بجبل بني عليم و كفرلاثا ومرعش ونهرالجوز وذلك في أيام يسيرة . وهذا الفتح والفتح الذي تم على يده في السنة الفائتة (٥٤٥) من تسلم قلعة افامية جعل نور الدين صاحب الشام . وكان جوسلين فارس الفرنج غيرمدافع قد جمع الشجاعة والرأي ، سار في عسكره نحو نور الدين فالتقوا واقتتلوا وانهزم

المسلمون وقتل منهم وأسر جمع كثير ، وكان في جملتهم سلاحدار نور الدين فسيره الى الملك مسعود بن قلج أرسلان صاحب قونية وأقصرا وقال له : هذا سلاحدار زوج ابنتك وسيأتيك بعده ما هو أعظم منه ·

فلما علم نور الدين الحال عظم ذلك عليه واعمل الحيلة على جوسلين وهجر الراحة ليأخذ ثأره · وأحضر جماعة من الامراء التركمان وبذل لهم الرغائب ان هم ظفروا بجوسلين وسلموه اليه لانه علم عجزه عنه في القتال فيما قيل فجعل التركمان عليه العيون فخرج متصيداً فظفر به طائفة منهم وحملوه الى نور الدين أسيراً · وقال ابن الاثير : وعظمت على الفرنج المصيبة بأسر جوسلين ، وخلت بلادهم من حاميها وثغورهم من حافظها ، وسهل امرهم على المسلمين بعده وكان جوسلين كثير الغدر والمكر لا يقف على يمين ولا يفي بعهد ، طالما صالحه نور الدين وهادنه فاذا أمن جانبه بالعهود والمواثيق نكث وغدر ، فلقيه غدره ، وحاق به مكره ، ولا يحيق المكر السيئ الا باهله · فلما أسر تيسر فتح كثير من بلاد الفرنج وقلاعهم · وعني نور الدين بتجهيز ما فتح من الحصون بالميرة والسلاح ، وكان كلما فتح حصناً نقل اليه من كل ماتحتاج اليه الحصون خوفاً من نكبة تلحق المسلمين من الفرنج فتكون بلادهم غير محتاجة الى ما يمنعها من العدو · وكان نورالدين وابوه اذا فتحا قلعة جعلا فيها من المؤنة والذخائر ما يكفيها عشر سنين ·

وأغار هذه السنة فريق وافر من التركمان على ظاهر بيسان فقتلوا من الفرنج وأسروا ولم يفلت منهم غير الوالي ونفر يسير · وقصد الفرنج ناحية البقاع فاستباحوا عدة وافرة من الضياع من رجال ونسوان وشيوخ وأطفال فلحقهم صاحب بعلبك واسترجع منهم بعض ما أخذوا وعادوا على أقبح صفة من الخذلان ·

وافتتح نور الدين (٥٤٧) حصن انطرطوس وقتل من كان فيه من الفرنج وطلب الباقون الامان ، وملك عدة من الحصون بالسيف والسبي والاحراق والخراب والامان ومنها دلوك ويحمور ، بعد ان اقتتل مع الفرنج أشد قتال رآه الناس وصبر الفريقان ثم انهزم الفرنج ، وتوجه مجير الدين في العسكر الى ناحية حصن بصرى ونزل عليه محاصراً لسرجال واليه لمخالفته وجوره ، وما زال به حتى نزل على حكمه · وأراد

مجير الدين المصير الى حصن صرخد لمشاهدته فاستأذن مجاهد الدين واليه في ذلك ، اذ لا سبيل الى استقرار حالة دمشق اذا كان المستولون على بصرى وصرخد يمتّون الى الفرنج بصلة من الصلات للاحتفاظ بمعاقلهم في أيديهم كما فعل سيف الدين الطنطاش نائب امين الدولة صاحب بصرى وصرخد واستعان بالفرنج على المسلمين فاضطر معين الدين اتسز الى قتاله ونازل القلعتين فملكهما ٠ والولايات مضامير الرجال ٠ وقوي عزم نور الدين (٥٤٨) على جمع العساكر والتركمان من البلدان للغزو ونصرة أهل عسقلان على الفرنج ، وكان هؤلاء شغلوا بامر عسقلان منذ السنة الفائتة لامداد صاحب مصر فظفر المسلمون بمن كانوا مجاورين لهم ، ووصل الاسطول المصري الى عسقلان فقويت نفوس من بها بالمال والرجال والغلال وظفروا بقوة وافرة من مراكب الفرنج ثم هجم الفرنج على عسقلان وداهموها من جوانب سورها فهدموه وقتل من الفريقين خلق كثير ، وألجأت الضرورة الى طلب المال فأجيبوا اليه فخرج أهلها في البر والبحر الى ناحية مصر فملك الفرنج مدينة عسقلان وكانت لخلفاء مصر والوزراء يجهزون اليها المؤن والسلاح ، ولو لم تختلف أهواء أهل دولة مصر ويقتل العادل بن السلار لما جرأ الفرنج على حصر عسقلان والظفر بمن فيها والتحكم في ضرب غرامة عليها ٠ وملك نور الدين (٥٤٨) حصن أفليس وقتل من كان فيه من الفرنج والارمن ونهض عسكره طالباً بانياس ٠ وفي سنة ٥٤٩ وصل نور الدين في عسكره لامداد اسدالدين شيركوه وكان أرسله الى دمشق في كتيبة ، وخيم بناحية القصب من المرج ٠ ونزل نور الدين بعيون فاسريا عند دومة ورحل في الغد ونزل بارض الضيعة المعروفة ببيت الابار من الغوطة وزحف الى البلد من شرقيه ، وخرج اليهم من عسكره وأحداثه الخلق الكثير ، ووقع الطراد بينهم ثم عاد كل من الفريقين الى مكانه ، ولم يبرح نور الدين يزحف يوماً بعد يوم حتى افتتح دمشق على أيسر وجه ، والنفوس فيها متطلعة الى طلعته لما كان يبلغ القاصي والداني من عدله وحسن سيرته ، ولما أحس صاحب دمشق مجير الدين ابق (أُرتق) بن محمد بن بوري بن طغتكين بالغلبة انهزم في خواصه الى القلعة فأنفذ اليه وأمنه على نفسه وماله فخرج الى نور الدين فطيبَ نفسه ، ونادى نور الدين بالامان وخرجتِ دمشق من أيدي

أحفاد الاتابك طغتكين آخر الدهر بعد ان دانت لسلطانهم اثنتين وخمسين سنة :

وكل حصن وان طالت إقامته على دعائمه لا بد مهدوم

✡ ✡ ✡

الداعي لنور الدين على فتح دمشق

والسبب في فتح نور الدين دمشق ما قاله المؤرخون المعاصرون من تغلب الفرنج بناحية دمشق بعد ملكهم عسقلان حتى استعرضوا كل مملوك وجارية بدمشق من النصارى ، وأطلقوا قهراً منهم كل من أراد الخلاص ، فخشي نور الدين ان يملكوا دمشق ، فاستمال أهلها في الباطن ثم حاصرها وفتحها . قال في الكامل : وسبب حرصه على ملكها ان الفرنج لما ملكوا في العام الماضي مدينة عسقلان ولم يكن لنور الدين طريق الى ازعاجهم عنها لاعتراض دمشق بينه وبين عسقلان ، فلما ملك الفرنج عسقلان طمعوا في دمشق . وعلل هذا الفتح سبط ابن الجوزي بما ظهر من مجير الدين ، من الظلم ومصادرة الدمشقيين وسفك دمائهم وأخذه أموالهم ، وقبضه على جماعة من الاعيان ، واستدعى سيف الدولة بن الصوفي الذي ولاه رئاسة دمشق لما اخرج أخاه وجيه الدولة منها فقتله في القلعة ونهب داره وأحرق دور بني الصوفي ونهب أموالهم . وتكاثرت مكاتباته الى الفرنج يستنجدهم و يطمعهم في البلاد . وكان مراد نور الدين من أخذ دمشق انه كان في عزمه خلاص القدس من الفرنج وبلاد الساحل وكانت دمشق في طريقه . وطمع الفرنج في مجير الدين وكان قد أعطاهم بانياس ، فكانوا يشنون الغارات الى باب دمشق فيقتلون و يأسرون و يسبون ، وكان مجير الدين قد جعل للفرنج كل سنة قطيعة يأخذونها منه ، وذل الاسلام وأهله في ايامه ، وساءت سيرته و كثر فساده ، فكانت الامراء والاعيان بدمشق أصحاب نورالدين يقولون : الغياث الغياث وقالوا : ان شئت حصرناه في القلعة . فرأى نورالدين أخذ مجير الدين باللطف وقال : ان أخذته بالقوة استغاث بالفرنج وأعطاهم البلاد فيكون وهناً عظيماً على الاسلام .

وكان من أشد الامور على الفرنج ان يأخذ نور الدين دمشق لانه كان أحرق قلوبهم وحرق بلادهم ، وكان في كل وقعة يغني غناءً حسناً ، هذا ودمشق ليست له فكيف اذا أصبحت في حكمه ، لاجرم أنه يتقوى بها وتقوي كلمته ولذا عدل الى ملاطفة

مجيرالدين ومكاتبته وبعث اليه بهدايا فانس به وصار يكاتبه ويستشيره ، فكان نور الدين يكتب اليه ان فلاناً يكاتبني فتارة يقبض مجير الدين عليهم وتارة يبقيهم ، فخلت دمشق من الامراء ولم يبق عنده غير عطاء بن حفاظ الخادم السلمي وكان صاحب بعلبك قد رد اليه مجيرالدين امر دولته وكان ظالماً ، فكتب نور الدين الى مجيرالدين يقول : قد نفر عليك عطاء بن حفاظ قلوب الرعية فاقبض عليه لعلم نور الدين انه لايتم له امر في دمشق مع وجود عطاء فقبضه مجير الدين وأمر بقتله فقال له عطاء : لا تقتلني فان الحيلة قد تمت عليك وذهب ملكك وسترى ، فلم يلتفت اليه وقتله وحينئذٍ قوي طمع نور الدين في دمشق ، وأرسل الى أحداثها وأعيانها فأجابوه ، فسار اليها ونزل عليها وكتب مجيرالدين الى الفرنج يستنجد بهم وبذل لهم بعلبك وأموالاً كثيرة ، وبلغ نور الدين فأرسل الى الاحداث ففتحوا له الباب الشرقي فدخلها وحصر مجير الدين في القلعة ، وبلغ ذلك الفرنج فتوقفوا قال : ولما دخل نور الدين صاح أصحابه « نورالدين يا منصور » وامتنع الاجناد والرعية من القتال لما هم عليه من بغض مجيرالدين وظلمه وعسفه للرعية ومحبتهم لنور الدين لعدله وخيره ·

سئمت النفوس في دمشق من سوء ادارة المتغلبين على أحكامها ، امثال الوزير حيدرة ومجاهد الدين بزان وعطاء الخادم وغيرهم ، ممن لم يكونوا يهتمون بغير املاء بطونهم وجيوبهم من دماء الرعية ، ولو أصبحوا عبيداً أرقاء لاعدائهم · اما مجيرالدين آخر ملوك الاتابكية في دمشق فان نور الدين لما غلبه بذل له اقطاعاً من جملته مدينة حمص ، فسلم مجير الدين القلعة الى نور الدين وسار الى حمص فلم يعطه اياها نور الدين واعطاه عوضها بالس فلم يرضها مجيرالدين وسار عنها الى العراق وأقام ببغداد حتى مات بها · وهذا من غريب ما يحكي في باب العدل فان الملوك جرت عادتهم في تلك العصور اذا أخذوا ملكاً ان يقتلوه فلم يفعل ذلك نور الدين تحرجاً من اهراق الدم الحرام واستحكام الطوائل والثارات والاحقاد في امة أشد ما تكون الى التضافر فاعطى نورالدين حمص أقطاعاً لمجير الدين حتى لا يقطع له أمله ثم عوضه عنها ببالس لان حمص على مقربة من بلاد الصليبيين · ومن خان أمته وهو في

عهد عزه أقرب الى خيانتها في دور شقائه وذله ، اما بالس (مسكنة) فبعيدة عن حركة التطاحن بين الشرق والغرب . وماء الفرات أسوغ للعاصي مجير الدين من ماء بردى والعاصي . والمقصد في الحقيقة من الفتح توحيد كلمة الاسلام ، وهذا قد تم لنور الدين بفتح ابواب دمشق لعدله العمري ، وخروج آخر الاتابكيين من أولاد طغتكين منها بسلام .

لم يتبدل شيء بفتح نور الدين دمشق الا إبطال المظالم والمغارم ، ورفع الحيف عن الضعاف ، وجمع القوة الى مقصد واحد لا تتزلزل بالتردد والدسائس ، ولذلك كانت معظم وقائع نور الدين محالفة للتوفيق ففي السنة التي صفت البلاد له أخذ من الفرنج تل باشر وفي سنة ٥٥٠ تقررت الموادعة بين الملك العادل نور الدين صاحب دمشق وبين ملك الفرنج مدة سنة ، وقبض نور الدين على ضحاك والي بعلبك وتسلم القلعة وفي السنة التالية (٥٥١) ظفر عسكر نور الدين بالفرنج الذين عاثوا في أعمال حلب وتقررت الموادعة والمهادنة بينه وبين الفرنج مدة سنة وان المقاطعة المحمولة اليهم من دمشق ثمانية آلاف دينار صورية[1] ، ثم نقض الفرنج الهدنة لوصول عدة وافرة من الفرنج في البحر وقوة شوكتهم بهم ، ونهضوا الى الشعراء المجاورة لهم ووقع من المندوبين لحفظ أهل القرى من الاتراك تقصير فانتهز الفرنج الفرصة واستاقوا جميع ما وجدوه وأفقروا أهله منه مع ما أسروه من تركمان وغيرهم . وأغار الفرنج (٥٥٢) على ارجاء حمص وحماة وأطلقوا أيديهم بالنهب ، وأغاروا على بانياس ، فانتصر المسلمون ومحقت السيوف عامة رجالة الفرنج ومسلمي جبل عاملة المضافين اليهم ، وملك الفرنج جبلة وكانت في ايدي المسلمين منذ سنة ٤٧٣ وثب عليها قاضيها ابن خليعة التنوخي واستعان بابن عمار صاحب طرابلس فأخرج منها الروم وكانت بيدهم منذ سنة ٣٥٧ ، وظفر أسد الدين في جماعة من شجعان التركمان بسرية وافرة من الفرنج في ناحية الشمال فانهزمت . وافتتح نور الدين بانياس قهراً وظفر عسكره في ناحية هونين بسرية من أعيان مقدمي الفرنج وأبطالهم فلم يفلت منهم الا اليسير ، وعسكر الفرنج على الملوحة بين طبرية و بانياس فنهض

(١) اي من ضرب الفرنج في صور .

اليهم نور الدين في عسكره من الاتراك والعرب فكتب له النصر عليهم ، وشاغل نور الدين الفرنج هذه السنة للزلازل التي حدثت في الشام ولكنهم شغلوا أيضاً بما أصابهم من أضرارها في الساحل . وملك نور الدين بعلبك وقلعتها ، وكانت بيد انسان يقال له الضحاك البقاعي كان ولاه اياها صاحب دمشق فامتنع بها الضحاك فلم يمكن نور الدين محاصرته لقربه من الفرنج فتلطف معه حتى ملكها . وفيها كان انفساخ الهدنة بين الفرنج وملك مصر فبعث بسرية الى غزة ونهبت اطرافها وسارت الى عسقلان فأسرت وغنمت وعادت بالغنائم الى مصر ، ثم سيّر عسكراً آخر فمضى الى الشريعة فابلى بلاءً حسناً ، وندب مراكب في البحر فسارت الى بيروت وغيرها فاوقعت بمراكب الفرنج فاسرت منهم وغنمت ، وسيّر عسكر الى بلاد الشوبك والطفيلة فعاثوا في تلك البلاد ورجعوا بجر الحقائب يحملون الاسرى ، وسير الاسطول المصري الى عكا فأسر من اهلها نحو سبعمائة نفس بعد حروب ، وندب سرية اردفها باخرى فوصلت غاراتهم الى اعمال دمشق فغنموا وعادوا .

وملك الفرنج حصن حارم (٥٥٣) وشنوا الغارة في الاعمال الشامية واطلقوا ايديهم بالنهب والاخراب في اعمال حوران والاقليم ، وقصدوا داريا ونزلوا عليها ، واحرقوا منازلها وجامعها وتناهوا في اخرابها ، فخرج اليهم من العسكرية والأحداث العدد الكثير فهموا بالرجوع . واغار عسكر نور الدين على اعمال صيدا وما قرب منها ، فغنموا احسن غنيمة وخرج اليهم من كان بها من خيالة الفرنج ورجالتها وقد كمنوا لهم فغنموهم وقتل اكثرهم واسر الباقون . وتجمع الفرنج فنهض نور الدين للقائهم فانهزم هذه المرة نور الدين لتفرق عسكره في البلاد ، وسار عسكر مصري الى بيت المقدس فعاث وخرب وجرت وقعة على طبرية انكسر فيها الفرنج واقلعت خمس شوانٍ من مصر فدوخت ساحل الشام وظفرت بمراكب الفرنج وعادت بالغنائم والاسرى . وفي سنة ٥٥٤ حشد ملك الروم ووصل الى الشام وجمع نور الدين عليه العساكر فعادوا راجعين وغنمهم المسلمون .

* * *

مرض نور الدين وابلاله وتتمة فتوحه وهزيمته في البقيعة

من اعظم البلاء على ممالك الاسلام قديمًا مسألة وراثة الملك ، فلم تكن قائمة على قاعدة ثابتة والنصل فيها للقوة ، وصاحبها قد يحرم غيره ممن هم اقرب نسبًا من السلطان المتوفى . فلقد مرض نور الدين (٥٥٤) مرضًا شديدًا ارجف بموته بقلعة حلب فجمع اخوه امير ميران بن زنكي جمعًا وحصر هذه القلعة وكان شيركوه بحمص وهو من اكابر امراء نور الدين فسار الى دمشق ليستولي عليها وبها اخوه نجم الدين ايوب ، فانكر عليه ايوب ذلك وقال : اهلكتنا والمصلحة ان تعود الى حلب فان كان نور الدين حيًا خدمته في هذا الوقت ، وان كان قد مات ، فانا في دمشق نفعل ما نريد من ملكها ، فعاد شيركوه الى حلب مجدًا ، وجلس نور الدين في شباك يراه الناس ، فلما رأوه حيًا تفرقوا عن اخيه امير ميران . ولما ابلّ نور الدين من مرضه واستقامت الاحوال اخذ حران من اخيه لطمع هذا في ملك نور الدين عندما كاد الناس ييأسون من سلامته . وقصد صاحب صيدا (٥٥٦) من الفرنج نور الدين محمودًا ملتجئًا اليه فأمنه وسير معه عسكرًا يمنعه من الفرنج ايضًا فظهر عليهم في الطريق كمين للفرنج فقتلوا من المسلمين جماعة وكان زهر الدولة بن بحتر التنوخي واليًا على ثغر بيروت ومقيمًا بحصن سرحمور فولاه نور الدين القنيطرة وجلبايا بالبقاع وظهر الاحمر من وادي التيم وبرج صيدا والدامور والمعاصر الفوقانية وشارون ومجدل بعنا وكفر عمته ورتب له علائف لمحاربة الفرنج ، وكان ابوه شرف الدولة قاطنًا في عرمون الغرب فربط له طريق الدامور على الفرنج . وآل تنوخ من اكابر القبائل التي حضرت من معرة النعمان .

نازل نور الدين (٥٥٧) قلعة حارم وهي للفرنج مدة فاجتمع الفرنج وراسلوه ولاطفوه وكانوا خلقًا عظيمًا فرحل ومن اعظم الوقائع التي أصيب بها نور الدين بالفشل اكثر من كل وقعة له مع الفرنج هزيمته (٥٥٨) يوم البقيعة بينما كان نازلًا تحت حصن الاكراد فلم يشعر نور الدين وعسكره الا وقد اظلت عليهم صلبان الفرنج وقصدوا خيمة نور الدين فركب نور الدين فرسه بسرعة وفي يده الشبحة فنزل انسان كردي فقطعها فنجا نور الدين وقتل الكردي وسار نور الدين الى بحيرة حمص فنزل عليها وتلاحق

به من سلم من جيشه . وقد نقل سبط ابن الجوزي في تعليل هذه الكسرة بانه لم يكن للمسلمين برك (اثقال) ولا طليعة ظناً من نور الدين انهم لا يقدمون عليه قال: وكان ذلك من قلة الحزم حيث غفلوا عن العدو ولم يستظهروا بالبرك والطلائع قال: وكان من عزم الفرنج قصد حمص فلما بلغهم نزول نور الدين على البحيرة قالوا: ما فعل هذا الا عن قوة وتوقفوا ثم تفرقوا وخاطبوه بالصلح فلم يجبهم وتركوا عند حصن الاكراد من يحميه وعادوا الى بلادهم .

ولما أصيب نور الدين يوم البقيعة استنجد أصحاب الموصل وماردين والحصن وذكر لهم ما تم عليه فأنجدوه بجيوش ضخمة وكانت سنة ٥٥٩ كلها فتوحاً نافعة كان فيها مبدأ سعادة نور الدين ، فتح فيها حارم وقتل بالقرب منها عشرة آلاف وأسر الوفاً ومن جملتهم صاحب انطاكية والقومس صاحب طرابلس والدوك مقدم الروم وكثر الاسرى من الفرنج حتى بيع الواحد بدينار ثم فاداهم نور الدين . وكان قد استفتى الفقهاء فاختلفوا فقال قوم: يقتل الجميع وقال آخرون: يفادى بهم . فمال نور الدين الى الفداء فأخذ منهم ستمائة الف دينار معجلاً وخيلاً وسلاحاً وغير ذلك . فكان نور الدين يحلف بالله ان جميع ما بناه من المدارس والرُبط والمارستانات وغيرها من هذه المفاداة وجميع ما وقفه منها وليس فيها من بيت المال درهم واحد .

قال المؤرخون: وكان الصليبيون جاؤا لنجدة حارم «في حدهم وحديدهم وملوكهم وفرسانهم وقسوسهم ورهبانهم» ووضع نور الدين في حارم سطلين كانا يوقدان طول الليل لدلالة أسرى المسلمين الهاربين اليها من ارض الصليبيين . وكان الصليبيون استولوا على حارم سنة ٤٩١ وزادوا في تحصينها وجعلوها ملجأ لهم اذا شنوا الغارات فحاصرها نور الدين سنة ٥٥١ ثم سنة ٥٥٧ ثم فتحها هذه السنة ، وكانت قلعة حصينة في نحور المسلمين . وفي هذه السنة (٥٥٩) فتح نور الدين قلعة بانياس بعد عوده من حارم، وكان الفرنج والارمن على حارم ثلاثين الفاً ووقع بيمند في أسره و باعه نفسه بمال عظيم انفقه في الجهاد .

* * *

حملة نورالدين على مصر

فتح نور الدين تلك الفتوح ورايته منصورة وسطوته محذورة ، استصفى من ضعاف امراء المسلمين ما اتصل اليهم بالارث من البلاد فنزلوا له عنها طوعًا او كرهًا ، واقتصد في اهراق دماء المسلمين وأسرف في ازهاق أرواح الصليبيين واسترجع من الاعداء مدناً وحصوناً مهمة جعلت أماراتهم الثلاث الباقية تهتز أعصابها وتخاف بأس حملاته وغزواته ولم يخامرهم شك وهم يستنشئون أخباره انهم ابتلوا برجل وحّد قوى الشام وجمع القلوب ووجهها الى وجهة معينة : قتال الصليبيين واسترجاع القطر منهم ·

ولما تمّ له هذا وقع خلاف في مصر بين شاور وضرغام من وزرائها (٥٥٩) وكانت غدت الوزارة في دولة الفاطميين أشبه بالوزارة في دولة العباسيين يتولاها من يستطيع ان يستجيش له أنصاراً وأعواناً ولما استلب ضرغام من شاور وزارته وعجز في مصر عن مقاومته لحق بنور الدين صاحب الشام ليعينه على خصمه باذلاً له ثلث أموال مصر بعد رزق جندها ان هو أعاده الى الوزارة · فرأى نور الدين ان معاونة الوزير المستنجد به لا تخلو من فائدة عظيمة أقلها انها تفتح له سبباً الى التدخل في شؤون مصر ربما أعقب استيلاءه عليها وضمها الى مملكته او تقاضي ما وعد به شاور من الاموال ينفقها في وجوه المصالح والمرافق في الدولة · فارسال حملة على مصر محسوسة الفائدة لنور الدين بل للاسلام من عدة أبواب :

اقتضى رأي نور الدين بعد تدبّر امر مصر ان يندب لها رجلاً من أعظم رجاله دهاءً وحنكة ، فأرسل أسد الدين شيركوه بن شادي واصحبه بابن اخيه صلاح الدين يوسف وكانت كفاية هذا أخذت تبدو لرجال الدولة واستخصه نور الدين « والحقه بخواصه فكان لا يفارقه في سفر ولا حضر » وكان في تلك السنة شحنة دمشق فأخاف اللصوص وقضى على نائرة الفتن وفي تلك الفتن قال عرقلة الشاعر :

ذر الاتراك والعربا ... وكن في حزب من غلبا
بجلّق أصبحت فتن ... تجر الويل والحربا
لئن تمت فوا أسفا ... وان تخرب فوا عجبا

نهبت الحملة الى مصر وأعاد اسد الدين شيركوه الوزير شاوراً الى وزارة

العاضد العلوي ولما قبض على زمام الوزارة لم يف لنورالدين بشيء مما شرط على نفسه فشق ذلك على اسد الدين وسار فاستولى على بلبيس والشرقية فأرسل شاور واستنجد بالفرنج على اخراج اسد الدين شيركوه من الديار المصرية فسار الفرنج واجتمع معهم شاور بعسكر مصر وحصروا شيركوه ببلبيس ثلاثة اشهر . و بلغ الفرنج ما أصابه نور الدين في الشام من التوفيق وانه اخذ حارم فراسلوا شيركوه في الصلح وفتحوا له فخرج من بلبيس بمن معه من العسكر وسار بهم ووصلوا الى الشام سالمين .

هذا ما كان من مبدإ دخول الجند النوري الى مصر فقد لقي الالاقي ولكنه تعرف قائدهم امراضها وخللها واطلع على مداخلها ومخارجها ، فكان انجاد نور الدين شاوراً واستنجاد هذا بالفرنج درساً نافعاً لدولة نور الدين ادركت به كل الادراك انه لا سبيل الى انقاذ الشام الا بالاستيلاء على مصر خصوصاً والفاطميون كانوا يخافون الفرنج خوفاً شديداً ولا يطيقون مقاتلتهم كما قال مجير الدين . كان هذا ايام كان لهم شيء من السلطان على النفوس وقوة على التناحر والتغاور فما بالك بهم وقد دب الضعف في كيان دولتهم وعبث العابثون بعزتها ومنعتها . والا كان نصيب خطته المرسومة في قتال الصليبيين عقيماً ، لان الروح الخبيث سرت لصغار الامراء من المسلمين في الاعتصام باعدائهم اذا ضاقت بهم حالهم واتاهم سلطان أعظم من سلطانهم ، ولئن كانت الشام قد تطهرت من جراثيم هؤلاء العمال بفضل الدولة النورية ولكن مصر اذا استهانت بمقدساتها ايضاً يصبح البقاء في الشام خطراً دائماً .

وبينما كان نورالدين يحرّق الأرّم على شاور وفي نفسه منه حزازات لانه لم يف له بما وعده واستعان على قتال جيشه بالصليبيين عاد شاور على عادته يظلم ويقتل ويصادر ولم يبق للعاضد معه امر ولا نهي فبعث يستنجد بنور الدين على شاور فما عتم نور الدين ان جهز اسد الدين شيركوه ثانية (٥٦٢) الى مصر بعسكر جيد عدتهم الفا فارس وامر ايضاً ان يخرج معه ابن اخيه صلاح الدين يوسف الى مصر فامتنع صلاح الدين وقال : يا مولانا يكفي مالقينا من الشدائد . فقال : لا بدّ من خروجك فما امكنه مخالفة نور الدين . وكان في ذهاب صلاح الدين الى مصر سعادته وسعادة امته اذ فتح مصر واصبح بعد ذلك ملك مصر والشام على ما سنلم به في

الصفحات المقبلة . قال المؤرخون : أحب نور الدين مسير صلاح الدين الى مصر وفيه ذهاب الملك من بيته وكره صلاح الدين المسير وفيه سعادته وملكه : ورب زارع لنفسه حاصد سواه . فاستولى اسد الدين على الجيزة وارسل شاور الى الفرنج واستنجدهم فساروا في أثر شيركوه الى جهة الصعيد فهزمهم واستولى شيركوه على بلاد الجيزة واستغلها ثم سار الى الاسكندرية وملكها .

وجعل اسد الدين ابن اخيه صلاح الدين يوسف بن ايوب في الاسكندرية وعاد الى الصعيد فاجتمع عسكر مصر والفرنج وحصروا صلاح الدين بالاسكندرية مدة ثلاثة اشهر ، فسار شيركوه اليهم فاتفقوا على الصلح على مال يحملونه الى شيركوه ويسلم اليهم الاسكندرية ويعود الى الشام ، فتسلم المصريون الاسكندرية وعاد شيركوه الى دمشق ، واستقر الصلح بين الفرنج والمصريين على ان يكون للفرنج بالقاهرة شحنة وتكون ابوابها بيد فرسانهم ، ويكون لهم من دخل مصر كل سنة مائة الف دينار .

ولكن الحال في مصر لم يسر سيراً حسناً لان الفرنج لم يخلصوا لمصر ، ومن الخطإ الفاحش استنجاد شاور وزيرها بهم واستعانته بهم على اخراج قائد نورالدين اسدالدين شيركوه منها فارسل الخليفة العاضد يستغيث بنور الدين (٥٦٤) ثانية وكان الفرنج ملكوا بلبيس وحصروا القاهرة ، فاحرق شاور مصر لئلا يملكها الفرنج وامر اهلها بالانتقال الى القاهرة وبقيت النار تحرقها اربعة وخمسين يوماً ، وصانع شاور الفرنج على الف الف دينار .

ولما قارب شيركوه مصر للمرة الثالثة هرب الفرنج وخلع عليه العاضد واجرى عليه الاقامات وماطله شاور فيما كان بذل لنور الدين من تقرير المال وافراد ثلث مال مصر ، وعزم شاور ان يقبض على شيركوه فقبض العسكر النوري عليه وقتل ، ودخل شيركوه القصر فخلع العاضد عليه خلع الوزارة ولقبه الملك المنصور اميرالجيوش وتولى شيركوه الامر شهرين وخمسة ايام ثم هلك فاحضر العاضد صلاح الدين وولاه الوزارة ولقبه بالملك الناصر ، وثبتت قدم صلاح الدين بمصر على انه نائب نورالدين ،

وتمكن منها وضعف امر العاضد فكان لايجري في القصر صغيرة ولا كبيرة الا بامر صلاح الدين ، واصبح يدعى له على منابر مصر بعد نور الدين .

* * *

بعض غزوات نور الدين

ولم يغفل نور الدين في غضون ذلك عن الاثخان في الفرنج وارهاف الحد لقتالهم ، وقويت عزيمته بعد ان اخذ حارم وبانياس (٥٥٩) على التقدم في فتوحه وكان كلما طالت ايامه ايقن ان القوة القليلة المنظمة افعل من القوة الكبيرة المبعثرة . ولم ينغصه في عمله سوى مقاومة احد اخوته امير ميران له حتى اضطره الى حربه فمضى اخوه امير ميران الى صاحب الروم وعفا عنه نور الدين كأن السعادة التي اقبلت على هذا الناج من كل وجه ابت الطبيعة الا ان تكدرها عليه بمشاكسة احد اخوته له وكان بالامس لما أرجف بموت نور الدين في حلب قام يطالب بمملكة اخيه فحاربه واليوم يحمل اخاه على دفع عاديته ثم يتجاوز عما بدر من سيئاته .

وفي سنة ٥٦١ فتح نور الدين حصن المنيطرة وخرب قلعة اكاف في البرية وفتح العريمة وصافيتا وحصر حلبة وخربها وحاصر عرقة وعصا عليه غازي بن حسان صاحب منبج فاعطاه الرقة . واجتمع باخويه (٥٦٢) قطب الدين وزين الدين بجماعة الغزاة وساروا الى بلاد الفرنج فخربوا هونين .

وفي سنة ٥٦٥ سارت الفرنج الى دمياط وحصروها خمسين يومًا وشحنها صلاح الدين بالرجال والسلاح والذخائر وغرم على ذلك اموالاً عظيمة وخرج نور الدين فاغار على بلادهم بالشام فرحلوا عائدين على اعقابهم ولم يظفروا بشيء منها . وفيها سار نور الدين الى الكرك وحاصرها فجمع ملوك الساحل فجاؤه فتأخر الى البلقاء وقال بعضهم : ان الفرنج اغاروا على ناحية رواد في حوران وهم في جمع غلبت كثرته الخبر والعيان ، ونزلوا في قرية شمسكين فركب نور الدين وهو نازل بالكسوة ثم نزلوا بالشلالة ونزل نور الدين في عشترا وبينا هو في البلقاء حدثت زلزلة هائلة في الشام فخربت معظم اسوار الحصون ففرق عساكره في القلاع خوفًا عليها من العدو وكانت قلاعهم المجاورة لبعرين وحصن الاكراد وصافيتا وعريمة وعرقة في بحر

من الزلازل غرقى ولا سيما حصن الاكراد ، فانه لم يبق له سور واغارت سرية لنور الدين (٥٦٥) في بعلبك فانهزم الفرنج وعمهم القتل والاسر لم يفلت منهم الا من لا يعتد به وقتل فيمن قتل رأس مقدم الاسبتار صاحب حصن الاكراد وكان من الشجاعة بمحل كبير وشجى في حلوق المسلمين ·

وغزا صلاح الدين (٥٦٦) الفرنج قرب عسقلان وعاد الى مصر ثم حصر أيلة في العقبة المصرية بحراً وبراً وفتحها · وغزا عرقة (٥٦٧) وفتحها وغنم الناس غنيمة عظيمة · واستولى على صافيتا وعريمة عنوة ، وقارب طرابلس وهو ينهب ويخرب ويحرق ويقتل وفعل جيشه في جهة انطاكية مثل ذلك ، فراجعه الفرنج وبذلوا له جميع ما اخذوه من المركبين اللذين خرجا هذه السنة من مصر الى اللاذقية واخذهما الفرنج وهما مملوءآن من الامتعة والتجارة ، وكان بينهم وبين نور الدين هدنة فنكثوا وغدروا فلما خربت بلادهم اذعنوا ·

* * *

قيام بني شهاب من حوران وحربهم الصليبيين

وفي سنة ٥٦٨ كان قيام آل شهاب من حوران الى وادي التيم قال الشهابي : وكان الكبير منهم في ذلك الوقت الامير منقذ ، ولما عزموا على القيام جمع الامير منقذ الامراء من بيت شهاب ووجوه القبيلة وقال لهم انتم تفهمون النفور الكائن بين السلطان نور الدين سلطان الديار الشامية والحلبية والسلطان صلاح الدين سلطان الديار المصرية ولا بد ان السلطان نور الدين يتم ما ينوي عليه وقد دس العساكر في حوران وتعلمون ما لنا عند السلطان صلاح الدين من المحبة والمنزلة الرفيعة وانا أرى انه يلزم علينا القيام من حوران قبل ظهور حال من تلك الاحوال ، فلما سمع الحاضرون ما قاله الامير منقذ قالوا له : هذا هو الصواب وليس فينا احد يخالف مقالك ، ثم عزموا على القيام وشدوا ظعونهم وحملوا احمالهم ، ورحلوا من حوران بعشائرهم وقصدوا غربي الديار الشامية ونزلوا حذاء الجسر اليعقوبي ·

ولما سمع السلطان نور الدين بقيام آل شهاب من حوران ارسل يسألهم عن السبب الداعي لقيامهم ، وارسل لهم الخلع والعطايا النفيسة ، وطلب منهم ان يرجعوا

الى اوطانهم آمنين ، فأبوا الرجوع بسبب خراب بلادهم ، وان يسمح لهم بالذهاب الى مكان آخر فسمح لهم بذلك ، فنزلوا في وادي التيم وكان نزولهم في ابتداء الظهر الاحمر من الكنيسة الى الجديدة وكانوا في خمسة عشر الفاً والبلاد التي نزلوها تحت استيلاء الفرنج فلما سمع هؤلاء بنزول آل شهاب جيشوا عليهم نحو خمسين الفاً بين فارس وراجل وكان بطريقهم الكبير يقال له قنطورا استمد من صاحب قلعة الشقيف فامده بخمسة عشر الفاً فالتقوا مع عسكر الفرنج ودام القتال ثلاثة ايام قتل من الفرنج ثلاثة آلاف ومن آل شهاب ثلاثمائة ونقب بنو شهاب حيطان قلعة حاصبيا مدة عشرة ايام واخذوا قنطورا وجماعته وكانوا ثلاثمائة وقتلوهم وارسلوا رؤوسهم الى نور الدين فسر كل السرور واعطى البلاد لآل شهاب ملكاً لهم . ولما سمع صاحب قلعة الشقيف ماحل بالفرنج في حاصبيا ارسل للامير منقذ يطلب منه الصلح وكان في ذلك الوقت الامير يونس المعني بن الامير معن حاكماً على جبل الشوف فجاء وهنأ الامير منقذاً في وادي التيم .

وهكذا ادى بنو شهاب خدمة عظيمة للبلاد قاموا لما شعروا بجفاء بين السلطانين نور الدين وصلاح الدين والغالب ان صلاح الدين كان استمال قلوب رؤسائهم حتى لا يسهلوا لنورالدين طريق الحملة على صلاح الدين في مصر فلما رأوا انهم لا قبل لهم بنور الدين عرجوا على وادي التيم فكان في ذلك خيرهم وخير دمشق خاصة لانهم وقفوا في غربها وقفة محمودة وردوا عنها عادية الصليبيين .

* * *

الفتور بين نور الدين وصلاح الدين | قلنا حدث جفاء بين السلطانين والسبب فيه انه لما قويت سلطة صلاح الدين في مصر وولي ملكها بعد مهلك عمه اسد الدين شيركوه واصبح الآمر الناهي ارسل نورالدين اليه يأمره بقطع الخطبة العلوية واقامة الخطبة العباسية ، فراجعه صلاح الدين في ذلك خوف الفتنة ، فلم يلتفت نور الدين الى ذلك واصر عليه فامر صلاح الدين الخطباء ان يخطبوا للمستضيء العباسي فامتثلوا ، وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه احد من اهله بقطع خطبته ولما هلك جلس صلاح الدين للعزاء واستولى على قصر الخلافة وعلى جميع ما فيه

وكان شيئاً كثيراً جداً فقويت بذلك شوكته واصبح ملك مصر حقاً وصدقاً :

قل للملوك تنحوا عن ممالككم فقد اتى آخذ الدنيا ومعطيها

وضيق على آل الخليفة الفاطمي حتى لا يتطال احدهم لدعوى الخلافة بعد العاضد واستدعى من الشام اباه واخوته وكان نور الدين مع هذا لايخاطبه توا بل يخاطب امراءه بمصر ومن جملتهم صلاح الدين ولقد توطد ملك مصر لصلاح الدين والخطبة له فيها بعد نور الدين يدعى لهذا بعد الخليفة العباسي وكلما مضى شهر يزداد نورالدين استيحاشاً من صلاح الدين مع ان صلاح الدين سد ابواب الشك على نور الدين ، فقام بجميع رسوم التعظيم له وكان معه كقائد مع سلطانه ، وكان صلاح الدين نازل الشوبك وهي للفرنج ثم رحل عنه خوفاً ان يأخذه نور الدين واعتذر بانه ربما نشبت الفتنة في تغيبه عن مصر ودعا دعاة العبيديين الى ارجاع دولتهم ٠

ولما جاء نور الدين الكرك من قابل وحصرها (٥٦٨) كان قد واعد نورالدين ان يجتمعا على الكرك وسار نور الدين من دمشق حتى وصل الى الرقيم وهو بالقرب من الكرك نخاف صلاح الدين من الاجتماع بنور الدين واعتذر بمرض ابيه وانه يخشى ان يموت فتذهب مصر فقبل نور الدين عذره في الظاهر وفي الواقع ان ايوباً والد صلاح الدين قضى نحبه في تلك المدة ٠ ولكن كان في نفس كل من نور الدين وصلاح الدين شيء على صاحبه فلم يخرج صلاح الدين بعساكره الى الشام لحصار الكرك والشوبك ونهب اعمالها الا لما ايقن ان نور الدين ابتعد في سمت الشمال وقصد بلاد قليج أرسلان ملك الروم لفتح مرعش وبهسنى حتى لا يجتمع به ٠ والسبب الذي دعا صلاح الدين الى حصار الكرك والشوبك وقتل بعض العربان ونهب ديارهم هناك ان جماعة من العرب النازلين بارض الكرك كانوا ينقلون الاخبار الى الفرنج واذا أغاروا على البلد دلوهم على مقاتل المسلمين في بلادهم ٠ وكان الكرك والشوبك طريق الديار المصرية وكان اهلها يغيرون على القوافل منها فقصد تسهيل الطريق لتتصل البلاد بعضها ببعض ٠

وكان صلاح الدين منذ تأيد سلطانه في مصر يخاف وآله من نور الدين وكان استقدمهم اليه فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر فاذا قصدهم نور الدين في

مصر فاتلوه ، فان هزمهم التجأوا الى تلك المملكة ، فجهز صلاح الدين أخاه توران شاه الى النوبة فلم تعجبهم بلادها ثم سيره بعسكر الى اليمن ففتحها واستقرت بلاد اليمن في ملك صلاح الدين يخطب فيها للخليفة العباسي ثم لنور الدين ثم لصلاح الدين على ان صلاح الدين لم يستطع ارسال العسكر من مصر لاول مرة الا بعد استئذان نور الدين . فهذا وغيره من الاسباب التي أقلقت نور الدين على ملكه وحاذر ان تكون عاقبة هذا الادب والخضوع اخذ ملكه منه او انشاء صلاح الدين لمملكة جديدة اعظم واغنى من مملكة نور الدين القديمة .

* * *

وفاة نور الدين وصفاته الطيبة

بينا صلاح الدين يحاذر من نور الدين وهذا يتجهز للدخول الى مصر لاخذها اتى نور الدين اليقين ومملكته الحقيقية لم تتعد الشام والجزيرة وخطب له بمصر واليمن والحرمين ، ففرق الموت شمل من كان يتخوف احدهما من صاحبه ، وبكت الامة الملك العادل نور الدين ابا القاسم محمود ابن عماد الدين اتابك لما ظهر من عدله وحسن سيرته بحيث قلّ في الملوك الغابرين امثاله . قال ابن الاثير : قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الاسلام وفيه الى يومنا هذا فلم ار بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز احسن سيرة من الملك العادل نور الدين ، ولا اكثر تحرياً للعدل والانصاف منه ، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره ، وجهاد يتجهز له ، ومظلمة يزيلها ، وعبادة يقوم بها ، واحسان يوليه ، وانعام يسديه ، فلو كان في امة لافتخرت به فكيف ببيت واحد ، اما زهده وعبادته وعلمه فانه كان مع سعة ملكه وكثرة ذخائر بلاده واموالها ، لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه الا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ومن الاموال المرصدة لمصالح المسلمين . احضر الفقهاء واستفتاهم في اخذ ما يحل له من ذلك فأخذ ما افتوه بحله ولم يتعده الى غيره البتة . واسقط كل ما يدخل في شبهة الحرام فما بقي سوى الجزية والخراج وما يحصل من قسمة الغلات وكتب اكثر من الف منشور بذلك . واطلق المظالم بحلب ودمشق وحمص وغيرها واسقط من دواوينه عن المسافرين الضرائب والمكوس وحرمها على كل متطاول اليها فكان مبلغ ما سامح به

في حلب وما اليها فقط في السنة ١٥٦ الف دينار وما وقفه وتصدق به مائتي الف دينار وتقدير الحاصل من ارتفاعه في كل سنة ثلاثون الف دينار ، واقطع امراء العرب لئلا يتعرضوا للحاج وجدد قني السبل ووقف الكتب الكثيرة ، واجرى على العلماء والقراء . ولقد رأى اصحابه على ما روى ابن الاثير كثرة خرجه فقال له احدهم ان لك في بلادك ادرارات وصدقات كثيرة على الفقهاء والفقراء والصوفية والقراء فلو استعنت بها في هذا الوقت لكان اصلح فغضب من ذلك وقال : والله اني لا ارجو النصر الا باولئك فانما انتم ترزقون وتنصرون بضعفائكم . كيف اقطع صلات قوم يقاتلون عني وانا نائم على فراشي بسهام لا تخطئ واصرفها الى من لا يقاتل عني الا اذا رآني بسهام قد تصيب وقد تخطئ . وهؤلاء القوم لهم نصيب في بيت المال كيف يحل لي ان اعطيه غيرهم . واحزم الناس من اذا وضح له الامر صدع به .

وكان يأخذ مال الفداء ويعمر به الجوامع والبيمارستانات واخذ من احد ملوك الفرنج ثلاثمائة الف دينار وشرط عليه ان لا يغير على بلاد الاسلام سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة ايام وأخذ منه رهائن على ذلك وبنى بالمال المستشفى النوري بدمشق ، ولما بلغ الملك الفرنجي مأمنه هلك . وكان يبعث بما يصل اليه من هدايا وغيرها الى القاضي يبيعه ويعمر به المساجد المهجورة ولا يتناول منه شيئاً ، وامر باحصاء مساجد دمشق فأحصيت فكانت مائة مسجد فأوقف الاوقاف على جميعها وكانت وقوفه في الشام سنة وفاته ١٠٨ آلاف دينار صورية ليس فيها ملك فيه كلام بل حق ثابت بالشرع باطناً وظاهراً صحيح الشراء . وكان آية الرحمة على الفقراء والعدل في الرعية غضيضة عن الشر عينه ثقيلة عن الباطل قدمه . حضر جماعة من التجار عنده وشكوا ان القراطيس كان ستون منها بدينار وتزيد وتنقص فيخسرون ، فسأل الملك العادل عن كيفية الحال ، فذكروا ان عقد المعاملة على اسم الدينار ولا يرى الدينار في الوسط وانما يعدون الى القراطيس بالسعر تارة ستين بدينار وتارة سبعة وستين بدينار ، وأشار كل واحد من الحاضرين على نور الدين ان يضرب الدينار باسمه وتكون المعاملة بالدنانير الملكية وتبطل القراطيس بالكلية ، فسكت ساعة وقال : اذا ضربت الدينار وابطلت المعاملة بالقراطيس فكأني ضربت بيوت الرعية . فان كل

واحد من السوقة عنده عشرة آلاف وعشرون الف قرطاس ، اي شيء يعمل به فيكون سبباً لخراب بيته ٠

قالوا والحق ما قالوا ان نور الدين جدد للملوك اتباع سنة العدل والانصاف ، وترك المحرمات وعاقب من يأتيها ، فانهم كانوا قبل ذلك كالجاهلية همة احدهم بطنه وفرجه ، لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً ، حتى جاء الله بدولته فكانت مصباح الحق ومنار العدل وقف مع اوامر الشرع ونواهيه ، وألزم بذلك اتباعه وذويه فاقتدى به غيره منهم ، وكان يروي الحديث ويُرويه ، وقد ألف كتاباً في الجهاد ، وكان يباشر الاشراف على خيل الجند وسلاحهم بنفسه ، ولا يتكل على قواده ، ولا يقطع امراً قبل ان يستأذن الخليفة ببغداد ٠ وكان في السياسة والدهاء على جانب عظيم ، تجلى ذلك يوم خيانة مجير الدين صاحب دمشق ولما اخذه اغضى عنه ، وكان يكره اهراق الدماء والحرب على غير طائل ، مع شجاعة ليس بعدها مزيد ومعرفة بالرماية تضرب بها الامثال ، ومن جيد الرأي ماسلكه مع مليح بن ليون ملك الارمن صاحب الدروب فانه ما زال يخدعه ويستميله حتى جعله في خدمته سفراً وحضراً ، وكان يقاتل به الفرنج ويقول : انما حملني على استمالته ان بلاده حصينة وعرة المسالك ، وقلاعه منيعة وليس لنا اليها طريق ، وهو يخرج منها اذا اراد فينال من الاسلام ، فاذا طلب انحجز فيها فلا يقدر عليه ، فلما رأيت الحال هكذا بذلت له شيئاً من الاقطاع على سبيل التألف حتى أجاب الى طاعتنا وخدمتنا وساعدنا على الفرنج ٠ وكان متملك الروم خرج من قسطنطينية وتوجه الى الشام طامعاً في تسلم انطاكية فشغله عن مرامه بالمراسلة الى ان وصل اخوه قطب الدين في جنده من المواصلة وجمع له الجيوش والعساكر ، فايس الرومي من بلوغ ما كان يرجو وتمنى منه الصلح فاستقر رجوعه الى بلاده ٠

وقال مترجموه انه كان يكثر اعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج واكثر ما ملكه من بلادهم به ، اما اعماله في رد المظالم وتخفيف المغارم فسيرته فيها سيرة عمرية ٠ واما انشاؤه المدارس والجوامع وعمارة الطرق والجسور ودور المرضى والبائسين والخانات فمما لم يسبق اليه ، فأقام الابراج على الطرق بين المسلمين والفرنج

جعل فيها من يحفظهـا ومعهم الطيور الهوادي اي الزاجل فاذا رأوا من العدو احداً ارسلوا الطيور فأخذ الناس حذرهم واحتاطوا لانفسهم ، وبنى مكاتب للايتام واجرى عليها وعليهم وعلى معلميهم الجرايات الوافرة فصارت الشـام بعد خلوها من العلم واهله مقر العلم ومباءة الفقه .

هذا حال ملك القرون الوسطى وحسن بلائه في خدمة بلاده وهو يقاتل الاعداء في الغرب والجنوب ، وقد فتح نيفاً وخمسين حصناً واقام المعـالم وهو مشتغل بحفظ الاوطان ، لم يدخل اليأس على نفسه ولم يخامره الشك بان العاقبة المحمودة تكون له ولامته ، وانه سيظهر على عدوه فيدفعه عن حماه . هذا وملكه في الشام لم تتجاوز مدته السعيدة اربعاً وعشرين سنة . لا جرم ان ظهور بني زنكي نعمة أنعمت بها الاقدار على هذه الديار ، فخرجت بها من انقسام الكلمة وتشتت الاهواء والآراء ، ومن خيانة الملوك والامراء ، والاعتضاد بالمحاربين من الاعداء الى تماسك وتعاضد ، ومن ظلمة الجهل والغرور الى ضياء العلم والنور ، ومن سلب اموال الامة الى امتاعها بالعدل الشامل والأمن الكامل . بسقت فروعها في ايسر زمن واحرج العصور ، فخطب الناس ودّها في كل مكان وودوا لو كان لها الحكم عليهم ، ورجا اولياؤها ان تطول ايامها لانها لا تسوق الناس الا الى طرق فلاحهم وسعادتهم .

الدولة الصلاحية

من سنة ٥٦٩ الى سنة ٥٨٩

اولية صلاح الدين والملك الصالح

توفي نور الدين محمود بن زنكي وكان له السلطان الاكبر على القلوب تحبه رعيته ويخافه اعداؤه ويحترمونه بعدله وسيرته وجميل سياسته وادارته ، وطد اساس ملكه ووحد كلمة الشام ومصر والجزيرة وانشأ عظماء في دولته كانوا ساعده الايمن وعضده الاقوى ففتحوا الفتوح باسمه ويمن نقيبته ، وصدروا كلهم عن رأيه ومشورته ، ومن اعظمهم بل اعظمهم صلاح الدين يوسف بن نجم الدين ايوب · واصل صلاح الدين من دوين بلدة في آخر عمل أذربيجان من جهة ايران وبلاد الكرج وهم اكراد زوادية وهي قبيلة كبيرة تعد من اشراف الاكراد وانتقل اهله من هناك الى العراق ثم عين نجم الدين ايوب والد صلاح الدين محافظاً لقلعة تكريت وفيها ولد ابنه هذا وكان نجم الدين ايوب بن شادي حسن الخلق عادلاً شجاعاً كريماً ديناً محسناً ربي في الموصل ونشأ شجاعاً باسلاً وخدم السلطان محمد بن ملكشاه السلجوقي ، فرأى منه امانةً وعقلاً وسداداً وشهامة ، فولاه قلعة تكريت فقام في ولايتها احسن قيام ، حتى عمرت ارضها وأمنت سبلها ، ثم اضيفت اليه ولايتها وكان نجم الدين عظيماً في انفس الناس بالدين والخير وحسن السياسة واتصل بنور الدين محمود فكان من جملة قواده ونوابه على بلاده ·وهذا الرجل العظيم هو الذي اولد رجلاً اعظم وهو صلاح الدين ·

وكأن الزمن العصيب الذي ظهر فيه ظهير الدين ثم نور الدين ثم صلاح الدين كان يتطلب ملوكاً كفاة اثبتوا بالعمل المحسوس مقدرتهم السياسية والحربية وابرزوا من آثار نجدتهم وجلادتهم ما تطأطئ امامه الرؤوس فلا يصفق الناس لهم زوراً ورياءً ولا يدعون لهم على المنابر بما لا يقبل ولا يسمع ان لم يكن بين جنوبهم نفوس عالية ممتازة قلّ في طبقة قواد الامم مثلها . ولم يبق في الحقيقة بعد نور الدين من يصلح لهذا الامر مثل صلاح الدين لانه انبغ رجاله واكبرهم مقاماً وشأناً واقربهم الى قلوب الامة ، وهو مالك مصر حقيقة لا صورة ، ومن ملك مصر كان حرياً بان يملك الشام خصوصاً والشام يحبه لما بدا من غنائه ومضائه في نصرة الملة والدولة .

ولكن نور الدين قد خلف ولداً وبموجب قانون الوراثة في الملوك في تلك الاعصر يرث الابن ملك ابيه كما يرث قصره ومزرعته مهما كانت سنه ، ويتولى رجال الدولة امره ويكفله من يعطفون على دولته ومن غذوا بنعمة ابيه وآله ، بيد ان الحالة السياسية في الشام ومصر وما اليهما من الممالك كانت بحيث يقتضي الشذوذ عن هذه القاعدة ولو الى حين ، فيوسد الملك الى من استجمعت اشخاصهم الكفاءة قبل كل شيء لتخرج البلاد من مأزقها الحرج مع الصليبيين ، وهذا لا يتيسر ان ينهض به ولد يافع بلغ من العمر احدى عشرة سنة ، ونعني به ابن نور الدين الملك الصالح اسماعيل . فانظر كيف تصرفت الاقدار بما فيه خير البلاد ، ولم تترك مصالحها الحافزة للاصول السخيفة في توسيد الملك للكبير والصغير على السواء .

توفي في دمشق نور الدين في سنة ٥٦٩ وبالحال ملك ابنه الصالح اسماعيل وحلف له العسكر بدمشق واطاعه صلاح الدين وخطب له بمصر وضرب السكة باسمه ، ودبر دولته شمس الدين بن المقدم من اعظم امراء ابيه ، واستولى سيف الدين غازي شقيق نور الدين محمود على البلاد الجزرية وهي لنور الدين وكان صلاح الدين في مصر ، فجعل الملك للملك الفتى كما كان لابيه من قبل . بيد انه من المتعذر ادارة البلاد في ذاك العصر اذا لم يحكمها رجل عظيم استوفى عامة شروط الحكم ، فيصدر عن رأي واحد بمحضه اولاً بمشورة رجال دولته ويكون هو المرجع فيه والمسؤول عنه ، يهتم للملكه اهتمامه بابنه وابنته وهل يتيسر ذلك اذا تشعبت الآراء . وكان

صاحب الملك الرسمي قاصراً واوصياؤه يدبرونه وربما كان فيهم من تطمح نفسه الى الاستئثار بالسلطة ، ومتى كان الوكيل كالأصيل ، والمتنفل كالمكلف :

مالك لم يدبرها مدبرها الا برأي خصي او بعقل صبي

* * *

اختلاف الآراء ومبدأ استيلاء صلاح الدين على الشام

ولما بدأت نواجذ الاختلاف تبدو بين الامراء في الشام شعر صلاح الدين وهو بمصر ان هـذا الفراغ الذي حدث بموت نور الدين يستلزم ان يملأه رجل تجمع القلوب على حبه ، وان يصل السلسلة المقطوعة بمهلكه والا انفرط العقد كله ، وتصبح البلاد فوضى وتفتح أبوابها على مصاريعها لدخول الدخلاء يستصفون المملكة كلها ، وتصبح بالشقاق الداخلي أبشع صورة مما كانت على عهد أواخر الدولة الاتابكيـة أخلاف الأتابك ظهير الدين .

واتفق نزول الفرنج بعد وفاة نور الدين على الثغر وقصدهم بانيـاس فخرج اليهم شمس الدين بن المقدم وراسل الفرنج وخوفهم بقصد صلاح الدين لبلادهم وقال لهم : انتم تعلمون ان صلاح الدين كان يخاف ان يجتمع بنور الدين ، والآن فقد زال ذلك الخوف واذا طلبناه الى بلادكم لا يمتنع ، فعلموا صدقه وصالحوه ، وتكلموا في الهدنة وحصلوا بقطيعة (بخراج) استعجلوها واستطلقوا عدة من اسارائهم وتمت المصالحة . وفي تهديد ابن المقدم للفرنج بصلاح الدين أعظم دليل على مكانته في قلوب رجال الدولة وان الصليبيين عرفوا انهم ابتلوا بداهية لا يقل عن نور الدين بحسن تدبيره وشجاعته .

فبلغ صـلاح الدين ما تم بين ابن المقدم والفرنج فأنكره ولم يعجبه ، وكتب الى جماعة الاعيان كتاباً يقرعهم فيـه ويلومهم ، ويقول : انه تجهز وخرج وسار اربع مراحل ثم جاءه الخبر بالهدنة المؤذنة بذل الاسلام فعاد الى مقره . وقـد « استصغر امر اهل الشام وعلم ضعفهم » وقال : « ان استمرت ولاية هؤلاء تفرقت الكلمة المجتمعة ، وضاقت المناهج المتسعة ، وانفردت مصر عن الشـام » . قال ابن شداد : لما تحقق صلاح الدين وفاة نور الدين وكون ولده طفلاً لا ينهض باعباء الملك ، ولا يستقل بدفع العدو عن البلاد تجهز للخروج الى الشام اذ هو أجلّ بلاد الاسلام .

وقد كان صلاح الدين ينوي ان يتولى تربية ابن مخدومه نور الدين وكتب : « ان الوفاء انما يكون بعد الوفاة ، والمحبة انما تظهر آثارها عند تكاثر اطماع العداة » . ولكن الامراء في الشام اخذ كل منهم يعمل على شاكلته ، ويريد ان يستأثر بالامر دونه وهو أحق منهم وأولى .

ثم ان شمس الدين بن الداية مقدم العساكر المقيم بحلب ورضيع نور الدين واكبر امرائه أرسل سعد الدين كمشتكين الى دمشق يستدعي الى حلب الملك الصالح بن نور الدين ليكون مقامه بها ، ولما استقر بحلب وتمكن كمشتكين قبض على شمس الدين ابن الداية واخوته وقبض الرئيس بن الخشاب واخوته ، واستبد سعد الدين بتدبير الملك الصالح مخافة ابن المقدم وغيره من الامراء الذين بدمشق ، وكاتبوا صلاح الدين في مصر واستدعوه ليملكوه عليهم (٥٧٠) فسار صلاح الدين جريدة في سبعمائة فارس فوصل الى بصرى وكان صاحبها يستحثه على القدوم ، ولما بلغ دمشق خرج كل من كان بها من العسكر والنقوه وخدموه ، وعصت عليه القلعة وكان فيها من جهة الملك الصالح خادم اسمه ريحان فراسله صلاح الدين واستماله فسلم القلعة اليه ، فصعد اليها صلاح الدين وأخذ ما فيها من الاموال . ثم كتب الى الملك الصالح بن نور الدين كتاباً يتواضع له فيه ويخاطبه بمولانا وابن مولانا ويقول : انما جئت من مصر خدمة لك لاؤدي ما يجب من حقوق المرحوم ، فلا تسمع ممن حولك فتفسد احوالك وتختل امورك ، وما قصدي الا جمع كلمة الاسلام على الفرنج . فعرض الملك الصالح ذلك على امراء دولته فأشاروا عليه بان يكاتبه بالغلظة فكتب اليه منكراً عليه ، وينسبه الى كفر النعمة وجحد احسان والده ووعده وهدده فساء ذلك صلاح الدين واغضى على القذى وكظم غيظه .

ولما قرر صلاح الدين امر دمشق استخلف بها أخاه سيف الاسلام طغتكين بن ايوب وسار الى حمص وكانت حمص وحماة وبارين وسلمية وتل خالد والرها في إقطاع فخر الدين مسعود بن الزعفراني فلما مات نور الدين لم يمكن فخر الدين المقام بحمص وحماة لسوء سيرته مع الناس وكانت هذه البلاد له بغير قلاعها فان قلاعها كان فيها ولاة لنور الدين وليس لفخر الدين معهم في القلاع حكم الابارين ، فملك

صلاح الدين مدينة حمص وعصت عليه القلعة فترك عليها من يضيق عليها ودكوها ورحل الى حماة فاستغاث صاحبها بالاسماعيلية وأعطاهم ضياعاً ومالاً ليستعين بهم على صلاح الدين ، فلم يلبث ان ملك مدينة حماة وكان بقلعتها الامير عز الدين جرديك احد المماليك النورية فامتنع في القلعة فذكر له صلاح الدين انه ليس له غرض سوى حفظ البلاد للملك الصالح اسماعيل وانما هو نائبه ، وقصده من جرديك المسير الى حلب في رسالة فاستحلفه جرديك على ذلك وسار الى حلب برسالة صلاح الدين واستخلف في قلعة حماة أخاه ، فلما وصل جرديك الى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه ، فلما علم اخوه بذلك سلم قلعة حماة الى صلاح الدين ، ثم سار هذا الى حلب وحصرها وبها الملك الصالح اسماعيل ، فجمع أهل حلب وقاتلوا صلاح الدين وصدوه عن مدينتهم ، وارسل سعد الدين كمشتكين الى سنان مقدم الاسماعيلية اموالاً عظيمة ليقتلوا صلاح الدين فأرسل سنان جماعة فوثبوا بصلاح الدين فقتلوا دونه ، واستمر صلاح الدين محاصراً لحلب ورحل عنها بسبب نزول الفرنج على حمص فعاد اليهم فرجعوا أدراجهم ، ووصل صلاح الدين الى حمص فحصر قلعتها وملكها ثم سار الى بعلبك فملكها .

* * *

تملك صلاح الدين ومحاولة اغتياله وسر نجاحه

ولما استقر ملك صلاح الدين لهذه البلاد ارسل الملك الصالح الى ابن عمه سيف الدين غازي صاحب الموصل يستنجده على صلاح الدين فجهز جيشه ، وطلب اخاه الاكبر عماد الدين زنكي بن مودود صاحب سنجار ليسير في النجدة ايضاً فامتنع مصانعة لصلاح الدين ، ووصل عسكر الموصل وانضم اليه عسكر حلب وساروا الى صلاح الدين فارسل صلاح الدين يبذل حمص وحماة وان تقر بيده دمشق وان يكون فيها نائباً للملك الصالح ، فلم يجيبوا الى ذلك وساروا الى قتاله ، واقتتلوا عند قرون حماة فانهزم عسكر الموصل وحلب ، وحينئذ قطع صلاح الدين خطبة الملك الصالح بن نور الدين وازال اسمه عن السكة واستبد بالسلطنة فراسلوا صلاح الدين في الصلح على ان يكون له ما بيده من الشام وللملك الصالح ما بقي بيده منه فصالحهم على ذلك ورحل ثم ملك قلعة بارين

كما صالح بني رزيك على ان يكون له الى حد المعرة ولهم ما يلي ذلك فنقض الحلبيون الصلح الذي كان بينهم وبين صلاح الدين وجاء سيف الدين غازي في عساكر الموصل وديار بكر وحلب وعدتهم عشرون الفاً بين فارس وراجل وعسكر صلاح الدين ستة آلاف عدا ما جاء بعد من مصر . وقال رسول سيف الدين الى صلاح الدين انه رأى صلاح الدين في خيمة صغيرة على بساط لطيف وتحته سجادة وبين يديه مصحف وهو مستقبل القبلة والى جانبه زرديته وسيفه وقوسه وتركاشه (جعبته) معلق في عمود الخيمة ، فلما رأيته وقع في خاطري انه المنصور لانني فارقت سيف الدين والامراء وهم على طنافس الحرير والخمور تراق والطبول تعمل، وليس في خيامهم خيمة الا وفيها انواع المحرمات، فأديت اليه الرسالة وجاء وقت الظهر فضج العساكر بصوت الاذان وفي كل خيمة امام .
قال سبط ابن الجوزي : ان صلاح الدين لما هزم جيش سيف الدين عاد الى خيامهم فوجد سرداق سيف الدين مفروشاً بالرياحين والمغنون جلوس في انتظاره والخمور تراق ومطابخه بقدورها وفيه اقفاص الطيور فيها انواع من القماري والبلابل والهزارات فارسل صلاح الدين بما كان في السرادق من المغنين والخمور والطيور اليه وقال للرسول : قل له اشتغالك بهذا اليق من مباشرتك الحروب ولا تعد الى مثلها . وكان هذا المصاف بين السلطان صلاح الدين وسيف الدين غازي في سنة ٥٧١ فهرب سيف الدين والعساكر التي كانت معه فانه كان استنجد بعد هزيمته في قرون حماة بصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين وغيرهما ثم سار صلاح الدين الى بزاعة فحصرها وتسلمها وقصد منبج فحصرها وافتتحها عنوة ولما جلس يستعرض اموال صاحبها وذخائره كان في جملة امواله ثلاثمائة الف دينار ومن الفضة والآنية الذهبية والاسلحة ما يناهز الفي الف دينار ، فخانت من السلطان التفاتة فرأى على الاكياس والآنية مكتوباً « يوسف » فسأل عن هذا الاسم فقيل له ولد يحبه ويؤثره اسمه يوسف كان يدخر هذه الاموال له فقال السلطان : انا يوسف وقد اخذت ما خبئ فتعجب من ذلك (رواه ابن ابي طي) .

ثم سار السلطان الى عَزاز ونازلها وتسلمها فوثب اسماعيلي على صلاح الدين في حصاره عزاز فضربه بسكين في رأسه فجرحه فامسك صلاح الدين يدي الاسماعيلي

وبقي يضرب بالسكين فلا يؤثر حتى قتل الاسماعيلي على تلك الحال ووثب آخر عليه فقتله ايضاً وجاء السلطان الى خيمته مذعوراً وعرض جنده وابعد من انكره منهم . وهكذا فان صاحب حلب او نائبه او جماعة دولته ، وصاحب حماة او نائبه او حملة غاشيته صمموا على اغتيال صلاح الدين بايدي الخوارج حرصاً على ملك قد يسلم لهم فيستمتعون به زمناً اولا يستمتعون ، ولو وفقوا الى قتله لقتلوا به أمة بأسرها حتى يعيشوا سنين في دعة ومجد، وما اكثر الادعياء في كل زمن في حب دينهم وقوميتهم ، فاذا لم ينالوا رغائبهم ساروا على العمياء لحظ انفسهم فقط .

وبعد تسليم عزاز لصلاح الدين جاء حلب فحاصرها وبها الصالح بن نور الدين فسألوا صلاح الدين في الصلح فاجابهم اليه وسألوه قلعة عزاز فسلمها اليهم ورفع على حلب علمه الاصفر ورحل عنها في المحرم سنة ٥٧٢ ورجع من بلاد الاسماعيلية وحصر قلعة مصياف ، فسأله خاله شهاب الدين الحارمي صاحب حماة الصفح عنهم بسؤال سنان فرحل عنهم الى مصر وسنان هذا هو ابو الحسن سنان بن سليمان بن محمد الملقب راشد الدين صاحب قلاع الاسماعيلية ومقدم الفرقة الباطنية بالشام واليه تنسب الطائفة السنانية وهو الذي كتب الى صلاح الدين جواب كتاب كان هدده فيه على ما نقل ذلك ابن خلكان وافتتحه بقوله :

يا ذا الذي بقراع السيف هددنا   لاقام مصرع جنبي حين تصرعه
قام الحمام الى البازي يهدده   واستيقظت لاسود البر اضبعه
اضحى يسد فم الافعى باصبعه   يكفيه ما قد تلاقي منه اصبعه

ثم اردف هذه الابيات بكتاب كله تهديد لصلاح الدين وقد كتب اليه مرة أخرى :

بنا نلت هذا الملك حتى تأثلت   بيوتك فيها واشمخر عمودها
فاصبحت ترمينا بنبل بنا استوى   مغارسها منا وفينا حديدها

وفي ذلك بيان لقوة الاسماعيلية في عصر صلاح الدين فكانوا يتهددونه كما يتهددهم ولذلك اغضى في الغالب عنهم وان حاولوا اغتياله غير مرة . ولما بلغ عسقلان (٥٧٣) وشن الغارات على الفرنج طلعوا عليه وهو في بعض العسكر فقاتلهم اشد قتال وقاربت

حملات الفرنج السلطان فانهزم الى مصر على البرية ومعه من سلم ، فلقوا مشقة وعطشاً واسر الفرنج العسكر المتفرق في الاغارة ، وأُسر الفقيه عيسى من اكبر اصحاب صلاح الدين فافتداه بعد سنين بستين الف دينار هذا مع ان جيش صلاح الدين كان نحو عشرين الفاً وقعت الكسرة عليهم لانهم كانوا متفرقين في الغارات و كسروا و معظمهم لم يعلم بالهزيمة . وفي هذه السنة حصر الفرنج حماة طمعاً بهزيمة صلاح الدين و بُعده و كادوا يملكونها فجد المسلمون في القتال ثم رحلوا عنها الى حارم . وفيها قبض الملك الصالح على كمشتكين متغلباً على الامر وكانت له حارم فعذب كمشتكين واصحابه ليسلموا قلعة حارم فاصروا على الامتناع حتى مات من العذاب ، ووصل الفرنج من حصار حماة ، وحصروا حارم اربعة اشهر فداراهم الصالح بمال فرحلوا عنها بعد بلوغ اهلها الجهد ، ثم ارسل الملك الصالح عسكراً فحصروها وملكوها .

* * *

فتوح صلاح الدين ووفاة الملك الصالح أرسل صلاح الدين (٥٧٤) الى شمس الدين بن المقدم ليسلم بعلبك الى توران شاه فعصى بها فحصره صلاح الدين تسعة أشهر ثم عوض عنها وسلمها الى توران شاه (٥٧٥) وبعث السرايا والغارات الى بلاد الفرنج بعد موت الهنفري ملكهم وكان هذا يريد ان يغير على دمشق فأخذه رجال صلاح الدين وأسروه وغنموا ما مع جماعته وفتح صلاح الدين حصناً كان بناه الفرنج عند مخاضة الاحزان بالقرب من بانياس ، وكان الفرنج انتهزوا فرصة مقام السلطان صلاح الدين على بعلبك واشتغاله بامرها فبنوا حصناً على مخاضة بيت الاحزان وبينه وبين دمشق مسافة يوم وبينه وبين صفد وطبرية نصف يوم ، فراسل السلطان الفرنج في هدمه فأجابوا انه لا سبيل الى هدمه الا ان يعطينا ما غرمنا عليه فبذل لهم السلطان ستين الف دينار فامتنعوا فزادهم الى ان بلغ مائة الف دينار وكان الداوية اصحاب الحصن يقطعون هناك الطرق على القوافل فخرب به المسلمون وكانت الحرب بين عسكر السلطان صلاح الدين ومقدمهم ابن اخيه تقي الدين عمر وبين عساكر قليج أَرسلان بن مسعود صاحب بلاد الروم وسببها ان حصن رَعبان كان بيد شمس الدين بن المقدم فطمع فيه قليج ارسلان وأرسل اليه عسكراً كثيراً

ليحصروه وكانوا قريب عشرين الفاً فسار اليهم تقي الدين في الف فارس فهزمهم وكان تقي الدين يفتخر ويقول هزمت بالف عشرين الفاً . وفي هذه السنة أحرق الاسماعيلية أسواق حلب وافتقر أهلها بذلك وكانت احدى الجوائح التي أصابت الشهباء وسكانها . وسار صلاح الدين (٥٧٦) الى بلاد قليج أرسلان صاحب الروم ووصل الى رعبان ثم اصطلحوا فقصد صلاح الدين بلاد ابن ليون الارمني وشن فيها الغارات فصالحه ابن ليون على مال حمله واسرى أطلقهم .

وفي سنة ٥٧٧ عزم صاحب الكرك الفرنجي على المسير الى المدينة المنورة للاستيلاء على تلك النواحي ، وسمع ذلك عز الدين فرخشاه نائب عمه السلطان صلاح الدين بدمشق فقصد بلاد الكرك واقام عليها ، ففرق صاحب الكرك جموعه وانقطع عزمه عن الحركة . وفي هذه السنة توفي الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين وعمره نحو ١٩ سنة واوصى بملك حلب الى ابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل فسار اليها بعد موت الصالح ومعه مجاهد الدين قيماز واستقر في ملكها فكاتبه اخوه زنكي بن مودود صاحب سنجار على ان يعطيه حلب و يأخذ سنجار واشار قيماز بذلك فأجاب وعاد الى الموصل .

قال ابن الاثير : ان بعضهم قال للملك الصالح وهو يوصي بالملك بعده ان عماد الدين ابن عمك ايضاً وهو زوج اختك وكان والدك يحبه ويؤثره وهو تولى تربيته وليس له غير سنجار فلو اعطيته البلد (حلب) لكان اصلح وعز الدين له من البلاد من الفرات الى همذان ولا حاجة به الى بلدك فقال له : ان هذا لم يغب عني ولكن قد علمتم ان صلاح الدين قد تغلب على عامة بلاد الشام سوى ما بيدي ،ومتى سلمت حلب الى عماد الدين فعجز عن حفظها ملكها صلاح الدين لم يبق لاهلنا معه مقام، وان سلمتها الى عز الدين امكنه حفظها بكثرة عساكره وبلاده فاستحسنوا قوله وعجبوا من جودة فطنته مع شدة مرضه وصغر سنه .

وفي سنة ٥٧٨ قصد صلاح الدين الشام من مصر وأغار في طريقه على الفرنج وغنم واجتمع الفرنج قرب الكرك ليكونوا على طريقه لما سار فانتهز فرخشاه نائب صلاح الدين بدمشق الفرصة وفتح بعسكر الشام الشقيف واغار على ما يجاوره وفتح

دبورية وجاء الى شقيف حبس جلدك بالسواد من اعمال طبرية وهو حصن يشرف على بلاد المسلمين ففتحه واسكنه المسلمين . ونزل صلاح الدين قرب طبرية وشن الغارات على بيسان وجنين واللجون والغور من بلاد الفرنج حتى بلغت عساكره مرج عكا فغنم وقتل ثم عاد الى دمشق وحصر بيروت واغار على تلك الارجاء ونهب بلدها وكان قد امر الاسطول المصري بالمجيء في البحر اليها فساروا ونازلوها واغاروا عليها وعلى بلدها، وكان عازماً على ملازمتها الى ان يفتحها فأتاه الخبر وهو عليها ان البحر قد القى بطسه للفرنج فيها جمع عظيم منهم الى دمياط كانوا قد خرجوا لزيارة بيت المقدس فأسروا من بها بعد ان غرق منهم كثير فكان عدة الاسرى ١٦٧٦ اسيراً . ثم عبر السلطان الفرات الى البيرة فصار معه مظفر الدين كوكبوري صاحب حران واستمال ملوك الاطراف فصار معه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وحاصر الرها وملكها وسلمها الى كوكبوري ثم اخذ الرقة وقرقيسيا وماكسين وعربان والخابور جميعاً ثم ملك نصيبين وقلعتها ثم حصر الموصل وبها صاحبها عز الدين مسعود ومجاهد الدين قيماز وقد شحنت رجالاً وسلاحاً وحاصر سنجار وملكها واتاه الخبر ان الفرنج قصدوا دمشق ونهبوا القرى ووصلوا الى داريا وارادوا تخريب جامعها فارسل النائب بدمشق اليهم جماعة من النصارى يقول لهم ان اخربتم الجامع جددنا عمارته واخربنا كل بيعة لكم في بلادنا ولا نمكن احداً من عمارتها فتركوه .

وفيها قصد الفرنج المقيمون بالكرك والشوبك المسير لمدينة الرسول لينبشوا قبره الشريف وينقلوا جسده الكريم الى بلادهم ويدفنوه عندهم ولا يمكنوا المسلمين من زيارته الا بجعل فأنشأ البرنس ارناط صاحب الكرك اسطولاً في بحر ايلة (العقبة) وجعله فرقتين فرقة حصرت حصن ايلة وفرقة نحو عيذاب يفسدون في السواحل بغتة ، ولم يعهد بهذا البحر فرنج قط ، فعمر الملك العادل ابو بكر بن ايوب نائب الناصر بمصر اسطولاً في بحر عيذاب وارسله مع حسام الدين لؤلؤ الحاجب متولي الاسطول بمصر ، فاوقع لؤلؤ بمحاصري أيلة فقتل واسر ، ثم طلب الفرقة الثانية وقد عزموا على دخول المدينة ومكة فبلغ رابغ ، فادركهم بساحل الحوراء وقاتلهم اشد قتال فقتل اكثرهم واسر الباقين وارسل بعضهم الى منى لينحروا بها وعاد بالباقين فقتلوا عن آخرهم بمصر .

وملك صلاح الدين آمد (٥٧٩) وكان وعد بها محمد بن قرا ارسلان صاحب حصن كيفا وكان فيها خزانة كتب فيها الف الف واربعون الف كتاب فوهبها الوزيره القاضي الفاضل فانتخب منها حمل سبعين جملاً ، وكان فيها من الذخائر مايساوي ثلاثة آلاف الف دينار ، فوهبها لابن قرا ارسلان هذا ، فلما قيل له في ذلك قال : لا أضن عليه بما فيها من الاموال فانه قد صار من اتباعنا واصحابنا ونحن انما نريد ان يسير الناس معنا على قتال الاعداء فقط ، وليس قصدنا من الفتح البلاد بل العباد ، هذا وبعد مدة قلّ المال لنفقة الجند فاستدان صلاح الدين من اخيه العادل ١٥٠ الف دينار لاطعامهم . وفتح صلاح الدين تل خالد من اعمال حلب ثم عينتاب ثم تسلم بعد المحاصرة حلب من زنكي بن مودود واعطاه سنجار ، وشرط عليه الحضور الى خدمته بنفسه وعسكره اذا استدعاه ، ولا يحتج بحجة عن ذلك . ومن الاتفاقات العجيبة ان محيي الدين ابن الزكي قاضي دمشق مدح السلطان بقصيدة منها :

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب

فوافق فتح القدس في رجب سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة . ثم سار صلاح الدين من حلب بعد ان تسلم حارم ونظم امر تلك البلاد وتجهز من دمشق فأحرق بيسان وشن الغارات على تلك النواحي وأرسل الى اخيه العادل بمصر ان يلاقيه الى الكرك فاجتمعا عليها وحصراها ثم رحلا عنها . وسار في السنة التالية (٥٨٠) من دمشق فنازل الكرك وكتب الى مصر فسار اليه عساكرها فضيق على من به وملك ربض الكرك ، ولم يتيسر له الاستيلاء على قلعتها فرحل عنها لامتناعها عليه ، فسار الى نابلس وأحرقها ونهب ما بتلك النواحي وقتل وأسر وسبي فأكثر ثم سار الى سبسطية فاستنقذ ما بها من أسرى المسلمين . وفي سنة ٥٨١ حصر الموصل مرة ثانية فسير أتابك عز الدين صاحبها والدته ومعها ابنة عمه نور الدين محمود وغيرهما من النساء وجماعة من أعيان الدولة يطلبون المصالحة وكل من عنده ظنوا انهن اذا طلبن منه الشام أجابهن الى ذلك لا سيما ومعهن ابنة مخدومه وولي نعمته نور الدين فلما وصلن اليه اعتذر باعذار غير مقبولة وأعادهن خائبات فأسف العامة لرده النساء ، وندم صلاح الدين بعد ذلك على ردهن ، وجاءته كتب القاضي الفاضل وغيره يقبحون فعله وينكرونه . وسار

صلاح الدين عن الموصل الى خلاط وملك ميافارقين . وغزا البرنس صاحب الكرك (٥٨٢) وأسر قافلة من المسلمين فطلبهم السلطان بحكم الهدنة فأبى فنذر صلاح الدين قتله بيده . وكان ارنلط من اغدر الفرنجة وانقضهم للمواثيق المحكمة والايمان المبرمة . وكان كفيل القومص صاحب طرابلس قد حنق على جماعته الفرنج لان زوجة ريمند بن ريمند الصنجيلي هويت رجلاً من الفرنج اسمه كي واخرجت كفيل ابنها من ملك طرابلس وكان طمع فيه ، فراسل صلاح الدين وانتمى اليه واعتضد به ، وطلب منه المساعدة على بلوغ غرضه من الفرنج ، ففرح صلاح الدين والمسلمون بذلك ووعده النصرة والسعي له في كل ما يريد ، وضمن له ان يجعله ملكاً مستقلاً للفرنج قاطبة ، وكان عنده جماعة من فرسان القومص فأطلقهم ، فحل ذلك عنده اعظم محل ، واظهر طاعة صلاح الدين ووافقه على ما فعل جماعة من الفرنج فاختلفت كلمتهم . قال صاحب الكامل : وكان ذلك من اعظم الاسباب الموجبة لفتح بلادهم واستنقاذ البيت المقدس منهم .

* * *

وقعة حطين وفتح فاسطين | وكانت سنة ٥٨٣ سنة مباركة جداً على صلاح الدين والمسلمين ، كما كانت عليه ٥٦٤ بفتح مصر وانقاذها من ايدي الفاطميين . ضرب صلاح الدين الفرنج ضربة لم ينلهم مثلها منذ وطئوا اديم الشام سنة ٤٩١ فبدأ بمضايقة الكرك (٥٨٣) خوفاً على الحجاج من صاحبها فأخرب كما قال من رسالة الى اخيه سيف الاسلام عماراتها واحرق غلاتها ، وقطف ثمراتها ، وازعج ساكنيها ، واخاف آمنيها ، واجلى عنها فلاحيها ، واقام النوائح عليها في نواحيها . واغار بعض عسكره على عكا وغنموا ثم حصر مدينة طبرية ومعه الجاندارية والخراسانية والحجارون والنقابون ففتحها بالسيف وكانت للقومص صاحب طرابلس وكان مهادن السلطان فاجتمع الى الفرنج للحرب — وكانت طبرية تقاسم على نصف مغل البلاد من الصلت والبلقاء وجبل عوف والحيانية [1] والسواد وتناصف الجولان وما يقربها الى بلاد حوران — .

(١) الحَيّانيـة كورة بالسواد من ارض دمشق وهي كورة جبل جرش قرب الغور . وجبل عوف هو جبل عجلون .

ثم اجتمعت ملوك الفرنج فارساً وراجلاً وساروا الى صلاح الدين فركب اليهم من طبرية ، والتقى الجمعان واشتد القتال بينهم واحدق المسلمون بالفرنج من كل ناحية وابادوهم قتلاً واسراً على قرية حطين بالقرب من طبرية وأُسر في جملة من أسر ملك الفرنج الكبير وصاحب الكرك وصاحب جبيل وغيرهم من قمامصتهم وامرائهم وكان الفرنج في حطين خمسة واربعين الفاً فلم يسلم منهم سوى القل وقتل الباقون واستأسروهم فقتل منهم اربعون الفاً ولما انقضى المصاف جلس السلطان في خيمته واحضر ملك الفرنج واجلسه الى جانبه وكان الحر والعطش به شديداً فسقاه السلطان ماءً مثلوجاً وسقى ملك الفرنج منه البرنس ارنلط صاحب الكرك فقال له السلطان : ان هذا الملعون لم يشرب الماء باذني فيكون اماناً له ، ثم كلم السلطان البرنس ووبخه على غدره غير مرة وعلى قصده الحرمين الشريفين وقام السلطان بنفسه فضرب عنقه فارتعدت فرائص ملك الفرنج فسكن جأشه . قالوا وقد عرض السلطان الاسلام على الداوية والاسبتار ، فمن اسلم منهم استبقاه ، ومن لم يسلم قتله فقتل خلق عظيم ، وبعث بباقي الملوك والاسارى الى دمشق . ثم عاد السلطان الى طبرية وفتح قلعتها بالامان ثم سار الى عكا وحاصرها وفتحها بالامان وكان فيها ثلاثون الف افرنجي واربعة آلاف اسير مسلم وارسل اخاه الملك العادل فنازل مجد البابا وفتحه عنوة بالسيف ثم فرق السلطان عسكره ففتحوا الناصرة وقيسارية وحيفا وصفورية ودبورية والفولة وجنين وزرعين والطور واللجون والقيمون والزيب ومعليا والبعنة واسكندرونة ومَنْواث وارسوف وعفربلا وريحا سنجيل والبيرة وقلونية وصرفند ومجدل الحباب وجبل الجليل وتل الصافية والتل الاحمر وقريتا وصوبا وهرمس والسلع عدا ما تخللها من القرى والابراج والقلاع . فتح كل ذلك بالسيف وفتح عسكره سبسطية ونابلس وقلعتها بالامان ، وفتح العادل يافا عنوةً ثم فتح السلطان تبنين ، وتسلم صيدا خالية ثم بيروت بالامان بعد حصارها . وكان من جملة الاسرى صاحب جبيل فبذلت جُبَيْلاً فأُطلق . وحضر المركيس في سفينة الى عكا وهي للمسلمين واقلع الى صور فاجتمع عليه الفرنج الذين بها وملك صوراً . وذكر المؤرخون ان اطلاق امراء الفرنج من الاسر وحملهم الى صور كان من اعظم اسباب الضرر وقوة الفرنج ورواح عكا .

فتح القدس والرملة | ثم حصر السلطان عسقلان وتسلمها ثم فتح الرملة والداروم وغزة وبيت لحم وبيني وبيت جبريل وتبنين والنطرون ومشهد الخليل ولدّ وغيرها ثم نازل السلطان القدس وبه من الفرنج عدد لا يحصى وضايقه بالنقابين واشتد القتال ، وطلب الفرنج الامان فقال : آخذها مثل ما اخذت من المسلمين بالسيف فعاودوه فاجاب بشرط ان يؤدي كل رجل عشرة دنانير وكل امرأة خمسة وكل طفل دينارين ومن عجز أسر وتسلم المدينة في رجب وكان فيها بالضبط ستون الف رجل ما بين فارس وراجل سوى من تبعهم من النساء والولدان وقال ميشو : انه كان فيها مائة الف صليبي وكان عددهم لما فتحوه ٦١٠٠ فارس و٤٨ الف راجل ولم يكن فيها لما فتحها صلاح الدين سوى ربان واحد من اليهود وكان يدفع اتاوة كبيرة في السنة للملك حتى يبقى فيها .

قال ابن الاثير في معنى ارتضاء صلاح الدين بالفداء من الفرنج في القدس : ان الفرنج لما رأوا شدة قتال المسلمين وتحكم المنجنيقات بالرمي المتدارك وتمكن النقابين من النقب ارسلوا باليان بن نيرزان صاحب الرملة الى صلاح الدين يطلب الامان فابى السلطان وقال : لا افعل بكم الا كما فعلتم بالمسلمين حين ملكتموه سنة احدى وتسعين واربعمائة من القتل والسبي فقال له باليان : ايها السلطان اعلم اننا في هذه المدينة في خلق كثير ، وانما يفترون عن القتال رجاء الامان ، فاذا رأينا ان الموت لا بد منه فوالله لنقتلن اولادنا ونساءنا ونحرق اموالنا ولا نترككم تغنمون منا ديناراً ولا درهماً ولا تسبون وتأسرون رجلاً او امرأة ، فاذا فرغنا من ذلك اخربنا الصخرة والمسجد الاقصى . ثم نقتل من عندنا من اسارى المسلمين وهم خمسة آلاف اسير ، ولا نترك لنا دابة ولا حيواناً الا قتلناه ، ثم خرجنا اليكم كلنا وحينئذ لا يقتل الرجل منا حتى يقتل امثاله ، ونموت اعزاء ونظفر كرماء ، فاستشار صلاح الدين اصحابه فاجمعوا على اجابتهم الى الامان وان لا يحرجوا ويحملوا على ركوب ما لا يدرى عاقبة الامر فيه عن اي شيء تنجلي ، فاجاب صلاح الدين حينئذ الى بذل الامان للفرنج .

وكان رأي صلاح الدين اخذ الفداء فتغلب رأيه على ما كان يراه بعض جماعته اولاً من اهراق دماء الفرنج كما اهرق اجدادهم دماء المسلمين ، وهذا التهديد من سفير

الصليبيين في الصلح لا شأن له مع صلاح الدين ، وهو في تلك القوة والمنعة ، ولكن صلاح الدين يرمي الى مقصد اعلى من جميع مقاصد جماعته وجماعة الصليبيين ، كان يريد بما فعل من قبول الفداء تعليم الصليبيين درساً في مكارم الاخلاق وسماحة الاسلام ، وان لا يثير الحفائظ وهو على يقين من ان اوربا جيشت الا قليلاً لفتح القبر المقدس فاذا قتل من فيه وفيهم الامراء والسادة والقادة وغيرهم يقيم في كل دار في الغرب مأتماً وتزيد الطوائل بين الفريقين ، ويهب الفرنج في اوربا الى جمع شملهم ، اكثر مما جمعوا في القرن الماضي ومنتصف هذا القرن وتعود البلاد الى خرابها .

وما الفائدة من القتل اذا كان يجلب الويلات على فاعله وعلى ذويه . على ان صلاح الدين لو قتل فرنج القدس لما كان خرج عن مألوف عادة تلك العصور وما عُد عمله شيئاً فرياً اذ يكون قد كال لهم بالكيل الذي كالوا به لامته . بيد ان السماحة التي بدت منه اكسبته وقومه في الغرب اسماً عطراً لا يزال يردد بالخير على كرور الايام ، ودب الفشل في نفوس القابضين على زمام الامر في الغرب فلم يعودوا كما كانوا في الثمانين السنة الاخيرة يأتمرون في الحال باوامر الكنيسة البابوية ، ويحمسون الناس ليسيروا بهم على العمياء الى الارض المقدسة . وبهذا العمل انحلت العقدة المهمة الاولى من حروب الصليبيين وكان الخطب سهلاً في الوقائع بعد ذلك في عهد صلاح الدين واخلافه والمماليك فصدق في وصفه شاعره عبد المنعم الجلياني حيث قال من قصيدة :

وفيت لهم حتى احبوك ساطياً ... بهم ووفاء العهد قيد المخاصم
فخانوا فحابوا فانتدوا فتلاوموا ... فقالوا خُذلنا بارتكاب الجرائم
وخص صلاح الدين بالنصر اذ اتى ... بقلب سليم راحماً للمسالم
فخطوا بارجاء الهيا كل صورة ... لك اعتقدوها كاعتقاد الاقانم
يدين لها قس ويرقي بوصفها ... ويكتبه يشفى به في التمائم

مر الرحالة ابن جبير الاندلسي بالشام وصلاح الدين محاصر للكرك فتعجب من ان نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين وافرنج وربما يلتقي الجمعان ويقع المصاف بينهم وارفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم . واختلاف القوافل من

بمصر الى دمشق على بلاد الفرنج غير منقطع واختلاف المسلمين من دمشق الى عكة كذلك ، وتجار الصليبيين ايضاً لا يمنع احد منهم ولا يعترض ، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم ، وهي الأمنة على غاية وتجار النصارى ايضاً يؤدون في بلاد المسلمين على سلعهم والارتفاق بينهم والاعتدال في جميع الاحوال ، واهل الحرب مشتغلون بحربهم ، والناس في عافية والدنيا لمن غلب · قال : وهذه سيرة اهل هذه البلاد في حربهم وفي الفتنة الواقعة بين امراء المسلمين وملوكهم كذلك ولا تعترض الرعايا والتجار ، فالامن لا يفارقهم في جميع الاحوال سلماً او حرباً · وقال بعد ان ذكر استيلاء صلاح الدين على نابلس واطلاق ايدي جيشه في جميع ما احتازته : وخرجنا نحن الى بلاد الفرنج وسبيهم يدخل بلاد المسلمين وناهيك من هذا الاعتدال في السياسة ·

وبعد ان قرر السلطان امور القدس وامر بعمل الرُبُط والمدارس الشافعية رحل عنها ولم يبق معه مما اخذه من مال الفداء شيء وكان مائتي الف دينار وعشرين الفاً ففرقها على الامراء والعلماء والفقراء ، واطلق كثيراً من الفقراء بدون فداء ، وادى اخو السلطان الملك العادل فدية عن الفي صليبي واقتدى به السلطان نفسه وعفوا عن كثيرين ، فلم يبق سوى اربعة عشر الفاً يخرج منهم الصبيان والبنات الذين ادى الصليبيون فداءهم ، واغضى عن جواهر الصليبيين وناضهم من الذهب والفضة ، فكان يخرج من القدس حراً بدون منازع ، وعامل النساء من الفرنج معاملة لا تصدر عن ارقى رجل مهذب في القرون الحديثة · ذكروا انه كانت بالقدس ملكة رومية متعبدة مترهبة استعاذت بالسلطان فأعاذها ، ومنّ عليها وعلى من معها بالافراج ، وابقى عليها من مصوغات صلبانها الذهبية المجوهرة ونفائسها وكرائم خزائنها ، وكذلك خرجت زوجة الملك المأسور كي وهي ابنة الملك آماري وكانت مقيمة في جوار القدس مع مالها من الخدم والخول والجواري فاستأذنت بالالمام بزوجها واقامت عنده ، وكان مقيماً في برج بنابلس اسيراً يرسف في قيده · وخرج البطرك الكبير الذي للفرنج ومعه من اموال البيع منها الصخرة والاقصى والقيامة وغيرها ما لا يعلمه الا الله تعالى ، وكان له من المال مثل ذلك فلم يعرض له صلاح الدين ، فقيل له ليأخذ ما معه يقوي به

المسلمين فقال : لا اغدر به ولم يأخذ منه الا عشرة دنانير الى غير ذلك من مزاياه العالية التي علم بها اعداءه كيف تكون مكارم الاخلاق ٠

رحل السلطان الى عكا ومنها الى صور ، وقد حصنت بالرجال وحفر خندقها من البر الى البحر ، ونزل على صور وحاصرها وضايقها وطلب الاسطول فوصل اليه في عشرة شوانٍ فاتفق ان الفرنج كبسوهم في الشواني واخذ خمسة شوان ولم يسلم من المسلمين الا من سبح ونجا واخذ الباقون ، وطال الحصار عليها فرحل السلطان عنها في الشتاء واقام بعكا واعطى العساكر الدستور فسار كل واحد الى بلده وبقي السلطان بعكا وقد قنع الفرنج بيافا وعكا وصور ، وارسل الى هونين ففتحها بالامان كما فتح قلعة ابي الحسن من عمل صيدا وشقيف ارنون وصفد وكوكب وهما حصنان عظيمان للداوية والاسبتارية ٠ فلم يبق للفرنج من كل ما كان لهم في فلسطين من البلاد والثغور سوى صور واستصفيت كلها جملة ٠ ولما انسلخ الشتاء (٥٨٤) سار السلطان من عكا بمن معه بعد ان ولى اعمال الخليل وعسقلان وغزة والداروم وما والاها لخروج اليها وامر بنقل الغلات من البلقاء لتقوية الفلاحين واعانة المقطعين وكذلك امر بنقل الغلات من مصر الى اعمال عسقلان ليعيد اليها الزراعة والعمران ٠ ومن كتاب فاضلي يصف فيه بعض مدن فلسطين في الفتح الصلاحي : وهذه البلاد مدن ما كان عزم قبل منها مدنياً ٠ وعمارات ما كان امل اليها مفضياً ٠ بل طال ما كان عنها مغضياً ٠ مثل بيسان وكفر بلا وزرعين وجينين كلها بلاد مشاهير لها قرى مغلة ، وبساتين مظلة ، وانهار مقلة ، وقلاع مطلة ، واسوار قد ضربت على جهاتها ، واحاطت بجنباتها ، واتخذتها المدن سياجاً على قصباتها ٠

* * *

بقية الفتوح الصلاحية | وقصد السلطان كوكب وجعل عليها من يحاصرها وقد اتجهت همته العالية الى فتح ما بقي في ايدي الصليبيين من ثغور الساحل ٠

ولما خرج السلطان على عزم دمشق من القدس بات عند عقبة ظهر حمار بموضع يعرف بالفريديسية ، واصبح راحلاً على جينين ثم سار على طريق جبل عاملة ، ونزل بضيعة يقال لها الجش وعبر بين عمل صيدا يسرة وعمل وادي التيم يمنة على الضياع والقرى وعرس

على مرج تلفياثا مقابل مرج القنعية ونزل على مرج قليطية بالبقاع وعبر عين الجر و بات على مرج يبوس وكانت غيبة السلطان عن دمشق اربع سنين في الجهاد ولما اجتمعت العساكر من الاطراف سار من دمشق فنزل على بحيرة قدس غربي حمص واتته العساكر بها فرحل ونزل على انطرطوس فوجد الفرنج قد اخلوها فأحرقها وأحرق البسية وهي بيعة عظيمة عندهم محجوج اليها من اقطار بلادهم · وسار الى مرقية فوجدهم قداخلوها ايضاً وسار الى المرقب وهو للاسبتار فوجده لا يرام وتسلم جبلة و « بلدة » من غربي النهر على شاطئ البحر وسار الى اللاذقية ولها قلعتان فحصر القلعتين وزحف اليهما فطلب اهلها الامان فأمنهم وتسلم القلعتين وعمر البلد وحصن قلعتها ، ولما كان على اللاذقية طلب مقدم اسطول صقلية من السلطان الامان ليحضر عنده فأمنه وحضر وقبل الارض بين يديه وقال ما معناه : انك سلطان رحيم كريم وقد فعلت بالفرنج مافعلت فذلوا فاتركهم يكونون مماليكك وجندك تفتح بهم البلاد والممالك وترد عليهم بلادهم ، والا جاءك من البحر ما لا طاقة لك به ، فيعظم عليك الامر و يشتد الحال فاجابه صلاح الدين بنحو من كلامه من اظهار القوة والاستهانة بكل من يجيء من البحر وانهم ان خرجوا اذاقهم ما اذاق اصحابهم من القتل والاسر ، ورحل السلطان الى صهيون فتسلمها بالامان فلم يجبهم الا على امان اهل القدس فيما يؤدونه فأجابوه الى ذلك وتسلم قلعة صهيون ، ثم فرق عسكره في تلك الجبال فملك حصن بلاطُنُس وكان الفرنج قد اخلوه ، وملك حصن العيذو وحصن الجماهرية ، ووصل الى قلعة بكاس فاخلاه اهلها وتحصنوا بقلعة الشغر فحصرها ووجدها منيعة فضايقها فطلب اهلها الامان وحصر ابنه الملك الظاهر غازي صاحب حلب قلعة سرمين وضايقها وملكها ، واستنزل اهلها على قطيعة قررها عليهم وهدم القلعة وعفى اثرها · وكان في هذه القلعة وفي الحصون المذكورة من اسرى المسلمين الجم الغفير ، فأُطلقوا وأُعطوا الكسوة والنفقة ، ثم سار من الشغر الى بَرْزُيه وملكها بالسيف وسبى واسر وقتل اهلها واسر السلطان صاحب برزيه هو واصحابه وامرأته واولاده ومنهم بنت له معها زوجها فتفرقهم العسكر ، فارسل صلاح الدين في الوقت و بحث عنهم واشتراهم وجمع شمل بعضهم ببعض ، فلما قارب انطاكية اطلقهم وسيرهم اليها · وكانت امرأة صاحب

برزيه اخت امرأة بيمند صاحب انطاكية ، وكانت تراسل صلاح الدين وتهاديه وتعلمه كثيراً من الاحوال التي تؤثر فأُطلق هؤلاء لاجلها ٠

ثم سار فنزل على جسر الحديد وهو على العاصي بالقرب من انطاكية ومنه الى دَرْبساك فتسلمها بالامان على شرط ان لا يخرج احد منها الا بثيابه فقط ٠ وسار الى بغراس وحصرها وتسلمها بالامان على حكم امان دربساك ٠ وارسل بيمند صاحب انطاكية الى السلطان يطلب منه الهدنة والصلح وبذل اطلاق كل اسير عنده فأجابه السلطان الى ذلك واصطلحوا ثمانية اشهر ، ثم عاد الى دمشق فأُشير عليه بتفريق العساكر ليريحوا و يستريحوا فقال السلطان : ان العمر قصير والاجل غير مأمون ٠ وكان صلاح الدين لما سار الى البلاد الشمالية قد جعل على الكرك وغيرها من يحصرها وخلَّى اخاه الملك العادل في تلك الجهات يباشر ذلك فأرسل اهل الكرك يطلبون الامان فتسلمها صلاح الدين مع الشوبك وما بتلك الجهات من البلاد ، ثم سار السلطان الى صفد فحصرها وضايقها وتسلمها بالامان ، ثم سار الى كوكب فضايقها وتسلمها بالامان وسير اهلها الى صور ٠

وفي سنة ٥٨٥ نزل صلاح الدين بمرج عيون وحضر اليه صاحب شقيف ارنون بعد مدة ولما بقي للمدة ثلاثة ايام استحضره السلطان وخاطبه في التسليم فقال : لا يوافقني عليه اهلي واهل الحصن ٠ فأمسكه السلطان وبعثه الى دمشق فحبس ٠ ولما سقطت القدس واستولى السلطان على جميع البلاد التي كانت بيد الفرنج ولم يبق لهم الا يافا وصور وطرابلس تجمع جميع اهل البلاد التي اخذها السلطان صلاح الدين في ثغر صور فكثر جمعهم ، وارسلوا الى الغرب يستصرخون وصوروا صورة المسيح وصورة عربي يضربه وقد ادماه وقالوا : هذا نبي العرب يضرب المسيح ٠ فخرجت النساء من بيوتهن ٠ ووصل من الفرنج في البحر عالم لا يحصون كثرة ، وساروا الى عكا من صور ونازلوها وأحاطوا بسورها من البحر الى البحر ووقعت وقائع على عكا قتل فيها من الفرنج نحو عشرة آلاف ومن المسلمين الوف ايضاً وعاد السلطان في السنة التالية (٥٨٦) الى قتال الفرنج على عكا ٠

* * *

الحملة الصليبية الثالثة | بينا كان صلاح الدين على عكا يغادي الفرنج القتال ويراوحهم ، جاءت الاخبار من الروم ان ملك الالمان قادم لنجدة الصليبيين في الشام في مائة الف محارب ، فدخل اليأس على الناس وهذه هي الحملة المعروفة عند الفرنج بالحملة الصليبية الثالثة ، ولكن سلط على ملك الالمان الوباء والغلاء وغرق في نهر كان يغتسل فيه في الروم، ولم يصل معابنه سوى الف مقاتل فقط . يئس الناس لانهم ذهبوا الى ان الفرنج لا تقوم لهم قائمة بعد وقعة حطين والقدس بل بعد استصفاء اكثر المدن والمعاقل التي كانت لهم وضرب معظم قوتهم في الصميم ، وكانت هذه الحملة الثالثة مؤلفة من ثلاثة ملوك فريدريك بار بروس ملك المانيا وفيليب اوغست ملك فرنسا ور يشاردس قلب الاسد ملك انكلترا . نخف الاول الى نجدة فرنج الشام قبل صاحبيه فكان من امره ما كان أما الآخران فجاءا الى عكا في البحر وبعد ان فتح ريشاردس جزيرة قبرص تمكن الصليبيون من أخذ عكا وقتل من المسلمين جمهور كبير .

قال ميشو : ان الوقعة التي حارب فيها ريشاردس في بحر صور سفينة كبرى للعرب ، كانت من اول الانتصارات ومقدمة الغنائم للبحرية الانكليزية ، وقال مغلطاي : ان الفرنج حاصروا عكا من البر ومن البحر وكانت عدتهم مائتي الف واربعين الفاً ونصبوا عليها المناجيق من كل جهة ، وفتحوا فيها مواضع كثيرة حتى خربت ودثرت وصارت مثل الطريق ، فغُلب المسلمون وطلبوا الامان . وقال غيره : ان السلطان كان عمر في بيروت بطسة وشحنها بالعُدد والآلات وفيها نحو سبعمائة رجل مقاتل فلما توسطت في البحر صادفها ملك الانكتير واحاطت به مراكبه وحصل القتال بين الفريقين فلما رأى مقدمها اشتداد الامر نزل فخرقها حتى غرقت وكانت هذه الحادثة اول حادثة حصل بها الوهن للمسلمين .

ثم رحل الفرنج عن عكا نحو قيسارية والمسلمون يسايرونهم ويتحفظون منهم ، ثم ساروا من قيسارية الى ارسوف ، ووقع بينهم وبين المسلمين مصاف ازالوا المسلمين عن موقفهم ، ووصلوا الى سوق المسلمين فقتلوا من السوقة وغيرهم خلقاً كثيراً ، ثم سار الفرنج الى يافا وقد اخلاها المسلمون فملكوها ، ورأى السلطان تخريب عسقلان

مصلحة نخربها وخرب الرملة وكنيسة لدّ وكان هدم سور طبرية وهدم يافا وارسوف وقيسارية وهدم سور صيدا وجبيل ونقل اهلها الى بيروت ، وكان معظم اهل صيدا وبيروت وجبيل مسلمين وكانوا في ذلة من مساكنة الفرنج . ثم سار الى القدس وقرر اموره وعاد الى مخيمه بالنطرون . ثم تراسل الفرنج والسلطان في الصلح على ان يتزوج الملك العادل اخو السلطان باخت ملك انكلترا ويكون للملك العادل القدس ولامرأته عكا فانكر القسيسون عليها ذلك الا ان يتنصر الملك العادل فلم يتفق بينهم حال .

وذكر بعض المؤرخين: ان ملك انكلترا هو الذي عرض على العادل اخته ، وكانت أرملة ملك كبير من ملوكهم وهو صاحب صقلية توفي عنها ، ورغب ان يتزوجها العادل ويجعل له الحكم على الساحل ، وهو يُقطع الداوية والاسبتار من البلاد والقرى دون الحصون ، وتكون اخته مقيمة بالقدس وان الانكليز لما عنفوا المرأة واتهموها في دينها ، اعتذر ملك انكلترا بعدم موافقتها الا ان يدخل العادل في دينها فعرف انها خديعة كانت منه .

قال ابن شداد : في وصف ريشاردس ملك الانكليز : وهذا ملك الانكتار شديد البأس بينهم ، عظيم الشجاعة ، قوي الهمة ، له وقعات عظيمة ، وله جسارة على الحرب ، وهو دون الفرنسيس عندهم في الملك والمنزلة ، لكنه اكثر مالاً منه ، وأشهر في الحرب والشجاعة . قال : وكان ملوكهم يتواعدوننا به فكان المستأمنون منهم يخبروننا عنه انهم موقنون فيما يريدون ان يفعلوا من مضايقة البلد اي عكا حين قدومه ، فانه ذو رأي في الحرب مجرب ، وأثر قدومه في قلوب المسلمين خشية ورهبة . وقال بعد ان ذكر كيف كان ملك الانكليز يكرر الرسائل الى الملك لتعرف قوة النفس وضعفها وكيف كان يوهن المسلمين على تعرّف ما عنده من ذلك ايضاً : فانظر الى هذه الصناعة في استخلاص الغرض باللين تارة والخشونة أُخرى ، وكان مضطراً الى الرواح وهذا عمله مع اضطراره ، والله الولي في ان يقي المسلمين شره فما بلينا بأعظم حيلة وأشد اقداماً منه .

وبقي صلاح الدين في كل يوم يقع بينه وبين الفرنج مناوشات فلقوا من ذلك

شدة شديدة واستولوا سنة ٥٨٨ على قلعة الداروم وخربوها وأسروا من فيها .

عرض لملك انكلترا ما يشغل قلبه من جهة بلاده فأحب ان يصالح صلاح الدين فرضي السلطان بالصلح بعد الذي أصاب جيشه من الفشل على عكا وفشل عكا هو الوحيد الذي أصابه وذلك لتكاثر جيوش الصليبيين عليه وقد ملّ الجند الحرب التي دامت أعوامًا ، وخرج المسلمون من عكا وأخذوا امان الفرنج على ان يخرجوا باموالهم وانفسهم على تسليم البلد ومائتي الف دينار والف وخمسمائة أسير من المجهولين ومائة أسير من المعروفين وصليب الصلبوت ، وعشرة آلاف دينار للمركيس واربعة آلاف دينار لحجابه ، وعقدت بين الصليبيين والمسلمين هدنة عامة في البحر والبر وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة اشهر على ان يستقر بيد الفرنج يافا وعملها وقيسارية وعملها وارسوف وعملها وحيفا وعملها وعكا وعملها ، وان تكون عسقلان خراباً ، واشترط السلطان دخول بلاد الاسماعيلية في بلاد الهدنة واشترط الفرنج دخول صاحب انطاكية وطرابلس في عقد هدنتهم ، وان تكون لدّ والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين ، فاستقرت القاعدة على ذلك . واتفقت وفاة السلطان بعد الصلح بيسير فلو اتفق ذلك في اثناء وفاته كان الاسلام على خطر .

وفي التاريخ العامّ : ان صلاح الدين لما فتح القدس بهت المسيحيون في اوربا فأخذ اوربانوس الثالث يحمس الناس في الغرب . وان أمارات الصليبيين لم تقاتل مدة نصف قرن سوى صغار امراء سورية والموصل . وكان مسلمو مصر يعيشون بسلام معهم ، وهذا كان عهد نجاح تلك الامارات ، ولما قضى صلاح الدين على الدولة الفاطمية وقامت مقامها دولة حربية من المماليك ، لم يستطع المسيحيون ومصر تهاجمهم ان يقاوموا زمنًا طويلاً ، على ما ظهر من انتصارات صلاح الدين ، واذا احتفظوا ببقايا الامارات قرناً آخر فذلك لان ملوك الاسلام لم يرضوا ان يقضوا عليها . لا جرم ان هذه الحرب كانت حرباً مقدسة في نظر المسلمين والمسيحيين اهـ .

* * *

مزايا صلاح الدين ووفاته

ولا عجب اذا انتثر سلك الامارات الصليبية في الجنوب والغرب جملة فان تنظيم الجيش الصلاحي كان آية الآيات ،

والنجدات كانت تأتيه سراعاً دراكاً ، والفكر متجه الى مقصد واحد ، واستمات المسلمون في تأييد سلطانهم ، وحاربوا بكل ما لديهم من ضروب الكر والفر وصنوف الدهاء والخديعة ، وما الحرب الا خدعة — قاتلوا كما قال شاهد العيان من المؤرخين ، مرة بالابراج ، وأخرى بالمنجنيقات ، ورادفة بالدبابات ، وتابعة بالكباش ، وآونة باللوالب ، ويوماً بالنقب ، وليلاً بالسرابات ، وطوراً بطم الخنادق ، وآناً بنصب السلالم ، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار ، وحالة في البحر بالمراكب ، ولكن الحرب سجال والدهر دول ، وما كل يوم يكتب النصر للغزاة ، ويحالف التوفيق اعلامهم ، وما كل خطة يقررها صاحب الامر باديء الرأي تكون سديدة من كل وجه ، فقد انتقدوا على صلاح الدين بعد وقائعه مع الصليبيين وظفره الباهر بهم في الأردن والجليل وبيت المقدس كيف فتح لاعدائه السبل ليذهبوا الى صور ، ويجتمع هناك فل جيوشهم حتى تألفت منهم كتلة قويت بما جاءها من البحر من الانكليز والفرنجة ، فكان ما كان من هزيمة جيشه على عكا ، ولو كان حياً لدافع عن نفسه دفاعاً معقولاً مقبولاً فيما نحسب ، ولعلّ ذلك يدخل في باب مراحمه التي تجلت فيها نفسه العظيمة يوم فتح القدس ؛ فلم يعامل اعداءه الا بما اقتضته سياسته وسيرته .

كان صلاح الدين يُعنى بجنده ويتعهده ويسأل عن صحة امرائه ومن دونهم في راحتهم ومنامهم واكلهم وشربهم ، يحارب المحارب ساعات مخصوصة من النهار او الليل ثم يستريح او يحارب مدة معينة ثم يذهب الى ذويه ، على ارقى الاصول المتعارفة في الحروب الحديثة . والغنائم تقسم بين المحاربين بحيث يغتني أفرادهم وجماعاتهم دع مالهم من الاموال الدارة من اموال الجباية والرسوم على التجار وما خصوا به من الحرمة ورفعة الشأن ، يأخذون اما رواتب او اقطاعات ، ولم تكن اقطاعاتهم كاقطاعات الغرب تورث على الاغلب بل تزول عن صاحبها بموته او بعزله ، ولذلك كان المحاربون متعلقين ابداً بسلطانهم واميرهم ، متفانين في احسان الخدمة كأنهم يدافعون عن بيوتهم وأطفالهم .

جاء صلاح الدين الى دمشق بعد عقد الصلح مع الفرنج في فلسطين ، وكان يحب دمشق ويؤثر الاقامة فيها على سائر البلاد . فلقي الاهل والبلد بعد تغيب اربع سنين

وذهب يتصيد مع أخيه الملك العادل خمسة عشر يوماً فكان عمله كأنه وداع لاهله واولاده ومرابع نزهه وأنسه. ثم مرض اياماً وهلك حميد الأثر فضجت البلاد لفقده، وبكت العيون، وانتحبت النفوس، لانه لم يحي مصر والشام، بل احيا بعمله المسلمين والاسلام، وكان كما ذكره ابن شداد: رؤوفاً رحيماً، ناصراً للضعيف على القوي، يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس، في مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل اليه كل احد من كبير وصغير، وعجوز هرمة وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً، على انه كان في جميع زمانه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص في كل يوم، ويفتح باب العدل وكان يجالس مع الكاتب ساعة اما في الليل او في النهار، ويوقع على كل قصة بما يجريه الله على قلبه، ولم يرد قاصداً ابداً، وما استغاث اليه احد الا وقف وسمع قضيته وكشف ظلامته واعتنى بقصته.

مات صلاح الدين وقد ملك مصر اربعاً وعشرين سنة والشام تسع عشرة سنة، وملك الجزيرة واليمن، ولم يحفظ ما تجب عليه الزكاة، فان صدقة النفل استنزفت جميع ما ملكه من الاموال، فملك ما ملك ولم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة الا سبعة واربعين درهماً ناصرياً وجرماً واحداً ذهباً، ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من انواع الاملاك، وكان رحمه الله يهب الاقاليم، ويعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة، وكان نواب خزائنه يخفون عنه شيئاً من المال حذراً ان يفاجئهم مهم، لعلمهم بانه متى علم به اخرجه. وقد ذكر القاضي ابن شداد وعماد الدين الكاتب من خلال صلاح الدين ومواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للامور الشرعية، وعدله وكرمه وشجاعته، واهتمامه بامر الجهاد وصبره واحتسابه، وحلمه وعفوه ومحافظته على اسباب المروءة، ما هو العجب العجاب. وبعضه اذا جمع في شخص كان مفخراً من المفاخر على توالي الاحقاب.

ملأت خيرات صلاح الدين جميع البلاد التي خفق علمه عليها، وملأت اوقافه مصر والشام وهي غير منسوبة اليه. قال ابن خلكان: ولقد افكرت في نفسي في

امور هذا الرجل وقلت انه سعيد في الدنيا والآخرة ، فانه فعل في هذه الدنيا هذه الافعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ورتب هذه الاوقاف العظيمة ، وليس فيها شيء منسوباً اليه في الظاهر اه ٠

بل قد تجد لمماليكه وخواصه اوقافاً نسبت اليهم اكثر منه وكان كل مماليك صلاح الدين وخواصه وامراؤه واجناده اعف من الزهاد والعباد، والناس على دين ملوكهم ٠ ومن كرم صلاح الدين انه اخرج في مدة مقامه على عكا ثمانية عشر الف دابة من فرس وبغل سوى الجمال ، واما العين والثياب والسلاح فانه لا يدخل تحت حصر ، وما كان يركب فرساً الا وقد وعد بان يعطيه لطالب من جماعته ، وقد فرّق من ذخائر الفاطميين لما فتح مصر مايفوق الاحصاء ولم يبق منه قليلاً ولا كثيراً ٠ ومن رسالة له الى الديوان العزيز ببغداد : فقد علم ان الخادم بيوت امواله ، في بيوت رجاله ، وان مواطن نزوله ، في مواقف نزاله ، ومضارب خيامه ، اكنة ظلاله ، وانه لا يذخر من الدنيا الا شكته ، ولا ينال من العيش الا مسكته ٠ وكان يعيش عيش المتوسطين ، و ينفق بحيث تكاد تعده الى الاسراف ، و يكتفي من اللباس بالكتان والقطن والصوف ، ومجلسه منزه عن الهزء ومحافله حافلة باهل الفضل ، وكان لمداومته الكلام مع الفقهاء ومشاركته القضاة في القضاء اعلم منهم بالاحكام الشرعية ، وكان من جالسه لا يعلم انه مجالس السلطان ، بل يعتقد انه مجالس اخ من الاخوان ٠ كان من عظماء الشجعان ، قوي النفس، شديد البأس ، عظيم الثبات ، لا يهوله امر ٠ وصل في ليلة واحدة من الفرنج نيف وسبعون مركباً الى عكا وهو لا يزداد الا قوة نفس ، وكان يعطي دستوراً اي يسرح عسكره في اوائل الشتاء و يبقى في شرذمة يسيرة في مقابلة عدتهم الكثيرة ، اذ كان عدد جيشهم لا يقل عن خمسمائة الى ستمائة الف فيما قالوا ، ومع هذا تراه صابراً هاجراً في محبة الجهاد في سبيل الله اهله واولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه ، قانعاً من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تضربها الرياح يمنة و يسرة ، وكان لا بد له من ان يطوف حول العدو كل يوم مرة او مرتين اذا كان قريباً منهم ، واذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ، و يخرق العساكر من الميمنة الى الميسرة ، يرتب الاطلاب و يأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها وكان يشارف العدو و يجاوره ٠

انهزم المسلمون في يوم المصاف الاكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله ووقعت الكاسات والعَلَم وهو ثابت القدم في نفر يسير ، فانحاز الى الجبل يجمع الناس و يردهم و يخجلهم حتى يرجعوا ولم يزل كذلك حتى عكس المسلمون على العدو في ذلك اليوم وقتل منهم زهاء سبعة آلاف ما بين راجل وفارس ، ولم يزل مصابراً لهم وهم في العدة الوافرة ، الى ان ظهر له ضعف المسلمين فصالح وهو مسؤول من جانبهم ، فان الضعف والهلاك كان فيهم اكثر ، ولكنهم كانوا يتوقعون النجدة ، والمسلمون لا يتوقعونها ، وكانت المصلحة في الصلح .

سئل ابن بيرزان يوم انعقاد الصلح عن عدة الفرنج الذين كانوا على عكا وهو جالس فقال للترجمان : قل له كانوا خمسمائة الف الى ستمائة الف قتل منهم اكثر من مائة الف وغرق معظمهم . وكان صلاح الدين يدور على الاطلاب اي الكتائب و يقول وهل انا الا واحد منكم .

وذكروا من مراحم السلطان انه كان للمسلمين لصوص يدخلون خيام الفرنج في الليل و يسرقونهم ، فسرقوا ليلة صبياً رضيعاً ، فباتت امه تبكي طول الليلة فقال لها الفرنج : ان سلطانهم رحيم القلب ، فاذهبي اليه فجاءته وهو على تل الخروبة راكب فعفرت وجهها وبكت فسأل عنها ، فاخبروه بقصتها فرق لها ، ودمعت عيناه ، وتقدم الى مقدم اللصوص باحضار الطفل ، ولم يزل واقفاً حتى احضروه فلما رأته بكت واخذته فارضعته ساعة وضمته اليها ، واشارت الى ناحية الفرنج فامر ان تحمل على فرس وتلحق بالفرنج ففعلوا .

قال سبط ابن الجوزي : و يقال ان صلاح الدين فتح ستين حصناً وزاد على نور الدين بمصر والحجاز والمغرب واليمن والقدس والساحل وبلاد الفرنج وديار بكر ولو عاش لفتح الدنيا شرقاً وغرباً . قلنا ان نابغة الدهر السالف صلاح الدين يوسف كان في امته صلاحاً لدينها ودنياها .

الدولة الايوبية

(من سنة ٥٨٩ الى سنة ٦٣٧)

ابناء صلاح الدين واختلافهم ودهاء عمهم الملك العادل

اهتزت اعصاب المملكة لمهلك صلاح الدين يوسف بن ايوب صاحب مصر والشام واليمن والبلاد الشرقية لانه الفاتح الثاني لبيت المقدس كما كان عمر بن الخطاب الفاتح الاول. وقد خلف صلاح الدين سبعة عشر ذكراً وابنة واحدة، وناب بعض اولاده عنه في اكثر بلاده، وخلف اخاه الملك العادل ابابكر وكان ينوب عنه في مصر والشام في حياته فوقع الخلف بين بنيه وعمهم في الباطن اولاً ثم اعلن كل واحد لصاحبه خصومته. وكان كثير ممن ربوا في نعمة الدولة الصلاحية ورأوا من العدل الصلاحي ما لم يكد يسبق له مثيل الا في دولة نور الدين، يتخوفون ان تصير حال الدولة بعد صلاح الدين الى الشقاق والنزاع، ومن الذين اوجسوا خيفة من ذلك القاضي الفاضل وزير صلاح الدين الاكبر فقد كتب الى ولده الملك الظاهر ساعة موت السلطان من كتاب « ان وقع اتفاق فما عدمتم الا شخصه الكريم، وان كان غير ذلك فالمصائب المستقبلة اهونها موته وهو الهول العظيم » .

وكان الملك الافضل نور الدين علي اكبر اولاد صلاح الدين قد حلف له الناس عند ما اشتد مرض والده فاستقر في ملك دمشق وبلادها المنسوبة اليها، وبالديار المصرية الملك العزيز عماد الدين عثمان، وبحلب الملك الظاهر غياث الدين غازي،

و بالكرك والشوبك والبلاد الشرقية الملك العادل سيف الدين ابو بكر بن ايوب ، و بحماة وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر ، وببعلبك الملك الامجد مجد الدين بهرام شاه و بحمص والرحبة وتدمر شيركوه بن محمد ، وببصرى الملك الظافر خضر بن صلاح الدين ، وكان في خدمة اخيه الملك الافضل ، وبيد جماعة من امراء الدولة بلاد وحصون ، منهم سابق الدين عثمان بن الداية وبيده حصن شيزر وحصن ابي قبيس ، وناصر الدين بن كورس بن خمارد كين وبيده صهيون وحصن برزية : ودلدرم بن بهاء الدين ياروق وبيده تل باشر وعز الدين أسامة الحلبي وبيده كوكب وعجلون ، وعز الدين ابراهيم بن شمس الدين ابن المقدم وبيده بعرين وكفر طاب وافامية . ولما القي للملك الافضل زمام السلطنة بعهد ابيه استوزر ضياء الدين بن الاثير الجزري فحسن له طرد امراء ابيه ففارقوه الى اخويه العزيز بمصر والظاهر بحلب ولما اجتمعوا بمصر حسنوا للملك العزيز الانفراد بالسلطنة ووقعوا في اخيه الافضل فحصلت الوحشة بين الاخوين الافضل والعزيز واستحكم الفتور (٥٩٠) بينهما فسار العزيز في عسكر مصر وحصر اخاه الافضل بدمشق عشرة اشهر وقطع الماء عنها . فأرسل الافضل الى عمه العادل واخيه الظاهر وابن عمه الملك المنصور صاحب حماة يستنجدهم، فساروا الى دمشق واصلحوا بين الاخوين وعاد كل ملك الى بلده . قال العماد الكاتب : ولما انفصلت العساكر عن دمشق شرع الافضل في اللهو واللعب واحتجب عن الرعيـة وانقطع الى لذاته فسمي الملك النوّام وفوض الامر الى وزيره الجزري وحاجبه الجمال محاسن بن العجمي فافسدا عليه الاحوال وكانا سعيا لزوال دولته واستبدلا اراذل الناس بكبراء الامراء والاجناد ففسدت امور العباد . وفي هذه السنة استعادت الفرنج حصن جبيل واخذ الافضل من الفرنج جبلة واللاذقية .

وفي السنة التالية عاود الملك العزيز عثمان صاحب مصر قصد الشام ومنازلة اخيه الملك الافضل فسار ونزل الفوار من ارض السواد فاضطرب بعض عسكر العزيز عليه وهم طائفة من الامراء الاسدية وفارقوه فعاد العزيز الى مصر . وكان الافضل استنجد بعمه العادل لما قصده اخوه فلما رحل العزيز الى مصر رحل الملك الافضل وعمه العادل ومن انضم

اليها من الاسدية وساروا في اثر العزيز طالبين مصر فنزلوا على بلبيس وقصد الملك الافضل مناجزة من فيها من جند العزيز فمنعه عمه العادل وقال : مصر لك متى شئت . وكاتب العادل العزيز وامره بارسال القاضي الفاضل ليصلح بين الاخوين . وكان القاضي الفاضل قد اعتزل عن ملابسة اولاد صلاح الدين لما رأى من فساد احوالهم على ماروله المؤرخون — والقاضي الفاضل هو الذي كان صلاح الدين يقول في ملاء من الناس : لا تظنوا اني ملكت البلاد بسيوفكم بل بقلم الفاضل وكان يستشيره في اموره — فدخل الملك العزيز على القاضي الفاضل وسأله ان يتوجه من القاهرة الى الملك العادل ففعل واجتمع به واتفقا على ان يصلحا بين الاخوين فاصلحا بينهما واقام الملك العادل بمصر عند العزيز ابن اخيه ليقرر امور مملكته وعاد الافضل الى دمشق واموره بيد ابن الاثير يدبرها برأيه حتى كثر شاكوه وقل شاكروه . وكان الاعتماد على مشورة الوزير ابن الاثير الذي زين للملك الافضل اقصاء امراء ابيه ليخلو له الجو اول خطوة نحو خراب بيت بني ايوب ، وبعبارة اصح ابناء صلاح الدين يوسف . وقوة الدولة على نسبة عقل القائمين بها ، الدافعين عن حوزتها ، الغيورين على بقائها ، وقد خالف الملك الافضل سيرة ابيه فاقصى العقلاء وكان ابوه يفادي بكل مرتخص وغال لاستمالة قلوبهم وكان لسان حال الملك العادل وقد رأى اختلاف ابناء اخيه المثل المأثور « لم آمر بها ولم تسؤني » . قال سبط ابن الجوزي لما عاد الافضل الى دمشق ازداد وزيره الجزري من الافعال القبيحة وآذى اكابر من الدولة والافضل يسمع منه ولا يُعدي احداً ولا يخالفه ، فكتب قيماز النجمي واعيان الدولة الى العادل يشكونه ، فارسل العادل الى الافضل يقول : ارفع يد هذا الاحمق السيء التدبير القليل التوفيق فلم يلتفت ، واتفق مع العزيز على النزول الى الشام فسار الى الشام فاستشار الافضل اصحابه فكل اشار عليه ان يلتقي عمه واخاه ولا يخالفهما الا الجزري فانه اشار عليه بالعصيان فاستعد للحصار وحاف الامراء والمقدمين وفرقهم في الابراج وعلى الاسوار .

اتفق العادل مع العزيز على ان يأخذا دمشق وان يسلمها العزيز الى العادل لتكون الخطبة والسكة للعزيز في جميع البلاد كما كانت لابيه ، فخرجا وسارا من مصر فارسل الافضل اليهما فلك الدين وهو احد امرائه وهو اخو الملك العادل لامه ونزل

العادل والعزيز على دمشق وقد حصنها الملك الافضل ، فكاتب بعض الامراء من داخل البلد الملك العادل وصاروا معه وانهم يسلمون المدينة اليه فزحف الملك العادل والملك العزيز فدخل الاول من باب توما والثاني من باب الفرج ، فاجاب الملك الافضل الى تسليم القلعة وانتقل منها باهله واصحابه ، وأُخذت بصرى من الملك الظافر خضر اخي الافضل وكان معاضداً له ، وأُعطي الافضل صرخد فسار اليها باهله واستوطنها واخرج وزيره الجزري في الليل في جملة الصناديق خوفاً عليه من القتال فاخذاموالاً عظيمة وهرب الى بلاده . سلم الافضل دمشق لعمه العادل على حكم ما كان وقع عليه الاتفاق بينهما ، فتسلمها العادل بعد ان كان وقع الاتفاق على ان يكون ثلث البلاد للعادل والثلثان للافضل وهو السلطان ، ورحل العزيز وابقى العادل السكة والخطبة بدمشق للملك العزيز .

* * *

استئثار العادل بالملك الصلاحي

توفي الملك العزيز عثمان في مصر (٥٩٥) وعمره سبع وعشرون سنة واشهر وكان في غاية السماحة والكرم والعدل والرفق بالرعية والاحسان اليهم ففجعت الرعية بموته فجعة عظيمة لانه شبل من أسد ، وكان الغالب على دولته فخر الدين جهاركس فأقام في الملك ولد الملك العزيز الملك المنصور محمد واتفقت الآراء على احضار احد بني أيوب ليقوم بالملك ، وعملوا مشورة بحضور القاضي الفاضل فأشار بالملك الافضل وهو حينئذٍ بصرخد .فأرسلوا اليه فسار مجدًّا ووصل الى مصر على انه اتابك اي مربي الملك المنصور بن الملك العزيز ، وكان عمر الملك المنصور حينئذٍ تسع سنين وأشهراً . ولما وصل الافضل الى بلبيس التقاه العسكر فتنكر منه فخر الدين جهاركس وفارقه وتبعه عدة من العسكر وساروا الى الشام ، وكاتبوا الملك العادل وهو محاصر ماردين ، وأرسل الملك الظاهر الى أخيه الملك الافضل يشير عليه بقصد دمشق واخذها من عمه الملك العادل ، وان ينتهز الفرصة لاشتغال العادل بماردين ، فبرز الملك الافضل من مصر وسار الى دمشق فبلغ الملك العادل مسيره الى دمشق ونزل الملك الافضل على دمشق وجرى بين العم وابن اخيه قتال ، وهجم بعض عسكر الافضل المدينة حتى وصل الى باب البريد ولم يمدهم العسكر ، فتكاثر أصحاب الملك العادل وأخرجوهم من البلد ، ثم تخاذل العسكر

فتأخر الافضل الى ذيل عقبة الكسوة ، ثم وصل الى الملك الافضل أخوه الظاهر صاحب حلب فعاد الى مضايقة دمشق ، ودام الحصار عليها وقلت الاقوات عند الملك العادل وعلى أهل البلد ، وأشرف الافضل والظاهر على ملك دمشق ، وعزم العادل على تسليم البلد لولا ما حصل بين الاخوين الافضل والظاهر من الخلف ٠

روى سبط ابن الجوزي : انه لما اشتد الحصار على دمشق وقطعت أشجارها ومياهها الداخلة اليها وانقطعت عن أهلها الميرة وضجوا ، بعث العادل الى الظاهر يقول له : انا أسلم اليك دمشق على ان تكون انت السلطان وتكون دمشق لك لا للافضل ، فطمع الظاهر وأرسل الى الافضل يقول : انت صاحب مصر فآثرني بدمشق ٠ فقال : دمشق لي من ابي وانما أخذت مني غصباً فلا اعطيها احداً ، فوقع الخلف بينهما ووقع التقاعد ٠ وكان القاء الخلف بين الاخوين من جملة دهاء عمهما ، وفي هذه السنة قصد المنصور صاحب حماة بارين وحاصرها وفتحها وأصلح امورها ، وكانت لعز الدين ابراهيم بن شمس الدين محمد بن عبد الملك بن المقدم وهذا محصور في دمشق مع الملك العادل ٠

ودخلت سنة ٥٩٦ والملكان الافضل والظاهر محاصران دمشق وقد أحرق جميع ما هو خارج باب الجابية من الفنادق والحوانيت وأحرق النيرب وأبواب الطواحين وقطعت الانهار وأحرقت غلة حرستا في بيادرها وحفر على دمشق خندق من أرض اللوان الى أرض يلدا شرقاً احترازاً من مهاجمة من بدمشق لهما ، ولما تغير الظاهر على أخيه الافضل ترك قتال العادل فظهر الفشل في العسكر فتأخر الافضل والظاهر عن دمشق وأقاما بمرج الصُّفَر ، ثم سار الافضل الى مصر والظاهر الى حلب ، ولما تفرقا خرج العادل من دمشق وسار في أثر الافضل الى مصر ، وضرب مع الافضل مصافاً فانكسر الافضل وانهزم الى القاهرة ونازلها العادل ثمانية أيام فأجاب الافضل الى تسليمها ، على ان يعوض عنها ميافارقين وخاني وسميساط ، فأجابه العادل الى ذلك ولم يف له به ، ثم سار الافضل الى صرخد وأقام العادل بمصر على انه أتابك الملك المنصور محمد بن العزيز عثمان مدة يسيرة ، ثم أزال العادل الملك المنصور واستقل العادل في السلطنة فقطع اولاً خطبة ولد العزيز بعد ان جمع الفقهاء وقال هل يجوز ولاية

الصغير على الكبير فقالوا : الصغير مولى عليه قال : فهل يجوز لكبير ان يولي عليه وينوب عنه قالوا : لا لان الولاية من الاصل اذا كانت غير صحيحة فكيف تصح النيابة . فقطع خطبة ابن العزيز وخطب لنفسه ولولده الكامل محمد من بعده ، وكان ذلك على الحقيقة مبدأ سلطنة العادل الكبرى ، فان استئثاره بالخطبة والسكة في مصر سهل عليه فيما بعد ملك الشام وما اليها من بلاد الشرق .

لما تم الامر بمصر للعادل كاتب الملك الظاهر صاحب حلب عمه الملك العادل (عمه بالمغنيين شقيق ابيه وابو امرأته) وصالحه وخطب له بحلب وبلادها وضرب السكة باسمه ، واشترط الملك العادل على صاحب حلب ان يكون خمسمائة فارس من خيار عسكر حلب في خدمة الملك العادل كلما خرج الى البيكار (الحرب) والتزم الظاهر بذلك الا انه أخذ بتحصين حلب خوفاً من عمه الملك العادل وأرسل الملك المنصور للعادل يعتذر مما وقع منه من أخذه بعرين من ابن المقدم ، فقبل العادل عذره وامره بردها الى صاحبها الاول . وسار (٥٩٧) الظاهر وملك منبج وخرب قلعتها وملك قلعة نجم وافامية وكفرطاب من شمس الدين عبد الملك بن المقدم ، وأرسل الى الملك المنصور صاحب حماة يبذل له منبج وقلعة نجم على ان يصير معه على الملك العادل ، فاعتذر صاحب حماة باليمين التي في عنقه للملك العادل ، فلما ايس الملك الظاهر منه سار الى المعرة وأقطع بلادها واستولى على كفرطاب ثم سار الى افامية وبها قراقوش نائب ابن المقدم فلم يسلم هذا القلعة الا بعد الحرب الشديدة فرحل الملك الظاهر وتوجه الى حماة وقاتلها أشد قتال ، فلما لم يحصل على غرض صالح الملك المنصور على مال يحمله اليه قيل انه ثلاثون الف دينار صورية ، ثم رحل الظاهر الى دمشق وبها الملك المعظم ابن الملك العادل فنازلها الملك الظاهر هو وأخوه الملك الافضل ، وانضم اليهما فارس الدين ميمون القصري صاحب نابلس ومن وافقه من الامراء الصلاحية ، واستقرت القاعدة بين الاخوين الافضل والظاهر انهما متى ملكا دمشق يتسلمها الملك الافضل ثم يسيران ويأخذان مصر من الملك العادل ويتسلمها الملك الافضل ، وتسلم دمشق حينئذ الى الملك الظاهر صاحب حلب بحيث تبقى مصر للملك الافضل ويصير الشام جميعه للملك الظاهر .

و بلغ العادل حصار اولاد اخيه دمشق فخرج بعساكر مصر ، وأقام بنابلس ولم يجسر على قتالهم ، واشتدت مضايقة الملكين الافضل والظاهر لدمشق وتعلق النقابون بسورها ، فلما شاهد الملك الظاهر ذلك حسد أخاه الافضل على دمشق وقال له : أريد ان تسلم اليَّ دمشق الآن فقال له الافضل : ان حريمي وحريمك على الارض وليس لنا موضع نقيم فيه ، وهب هذا البلد لك فاجعله لي الى حين تملك مصر وتأخذه . فامتنع الظاهر من قبول ذلك ، وكان قتال العسكر والامراء الصلاحية لاجل الافضل فقال لهم الافضل : ان كان قتالكم لاجلي فاتركوا القتال وصالحوا الملك العادل ، وان كان قتالكم لاجل اخي الملك الظاهر فانتم واياه . فقالوا : انما قتالنا لاجلك وتخلوا عن القتال وارسلوا وصالحوا الملك العادل ، ثم تفرقت العساكر فرحل الملك الظاهر عن دمشق ، وسار الافضل الى حمص ، فقدم العادل الى دمشق بعد رحيل ابني اخيه الافضل والظاهر عنها وتسلمها . وخرب الظاهر منبج خوفاً من انتزاعها منه وأقطعها لعماد الدين المشطوب ونزل ابن المقدم عن افامية فأقطعه الظاهر الراوندان وكفرطاب ومفردة المعرة وهو عشرون ضيعة معينة من بلاد المعرة فعصى ابن المقدم بالراوندان فسار اليه الملك الظاهر واستنزله عنها وأبعده فلحق بالملك العادل .

وفي سنة ٥٩٨ سار الملك العادل من دمشق ووصل الى حماة ونزل على تل صفرون وقام الملك المنصور صاحب حماة بجميع وظائفه وكلفه ، وبلغ الظاهر صاحب حلب وصول عمه العادل الى حماة بنية قصده ومحاصرته بحلب فاستعد للحصار ، وراسل عمه ولاطفه واهدى اليه ، ووقعت بينهما مراسلات ووقع الصلح وانتزعت منه مفردة المعرة واستقرت للملك المنصور صاحب حماة ، واخذت من الملك الظاهر ايضاً قلعة نجم ، وسلمت الى الملك الافضل ، وكان له سروج وسُمَيْساط ، وسلم الملك العادل حران وما معها لولده الملك الاشرف مظفر الدين موسى وسيره الى الشرق . ولما استقر الصلح بين العادل وابن اخيه الظاهر ، رجع العادل الى دمشق واقام بها وقد انتظمت الممالك الشامية والشرقية والديار المصرية كلها في سلك ملكه وخطب له على منابرها وضربت السكة فيها باسمه :

الاحداث في عهد العادل واهتمامه بحرب الصليبيين

مضت تسع سنين على وفاة الملك الناصر صلاح الدين يوسف حتى استقر ملك الشام لاخيه الملك العادل ابي بكر بن ايوب وتخلص من ابناء اخيه الافضل والظاهر وغيرهما بل توفق الى مقاصده باستفتاء العلماء بان ملك مصر وأنقذها من حفيد اخيه صلاح الدين ، وكان أخذه مصر مقدمة لاستيلائه على ملك اخيه الا قليلاً ومقدمة لتسلسل الملك في اولاده ، اذ ليس في ابناء اخيه من يدانيه في الحقيقة بحسن السياسة وبعد النظر وكثرة التجارب والدهاء ، وكان صلاح الدين يحبه و يحترمه و يستشيره في معضلات الامور فيبين عن رأي وحنكة . وسار بعض الامراء الصلاحية الذين غذوا بنعمة صلاح الدين سيراً لا يدل على غمط نعمة ونكران جميل ، ولكن كان الافضل والظاهر والعزيز متخالفين متشاكسين وكل منهم يطمع في الملك و يسر لاخيه وعمه حسواً في ارتغاء ، فكان اختلافهم من حظ عمهم العادل وهو بتجاربه يشبه أخاه صلاح الدين من اكثر الوجوه . اما الافضل فقد ركب هواه وأخلد الى اللذات والمنكرات لاول امره واستسلم لوزيره ابن الاثير وكان صاحب دعوى عريضة لا يراعي الحال ولا يعرف الزمان فكتبت الغلبة للعادل ، ولو ترك الأخوان الافضل والظاهر وشأنهما بدون ان يعدّل عمهما من جماحهما لاشتد غزو احدهما لاخيه وهلك الناس بسببهما و كثرت الغوائل والحصارات ، هذا ان لم نقل انه كان للعادل يد في توسيع شقة الخلاف بين اولاد أخيه، فقد اتخذ الملك العادل سياسة غريبة معهم يريد ان يوفق بينهم في الظاهر ولكن انتهى توفيقه بالاستيلاء على مصر والشام وبلاد الشرق، وذلك بان أخذ بعض المتشاكسين لحزبه وكان بعدذلك يغتنم فرصة حمل الاخ على اخيه فيملك البلاد مثل الشام وغيرها على نحو ما ملك مصر و يخطب له فيها وتضرب السكة باسمه و يزال أسم أبناء صلاح الدين .

مثل أبناء صلاح الدين صورة من صور خلاف الاخوة بعد موت أبيهم ، والسبب في ذلك ان أباهم على بعد نظره لم يكتب لهم عهداً يبين لكل واحد حقه من هذا الملك الذي فتحه ووطد أساسه ، بل ترك الامر للاقدار . واذا حلف العسكر في دمشق لاكبر أولاده الملك الافضل فان المملكة ليست عبارة عن دمشق ،

بل حلب والقاهرة تنازعانها فضل التقدم ، ولو كانت اصول الوراثة في الملك متبعة في ذاك العصر لتوفر على الامة وابناء الدولة عناء كبير وشر كثير مستطير ، ولما تعب الفاتح بفتوحه وخلف لابنائه ميراثاً يورثهم هماً وغماً ، و يجنون بعملهم على الامة الجناية بعد الاخرى . هذا وبقايا الصليبيين لم تبرح نازلة في عكا وصور وطرابلس ، ومن حسن الطالع انهم لم يتحركوا للفتنة طول هـذه المدة سوى مرة واحدة (٥٩٣) وقد وصل جمع عظيم منهم الى الساحل واستولوا على قلعة بيروت فسار العادل ونزل بتل العجول وانته النجدة من مصر ووصل اليه سنقر الكبير صاحب القدس وميمون القصري صاحب نابلس ثم سار الملك العادل الى يافا وهجمها وملكها بالسيف وقتل الرجال المقاتلة وخربها وكان هذا الفتح ثالث فتح لها . وخرب صيدا ايضاً ونازلت الفرنج تبنين فارسل العادل الى الملك العزيز صاحب مصر فسار الملك العزيز بنفسه بمن بقي عنده من عساكر مصر ، واجتمع بعمه العادل على تبنين فرحل الفرنج الى صور ثم عاد الملك العزيز الى مصر وترك غالب العسكر مع عمه العادل وجعل اليه امر الحرب والصلح ، فطاول العادل الفرنج فطلبوا الهدنة واستقرت بينهم ثلاث سنين ورجع العادل الى دمشق .

ومن الاحداث في الشام على عهد الملك العادل بعد ان صفا له ملك الشام ومصر وخضع ابناء اخيه صلاح الدين له ظاهراً وان لم يخضعوا باطناً ، حصار ابنه الاشرف ماردين وسعى الملك الظاهر (٥٩٩) في الصلح ، فاجاب الملك العادل الى ان يحمل اليه صاحب ماردين مائة وخمسين الف دينار ويخطب له ببلاده و يضرب السكة باسمه و يكون بخدمته متى طلبه فأجيب الى ذلك . وسار الملك المنصور صاحب حماة الى بعرين مرابطاً للفرنج وكتب الملك العادل الى صاحب بعلبك والى صاحب حمص بانجاده فانجداه واجتمعت الفرنج من حصن الاكراد وطرابلس وغيرهما وقصدوا الملك المنصور ببعرين واتقعوا معه فانهزم الفرنج ثم خرج الاسبتار من حصن الاكراد والمرقب وانضم اليهم جموع من الساحل والتقوا مع الملك المنصور صاحب حماة وهو على بعرين فانتصر عليهم ثانياً واسر منهم عدة كثيرة وهادنهم (٦٠٠) وارسل العادل وانتزع

ما كان بيد الملك الافضل وهي رأس عين وسروج وقلعة نجم ولم يترك بيده غير سميساط وتوسلوا اليه في ابقاء ما كان بيده فلم يجب الى ذلك ٠

وخرج الفرنج (٦٠٠) اقصد بيت المقدس فبرع الملك العادل من دمشق ونزل على الطور وجرت الهدنة بينه وبينهم وسلم الى الفرنج يافا والناصرة ونزل عن مناصفات لدّ والرملة ٠ جاءت الفرنج (٦٠١) الى حماة بغتة واخذوا النساء الغسالات من باب البلد على العاصي وامتلأت ايديهم من الغنائم وخرج اليهم الملك المنصور بن تقي الدين وابلى بلاءً حسناً وكسر الفرنج عسكره وحاصر الحلبيون المرقب وكادوا يفتحونها لولا قتل مقدمهم مبارز الدين ثم هزمت فرنج طرابلس الحلبيين وقتل خلق من المسلمين وطمعت الفرنج في البلاد ثم صالحهم العادل ووقعت الهدنة بين صاحب حماة وبينهم ٠ واغارت الارمن (٦٠٢) على اعمال حلب فتسارع اليهم العسكر فبيتوهم وهزموهم ، وذهب الارمن بالغنائم ، ثم تتابعت الغارات من صاحب سيس ابن لاون على البلاد الحلبية وهابته العسكر ٠ قال سبط ابن الجوزي : وبلغ الظاهر صاحب حلب اغارة ابن لاون على حلب فخرج من حلب ونزل مرج دابق ، وجاء الى حارم فهزم ابن لاون الى بلاده ، وكان قد بنى قلعة فوق در بساك فاخربها الظاهر وعاد الى حلب ٠ ونازل الملك العادل (٦٠٣) عكا فصالحه اهلها على اطلاق جمع من الاسرى ثم سار الى حمص واستدعي العساكر فأتته من كل جهة ونازل حصن الاكراد وفتح برج اعناز واخذ منه خمسمائة رجل ثم نازل طرابلس وعاث العسكر في بلادها وقطع قناتها واخذ بالامان القليعات قرب طرابلس وخربه حتى وقعت الهدنة بينه وبين الفرنج (٦٠٤) ٠ واستولى الملك الاوحد ايوب ابن الملك العادل على خلاط ، ووصل للعادل التشريف من الخليفة الامام الناصر وتقليد بالبلاد التي تحت حكمه ، وخوطب الملك العادل شاهنشاه ملك الملوك خليل امير المؤمنين ، وكثر هذه السنة الفرنج الذين بطرابلس وحصن الاكراد واكثروا الاغارة على حمص وولايتها فانجد الظاهر غازي صاحب حلب صاحب حمص فمنعوا الفرنج عن ولايته ٠

وقطع العادل (٦٠٦) الفرات وجمع العساكر والملوك من اولاده ونزل حران ونازل سنجار ثم خامرت العساكر التي صحبته ، ونقض الملك الظاهر صاحب حلب

الصلح معه ، فرحل عن سنجار واستولى على نصيبين والخابور وعاد العادل (٦٠٧) الى دمشق وقصدت الكرج خلاط وحصروا الملك الاوحد ابن الملك العادل بها وبعد ان نال ملكهم منه حمل ملك الكرج الى الملك الاوحد فرد على الملك الاوحد عدة قلاع وبذل اطلاق خمسة آلاف اسير ومائة الف دينار وعقد الهدنة مع المسلمين ثلاثين سنة وشرط ان يزوج ابنته بالملك الاوحد فتسلم ذلك منه وتحالفا وتوفي الملك الاوحد من قابل فسار اخوه الملك الاشرف وملك خلاط عاصمة ارمينية الوسطى واستقل بملكها مضافًا الى ما بيده من البلاد الشرقية ·

وفي سنة ٦٠٧ ارسل نساء دمشق الى سبط ابن الجوزي العلامة الواعظ المشهور شعورهن لتستعمل في الادوات اللازمة للجهاد فعمل منها شكالاً للخيل وكرفسات ولما صعد المنبر في الجامع الاموي امر باحضارها فحملت على الاعناق وكانت ثلاثمائة شكال فلما رآها الناس صاحوا صيحة عظيمة وقطعوا مثلها ثم سافر المجاهدون ولحقوا بالملك المعظم بنابلس فخربوا في البلاد الواقعة تحت حكم الفرنج وقطعوا اشجارها واسروا جماعة منهم ولم يجسر احدهم ان يخرج من عكا وخاف الفرنج فارسلوا الى العادل وصالحهم ·

وقبض الملك المعظم (٦٠٩) على عز الدين أسامة صاحب قلعتي كوكب وعجلون بامر الملك العادل متهماً بمكاتبة الظاهر صاحب حلب ، فقال له المعظم بعد ان لاطفه : انت شيخ كبير وبك نقوس وما تصلح لك قلعة سلم اليَّ كوكب وعجلون وانا اخلف لك على مالك وملكك وجميع اسبابك وتعيش معنا مثل الوالد ، فامتنع وشتم المعظم وذكر كلاماً قبيحاً فلما ايس المعظم منه اعتقله في الكرك واستولى على قلاعه وامواله وذخائره وخيله ، فكانت قيمة ما اخذ منه الف الف دينار · وحبس أسامة في الكرك الى ان مات وامر العادل بتخريب كوكب وتعفية اثرها فخربت ، وابقى عجلون وملّك المعظم بلاد جهاركس وهي بانياس وما معها لاخيه الملك العزيز عماد الدين ، واعطى صرخد مملوكه عز الدين أيبك المعظمي ، واعطى العادل ولده الملك المظفر غازي الرها وميافارقين وفيها استولى البالي القبرسي على انطاكية فرميت تلك الاعمال منه

بداهية ، وتابع الغارات على تركمانها فشردهم فتجمعوا واخذوا عليه المضايق وحصل في واد فقتلوه وجميع رجاله وطافوا برأسه في اعمالهم ثم حملوه في البحر الى الملك العادل بمصر .

واستولى (٦١٢) الملك المسعود ابن الملك الكامل ابن الملك العادل على اليمن واستولى ابن لاون الارمني على انطاكية من الفرنج وتوفي (٦١٣) الملك الظاهر غازي ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب واوصى بالملك لولده الصغير الملك العزيز محمد لانه من بنت عمه العادل وطلب بذلك ان يستمر الامر له لاجل جده العادل واخواله واولاده لانهم ملوك البلاد يومئذ وبعد ذلك يكون الملك لولده الكبير الملك الصالح صلاح الدين احمد وبعدهما لابن عمهما الملك المنصور محمد بن العزيز بن عثمان ، وحلف الامراء والاكابر على ذلك ، وجعل الحكم في الاموال والقلاع الى شهاب الدين طغريل الخادم ، وكانت مدة ملك الظاهر لحلب احدى وثلاثين سنة ، وكان فيه بطش واقدام على سفك الدماء ثم أقصر عنه ، وهو الذي جمع شمل البيت الناصري الصلاحي ولكن اختلافه مع اخيه الافضل كان من اهم الاسباب في زوال الملك من ذرية صلاح الدين وكان الظاهر ذكياً فطناً . قال سبط ابن الجوزي : كان مهيباً له سياسة وفطنة وكانت دولته معمورة بالعلماء والفضلاء ، مزينة بالملوك والامراء ، وكان محسناً الى الرعية ملجأ الفقراء والغرباء وكهفاً للملهوفين . وفي سنة ٦١٣ كانت الحادثة بدمشق بين أهل الشاغور والعقيبة وحملهم السلاح وتقاتلهم بالرحبة وركوب العسكر للفصل بينهم وحضور المعظم من جوسق الريس لتسكين الفتنة وكان مقيماً به وقبضه جماعة من مقدمي الحارات .

* * *

الحملة الصليبية الخامسة — بينما كانت داخلية البلاد مشتغلة بالنصب والعزل وتقاتل ابناء البيت الواحد على الملك والسلطان اجتمعت الفرنج من داخل البحر ووصلوا الى عكا في جمع عظيم وهذه هي الحملة الصليبية الخامسة (١٢١٩ — ١٢٢١ م) وكانت مؤلفة من المان ومجر اما الحملة الرابعة فكانت توقفت في طريقها الى الشام واستولت (١٢٠٤ — ١٢٦١ م) على الاستانة فانفسخت بذلك الهدنة

بين المسلمين والفرنج فخرج العادل بعساكر مصر ونزل على نابلس فسارت الفرنج اليه ولم يكن معه من العساكر ما يقدر به على مقاتلتهم فاندفع قدامهم الى عقبة فيق فأغاروا على بلاد المسلمين وكانوا في خمسة عشر الفاً ووصلت غارتهم الى نوى من بلد السواد ونهبوا ما بين بيسان ونابلس وبثوا سراياهم فقتلوا وغنموا من المسلمين ما يفوت الحصر وبلغوا خربة اللصوص والجولان ثم عدوا الى الطور وقتل منهم ، ثم رجعوا الى عكا ووصلت حملة منهم قدرها خمسمائة من صيدا الى جزين قرب مشغرا فانهال عليهم الميادنة من الجبال فلم يفلت منهم سوى ثلاثة اشخاص .

قال المؤرخون : لما قتل كند من اكناد الفرنج المشهورين على الطور تشاءموا بالمقام عليه ورجعوا الى عكا واختلفوا هناك فقال ملك الهنكر : الرأي انما نمضي الى دمشق ونحاصرها فاذا أخذناها ملكنا الشام ، فقال الملك النوّام قالوا : انما سمي بذلك لانه كان اذا نازل حصناً نام عليه حتى يأخذه أي انه كان صبوراً على حصار القلاع واسمه دستريج ومعناه المعلم بالريش لان اعلامه كانت الريش فقال : نمضي الى مصر فان العساكر مجتمعة عند العادل ومصر خالية ، فأدى هذا الاختلاف الى انصراف ملك الهنكر مغاضباً الى بلده فتوجهت باقي عساكرهم الى دمياط فوصلوها ، والعادل نازل على خربة اللصوص بالشام وقد وجه بعض عساكره الى مصر . وأقام العادل بمرج الصفر وأرسل الى ملوك الشرق مستنجداً لعساكرهم . ثم سار الفرنج الى الديار المصرية ونزلوا على دمياط وسار الملك الكامل بن الملك العادل من مصر ونزل قبالتهم وارسل الملك العادل العساكر التي عنده لدفعهم .

وخرب المعظم قلعة الطور (٦١٥) بعد ان غُرّم المسلمون على بنائها اموالاً كثيرة واشتغلت فيها جيوش وذلك مخافة ان تكون سبباً للاستيلاء على دمشق . ولما مات الملك الظاهر صاحب حلب وأُجلس ابنه العزيز في المملكة وكان طفلاً طمع صاحب بلاد الروم كيكاوس في الاستيلاء على حلب وكان موت الملك ونصب طفل من ابنائه سبباً كبيراً لطمع اعداء المملكة بأخذها . فاستدعى الملك الافضل صاحب سميساط واتفق معه كيكاوس ان يفتح حلب وبلادها ويسلمها الى الافضل ، ثم يفتح البلاد الشرقية التي بيد الملك الاشرف بن الملك العادل ويتسلمها كيكاوس وتحالفا على ذلك فاستولى

كيكاوس على رعبان وسلمها الى الافضل ، فمالت اليه قلوب أهل البلاد لذلك ، ثم سار الى تل باشر فأخذها لنفسه فنفر الافضل منه وتغيرت خواطر اهل البلاد ، ووصل الاشرف الى حلب لدفع كيكاوس عن المملكة ، ووصل اليه بها الامير مانع بن حديثة أمير العرب في جمع عظيم ، وكان كيكاوس سار الى منبج وتسلمها لنفسه ، واتقع بعض عسكر الاشرف مع عسكر كيكاوس فانهزمت مقدمة هذا فولى كيكاوس منهزماً ، ثم حاصر الاشرف تل باشر واسترجعها مع رعبان وغيرها وتوجه الافضل الى سميساط . وفي هذه السنة ورد الامر الى المعتمد والي دمشق بالاهتمام والاستعداد واستخدام الرجال وتخريب دروب قصر حجاج والشاغور وطرف البساتين ونقل غلة داريا الى القلعة وتغريق اراضيها بالماء فان الفرنج منتظرون قصدها . والتقى المعظم بالفرنج على القيمون فنصر عليهم وقتل منهم مقتلة عظيمة وأسر من الداوية .

* * *

وفاة العادل } توفي الملك العادل في عالقين في الجيدور (٦١٥) وكان نازلاً بمرج الصفر وقد ارسل العساكر الى مصر وولده الكامل بالديار المصرية ومدة ملكه نحو ١٩ سنة . وكان حازماً متيقظاً غزير العقل سديد الآراء ذا مكر وخديعة ، صبوراً حليماً يسمع ما يكره ويغضي عنه ، وأتته السعادة واتسع ملكه وكثرت ذريته ، وخلف ستة عشر ذكراً عدا البنات ، ورأى في اولاده ما يحب « ولم ير احد من الملوك الذين اشتهرت أخبارهم في اولاده من الملك والظفر ما رآه الملك العادل في اولاده » وقد خلف العادل آثاراً مهمة في البلاد التي تولاها لا يزال بعضها ماثلاً في البلاد ، وطهر جميع ولاياته من الكرخ الى همدان والجزيرة والشام ومصر والحجاز واليمن من النساء والخمور والخواطي والقمار والمخانيث والمكوس والمظالم وكان الحاصل من هذه الجهات من دمشق على الخصوص مائة الف دينار . واستمتع العادل بالملك وخدم الدولة خدمة طيبة وساعده على ذلك ضعف الصليبيين عن الحرب بعد ايقاع اخيه بهم وتشتت كلمة أبناء صلاح الدين .

ولما هلك العادل لم يكن عنده احد من اولاده حاضراً فحضر اليه ابنه الملك المعظم عيسى وكان بنابلس وكتم موته ، وأخذه ميتاً في محفة وعاد به الي دمشق ،

واحتوى المعظم على جميع ما كان لابيه من الجواهر والسلاح والخيول وغير ذلك ، وكان في خزائنه سبعمائة الف دينار ، وحلف له جميع الناس وكتب الى الملوك من اخوته وغيرهم يخبرهم بموته ، ولما بلغ الكامل موت أبيه وهو في قتال الفرنج عظم عليه جداً واختلفت العساكر عليه ، فتأخر عن منزلته ، وطمعت الفرنج ونهبت بعض اثقال المسلمين ، وكان في العسكر عماد الدين احمد المشطوب وكان مقدماً عظيماً في الاكراد الهكارية ، فعزم على خلع الملك الكامل من السلطنة ، وحصل في العسكر اختلاف كثير ، حتى عزم الملك الكامل على مفارقة البلاد واللحوق باليمن . وبلغ الملك المعظم ذلك رحل من الشام ووصل الى أخيه الكامل وأخرج عماد الدين ونفاه من العسكر الى الشام فانتظم امر الملك الكامل ، وقويت مضايقة الفرنج لدمياط وضعف اهلها بسبب الفتنة التي حصلت في عسكر الكامل من ابن المشطوب .

وكان العادل قد قسم البلاد في حياته بين اولاده فجعل بمصر الكامل محمداً وبدمشق والقدس وطبرية والأردن والكرك وغيرها من الحصون المجاورة لها ابنه المعظم عيسى ، وجعل بعض ديار الجزيرة وميافارقين وخلاط واعمالها لابنه الاشرف موسى ، واعطى الرها لولده شهاب الدين غازي ، واعطى قلعة جعبر لولده الحافظ أرسلان شاه . فلما توفي ثبت كل منهم في المملكة التي اعطاه اياها ابوه واتفقوا اتفاقاً حسناً ولم يجر بينهم من الاختلاف ما جرت العادة ان يجري بين اولاد الملوك بعد آبائهم بل كانوا كالنفس الواحدة كل منهم يثق بالآخر بحيث يحضر عنده منفرداً من عسكره ولا يخافه . قال ابن الاثير : « فلا جرم زاد ملكهم ورأوا من نفاذ الامر والحكم ما لم يره ابوهم ، ولعمري انهم نعم الملوك فيهم الحلم والجهاد والذب عن الاسلام » .

ودخلت سنة ٦١٦ والملك الاشرف مقيم بظاهر حلب يدبر امر جندها واقطاعاتها ، والملك الكامل بمصر في مقابلة الفرنج وهم محاصرون لثغر دمياط ، وكتب الكامل متواصله الى اخوته في طلب النجدة ، ثم سقطت دمياط في ايدي الفرنج ، فأرسل الملك المعظم عيسى وخرب اسوار القدس مخافة ان يصيبها ما اصاب دمياط ، ولما استولى الفرنج على دمياط عظم الامر على آل ايوب ، فكتب المعظم الى الواعظ

سبط ابن الجوزي : أُريد ان تحرض الناس على الجهاد وتعرفهم ماجرى على اخوانهم أهل دمياط ، واني كشفت ضياع الشام فوجدتها الفي قرية منها الف وستمائة املاك لاهلها وأربعمائة سلطانية ، وأُريد ان تخرج الدماشقة ليذبوا عن املاكهم الاصاغر منهم والاكابر . فأجابوا بالسمع والطاعة ثم تخلفوا ، فأخذا ثمن والخمس من أموالهم لتقاعسهم ، ثم فتح المعظم قيسارية وسار الى النهر ففتحه وهدمه وخرب في بلاد الفرنج .

☆ ☆ ☆

فتح الصليبيين دمياط وذلتهم بعد العزة | وفي سنة ٦١٨ قوي طمع الفرنج المتملكين دمياط في مدينة المنصورة التي بناها الكامل ، وأُشتد القتال بين الفريقين براً وبحراً وكتب الملك الكامل الى اخوته وأهل بيته يحثهم على انجاده فسار الملك المعظم عيسى صاحب دمشق والملك الاشرف صاحب البلاد الشرقية عسكر حلب وصاحب حماة وصاحب بعلبك وصاحب حمص فوصلوا القطر المصري والقتال مشتد بين المسلمين والفرنج ، ورسل الملك الكامل واخويه مترددة الى الفرنج في الصلح وقد بذل المسلمون لهم تسليم القدس وعسقلان وطبرية واللاذقية وجبلة وجميع مافتحه السلطان صلاح الدين من الساحل ماعدا الكرك والشوبك ، على ان يجيبوا الى الصلح ويسلموا دمياط الى المسلمين ، فلم يرض الفرنج بذلك وطلبوا ثلاثمائة الف دينار عوضاً عن تخريب أسوار القدس ، وقالوا لا بد من تسليم الكرك والشوبك .

وبينا الامر متردد في الصلح عبر جماعة من عسكر المسلمين في بحر المحلة الى الارض التي عليها الفرنج من بر دمياط فنجروا فجرة عظيمة من بحر النيل ، وكان ذلك في قوة زيادته ، فركب الماء تلك الارض وصار حائلاً بين الفرنج وبين دمياط ، وانقطعت عنهم الميرة والمدد فبعثوا يطلبون الامان على ان ينزلوا عن جميع ما بذله المسلمون لهم ويسلموا دمياط ويعقدوا الصلح . فنجت بلاد الشام بل بلاد مصر من الفرنج في هذه النوبة بفضل فرجة من النيل دهمتهم ولم يكونوا من المعرفة بحيث يقدرون منازلهم ومنازلهم ، فخابت آمالهم وخذلتهم قوتهم وتحكم فيهم من كانوا يستطيلون

عليهم و يشتطون في مطالبتهم . وكانت مدة اقامتهم في بلاد الاسلام ما بين الشام والديار المصرية أربعين شهراً وأربعة عشر يوماً .

ولما انكسر الفرنج على دمياط واسر ملكهم سان لوي وثلاثون الفاً من رجاله دخل الناس كما قال ابن ابي شامة كنيسة مريم بدمشق بفرحة وسرور ومعهم المغاني والمطربون فرحاً بما جرى وهموا بهدم الكنيسة قال : وبلغني ان النصارى ببعلبك سودوا وسخموا وجوه الصور في كنيستهم حزناً على ما جرى على الفرنج فعلم بهم الوالي وامر اليهود بصفعهم وضربهم واهانتهم .

* * *

اختلاف بين ابناء العادل وتقدم الكامل عليهم | وقصد الملك المعظم عيسى حماة لان الملك الناصر صاحبها كان قد التزم له بمال يحمله اليه اذا ملك حماة فلم يف ، ونزل بعرين وغلقت ابواب حماة فجرى بينهما قتال قليل . ثم ارتحل الملك المعظم الى سلمية فاستولى على حواصلها وولى عليها ، ثم توجه الى المعرة فاستولى عليها . وبلغ الملك الاشرف ما فعله اخوه المعظم بصاحب حماة فعظم عليه ذلك واتفق مع اخيه الكامل على الانكار على الملك المعظم وترحيله فارسل اليه الكامل ناصح الدين الفارسي فوصل الى الملك المعظم وهو بسلمية وقال له : السلطان يأمرك بالرحيل فقال : السمع والطاعة ، وكانت اطماعه قد قويت على الاستيلاء على حماة فرحل عنها مغضباً ، وتسلم المظفر سلمية من اخيه الملك الناصر ، واستقر بيد هذا حماة والمعرة وبعرين ، ثم سار الاشرف من مصر واستصحب معه خلعة وسناجق سلطانية من اخيه الكامل للملك العزيز صاحب حلب وعمره عشر سنين ، ووصل الاشرف بذلك الى حلب واركب العزيز في دست السلطنة ، ولما وصل الاشرف بالخلعة الى حلب اتفق مع كبراء الدولة الحلبية على تخريب قلعة اللاذقية فارسلوا عسكراً وهدموها الى الارض .

كان الملك الاشرف انعم على اخيه الملك المظفر غازي بخلاط الارمنية وهي مملكة عظيمة وكان قد حصل بين الملك المعظم عيسى صاحب دمشق وبين اخويه الكامل والاشرف وحشة بسبب ترحيله عن حماة ، أرسل المعظم وحسن لاخيه المظفر غازي صاحب خلاط العصيان على أخيه الاشرف ، فأجاب المظفر الى ذلك وخالف

اخاه الاشرف ، وكان قد اتفق مع المعظم والمظفر غازي صاحب اربل مظفر الدين كوكبوري بن زين الدين علي كجك ، وكان بدر الدين لولو منتميًا الى الاشرف فسار مظفر الدين وحصر الموصل عشرة ايام ليشغل الاشرف عن قصد اخيه بخلاط ، ثم رحل مظفر الدين عن الموصل لحصانتها وسار الاشرف الى خلاط وحصر اخاه شهاب الدين غازي فسلمت اليه مدينة خلاط ، وانحصر اخوه غازي بقلعتها الى الليل فنزل من القلعة الى اخيه الاشرف واعتذر اليه فقبل عذره وعفا عنه وأقره على ميافارقين وارتجع باقي البلاد منه ٠

وذكر ابن شامة في حوادث سنة ٦٢٠ ان الاشرف بن العادل عاد من مصر الى الشام قاصداً بلاده بالشرق فالتقاه اخوه المعظم ملك الشام وعرض عليه النزول بالقلعة فامتنع ٠ وبعد ان ذكر كيف عصا اخوه عليه في خلاط قال : انه كتب الى اخيه شهاب الدين غازي يطلبه فامتنع من المجيء اليه فكتب اليه : يا اخي لا تفعل انت ولي عهدي والبلاد والخزائن بحكمك فلا تخرب بيتك بيدك وتسمع كلام الاعداء فوالله ما ينفعوك ، فأظهر العصيان فجمع الاشرف عساكر الشرق وحلب وتجهز للمسير الى خلاط وكان صاحب حمص قد مال الى الاشرف فسار المعظم الى حمص ووصل الى حماة ونزلوا على بعرين فأقطع بلاد حماة وعاد الى حمص وخرج اليه العسكر فظفروا عليه ونهبوا اصحابه فعاد الى دمشق ولم يظفر بطائل ٠

وتوفي الملك الافضل (٦٢٢) نور الدين علي بن السلطان صلاح الدين يوسف وليس بيده غير سميساط وكان حسن السيرة وتجمعت فيه الفضائل والاخلاق الحسنة وكان مع ذلك قليل الحظ وله شعر جيد ٠

وفي سنة ٦٢٢ كان بأيدي الاسماعيلية بالشام ثمان قلاع وهي قلعة الكهف والعليقة والقدموس والخوابي والمنيقة ومصياف والرصافة والقليعة فان ابن صباح لم يمت حتى ملك بالشام جبل عاملة وتلك الحصون ٠ قال ابن ميسر : ان الذين بالشام منهم يقال لهم الحشيشية ، ومن كان بألموت يقال لهم الباطنية والملاحدة ، ومن كان بخراسان يقال لهم التعليمية وكلهم اسماعيلية ٠

وفي سنة ٦٢٣ سار الملك المعظم عيسى بن العادل صاحب دمشق ونازل حمص

وكان قد اتفق مع جلال الدين بن خوارزم شاه ببلاده الشرقية ثم رحل المعظم عن حمص الى دمشق وورد عليه اخوه الاشرف طلباً للصلح وقطعاً للفتن فبقي مكرماً ظاهراً وهو في الباطن كالأسير معه ولما رأى الاشرف حاله مع أخيه المظفر وانه لاخلاص له منه الا باجابته الى ما يريد أجابه (٦٢٤) كالمكره الى ما طلبه منه وحلف له ان يعاضده ويكون معه على اخيهما الكامل ، وان يكون معه على صاحبي حماة وحمص فلما حلف له على ذلك أطلقه المعظم . قال ابن الاثير : ان اتفاق الملوك اولاد الملك العادل ابي بكر بن أيوب كان سبباً لحفظ بلاد الاسلام وسُر الناس اجمعون بذلك . وفي سنة ٦٢٤ قدم رسول الانبرور ملك الفرنج البحرية على المعظم (بدمشق) بعد اجتماعه بالكامل يطلب منه البلاد التي كان فتحها عمه صلاح الدين فأغلظ له وقال : قل لصاحبك ما انا مثل العزيز ما له عندي الا السيف .

ولما استقر الاشرف ببلاده رجع عن جميع ما تقرر بينه وبين أخيه المعظم ، وتأول في أيمانه التي حلفها انه مكره ، ولما تحقق الكامل صاحب مصر اعتضاد أخيه المعظم بجلال الدين خاف من ذلك ، وكاتب الانبرور ملك الفرنج في ان يقدم الى عكا ليشغل سر أخيه المعظم عما هو فيه ، ووعد الانبرور ان يعطيه القدس ، فسار الانبرور الى عكا فبلغ المعظم ذلك فكاتب أخاه الاشرف واستعطفه .

قال ابن الاثير : ان الكامل لما سار من مصر الى دمشق خاف المعظم ان يأخذ دمشق منه فأرسل الى عمه الاشرف يستنجده ، ويطلبه ليحضر عنده بدمشق فسار اليه جريدة فدخل دمشق ، فلما سمع الكامل بذلك لم يتقدم اليه لان البلد منيع وقد صار به من يمنعه ويحميه ، وأرسل اليه الاشرف يستعطفه ويعرفه انه ما جاء الى دمشق الا طاعة وموافقة لاغراضه والاتفاق معه على منع الفرنج عن البلاد فأعاد الكامل الجواب يقول : انني ما جئت الى هذه البلاد الا بسبب الفرنج فانهم لم يكن في البلاد من يمنعهم عما يريدونه ، وقد عمروا صيدا وبعض قيسارية ولم يمنعوا ، وأنت تعلم ان عمنا السلطان صلاح الدين فتح البيت المقدس فصار لنا بذلك الذكر الجميل على تقضي الاعصار وممر الايام ، فان أخذه الفرنج حصل لنا من سوء الذكر وقبح الاحدوثة ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذي ادخره عمنا ، واي وجه يبقى لنا عند الناس وعند

الله تعالى ، ثم ما يقنعون حينئذٍ بما أخذوه و يتعدون الى غيره ، وحيث قد حضرت انت فانا أعود الى مصر واحفظ أنت البلاد ، ولست بالذي يقال عني اني قاتلت اخي او حصرته حاشا لله تعالى وتأخر عن نابلس الى الديار المصرية .

وانتزع هذه السنة الاتابك طغر يل الشغر وبكاس من الملك الصالح احمد ابن الملك الظاهر وعوضه عنها بعينتاب والراوندان وفيها توفي الملك المعظم عيسى ابن العادل وكان شجاعاً عالماً وعسكره في غاية التجمل يجامل أخاه الملك الكامل و يخطب له ببلاده ولا يذكر اسمه معه ولا يحب التكلف والعظمة . ذكر سبط ابن الجوزي : ان المعظم كان في ايام الفتح من الفرنج يرتب النيران على الجبال من باب نابلس الى عكا وعلى عكا جبل قريب منها يقال له الكرمل كان عليه المنورون وبينهم و بين الجواسيس علامات ، وكان له في عكا أصحاب أخبار واكثرهم نساء الخيالة فكانت طاقاتهم في قبالة الكرمل فاذا عزم الفرنج على الغارة فتحت المرأة الطاقة ، فان كان يخرج مائة فارس اوقدت المرأة شمعة واحدة ، وان كانوا مائتين شمعتين ، وان كانوا يريدون قصد حوران او ناحية دمشق اشارت الى تلك الناحية ، وكذا الى نابلس ، فكان قد ضيق على الفرنج الطرق وكان يعطي النساء والجواسيس في كل فتح جملة كثيرة .

وترتب في مملكة المعظم واعمالها ولده الناصر صلاح الدين داود وقام بتدبير مملكته مملوك والده واستاذ داره الامير عز الدين ايبك المعظمي وكان لايبك صرخد .

ولم يطل الامر على الناصر داود في دمشق حتى طلب منه عمه الكامل صاحب مصر حصن الشوبك فلم يعطه الناصر ذلك ولا اجابه اليه ، فسار الملك الكامل من مصر الى الشام ونزل على تل العجول بظاهر غزة وولى على نابلس والقدس وغيرهما من بلاد ابن اخيه الملك الناصر داود ، فاستنجد الناصر بعمه الملك الاشرف فجاءه من بلاده الشرقية فوقع الاتفاق ان يسير الناصر داود والملك المجاهد شيركوه مع الملك الاشرف الى نابلس فيقيم الناصر داود بنابلس ، و يتوجه الاشرف الى اخيه الكامل الى غزة ؛ شافعاً في ابن اخيهما الناصر داود فنعلوا ذلك ، ولما وصل الاشرف الى اخيه الكامل وقع اتفاقهما في الباطن على اخذ دمشق من ابن اخيهما الناصر داود ، وتعويضه عنها بحران والرها والرقة من بلاد الاشرف ، وان تستقر دمشق للاشرف

و يكون له الى عقبة فيق ، وما عدا ذلك من بلاد دمشق يكون للكامل وان ينتزع حماة من الناصر قليج ارسلان و يعطي المظفر محمود بن الملك المنصور ، وان ينتزع سلمية من المظفر محمود وكانت اقطاعه و يعطي لشيركوه حمص . ووقعت سنة ٦٢٥ وقعة بين المسلمين والفرنج على باب صور فلم يسلم من الفرنج سوى ثلاثة انفس وكانت وقعة عظيمة وذلك لتحرك الفرنج في الساحل بسبب انقضاء الهدنة .

* * *

الحملة الصليبية السادسة — وهذه هي الحملة الصليبية السادسة (١٢٢٨—١٢٢٩م) وكانت بزعامة الانبرور فريدريك الثاني وكان سياسيًا داهية فلم يدخل في حرب مع المسلمين بل فاوض الكامل وتسلم القدس وبيت لحم والناصرة لمدة عشر سنين واليك ما قاله مؤرخونا في هذا الشأن :

استولى الانبرور فريدريك صاحب صقلية وبولية وانكبرديه على صيدا ، وكانت مناصفة بين المسلمين والفرنج وسورها خراب فعمر الفرنج سورها واستولوا عليها ، وتم لهم ذلك بسبب تخريب الحصون القريبة منها تبنين وهونين وغيرهما . و بينا كانت الرسل تتردد بين الملك الكامل وبين الانبرور رحل الناصر داود وهو بنابلس الى دمشق وكان قد لحقه بالغور عمه الاشرف وعرفه ما امر به عمه الكامل ، وانه لا يمكنه الخروج عن مرسومه فلم يلتفت الناصر الى ذلك فسار الاشرف في اثره وحصره بدمشق ، وكانت الفتنة بين الملكين الكامل والناصر قبالة باب الجديد وفي الميدان وما بين ذلك والنصر فيه لاهل دمشق ، ووقع الحريق والنهب في باب توما ، وأحرقت بعض الطواحين ونهبت الدور ووقع الجرح والقتل وخربوا بعد ايام قريات من قرى الغوطة وأخرجوا منها اهلها مثل جو بر وجديا وزملكا وسقبا وغيرها . قال في الذيل : وسمعت والدي وجماعة من المشايخ الذين شاهدوا الحصارات المتقدمة في دولة اولاد صلاح الدين يحكون انهم ما رأوا اشد من هذا الحصار وفي هذا الحصار أحرق الناصر للتحصن مدرسة اسد الدين وخانقاه خاتون وما يليها من الخانات والدور والبساتين والحمامات والخانقاهات .

طال الامر ولم يجد الملك الكامل بدأ من المهادنة فأجاب الانبرور الى تسليم

القدس اليه ، على ان تستمر اسواره خراباً ولا يعمرها الفرنج ، ولا يتعرضوا الى قبة الصخرة ولا الى الجامع الاقصى ، و يكون الحكم في الرساتيق الى والي المسلمين و يكون لهم من القرى ما هو على الطريق من عكا الى القدس فقط ، ووقع الاتفاق على ذلك وتحالفا عليه وتسلم الانبرور القدس فقامت القيامة في جميع بلاد الاسلام واشتدت العظائم ، وأقيمت المآتم وقال الوعاظ والعلماء يا خجلة ملوك المسلمين لمثل هذه الحادثة . قال ابن ابي شامة : جاءنا الخبر بان الكامل اخلى البيت المقدس من المسلمين وسلمه الى الفرنج فصالحهم على ذلك وعلى تسليم جملة من القرى فتسلموه ودخلوه مع ملكهم الانبرور ، وكان هذه من الوصمات التي دخلت على المسلمين ، وكانت سبباً في ان توغرت قلوب اهل دمشق على الكامل ومن معه ووجد بها الناصر طريقاً في الشناعة . وقد ذكر سبط ابن الجوزي نكتة في تساهل الغالبين والمغلوبين اذ ذاك قال ما نصه : كان الكامل قد تقدم الى القاضي شمس الدين قاضي نابلس ان يأمر المؤذنين ما دام الانبرور في القدس ان لا يصعدوا المنائر ولا يؤذنوا في الحرم ، فأنسي القاضي ان يعلم المؤذنين وصعد عبد الكريم المؤذن في تلك الليلة في وقت السحر والانبرور نازل في دار القاضي فجعل يقرأ الآيات التي تختص بالنصارى مثل قوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد ذلك عيسى ابن مريم » ونحو هذا فلما طلع الفجر استدعى القاضي عبد الكريم وقال له : ايش عملت السلطان رسم كذا وكذا قال : فما عرفني النوبة فلما كانت الليلة الثانية ما صعد عبد الكريم المأذنة ، فلما طلع الفجر استدعى الانبرور القاضي وكان قد دخل القدس في خدمته وهو الذي سلم اليه القدس فقال له : يا قاضي اين ذاك الرجل الذي طلع البارحة المنارة وذكر ذاك الكلام ، فعرفه ان السلطان اوصاه ، فقال الانبرور : اخطأتم ياقاضي تغيرون انتم شعاركم وشرعكم ودينكم لاجلي ، فلو كنتم عندي في بلادي هل ابطل ضرب الناقوس لاجلكم ، الله الله لا تفعلوا هذا ، اول ما تنقصون عندنا ، ثم فرق في القوام والمؤذنين والمجاورين جملة اعطى كل واحد عشرة دنانير ولم يقم بالقدس سوى ليلتين وعاد الى يافا وخاف من الداوية فانهم طلبوا قتله .

وكان هذا الانبرور مثل اكثر ملوك ايطاليا يحسنون العربية فان فريدريك هذا مثل غليام الذي ذكر ابن جبير انه كان يحسن العربية كان كثير الثقة

بالمسلمين يستخدمهم في بلاطه ومنهم امراء دولته ، وهو يتشبه بامراء المسلمين ويعني بالعلماء كما كان يعني روجر ملك تلك البلاد بالعلم وهو الذي قدم له الشريف الادريسي كرة ارضية من الفضة وافضل عليه كثيراً .

* * *

اختلافات جديدة بين آل العادل

بعد ان « أحيط بدمشق من كل جانب وحل بها من الخراب والفساد العجائب .» واشتد عليها الحصار عوض الناصر داود عنها بالكرك والبلقاء والصلت والاغوار والشوبك ، واخذ الكامل لنفسه البلاد الشرقية التي كانت عينت للناصر وهي حران والرها وغيرهما التي كانت بيد الاشرف ، ثم نزل الناصر داود عن الشوبك وسأل عمه الكامل في قبولها فقبلها ، وتسلم دمشق الاشرف ، وتسلم الكامل من الاشرف البلاد الشرقية المذكورة ولما سلم الملك الكامل دمشق الى اخيه الاشرف سار من دمشق ونزل على مجمع المروج ثم نزل على سلمية وارسل عسكراً نازلوا حماة وبها صاحبها الناصر قليج ارسلان وكان فيه جبن . وكان في العسكر الذين نازلوه شيركوه صاحب حمص فاستسلم اليه اخذه الى الملك الكامل وهو نازل على سلمية فشتمه وامر باعتقاله وان يتقدم الى نوابه بحماة بتسليمها الى الكامل ، فارسل الناصر قليج ارسلان علامته الى نوابه بحماة ان يسلموها الى عسكر السلطان الملك الكامل ، فامتنع من ذلك الطواشيان بشر ومرشد المنصوريان ، وكان بقلعة حماة اخ للملك الناصر يلقب الملك المعز بن الملك المنصور صاحب حماة فملكوه حماة ، وقالوا للملك الكامل : لا نملك حماة لغير احد من اولاد تقي الدين . فارسل الملك الكامل يقول للملك المظفر محمود صاحب حماة اتفق مع غلمان ابيك وتسلم حماة وكان المظفر نازلاً على حماة من جملة العسكر الكاملي فراسل المظفر الحكام بحماة فحلفوا له وواعدوا المظفر ان يحضر بجماعته خاصة وقت السحر الى باب النصر ليفتحوه له فدخل البلد وتسلم القلعة ، وفوض تدبير حماة الى الامير سيف الدين علي الهدباني ، ولما استقر المظفر في ملك حماة انتزع الكامل سلمية منه وسلمها الى شيركوه صاحب حمص ورسم الكامل لاخيه المظفر ان يعطي اخاه الناصر قليج ارسلان بعرين بكمالها ، ولم يبق بيد المظفر غير حماة والمعرة ، ثم رحل الكامل عن سلمية الى البلاد

الشرقية التي اخذها من اخيه الاشرف عوضاً عن دمشق وارسل الاشرف اخاه صاحب بصرى الملك الصالح اسماعيل بن الملك العادل بعسكر فنازل بعلبك وبها صاحبها الملك الامجد بهرام شاه ، ولما طال الحصار عليها سلمها الامجد ، وعوضه الاشرف عنها الزبداني وقصير دمشق ومواضع أخر . وقصد الفرنج حصن بارين ونهبوا بلاده واعماله واسروا وسبوا ومن جملة من ظفروا به طائفة من التركمان كانوا نازلين في ولاية بارين فأخذوا الجميع ولم يسلم منهم الا النادر الشاذ .

وفي سنة ٦٢٧ شرع صاحب حمص شيركوه في عمارة قلعة شميميس فأراد الملك المظفر صاحب حماة منعه من ذلك ثم لم يمكنه ذلك لكونه بامر الملك الكامل . وفيها جمعت الفرنج من حصن الاكراد وقصدوا حماة فخرج اليهم صاحبها المظفر محمود والتقاهم عند قرية بين حماة وبعرين يقال لها افيون وكسروهم كسرة عظيمة .

وفي سنة ٦٢٨ سار الكامل من مصر الى دمشق فسلمية واجتمع معه ملوك اهل بيته في جمع عظيم ثم سار بهم الي آمد وحصرها وتسلمها من صاحبها المسعود بن الملك الصالح محمود ، وكان سبب انتزاع الكامل آمد من المسعود لسوء سيرته وتعرضه لحريم الناس ، وحاصر المظفر صاحب حماة اخاه الناصر ببعرين بأمر العادل خوفاً من ان يسلمها للفرنج لضعفه عنهم ، وانتزعها منه واكرمه وسأله الاقامة عنده بحماة فسار الى أخيه الكامل في مصر . وسار الكامل من مصر (٦٣١) الى قتال كيقباذ ملك الروم وقد استصحب معه ستة عشر ملكاً من ملوك الشام والجزيرة من اخوته وآل بيته في عسكرهم وقطعوا الفرات وانهزم العسكر الكاملي على خرتبرت ، وذلك لان الملوك الذين في خدمته خامروا عليه (خاتلوه) وتقاعدوا عن الحرب لان شيركوه صاحب حمص سعى اليهم وقال : ان السلطان ذكر انه متى ملك بلاد الروم فرقها على الملوك من اهل بيته عوض ما بايديهم من الشام ، ويأخذ الشام جميعه لينفرد بملك الشام ومصر ، فتقاعدوا عن القتال وفسدت نياتهم فرجع الكامل الى مصر وعاد كل واحد من الملوك الى بلده .

وفي سنة ٦٣٣ سار الناصر داود من الكرك الى بغداد ملتجئاً الى الخليفة المستنصر لما حصل عنده من الخوف من عمه الكامل . وسار الكامل من مصر واسترجع

حرّان والرُّها من كيقباذ صاحب الروم ، وكان استولى عليهما في السنة الماضية بعد رحيل الكامل عن بلاده ، وبدت في هذه السنة طلائع الشر . قال سبط ابن الجوزي : وكانوا في مئة طلب كل طلب خمسمائة فارس .

وتوفي العزيز صاحب حلب حفيد صلاح الدين يوسف بن ايوب وكان حسن السيرة في رعيته عن ثلاث وعشرين سنة واشهر وتقرر في الملك بعده ولده الملك الناصر يوسف وعمره نحو سبع سنين وقام بتدبير الدولة شمس الدين لولو الارمني وعز الدين عمر بن مجلي وجمال الدين اقبال الخاتوني ، والمرجع في الامور الى والدة العزيز ضيفة خاتون بنت الملك العادل . ذكروا انه لما ولدت ضيفة خاتون ابنة الملك العادل ابنها العزيز هذا في سنة عشر بعد الستمائة بقيت حلب شهرين مزينة والناس في اكل وشرب ولم يبق صنف من اصناف النـاس الا افاض عليهم السلطان النعم ووصلهم بالاحسان وسير الى المدارس والخوانق الغنم والذهب وامرهم ان يعملوا الولائم ثم فعل ذلك مع الاجناد والغلمان وعمل للنساء دعوة مشهودة اغلقت لها المدينة واما داره بالقلعة فزينها بالجواهر واواني الذهب ولما ختن ولده قدم له تقادم جليلة فلم يقبل منها شيئاً رفقاً بهم لكن قبل قطعة سمندل ذراعين في ذراع فغمسوها في الزيت واوقدوها حتى نفد الزيت . وفي ذلك برهان جلي على رفق آل ايوب برعيتهم وحبهم لهم . وقويت الوحشة بين الكامل وبين اخيه الاشرف ، وكان ابتداؤها ما فعله شيركوه صاحب صاحب حمص لما قصد الكامل بلاد الروم فاتفق الملك الاشرف مع صاحبة حلب ضيفة خاتون اخت الكامل ومع باقي الملوك على خلاف الكامل خلا المظفر صاحب حماة ، فلما امتنع تهدده الملك الاشرف بقصد بلاده وانتزاعها منه فقدم خوفاً من ذلك الى دمشق ، وحلف للملك الاشرف ووافقه على قتال الكامل وكاتب الاشرف كيخسرو صاحب بلاد الروم واتفق معه على قتال اخيه الكامل ان خرج من مصر .

وتوجه عسكر حلب مع المعظم توران شاه عم العزيز فحاصروا بغراس وكان قد عمرها الداوية بعد ما فتحهـا صلاح الدين يوسف وخربها واشرف عسكر حلب على اخذها ثم رحلوا عنها بسبب الهدنة مع صاحب انطاكية ، ثم ان الفرنج اغاروا على ربض دربساك وهي حينئذ لصاحب حلب فوقع بهم عسكر حلب وولى الفرنج منهزمين وكثر

فيهم القتل والاسر وعاد عسكر حلب بالاسرى ورؤوس الفرنج وكانت هـذه الوقعة من اجل الوقائع ·

توفي الملك الاشرف (٦٣٥) وتملك دمشق بعده اخوه الملك الصالح اسمعيل بعهد منه · قال ابو الفداء : وكان الاشرف مفرط السخاء يطلق الاموال الجليلة النفيسة ، وكان ميمون النقيبة لم تنهزم له راية ، وكان سعيداً و يتفق له اشياء خارقة للعقل · وعلل الاشرف سبب الوحشة بينه وبين اخيه الكامل صاحب مصر ان الاشرف لم يبق بيده غير دمشق وبلادها وكانت لا تفي بما يحتاجه وما يبذله وقت قدوم اخيه الكامل الى دمشق ، ولما فتح الكامل آمد وبلادها لم يزده منها شيئًا ، وبلغه ان الكامل يريد ان ينفرد بمصر والشام و ينتزع دمشق منه فتغير بسبب ذلك ولما بلغ الكامل في مصر وفاة اخيه الملك الاشرف سار الى دمشق وكان الملك الصالح اسمعيل قد استعد للحصار ووصلت اليه نجدة الحلبيين وصاحب حمص فنازل الكامل دمشق واخرج الملك الصالح النفاطين فاحرق العقيبة جميعها وما بها من خانات واسواق ، وفي مدة الحصار وصل من عند صاحب حمص رجالة يزيدون على خمسين رجلاً نجدة للصالح اسمعيل فظفر بهم الكامل فشنقهم بين البساتين عن آخرهم ، وحال نزول الكامل على دمشق ارسل توقيعاً للمظفر صاحب حماة بسلمية ثم سلم الملك الصالح اسمعيل دمشق الى الكامل وتعوض عنها بعلبك والبقاع مضافاً الى بصرى · قال ابن ابي شامة في هذا الحصار : انه كان اكثر خراباً في ظاهر البلد وحريقاً ومصادرة واقل غلاءً ولم تطل مدته فان الصلح جرى ووافق اليوم الذي كسرت فيه الفرنج على دمياط واليوم الذي فتحت فيه آمد ·

* * *

وفاة الملك الكامل وحال الشام بعده

توفي الكامل بدمشق هذه السنة (٦٣٥) بعد ان حكم في مصر نائباً وملكاً نحو اربعين سنة ، واشبه حاله حال معاوية بن ابي سفيان فانه حكم في الشام نائباً نحو عشرين سنة وملكاً نحو عشرين · وكان الكامل ملكاً جليلاً مهيباً حازماً حسن التدبير أمنت الطرق في ايامه وكان يباشر تدبير المملكة بنفسه · قال ابن خلكان : كان سلطاناً عظيم القدر جميل الذكر ، محباً للعلماء متمسكاً بالسنة النبوية حسن الاعتقاد ، معاشراً لارباب الفضائل حازماً في

اموره ، لا يضع الشيء الا في موضعه من غير اسراف ولا اقتار . وكان يخطب له بمكة : « مالك مكة وعبيدها، واليمن وزبيدها ، ومصر وصعيدها ، والشام وصناديدها والجزيرة ووليدها ، سلطان القبلتين ، ورب العلامتين ، خادم الحرمين الشريفين الملك الكامل ابو المعالي ناصر الدين محمد خليل امير المؤمنين » .

وكان مع الكامل بدمشق الملك الناصر داود صاحب الكرك فاتفقت آراء الامراء على تحليف العسكر للملك العادل ابي بكر بن الكامل ، وهو حينئذ نائب ابيه بمصر فحلف له جميع العسكر واقاموا في دمشق الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل نائباً عن العادل ابي بكر بن الكامل ، وتقدمت الامراء الى الملك الناصر داود بالرحيل عن دمشق وهددوه ان اقام فرحل الى الكرك وتفرقت العساكر . وارسل صاحب حمص فارتجع سلمية من صاحب حماة ، وقطع القناة الواصلة من سلمية الى حماة فيبست بساتينها ، ثم عزم على قطع نهر العاصي عن حماة فسد مخرجه من بحيرة قدس بظاهر حمص فبطلت نواعير حماة والطواحين .

لما بلغ الحلبيين موت الكامل اتفقت آراؤهم على اخذ المعرة ثم اخذ حماة من صاحبها المظفر لموافقته الملك الكامل على قصدهم ، ووصل عسكر حلب الى المعرة وانتزعوها من يد المظفر وحاصروا قلعتها ، وخرجت المعرة عن ملك المظفر ، ثم سار العسكر الحلبي ونازلوا حماة ونهبوا بلادها ، ولما لم يبق بيد المظفر غير حماة وبعرين خاف ان تخرج بعرين بسبب قلعتها فتقدم بهدمها فهدمت الى الارض .

وجرى بين الناصر داود صاحب الكرك وبين الملك الجواد يونس المتولي على دمشق مُصاف بين جينين ونابلس ، انتصر فيه الجواد يونس وانهزم الناصر داود هزيمة قبيحة ، وقوي الملك الجواد بسبب هذه الوقعة وكان في عسكر مصر والشام وتمكن من دمشق ونهب عسكر الناصر واثقاله . واستولى الملك الصالح ايوب بن الكامل على دمشق واعمالها بتسليم الجواد يونس واخذ العوض عنها سنجار والرقة وعانة ، ولما استقر ملك الملك الصالح بدمشق وردت عليه كتب المصريين يستدعونه الى مصر ليملكها فذهب وجعل نائبه في دمشق ولده الملك المغيث فتح الدين عمر وكان الجواد لما يئس من ملك الشام فرق الضياع على الامراء وخلع عليهم ، وفرغ الخزائن وكان

فيها تسعمائة الف دينار . وفي رواية انه فرق من خزائن دمشق ستة آلاف الف دينار وخلع خمسة آلاف خلعة .

وفي سنة ٦٣٧ هاجم الملك الصالح اسمعيل صاحب بعلبك ومعه شيركوه صاحب حمص مدينة دمشق وحصروا القلعة فخربت بذلك دور ومدارس تحت القلعة ثم تسلم الصالح اسمعيل القلعة وحاصر الصالح نجم الدين ايوب حمص ولما بلغ الصالح ايوب استيلاء عمه اسمعيل على دمشق رحل من نابلس الى الغور وكان هناك قاصداً الى مصر للاستيلاء عليها ففسدت نيات عساكره عليه وشرعت الامراء ومن معه من الملوك يحركون نقاراتهم ويرحلون مفارقين الصالح ايوب الى الصالح اسمعيل بدمشق، فلم يبق عند الصالح ايوب بالغور غير مماليكه فاصبح لا يدري ما يفعل ولا له موضع يقصده فامسكه الناصر داود صاحب الكرك واعتقله عنده مبجلاً . وقصد الناصر داود القدس وكان الفرنج قد عمروا قلعتها بعد موت الكامل فحاصرها وفتحها وخرب القلعة وضرب برج داود . وتوفي الملك المجاهد شيركوه صاحب حمص وكان عسوفاً لرعيته وملك حمص نحو ست وخمسين سنة ملكه اياها صلاح الدين يوسف .

انقراض الايوبيين

« وظهور دولة المماليك البحرية وظهور التتر »
— من سنة ٦٣٧ الى سنة ٦٩٠ —

ظهور الخوارزمية

بينما كان ابناء ايوب يتقاتلون على الملك والصليبيون قد أخلدوا الى السكون بعد هدنة صاحب مصر معهم واكتفوا بما ملكوه من مدن الساحل والقدس ، جاء الخوارزمية يعيثون في البلاد و يروعون أهلها ويقتلون فيهم ويخربون العامر . والخوارزمية عسكر جلال الدين منكبرتي احد ملوكهم الذي استولى على ايران والعراق وأذربيجان وكرجستان وكانت عاصمة ملكه تبريز . جاؤا سنة ٦٣٤ الى البلاد الشرقية فاستخدمهم الملك الصالح أيوب بن الكامل وكان في آمد وحصن كيفا وحران وغيرها نائباً عن ابيه جاؤا بعد ان قتلوا ملكهم الى كيقباذ ملك بلاد الروم وخدموا عنده وكان فيهم عدة مقدمين ، فلما مات كيقباذ وتولى ابنه كيخسرو قبض على بركت خان اكبر مقدميهم ، ففارقت الخوارزمية حينئذ خدمته وساروا عن الروم ونهبوا ما كان على طريقهم ، فاستمالهم الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل واستأذن أباه في استخدامهم فأذن له واستخدمهم ، فما زال هؤلاء العسكر يتقدمون حتى نازلوا حمص مع صاحب حماة الملك المظفر .

كثر عيث الخوارزمية وفسادهم بعد مفارقة الصالح أيوب البلاد الشرقية وساروا الى قرب حلب (٦٣٨) فخرج اليهم عسكر حلب مع الملك المعظم تورانشاه ابن صلاح

الدين ووقع بينهم القتال فانهزم الحلبيون هزيمة قبيحة وقتل منهم خلق كثير ، منهم الملك الصالح بن الافضل بن السلطان صلاح الدين ، وأُسر مقدم جيش المعظم ، واستولى الخوارزميون على اثقال الحلبيين وأُسروا منهم عدة كثيرة . وكانوا يقتلون بعض الاسرى ليشتري غيره نفسه منهم بماله فأخذوا بذلك شيئاً كثيراً . ثم نزلت الخوارزمية بعد ذلك على حيلان وكثر عيثهم وفسادهم ونهبهم في بلاد حلب وأحرقوا الاقوات التي في القرى ودخلوا مدينة حلب واستعد أهلها للحصار ، وارتكب الخوارزمية من الفواحش والقتل ما ارتكبه التتر ، ثم سار الخوارزمية الى منبج وهجموها بالسيف وفعلوا من القتل والنهب مثل ما تقدم ورجعوا الى بلادهم وهي حران وما معها . ووصلوا الى الجبول ثم الى تل عزاز ثم الى سرمين ودخلوا دار الدعوة المنسوبة الى الاسماعيلية ووافوا المعرة وهم ينهبون ما يجدونه ، وقد جفل الناس من بين أيديهم .

وكان قد وصل الملك المنصور ابراهيم بن شيركوه صاحب حمص ومعه عسكر من عسكر الصالح اسماعيل المستولي على دمشق نجدة للحلبيين ، فاجتمع الحلبيون مع صاحب حمص المذكور وقصدوا الخوارزمية واستمرت الخوارزمية على ما هم عليه من النهب حتى نزلوا على شيزر ونزل عسكر حلب على تل السلطان ثم رحلت الخوارزمية الى جهة حماة ولم يتعرضوا الى نهب لانتماء صاحبها الملك المظفر الى الملك الصالح أيوب ، ثم سارت الخوارزمية الى سلمية ثم الى الرصافة طالبين الرقة ، وسار عسكر حلب من تل السلطان اليهم ولحقتهم العرب فألقت الخوارزمية ما كان معهم من المكاسب وسيبوا الاسرى .

ووصلت الخوارزمية الى الفرات ولحقهم عسكر حلب وصاحب حمص قاطع صفين فعمل لهم الخوارزمية ستائر ووقع القتال بينهم الى الليل ، فقطع الخوارزمية الفرات وساروا الى حران فسار عسكر حلب الى البيرة وقطعوا الفرات منها ، وقصدوا الخوارزمية واتقعوا قريب الرها ، فولى الخوارزميون منهزمين وركب صاحب حمص وعسكر حلب أقفيتهم يقتلون و يأسرون . ثم سار عسكر حلب الى حران فاستولوا عليها ، وهربت الخوارزمية الى بلد عانة و بادر بدر الدين لولو صاحب الموصل الى

نصيبين ودارا وكانت للخوارزمية فاستولي عليهما ، وخلّص من كان بهما من الاسرى ، وكان منهم الملك المعظم توران شاه ابن السلطان صلاح الدين أسيراً في دارا من حين أسروه في كسرة الحلبيين ، واستولى عسكر حلب على الرقة والرها وسروج ورأس عين ومامع ذلك . واستولى صاحب حمص المنصور ابراهيم على بلد الخابور ثم سار عسكر حلب ووصل اليهم نجدة من الروم وحاصروا الملك المعظم بن الملك الصالح ايوب بآمد وتسلموها منه وتركوا له حصن كيفا وقلعة الهيثم .

***

اختلاف بني ايوب واعتضاد بعضهم بالفرنج وعودة الخوارزمية

كان الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل قد استولى بعد ملك دمشق على سنجار وعانة ، فباع عانة من الخليفة المستنصر بمال تسلمه منه وسار لولو صاحب الموصل وحاصر سنجار و يونس غائب عنها فاستولي عليها ولم يبق بيد يونس من البلاد شيء ، فسار على البرية الى غزة وارسل الى الملك الصالح ايوب صاحب مصر يسأله في المصير اليه فلم يجبه الي ذلك فسار يونس حينئذ ودخل الى عكا ، وأقام مع الفرنج فأرسل الصالح اسماعيل صاحب دمشق حينئذ وبذل مالاً للفرنج وتسلم الملك الجواد من الفرنج واعتقله ثم خنقه (٦٣٨) .

وكان قد قوي خوف الملك الصالح اسماعيل صاحب دمشق من ابن اخيه الصالح ايوب صاحب مصر فسلم الملك الصالح اسماعيل صفد والشقيف الى الفرنج ليعضدوه ويكونوا معه على ابن اخيه صاحب مصر مما لم يمهد له مثال في تاريخ بني ايوب حتى الآن اللهم الا ما كان من مفاوضة الكامل صاحب مصر لملك الفرنج سنة ٦٢٤ في ان يقدم الى عكا ليشغل سر اخيه المعظم عما هو فيه ووعده له باعطائه القدس ، وكان ذلك خديعة من الكامل لأخيه المعظم حتى لا يستنجد باحد من ملوك الاطراف عليه اذ لم يتم شيء من ذلك . وقد انكر على الصالح اسماعيل كل من شيخ الشافعية والمالكية بدمشق فعزلا من وظائفهما وسجنا بقلعة دمشق .

وكان في سنة ٦٤٠ مصاف بين الخوارزمية ومعهم الملك المظفر غازي صاحب ميافارقين وبين عسكر حلب ومعهم المنصور ابراهيم صاحب حمص وذلك بالقرب

من الخابور فانهزم الخوارزمية وصاحبهم اقبح هزيمة ونهب منهم عسكر حلب شيئاً كثيراً ونهبت وطاقات [1] الخوارزمية ونساؤهم . وتوفيت هذه السنة ضيفة خاتون والدة الملك العزيز وابنة الملك العادل ، وكانت تصرفت في ملك حلب تصرف السلاطين وقامت بالملك احسن قيام ، وكان عمر ابن ابنها الملك الناصر يوسف بن العزيز نحو ثلاث عشرة سنة فأشهد عليه انه بلغ وحكم واستقل بمملكة حلب وما هو مضاف اليها ، والمرجع في الامور الى جمال الدين اقبال الاسود الخصي الخاتوني .

وفي السنة التالية قصدت التتر بلاد صاحب الروم السلجوقي فاستنجد بالحلبيين فأرسلوا اليه نجدة مع ناصح الدين الفارسي فانهزم الروم والحلبيون . وسار الصالح وحاصر عجلون وقتل من عسكره يوم الزحف عليها فوق المائتين وغرم اربعمائة الف دينار على هذه الحملة ولم يقدر على فتحها . وفيها كانت المراسلة بين الصالح ايوب صاحب مصر والصالح اسماعيل صاحب دمشق في الصلح ، واتفق الصالح اسماعيل مع الناصر داود صاحب الكرك واعتضدا بالفرنج وسلما ايضاً الى الفرنج عسقلان وطبرية فعمر الفرنج قلعتيهما وسلما ايضاً اليهم القدس بما فيه من المزارات .

ووصلت الخوارزمية (٦٤٢) الى غزة باستدعاء الملك الصالح ايوب لنصرته على عمه الصالح اسماعيل ، وكان مسيرهم على حارم والروج الى اطراف بلاد دمشق حتى وصلوا الى بلاد غزة ودمروا بيت لحم ، ووصل اليهم عدة كثيرة من العساكر المصرية ، وأرسل الصالح اسماعيل عسكر دمشق مع شيركوه صاحب حمص ودخل عكا فاستدعى الفرنج على ما كان قد وقع عليه اتفاقهم ووعدهم بجزء من بلاد مصر وكان اعطاهم الشقيف فخرجت الفرنج بالفارس والراجل ، واجتمعوا ايضاً بصاحب حمص وعسكر دمشق والكرك ولم يحضر الناصر داود ذلك والتقى الفريقان بظاهر غزة فانهزم الفرنج فولى عسكر دمشق وصاحب حمص والكركيون وتبعهم عسكر مصر والخوارزمية فقتلوا منهم خلقاً عظيماً . قيل ان القتلى زادوا على الثمانمائة وانه اسر من الفرنج ثمانمائة . قال ابن ابي شامة : كسرت الفرنج ومن انضم اليهم من منافقي المسلمين كسرة عظيمة في عسقلان وغزة وغنم منهم اموال عظيمة وأسر من الفرنج خلق

(١) الوطاق الخيمة او مجموعة الخيام والمعسكر .

من ملوكهم وكبرائهم وقتل منهم مقتلة عظيمة . واستولى الملك الصالح ايوب صاحب مصر على غزة والسواحل والقدس ثم ارسل باقي عسكر مصر مع معين الدين بن الشيخ واجتمع اليه من بالشام من عسكر مصر والخوارزمية وساروا الى دمشق وحاصروها وبها صاحبها الملك الصالح اسمعيل وابراهيم بن شيركوه صاحب حمص ولما ضاق صاحب دمشق ذرعاً بحصار صاحب مصر له سير الصالح اسمعيل وزيره امين الدولة على العراق مستشفعاً بالخليفة ليصلح بينه وبين ابن اخيه فلم يجب الخليفة الى ذلك . وتسلم عسكر الملك الصالح ايوب دمشق من الصالح اسمعيل بن الملك العادل على ان يستقر بيد الصالح اسمعيل بعلبك وبصرى والسواد وتستقر حمص وما هو مضاف اليها بعد صاحبها . ثم ان الخوارزمية خرجوا عن طاعة الصالح ايوب فانهم كانوا يعتقدون انهم اذا كسروا الصالح اسمعيل وفتحوا دمشق يحصل لهم من البلاد والاقطاعات ما يرضي خاطرهم ، فلما لم يحصل لهم ذلك خرجوا عن طاعة الصالح ايوب وصاروا مع الملك الصالح اسمعيل ، وانضم اليهم الناصر داود صاحب الكرك وساروا الى دمشق وحصروها فقاسى اهلها شدة عظيمة . قال الذهبي : واشتد البلاء بدمشق واحترقت العقيبة والخوانيق ، ودام الحصار والويل خمسة اشهر ، وهلك العوام موتاً وجوعاً وقل الشيء بالبلد حتى بلغت غرارة القمح الفاً وستمائة درهم وابيع الخبز كل اوقيتين بدرهم واكلوا الميتة وابيعت الاملاك والامتعة بالشيء اليسير ، وابيع رطل اللحم بتسعة دراهم ، وانتن البلد بالموتى على الطرق ، وعظم الخطب واولئك يقاتلون على الملك ، والخمور الفاحشة مضمنة بالبلد والمكوس شديدة . وقال غيره : وقطعت الخوارزمية على الناس الطرق وزحفوا الى البلد من كل ناحية ورموا النيران في قصر حجاج وضربوا بالمناجيق وكان يوماً عظيماً ، وبعث الصالح اسمعيل الزراقين فأحرقوا جوسق العادل وزقاق الرمان الى العقيبة بأمرها ، ونهبت اموال الناس واحترق بعضها . وزاد سبط ابن الجوزي : انه احرق قصر حجاج والشاغور واستولى الحريق على مساجد وخانات ودور عظيمة ، ثم نصبت على دمشق المناجيق ورميت به من بابي الجابية والصغير ، ونصبت مناجيق ايضاً من داخل البلد ، وترامى الفريقان وامر بتخريب عمارة العقيبة خارج باب الفراديس وباب السلامة وباب الفرج واحرق حكر السماق وخارج باب النصر . وارسل الصالح اسماعيل

فاحرق جوسق والده العادل . قال المؤرخون : وجرى بدمشق امور شنيعة بشعة جداً لم يتم عليها مثلها قط .

وفي هذه السنة تسلمت نواب المنصور صاحب حماة سلمية وانتزعوها من صاحب حمص وفي سنة ٦٤٢ اجتمعت الفرنج من بلاد الشقيف وبلاد عامل وقصدوا وادي التيم فجمع الامير عامر الشهابي عساكره وفرسان عشيرته ونهض لملتقاهم ، واستنجد بالامير عبد الله بن الامير سيف الدين المعني فجمع اهالي الشوف وسار الى نجدة الامير عامر والتقى الجمعان في مرج الخيام وصدمتهم الفرنج ودام القتال ثلاثة ايام ، وهلك من الفريقين خلق كثير وفي اليوم الرابع هجمت عساكر آل معن وآل شهاب على الفرنج فنكسوا اعلامهم وولوا مدبرين ، وعظمت بعد ذلك امارة الامير عامر واشتهرت صولته واخذ قطائع في البقاع وانشأ فيها مغارات عديدة .

وفي سنة ٦٤٤ اتفق الحلبيون والمنصور صاحب حمص وصاروا مع الملك الصالح ايوب بن الكامل وقصدوا الخوارزمية فرحلت الخوارزمية عن دمشق وساروا نحو الحلبيين وصاحب حمص والتقوا على بحيرة قدس فانهزمت الخوارزمية هزيمة قبيحة تشتت شملهم بعدها ، ومضت طائفة من الخوارزمية الى التتر وصاروا معهم وانقطع منهم جماعة وتفرقوا في الشام وخدموا به .

وسار الملك الصالح اسمعيل صاحب دمشق الى الملك الناصر يوسف صاحب حلب واستجار به وارسل الصالح ايوب صاحب مصر يطلبه فلم يسلمه الناصر اليه ولما جرى ذلك رحل حسام الدين الهذباني بمن عنده من العسكر بدمشق ، ونازل بعلبك وبها اولاد الصالح اسمعيل وحاصرها وتسلمها بالامان وحمل اولاد الصالح اسماعيل الى الصالح ايوب بديار مصر فاعتقلوا هناك ، وكذلك بعث بأمين الدولة وزير الصالح اسمعيل فاعتقل فلم يبق في دمشق وعملها من يدفع عنها فارسل صاحب مصر عسكراً مع فخر الدين يوسف ابن الشيخ الى الناصر داود صاحب الكرك فاستولى فخر الدين على جميع بلاده وحاصر الكرك وخرب ضياعها وضعف الناصر ولم يبق بيده غير الكرك وصادف وفاة صاحب عجلون سيف الدين بن قليج فتسلم الملك الصالح ايوب عجلون ايضاً .

وفتح (٦٤٥) فخر الدين ابن الشيخ قلعتي عسقلان وطبرية بعد محاصرة مدة وكان

عمّرها الفرنج بعد استيلائهم عليهما سنة ٦٤١ . وسلم الاشرف صاحب حمص قلعة شميميس للملك الصالح ايوب فعظم ذلك على الحلبيين لئلا يحصل الطمع للصالح في ملك باقي الشام . وفي سنة ٦٤٦ ارسل الملك الناصر صاحب حلب عسكراً مع شمس الدين لولو الارمني فحاصروا الاشرف بحمص فسلمهم اياها وتعوض عنها بتل باشر مضافاً الى ما بيده من تدمر والرحبة . ولما بلغ ذلك الصالح ايوب شق عليه وسار من مصر الى الشام لارتجاع حمص من الحلبيين ونصب عسكره عليها منجنيقاً مغربياً يرمي بحجر زنته مائة واربعون رطلاً بالشامي مع عدة منجنيقات أُخر ثم رحل عنهـا لمرض عرض له ولوصول الفرنج الى دمياط ولمجيء رسول الخليفة والسعي في الصلح بين الصالح ايوب والحلبيين وان تستقر حمص بيد الحلبيين . ثم استولى الصالح ايوب على الكرك اعطاه مفاتيحها الامجد فوهبه خمسين الف دينار .

* * *

وفاة الملك الصالح ومبدأ دولة المماليك — توفي الملك الصالح ايوب في سنة ٦٤٧ وكان ملك مصر والقسم الاعظم من الشام قال ابو الفداء : وكان مهيباً عالي الهمة عفيفاً شديد الوقار والصمت وجمع من المماليك الترك ما لم يجتمع لغيره من اهل بيته ، حتى كان اكثر امراء عسكره مماليكه ، ورتب جماعة من المماليك الترك حول دهليزه وسماهم البحرية ، وهؤلاء كانوا أول كتلة اجتمعت من هذا الجيل من النـاس والفوا دولة المماليك البحرية . مات الملك الصالح ولم يوص بالملك الى احد فأحضرت شجرة الدر ، وهي جارية الملك الصالح ، فخر الدين بن الطواشي وجمال الدين محسناً وعرفتهما بموت السلطان فكتموا ذلك خوفاً من الفرنج ، وجمعت شجرة الدر الامراء وقالت لهم : السلطان يأمركم ان تحلفوا له ثم من بعده لولده الملك المعظم تورانشاه المقيم بحصن كيفا فجاء وتسلم ملك مصر الا ان مدته لم تطل اكثر من شهرين وأياماً فقتله المماليك البحرية الذين أنشأهم والده ، وكان اول من ضربه ركن الدين بيبرس الذي صار سلطاناً فيما بعد ولقب بالملك الظاهر ، والسبب في قتله انه أطرح جانب امراء ابيه ومماليكه واعتمد على بطانتـه التي وصلت معه من حصن كيفا وكانوا أراذل . وأقام رجال الدولة شجرة الدر زوجة الملك الصالح في المملكة وخطب لها على المنابر وضربت

السكة باسمها ، وأرسل المصريون رسولاً الى الامراء الذين بدمشق في موافقتهم على ذلك فلم يجيبوا اليه ، وكاتب الامراء القيمرية الذين بها الملك الناصر يوسف صاحب حلب فسار اليهم وملك دمشق وعصت عليه بعلبك وعجلون وشميميس مدة ثم سلمت جميعها اليه ، ولما ورد الخبر بذلك الى مصر قبضوا على من عندهم من القيمرية وعلى كل من اتهم بالميل الى الحلبيين ٠

لا جرم ان مقتل الملك المعظم تورانشاه بيد بيبرس البندقداري والمماليك البحرية بمصر كان مبدأ زوال الدولة الايوبية من مصر والشام ، فان الاختلاف بين آل هذا البيت الذي تسربت الى أبنائه وأحفاده المطامع ، وكل منهم يريد ان يستأثر بالامر دون اخيه او عمه او ابن عمه ، ثم اعتصام بعضهم بالصليبيين ليتجدوهم على آلهم فيصفو لهم الملك ، دعا الى تفسخ أوصال المملكة ، وان كان اكثر أسرة صلاح الدين ابن أيوب وأخيه ابي بكر بن أيوب على جانب من حسن التربية والعلم ، ولكن الاختلاف اذا سرت شرارته التهم الاخضر واليابس وعدم الاركان القوية فما بالك بها اذا كانت متضعضعة ٠ فصارت المملكة بيد المماليك في الحقيقة وكان الذين أنشأهم الملك الصالح أيوب اشبه بالمعتصم العباسي في اصطناعه مماليك الترك فأدخل بعمله الوهن على الدولة العباسية ، وهذا الصالح أدخل الوهن باصطناع المماليك حتى قضوا على الدولة الايوبية ٠

وكان الملك السعيد بن العزيز صاحب الصبيبة قد سلمها الى الملك الصالح ايوب فلما جرى ذلك قصد قلعة الصبيبة فسلمت اليه وتسلم الكرك والشوبك الملك المغيث فتح الدين عمر ٠ ووقع الحرب بين صاحب الموصل بدر الدين لولو وبين الناصر صاحب حلب فاستولى الحلبيون على نصيبين ودارا وقرقيسيا ٠

واتفق كبراء الدولة في مصر على اقامة امير الجيوش ايبك الجاشنكير في السلطنة لئلا تفسد الامور اذا استقر امر المملكة في يد امرأة ٠ وبين وفاة ضيفة خاتون صاحبة حلب وتملك شجرة الدر صاحبة مصر سبع سنين وهما اول من ملك في الشام ومصر من النساء ، ثم اتفق كبراء السلطنة على انه لا بد من إقامة شخص من بني أيوب في السلطنة واتفقوا على الملك الاشرف موسى بن يوسف صاحب اليمن وسلطنوه ، وكان

غزة حينئذٍ جماعة من عسكر مصر فسار اليهم عسكر دمشق فاندفعوا من غزة الى الصالحية ، واتفقوا على طاعة المغيث صاحب الكرك وخطبوا له بالصالحية ، ولما جرى ذلك اتفق كبراء الدولة بمصر ونادوا ان البلاد للخليفة المستعصم ، ثم جددت الايمان للملك الاشرف موسى بالسلطنة ولايبك التركماني بقيادة الجيش ، ورحل فارس الدين أقطاي الصالحي مقدم البحرية متوجهاً من مصر الى غزة ومعه نقدير الفي فارس فلما بلغها اندفع من كان بها من جهة الملك الناصر بين يديه .

وبعد مقتل المعظم تورانشاه بيد المماليك البحرية غضب معظم رجال الدولة في مصر والشام وكاد الاجماع يقع على سلطنة أحد من آل أيوب حتى لا يخرج الامر عنهم بالمرة . وهذا ما حدا ببعض بقايا الايوبيين في الشام ان يجمعوا شملهم و يسيروا الى مصر للمطالبة بسلطنتهم وسلطنة آبائهم . فسار الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز صاحب دمشق بعساكره من دمشق وصحبته من ملوك أهل بيته الصالح اسماعيل والاشرف موسى والمعظم تورانشاه وأخوه نصرة الدين والامجد حسن والظاهر شاذي أبناء الناصر داود بن المعظم وتقي الدين عباس بن الملك العادل قاصدين مصر لفتحها فاهتم المصريون لقتالهم ، والتقى العسكران المصري والشامي بالقرب من العباسية فكانت الكسرة اولاً على عسكر مصر ، ولما انكسر المصريون وتبعتهم العساكر الشامية ولم يشكوا في النصر ، بقي الناصر تحت السناجق السلطانية فحمل المعز التركماني بمن معه عليه ، فولى الناصر منهزماً طالباً الشام وأسر معظم أهل بيته من الملوك واستقر الصلح (٦٥١) بين الناصر يوسف صاحب الشام وبين البحرية بمصر على ان يكون للمصريين الى نهر الاردن وللناصر ما وراء ذلك ، وكان نجم الدين الباذراي رسول الخلافة هو الذي حضر من جهة الخليفة واصلح بينهم على ذلك ورجع كل منهم الى مقره .

ثم اغتال المعز ايبك التركماني المستولي على مصر خوشداشه [1] اقطاي الجمدار فلما علمت البحرية بذلك هربوا من ديار مصر الى الشام ، وكان الفارس أقطاي يمنع ايبك من الاستقلال بالسلطنة ، وكان الاسم للاشرف موسى بن ايوب فلما قتل

(١) الخوشداش اي المصاحب وهي كلمة فارسية .

أقطاي استقل المعز التركماني بالسلطنة وأبطل الاشرف موسى منها بالكلية ، وبعث به الى عماته . والاشرف آخر من خطب له من بيت أيوب بالسلطنة في مصر .

ولما وصلت البحرية الى الناصر يوسف صاحب الشام اطمعوه في ملك مصر فرحل من دمشق بعسكره ونزل الغور وأرسل الى غزة عسكراً فنزلوا بها و برز المعز ايبك صاحب مصر الى العباسية ، ومشى نجم الدين الباذراي في الصلح بين المصريين والشاميين واتفقت الحال ان يكون للناصر الشام جميعه الى العريش و يكون الحد بين الورادة والعريش ، وقتلت شجرة الدر المعز ايبك التركماني الصالحي ، وكانت امرأة أستاذه الملك الصالح ايوب ثم تزوج بها ، وكان سبب ذلك انه بلغها ان المعز ايبك قد خطب بنت بدر الدين لولو صاحب الموصل فقتلته في الحمام ونصبوا نور الدين علي بن المعز ايبك ولقبوه الملك المنصور سلطاناً على مصر والشام .

ونقل الى الناصر يوسف صاحب دمشق ان البحرية يريدون ان يفتكوا به فاستوحش خاطره منهم وتقدم اليهم بالانتزاح عن دمشق فساروا الى غزة ، فأرسل عسكراً في أثرهم فكبس البحرية ذلك العسكر ونالوا منه . ثم ان عسكر الناصر بعد الكبسة كسروا البحرية فانهزموا الى البلقاء والى زغر ملتجئين الى المغيث صاحب الكرك ، فأنفق فيهم المغيث أموالاً جليلة وأطمعوه في ملك مصر فجهزهم بما احتاجوه . وسارت البحرية الى جهة مصر وخرجت عساكر مصر لقتالهم والتقى المصريون مع البحرية وعسكر المغيث فانهزم عسكر المغيث والبحرية وفيهم بيبرس البندقداري الى جهة الكرك . وكان المغيث خيم بغزة وجمع الجموع ومعه البحرية وخرجت عساكر مصر مع مماليك المعز ايبك فالتقى الفريقان فكانت الكسرة على المغيث ومن معه فولى منهزماً الى الكرك في أسوإ حال .

* * *

هولاكو التتري

وبينا كان آخر ملوك الشام ومصر من بني أيوب يتنازعون مع المماليك البحرية وقد خرجت مصر عن حكم الايوبيين وكانت دخلت في حكمهم اولاً فأسسوا هناك بنيانها ولما انهار البناء كانت البنية الاولى أول ما هدمت وبقيت بعدها الاطراف وهي الشام وما اليها مدة قليلة ، جاء

هولاكو التتري (٦٥٦) واستولى على بغداد وقتل الخليفة المستعصم بالله وقرض الخلافة العباسية ، فدهشت البلاد ثم أخذ التتر يتقدمون الى الجزيرة فأرسل الناصر يوسف صاحب دمشق ولده العزيز محمد وصحبته زين الدين محمد المعروف بالحافظي من أهل قرية عقربا في الغوطة بتحف وتقادم (هدايا) الى هولاكو ملك التتر ، وصانعه لعلمه بعجزه عن ملتقى التتر . وكان بين البحرية بعد هزيمتهم من المصريين وبين عسكر الناصر يوسف صاحب دمشق ومقدمهم الامير مجير الدين بن ابي زكري مصاف بظاهر غزة انهزم فيه عسكر الناصر يوسف وأسر مجير الدين ، وقوي امر البحرية بعد هذه الكسرة واكثروا العيث والفساد ، وسار الناصر يوسف بعد ان عرف ما تم على عسكره ومعه صاحب حماة بعسكره الى جهة الكرك ، وأقام على بركة زيزاء محاصراً للمغيث صاحب الكرك بسبب حمايته للبحرية ، فقبض المغيث على من عنده من البحرية وعلم ذلك في الحال ركن الدين بيبرس البندقداري فهرب في جماعة من البحرية ووصل بهم الى الملك الناصر يوسف فاحسن اليهم ، وقبض المغيث على من بقي عنده من البحرية وارسلهم الى الناصر فبعث بهم الى حلب فاعتقلوا بها واستقر الصلح بين الناصر وبين المغيث صاحب الكرك .

وقدم هولاكو (٦٥٧) الى البلاد التي شرقي الفرات ونازل حران وملكها واستولى على البلاد الجزرية وارسل ولده سموط بن هولاكو الى الشام فوصل الى ظاهر حلب وكان الحاكم فيها المعظم توران شاه نائباً عن ابن اخيه الناصر يوسف ، فخرج عسكر حلب لقتالهم وخرج المعظم ولم يكن من رأيه الخروج اليهم ، واكمن لهم التتر في باب الله فتقاتلوا عند بانقوسا فاندفع التتر قدامهم حتى خرجوا عن البلد . ثم عادوا عليهم وهرب المسلمون طالبين المدينة والتتر يقتلون فيهم حتى دخلوا البلد ، واختنق في ابواب البلد جماعة من المنهزمين ، ثم رحل التتر الى عزاز فتسلموها بالامان ولما بلغ الناصر يوسف صاحب الشام قصد التتر حلب برز من دمشق (٦٥٨) الى برزة وجفل الناس بين ايدي التتر وسار من حماة الى دمشق المنصور صاحب حماة ونزل معه ببرزة وكان هناك مع الناصر يوسف بيبرس البندقداري فاجتمع عند الملك الناصر ببرزة أمم عظيمة من العساكر والجفال ، وبلغ الناصر ان جماعة من مماليكه قد عزموا على اغتياله والفتك

به فهرب من الدهليز الى قلعة دمشق ، و بلغ مماليكه الذين قصدوا ذلك علمه بهم فهربوا على حمية (بامان) الى جهة غزة ، وكذلك سار بيبرس البندقداري الى جهة غزة ، واشاع المماليك الناصرية انهم لم يقصدوا قتل الناصر وانما كان قصدهم ان يقبضوا عليه و يسلطنوا اخاه الملك الظاهر غازي بن الملك العزيز لشهامته ، ولما جرى ذلك هرب الظاهر هذا خوفاً من اخيه الناصر فوصل الى غزة واجتمع عليه من بها من العساكر واقاموه سلطاناً ، وكاتب بيبرس البندقداري المظفر قطز صاحب مصر فبذل له الامان ووعده الوعود ففارق بيبرس الشاميين وسار الى مصر في جماعة من اصحابه ٠

واستولى التتر على حلب وسببه ان هولاكو عبر الفرات بجموعه ونازل حلب وارسل هولاكو الى الملك المعظم تورانشاه نائب السلطنة بحلب يقول له : انكم تضعفون عن لقاء المغل ونحن قصدنا الناصر والعساكر ، فاجعلوا لنا عندكم بحلب شحنة و بالقلعة شحنة ، ونتوجه نحن الى العسكر فان كانت الكسرة على الاسلام كانت البلاد لنا ، وتكونون قد حقنتم دماء المسلمين ، وان كانت الكسرة علينا كنتم مخيرين في الشحنتين ، ان شئتم طردتموهما وان شئتم قتلتموهما ، فلم يجب الملك المعظم الى ذلك وقال : ليس لكم عندنا الا السيف ٠ فتعجب هولاكو من هذا الجواب وتألم ، لما علم من هلاك اهل حلب بسبب ذلك ٠

واحاط التتر بحلب وقتلوا مقتلة عظيمة حتى لم يسلم من اهلها الا من التجأ الى دار شهاب الدين بن عمرون ودار نجم الدين اخي مردكين ودار البازيار ودار علم الدين قيصر وخانقاه زين الدين الصوفي و كنيسة اليهود وذلك لفرمانات كانت بايديهم ٠ وقيل انه سلم بهذه الاماكن ما يزيد على خمسين الف نفس ٠ ونازل التتر القلعة وحاصروها وبها المعظم ومن التجأ اليها من العسكر واستمر الحصار عليها ومضايقة التتر لها نحو شهر ثم سلمت بالامان ، وامر هولاكو ان يمضي كل من سلم الى داره وان لا يعارض وجعل النائب بحلب عماد الدين القزويني ٠

قال ابن العديم : واحترز نواب حلب وجمعوا اهل الاطراف والحواضر واجتمعوا كلهم داخل البلد ، وكانت حلب في غاية الحصانة والقوة لاسوارها المحكمة البناء وقلعتها العظيمة ، ولم يكن في ظن احد انها تؤخذ بسرعة قال : وخرج العوام والسوقة واجتمعوا

كلهم بجبل بانقوسا ووصل جمع التتار الى اسفل الجبل ، وكمنوا على القرية المعروفة ببابلا ثم كر التتار منهزمين ثم رجعوا وقتلوا من المسلمين جمعاً كثيراً من الجند والعوام . وقتل هولاكو في حلب اكثر ممن قتل في بغداد . وقال ابن تغري بردي : ان هولاكو حاصر حلب ستة ايام ثم اوقع بها خمسة ايام حتى لم يبق بها احد ووصل الى هولاكو على حلب الملك الاشرف صاحب حمص موسى بن ابراهيم بن شيركوه فاكرمه هولاكو واعاد عليه حمص ، ثم رحل هولاكو الى حارم وطلب تسليمها فامتنعوا ان يسلموها لغير فخر الدين والي قلعة حلب فاحضره هولاكو وسلموها اليه فغضب هولاكو من ذلك وامر بهم فقتل اهل حارم عن آخرهم وسبي النساء ، ثم رحل هولاكو الى الشرق وجعل مكان عماد الدين القزويني بحلب رجلاً اعجمياً وامر هولاكو بخراب اسوار قلعة حلب واسوار المدينة فخربت عن آخرها وامر الاشرف موسى صاحب حمص باخراب سور قلعة حماة فخربت واحرقت زردخانتها ، ولم تخرب اسوار المدينة لانه كان بحماة رجل يقال له ابراهيم بن الفرنجية بذل لخسروشاه نائب هولاكو في حلب جملة كثيرة من المال وقال : الفرنج قريب منا في حصن الاكراد ومتى خربت اسوار المدينة لا يقدر اهلها على المقام فيها ، فاخذ منه المال ولم يتعرض لخراب الاسوار وكان قد امر هولاكو الاشرف موسى صاحب حمص بخراب قلعة حمص ايضاً فلم يخرب منها الا شيئاً قليلاً لانها بلده ، واما دمشق فان نائب هولاكو قدم الى اهلها بالفرمان والامان فتلقاه كبراء المدينة وانفذت مفاتيح دمشق الى هولاكو . قال سبط ابن الجوزي : وكثرت الاراجيف بدمشق بسبب التتار فهرب كثير من الدمشقيين وباعوا اصلهم وخرجوا على وجوههم متفرقين في البراري والجبال والحصون، وصادف ذلك ايام الشتاء وقوة البرد فمات كثير منهم ونهب آخرون . وقال القلقشندي في كلامه على البيت الهولاكوهي : ولو تمكنوا من دمشق لمحوا آثارها وانسوا اخبارها وان ملكها يومئذ صاهر صاحب قبرص ليتقوى به .

ولم يتعرض عسكر هولاكو الى قتل ولا نهب وعصت قلعة دمشق عليه فحاصرها التتار وجرى على اهل دمشق بسبب عصيان القلعة شدة عظيمة ثم تسلموا القلعة بالامان ونهبوا جميع ما فيها وجدوا في خراب اسوار القلعة واعدام ما بها من الزردخانات

والآلات ثم توجهوا الى بعلبك ونازلوا قلعتهـا واخذوا نابلس بالسيف وتسلموا قلعة عجلون واستولوا على قلاع الصلت وعجلون وصرخد وبصرى والصبيبة وهدم الجميع ووقعوا على العرب عند زيزاء وحسبان فهزموهم ، وغنموا اولادهم ونساءهم وانعامهم واستاقوا الجميع ، وهرب سلطان البلاد الناصر يوسف بن محمد الى البراري فساقوا خلفه واخذوه ثم قتلوه عندهم . واستولى التتار من بلاد الفرنج على صيدا ونهبوها واسروا منها ثلاثمائة اسير . وعاث التتار في بلاد حوران ونابلس وبلغت غاراتهم غزة وبيت جبريل والخليل والصلت وما اليها وجاؤا بالاسرى الى دمشق فمنهم من افتدى نفسه ومنهم من هرب .

وظل التتار يتنقلون في الشام حتى فتحوه الى غزة واستقرت شحائنهم فيه لان الناصر صاحب دمشق لما بلغه اخذ حلب رحل من دمشق في عسكره الى الديار المصرية وفي صحبته المنصور صاحب حماة ، فلما رأى كبراء حماة تخلي ملكهم عنهم توجهوا الى حلب ومعهم مفاتيح بلدهم وحملوها الى هولاكو وطلبوا منه الامان لاهل حماة وشحنة تكون عندهم فأمنهم هولاكو وأرسل الى حماة شحنـة رجلاً أعجمياً اسمه خسرو شاه فقدم حماة وأمن الرعية . واستولى التتار (٦٥٨) على ميافارقين بعد ان حاصروها سنتين حتى فنيت أزوادهم وفني أهلها بالوباء والقتل فقتلوا صاحبهـا الكامل محمد بن المظفر بن العادل ابي بكر بن أيوب وحملوا رأسه على رمح وطافوا به في البلاد فمروا بحلب وحماة ودمشق بالمغاني والطبول وعلقوه في شبكة بسور باب الفراديس الى ان عادت دمشق الى المسلمين .

قال الذهبي : ان نصارى دمشق شمخت اثنـاء مجيء هولاكو الى البلاد ورفعوا الصليب في البلد وألزموا الناس بالقيام له من الحوانيت ، ونقضوا العهد وصاحوا : ظهر الدين الصحيح دين المسيح . فلما انتصر المسلمون على هولاكو على عين جالوت بين بيسان ونابلس وقتل مقدمهم كتبغا جاء الخبر الى دمشق في الليل فوقع النهب والقتل في النصارى وأحرقت كنيستهم العظمى . وقال ابو الفداء : ان النصارى استطالوا بدمشق على المسلمين بدق النواقيس وادخال الخمر الى الجامع . قال في المذيل : ان النصارى بدمشق قد شمخوا بسبب دولة التتار وتردد ايل شبان وغيره من كبارهم

الى كنائسهم وذهب بعضهم الى هولاكو وجاء من عنده بفرمان لهم اعتناءً منهم وتوجه في حقهم ، ودخلوا به البلد من باب توما وصلبانهم مرتفعة وهم ينادون حولها بارتقاء دينهم دون دين الاسلام و يرشون الخمر على الناس بابواب المساجد ، فركب المسلمين من ذلك همٌّ عظيم فلما هرب التتار من دمشق أصبح الناس الى دور النصارى ينهبونها و يخربون ما استطاعوا فيها وخربوا كنيسة اليعاقبة وأخربوا كنيسة مريم حتى بقيت كوماً والحيطان حولها تعمل النار في أخشابها وقتل منهم جماعة واختفى الباقون وجرى عليهم أمر عظيم اشتفى به بعض الاشتفاء صدور المسلمين ثم هموا بنهب اليهود فنهب قليل منهم ثم كفوا عنهم لانهم لم يصدر منهم ما صدر من النصارى اه ·

اجتمعت العساكر الاسلامية بمصر هرباً من التتار فلما انتظمت أحوالهم واستجمعوا قواهم عزم المظفر قطز مملوك المعز ايبك على الخروج الى الشام لقتال التتار ، وسار ومعه صاحب حماة المنصور وأخوه الافضل علي حتى التقى مع التتار في الغور وكان كتبغا نائب هولاكو على الشام ومعه صاحب الصبيبة الملك السعيد فانهزم التتار هزيمة قبيحة على عين الجالوت وقتل مقدمهم كتبغا واستؤسر ابنه وتفرقوا في البلاد ، ومنهم من قصد الشرق فأفناهم المسلمون ، وجرد قطز ركن الدين بيبرس في أثرهم فتبعهم الى أطراف البلاد الشرقية ، وكان في صحبة التتار الملك الاشرف موسى صاحب حمص ففارقهم وطلب الامان من المظفر قطز فأمنه ، وأقره على ما بيده وهو حمص ومضافاتها ، وأسر صاحب الصبيبة وضربت عنقه ، وأقر المنصور على حماة و بارين والمعرة وأخذ منه سلمية وأعطاها أمير العرب ، ودخل دمشق فتضاعف شكر المسلمين على هذا النصر العظيم فان القلوب كانت قد يئست من النصرة على التتار لاستيلائهم على معظم بلاد الاسلام ، ولانهم ما قصدوا إقليماً الا فتحوه ، وتواقعوا مع عسكر الا هزموه · قال ابن ابي شامة : ومن العجائب ان التتار كسروا وأهلكوا بابناء جنسهم من الترك وقيل في ذلك :

غلب التتار على البلاد فجاءهم ... من مصر تركي يجود بنفسه
بالشام أهلكهم وبدد شملهم ... ولكل شيءٍ آفة من جنسه

ورتب شمس الدين أقوش البرلي أميراً بالسواحل وغزة وجهز عسكراً الى حلب لحفظها ، وفوض نيابة السلطنة بدمشق الى الامير علم الدين سنجر الحلبي ونيابة السلطنة بحلب الى الملك السعيد بن بدر الدين لولو صاحب الموصل ، ولما استقر هذا في نيابة حلب سار سيرة رديئة وكان دأبه التحيل على اخذ مال الرعية .

* * *

مقتل المظفر قطز وسلطنة الظاهر بيبرس وأحداث

سار الملك المظفر قطز الى مصر بعد ان ظفر بالتتار ورد فلّهم الى الشرق وكان اتفق بيبرس البندقداري وبعض أعيان الدولة على قتله ، فساروا معه وقتلوه في القصير بطرف الرمل على مرحلة من الصالحية في طريق مصر ، وتسلطن بيبرس البندقداري وتلقب بالملك الظاهر ، ودخل مصر ففتحت له واستقرت قدمه في المملكة . ولما بلغ نائب السلطنة بدمشق علم الدين سنجر قتلُ قطز وسلطنة الظاهر جمع الناس وحلفهم لنفسه بالسلطنة ، فأجابوه الى ما أرادهم عليه ، ولم يتأخر عنه احد ولقب نفسه الملك المجاهد وخطب له بالسلطنة وضربت السكة باسمه وكاتب المنصور صاحب حماة في ذلك فلم يجبه وقال صاحب حماة : انا مع من يملك الديار المصرية كائناً من كان . اما السعيد نائب السلطنة بحلب فحمله امراء حلب الى الشغر وبكاس معتقلاً لما اندفع العسكر الحلبي من بين ايدي التتار على البيرة وقدموا عليهم الامير حسام الدين الجوكندار العزيزي ثم سار التتار الى حلب وملكوها وأخرجوا أهلها الى قرنبيا شرقي حلب فأفنوا غالبهم بالسيف واستولوا على اعزاز وخربوا قلعتها واستولوا على حارم وقتلوا أهلها عن آخرهم وسبوا النساء وملكوا حلب وأعمالها نحو أربعة أشهر . وقارب التتار حماة فخرج منها صاحبها و باقي العسكر واجتمعوا بحمص مع سائر الاجناد فوقع بين التتار وعساكر المسلمين مصاف في حمص وكان التتار اكثر من المسلمين فانهزم التتار وهاموا على وجوههم الى افامية ومنها الى الشرق ومنهم من دخل في خدمة المسلمين . وجهز الملك الظاهر (٦٥٩) صاحب مصر عسكراً الى الشام لقتال علم الدين سنجر المستولي على دمشق فخرج هذا لقتالهم فانهزم الى جهة بعلبك فتبعه العسكر وقبضوا عليه وحمل الى الديار المصرية فاعتقل ثم أُطلق واستقرت دمشق في ملك الملك الظاهر بيبرس وأقيمت

له الخطبة بها وبغيرها من الشام مثل حماة وحلب وحمص وغيرها ثم استقر ايدكين البندقداري الصالحي في دمشق لتدبير امورها ·

وفي هذه السنة دخل الحلبي الى قلعة دمشق وتسلطن وحاصره المصريون و برز اليهم وحاربهم فلما كان الليل ركب وقصد قلعة بعلبك فعصى بها ثم أُخذ وحبسه الظاهر زمناً · وفي سنة ٦٦٠ وصل من مصر الى دمشق عسكر مقدمه الامير عز الدين الدمياطي وقبض على علاء الدين طيبرس الوزيري نائب السلطنة بدمشق وقبض حواصله ، وكان طيبرس قد أهلك أهل دمشق باخراجهم من بلدهم والترسيم عليهم واخراج عيالهم وإهانتهم ، وضيق على الناس وخوفهم من التتار ·

ولما بلغ هولاكو وهو في بلاد العجم كسرة عسكره بعين جالوت وقتل نائبه كتبغا ثم كسرة عسكره على حمص ثانياً غضب من ذلك وأحضر الملك الناصر بن أيوب واخاه الملك الظاهر غازي وكانا في أسره وقال للناصر : أنت قلت ان عسكر الشام في طاعتك فغدرت بي وقتلت المغول فقال الناصر : لو كنت في الشام ما ضرب أحد في وجه عسكرك بالسيف ومن يكون ببلاد توريز كيف يحكم على بلاد الشام ؟ فضرب هولاكو عنقه · فقال الناصر : يا خوند [1] ، الصنيعة · فنهاه اخوه الظاهر وقال : قد حضرت ثم رماه فقتله · ثم أمر بضرب رقاب الباقين فقتلوا الظاهر أخا الملك الناصر والملك الصالح ابن صاحب حمص والجماعة الذين كانوا معهم واستبقوا الملك العزيز بن الناصر لانه كان صغيراً ·

والملك الناصر هو صاحب حلب تملك حرّان واترُها والرقة ورأس عين وحمص ودمشق وبعلبك والاغوار والسواحل الى غزة ، وعظم شأنه وكسر عساكر مصر وخطب له بمصر وكان قد غلب على الديار المصرية لولا هزيمته وقتلُ مدبره شمس الدين لولو الارمني ومخامرة مماليك ابيه العزيزية · وكان الناصر حليماً وتجاوز به الحلم الى حد أضرّ بالمملكة ، فكان اذا حضر اليه القاتل عفى عنه وقال : الحيّ أفضل من الميت · فانتشرت اللصوصية في البلاد وأصبح المسافر في ايامه من دمشق الى حماة وغيرها لا يقدر على السفر الا برفقة من العسكر ، وكثر طمع العرب والتركمان في ايامه ·

(١) الخَوَند السيد معرب خُداوَنْد ·

وبقتل الناصر والظاهر قل الرجال الذين يصلحون للملك من آل أيوب ، وضعفت عصبيتهم وأنصارهم من الاكراد وغيرهم ، وكان انقراضهم بيد المماليك البحرية الذين غذوا بنعمتهم فلم يعرفوا لهم بعض اياديهم وبيد السفاك هولاكو وجماعة من التتار . وكان شأن بني ايوب في هذا المعنى شأن بني العباس مع الاتراك ، ادخلوهم في خدمتهم واحسنوا اليهم ورفعوا منزلتهم وولوهم الاعمال ، فما كان منهم الاان نقضوا بنيان تلك الدولة وفتحوا السبيل لعدوها يستبيح حماها و يستصفي ارضها .

ولم يشبع المغول بما سفكوا من الدماء ، وعادوا سنة ٦٥٩ الى حلب فانهزم جميع اهل القرى والمدن الى حلب فتقدم قائدهم ان يخرج اهل القرى والمدن الى ظاهر البلد ويبقى اهل كل مدينة وقرية بمعزل بحيث يعدونهم و يسيرون كل قوم الى مكانهم وموطنهم ؛ و يسلمهم المغول كأنهم يسيرون الى ضياعهم وعندما يبعدون يقولون لهم : انتم لو كانت قلوبكم معنا صافية لما انهزمتم من قدامنا فقتلوهم عن آخرهم ولم يفلت منهم غير اهل حلب لانهم لم ينتقلوا عنها .

* * *

حروب الظاهر وفتوحه — وكان الملك الظاهر بين عاملين في خلال هذه المدة . عامل دفع المغول وعامل دفع الصليبيين ، والغالب انه ترجح عنده معاناة الثاني فأفلح فيه . وقد جهز سنة ٦٥٩ من مصر بدر الدين الأيدمري فتسلم الشوبك من المغيث صاحب الكرك ثم سير حملة الى حلب (٦٦٠) وكان مقدمهم شمس الدين سنقر الرومي فأمنت بلاد حلب وعادت الى الصلاح بعد افساد المغول فيها ، ثم اوعز الى صاحب حماة وصاحب حمص وسنقر الرومي ان يسيروا الى انطاكية وبلادها للاغارة عليها ، فساروا اليها ونهبوها ولم يتيسر لهم فتحها . وقبض الظاهر على نائبه بدمشق علاء الدين طيبرس الوزيري وكان رديء السيرة في اهل دمشق حتى نزح عنها جماعة كثيرة من ظلمه وقتل الظاهر صاحب الكرك المغيث بتهمة انه كتب الى التتار يطمعهم في ملك مصر والشام ، وقيل لانه اكره امرأة الملك الظاهر لما قبض المغيث على البحرية وأرسلهم الى الناصر يوسف صاحب دمشق

وهرب الظاهر وبقيت امرأته في الكرك ، فانتقم الظاهر منه بان اسلمه الى زوجته في قلعة الجبل بمصر وامرت جواريها فقتلنه بالقباقيب ٠

وفي سنة ٦٦١ ارسل الظاهر وهو نازل على الطور عسكراً هدموا كنيسة الناصرة واغاروا على عكا وبلادها فغنموا وعادوا ، ثم ركب الظاهر بنفسه واغار ثانياً على عكا وبلادها وهدم برجاً كان خارج البلد ٠ واغار صاحب سيس الارمني على العمق والمعرة وسرمين والفوعة ٠ ومات في هذه السنة الملك الاشرف صاحب حمص وكان آخر من ملكها من بيت شيركوه فانقرض بموته ملكهم واولهم شيركوه بن شاذي ٠ وكانت بقيت في ايدي الاسماعيلية الى آخر سنة ٦٦٢ ثمان قلاع بالشام وهي الكهف والعليقة والقدموس والخوابي والمنيقة ومصياف والرصافة والقليعة ٠ وروى ابن مسير ان التتار لما ملكوا الشام سلموا اليهم اربع قلاع ، فلما كسرهم قطز عادت الاربع قلاع اليهم فتسلمها رئيسهم وقتل اصحابه الذين سلموها للتتار قال : وكان الضرر على المسلمين وملوكهم منذ خرج ابن صباح والى سنة بضع وعشرين وستمائة عظيماً ٠ وقد استخدمهم الظاهر في قتل صاحب مرقبة والامير ادوارد من امراء انكلترا ٠

وفي سنة ٦٦٣ سار الملك الظاهر من مصر ونازل قيسارية وضايقها وفتحها من الفرنج وامر بها فهدمت ثم سار الى ارسوف ونازلها وفتحها وفتح القليعات (٦٦٤) وحلبا وعرقة ونزل على صفد وضايقها وفتحها ثم قتل اهلها عن آخرهم ٠ وجهز عسكراً ضخماً من دمشق وقدم عليهم المنصور صاحب حماة وامرهم بالمسير الى بلاد الارمن فانهزم الارمن وأُسر ابنان لصاحبهم وامتلأت ايدي العسكر الاسلامي من الغنائم ٠ وعندما توجه الملك الظاهر من دمشق لملتقى عساكره العائدة من غزوة بلاد سيس اصدر امره لما نزل على قارا بين دمشق وحمص بنهب اهلها وقتل كبارهم فنهبوا وقتل منهم جماعة ، وكانوا نصارى يسرقون المسلمين و يبيعونهم خفية من الفرنج ، واخذت صبيانهم مماليك فتربوا بين الترك في الديار المصرية فصار منهم اجناد وامراء ٠ وشنّ الظاهر الغارة على بلاد الفرنج (٦٦٥) من اطرافهم واستدعى بالمناجيق من دمشق وفي سنة ٦٦٦ توجه الملك الظاهر بعساكره المتوافرة من مصر الى الشام ففتح يافا من الفرنج وهدمها وقلعتها وملك

الباشورة بالسيف وعوض اهل القلعة اربعين الف درهم ، ثم قصد قلعة الشقيف شقيف تيرون فنازل تحتها في وادي العواميد وحاصرها فلم يقدر على اخذها ، ثم صعد الى اعلاها وكشف ماءها وبعد هزيع من الليل ذبح في قناتها عدة من الغنم والبقر وقطع كروشها ورماها فيها ، فلما اصبحوا وجدوا ماءهم منتناً وهو دم عبيط فسلموها بعد حصار عشرة ايام ، ووجد بها اربعمائة وثمانين رجلاً فارسلهم الى الفرنج في صور ورتب عليها قوماً من جماعته وبنى برجاً على باب القلعة .

ثم اغار الظاهر على طرابلس فقطع اشجارها وغور انهارها وضرب اربعاً وعشرين من قراها ، فانهالت عليه المردة من الجبال فذهب الى حصن الاكراد ، ومن هناك زحف على انطاكية فنازلها بغتة ، وبعد حصار اربعة ايام ملكها بالسيف فقتل اهلها واحرق كنائسها وغنم منها اموالاً كثيرة ، وأُحصي من قتل بانطاكية هذه المرة فكانوا نيفاً واربعين الفاً ثم اطلق من كان بها من الأسرى ، وفي رواية انه قتل من حماتها بين ١٦ و ١٧ الف صليبي واخذ مئة الف اسير واحرقها وقلعتها ونال من غنائمها ما لا يدخل تحت حصر ، وخرج جماعة من اهلها يطلبون الامان وشرطوا شروطاً لم يجب الظاهر اليها وزحف عليها فملكها . وكانت انطاكية للبرنس بيمند بن بيمند وله معها طرابلس ، ولما فتحت انطاكية هرب اهل بغراس منها وتركوا الحصن خالياً فارسل الظاهر واستولى عليه .

ووقع الصلح بين الظاهر وهيتوم صاحب سيس الارمني على انه اذا أُحضر صاحب سيس سنقر الاشقر من التتار ، وكانوا اخذوه من قلعة حلب لما ملكها هولاكو ، وسلم مع ذلك بهسنى ودربساك ومرزبان ورعبان وشيح الحديد يطلق له ابنه ليفون الذي كان في اسر الملك الظاهر فسلمه صاحب سيس البلاد خلا بهسنى ودخل صاحب سيس على ابغا ملك التتر وطلب منه سنقر الاشقر فاعطاه اياه ، وتسلم الظاهر بلاطنس من عز الدين عثمان صاحب صهيون واغار (٦٦٨) على عكا وتسلم حصن مصياف من الاسماعيلية وفتح من حصونهم الكهف والقدموس والمنيقة والعليقة وأمّر عليهم نجم الدين حسن بن الشعراني وفرض عليه ان يرفع اليه في كل عام مئة الف درهم . ونازل السلطان (٦٦٩) حصن الاكراد فملكه بالامان وملك حصن عكار بعد حصاره

له بالامان ، فتذلل له صاحب طرابلس وبذل له ما اراد وهادنه عشر سنين وتسلم حصن القرين بالامان وهدمه . واغارت التتار على عينتاب وعلى الرّوج وقسطون الى قرب افامية ثم عادوا . فاستدعى الظاهر عسكراً من مصر وتوجه بهم الى حلب ونازل التتار على البيرة واراد عبور الفرات الى بر البيرة ونصبوا عليها المناجيق وضايقوها فقاتله التتار على المخاضة فاقتحم الفرات وهزم التتار فرحلوا عن البيرة . وشن الغارة (٦٦٩) بفرقة من العسكر ومعه ولده الملك السعيد بفرقة اخرى على جبلة واللاذقية والمرقب وعرقة والقليعات وحلبا وصافيتا والمجدل وانطرطوس . وفي سنة ٦٧٣ توجه السلطان الى بلاد الارمن ودخلها بعساكره المتوافرة وغنموا ثم عادوا الى دمشق . وعاد التتار (٦٧٤) ونازلوا البيرة فتوجه الظاهر اليهم وبلغه رحيلهم وهو بالقطيفة فاتم السير الى حلب وعاد التتار (٦٧٥) فزحفوا على بلاد الشام وخرج اليهم الظاهر وقاتلهم فكسرهم وقتل منهم خلائق وتبعهم الى نحو الابلستين فكانت بينهما هناك وقعة قيل انه قتل فيها من الفريقين نحو مئة الف انسان . ثم سار الى قيسارية واستولى عليها ووصل الى عمق حارم فدمشق .

* * *

وفاة الملك الظاهر وسلطنة ابنه الملك السعيد ثم سلطنة الناصر قلاوون

توفي الملك الظاهر (٦٧٦) بعد ان بطش البطشة الكبرى بالصليبيين في الشام ودفع عادية المغول عنه ما امكن ، وغزا الارمن الذين اصبحوا يبدون لدولته نواجذ الشر فخرب بلادهم واباد خضراءهم وغضراءهم . وكان ملكاً جليلاً شجاعاً عاقلاً مهيباً وصل الى الملك بقتل آخر ملوك بني ايوب ومازال يتدرج في مراتب القوة حتى ملك الديار المصرية والشامية وفتح الفتوح الجليلة . اصله مملوك قبجاقي الجنس وقيل برجعلي وكان ذا همة شماء يتنقل في ممالكه فلا يكاد يشعر به عسكره الا وهو بينهم ، ولولا انه ابلى البلاء الحسن في اعداء البلاد لما كفَّر عما اتاه من قتل ابن ايوب ، وبنو ايوب احبتهم البلاد على علاتهم لغناء اكثرهم في خدمة الملة والدولة .

ترجم سوبرنهايم في المعلمة الاسلامية للظاهر بيبرس بقوله : انه كان السبب بتوسيد ملك الشام الى قطز لما ابلى البلاء الحسن في وقعة عين جالوت فأقطع قطز

الامراء من بني أيوب الاقطاعات التي كانت لهم قبل غارات المغول ولكن بيبرس الذي كان يرجو ان توسد اليه حلب مكافأة على شجاعته لم ينل شيئاً فعزم على الانتقام لنفسه من هذا الظلم فقتل السلطان في الصيد ونادى به زعماء الجند وغيرهم سلطاناً وكانت المملكة المصرية والشامية محاطة من كل جانب بالاعداء في الشمال ملك أرمينية المسيحي وكان في الغرب الصليبيون منتشرين على جميع شاطئ الشام وفي الداخل الحشيشية الاشداء ومن الشرق المغول الطامعون في الغنائم والانتقام ، وفي جنوبي مصر أهل النوبة المحاربون ، وفي الغرب البربر الصعب قيادهم ، وكان يخشى ان ينجم له ناجم في الداخل من بني أيوب و يسمو الى السلطنة ، فيجد على دعوته انصاراً على أيسر وجه ، فرأى ان يبايع لاحد ذرية بني العباس بالخلافة بعد ان قرضها المغول من بغداد ، فتوفق الى ذلك و بايع له في مصر ، لان من مصلحته ان يظهر أمام العالم الاسلامي بانه حامي الخلافة وبذلك اصبح له نفوذ على حكومات مكة والمدينة ، وعرف كيف يداري معظم امراء الفرنج الشرقيين فعقد محالفات مع الملك مانفريد دي هوهانستوفن ، ثم عقد محالفة مع شارل دانجو وجاك داراغون والفونس دي كاستيل ، وعقد معاهدة مع ميشل باليولوغ الرومي الذي طرد الصليبيين ، وكانت له صلات حسنة مع ملوك السلاجقة في آسيا الصغرى ومع صاحب اليمن . ثم ذكر ان الظاهر رأى في الصليبيين أشد الاعداء خطراً على المملكة واستفاد من تفرق كلمتهم وكان المدد الذي يأتيهم من اوربا قد ضعف ، وكان في موت شارل التاسع انقاذ بيبرس من أعظم خصومه من الفرنج ، وهكذا فان الظاهر ظلّ ظافراً بجميع اعدائه ، ولم يتوقف عن شيء لبلوغ غايته ، وكثيراً ما كان يعد وعوداً كاذبة ويكتب كتباً مزورة ليحمل فيها قواد الحصون على الاستسلام له ، وكان نجاحه مناط قريحته في التنظيم وسرعته وشجاعته المتناهية ، وكانت مملكته كلها يسافر فيها البريد بسرعة حتى يصل الخبر من مصر الى الشام في ثلاثة ايام وكان اسعد سلطاناً من سلاطين المماليك وأقدرهم . وروى شمس الدين سامي ان السلطنة الاسلامية صارت ذات بهاء في ايامه وانه مات مسموماً بدمشق .

كان الظاهر قد حلف العسكر لولده بركة بن بيبرس ولقبه الملك السعيد وجعله

ولي عهده ، الا انه خبط واراد تقديم الاصاغر على الامراء الاكابر ، ففسدت نيات الكبار عليه وقرروا خلعه من السلطنة ، بعد ان دخل بلاد سيس (٦٧٧) وشن الغارة عليها وغنم . فحصره العسكر في قلعة الجبل بالقاهرة فخلع نفسه على ان يعطى الكرك فاجابوه الى ذلك فلحق بها وهلك بعد قليل .

واتفق الامراء لما خلع الملك السعيد نفسه على اقامة بدر الدين سلامش ابن الملك الظاهر بيبرس في المملكة ، ولقبوه الملك العادل ، وعمره اذ ذاك سبع سنين وشهور ، ثم خلعوه وأجلسوا على تخت السلطنة الملك المنصور قلاوون الصالحي . ولما اضطرب امر المملكة استأثر بالشام سنقر الاشقر الذي كان الظاهر اشترط على صاحب سيس ان يتوسط لدى ملك التتار لاطلاقه من الاسر ففعل ، ونسي سنقر هذه اليد للظاهر ، وجلس على سرير السلطنة بدمشق وحلف له الامراء والعسكر وتلقب بالملك الكامل شمس الدين سنقر فجهز الملك المنصور قلاوون عساكر الديار المصرية مع علم الدين سنجر ، فبرز سنقر الاشقر بعساكر الشام الى ظاهر دمشق والتقى الفريقان فولى الشاميون وسنقر الاشقر منهزمين ، فجعل الامير لاجين المنصوري نائب السلطنة بالشام ، وهرب سنقر الاشقر الى الرحبة وكاتب ابغا بن هولاكو ملك التتار وأطمعه في البلاد ، وكان عيسى بن مهنا ملك العرب في الشام مع سنقر الاشقر وقاتل معه وكتب بذلك الى ابغا ايضاً موافقة له ، ثم سار سنقر الاشقر من الرحبة الى صهيون واستولى عليها وعلى برزيه وبلاطنس والشغر وبكاس وعكار وشيزر وافامية وصارت هذه القلاع له .

واحرق (٦٧٧) عسكر الشام بلاد الغرب وجبيل بيروت وذلك ان قطب الدين السعد بعد ان استقطع قرية كفر عمية من امراء الغرب آل تنوخ وجد فيها ذات يوم مقتولاً فاتهم بقتله نجم الدين بن حجي وكان ابوه وذو قرابته معتقلين في مصر فتوجهت اليه العساكر والعشران من ولاية بعلبك والبقاع وصيدا وبيروت واحترقت بلاده ، وتفرق التنوخيون أيدي سبا الى ان أمنهم الملك فرجعوا الى بلادهم .

وجاء التتار الى حلب (٦٧٩) فعاثوا وقتلوا من كان بظاهرها وملكوا ضياعها ونهبوا وسبوا وأحرقوا الجامع والمدارس المعتبرة ودور السلطنة والامراء وأقاموا بها

يومين وعادوا من حيث اتوا ، فهب الملك المنصور قلاوون الى غزة لدفعهم فرحلوا قبل ان يوافيهم ، قال ابن ابي الحديد : وكانت للتتار نهضات وسرايا كثيرة الى بلاد الشام ، قتلوا ونهبوا وسبوا فيها حتى انتهت خيولهم الى حلب ، فأوقعوا بها وصانعهم عنها اهلها وسلطانها ، ثم عمدوا الى بلاد كي خسرو صاحب الروم فجمع لهم هذا قضه وقضيضه وجيشه ولفيفه ، واستكثر من الاكراد العمرية من عساكر الشام وجندحاب فيقال انه اجتمع مائة الف فارس وراجل فلقيه التتار في عشرين الفاً ، فجرت بينه وبينهم حروب شديدة قتلوا فيها مقدمته ، وكانت المقدمة كلها او اكثرها من رجال حلب وهم انجاد ابطال فقتلوا عن آخرهم وانكسر العسكر الرومي ، وهرب صاحب الروم حتى انتهى الى قلعة له على البحر تعرف بانطاكية فاعتصم بها ، وتمزقت جموعه وقتل منهم عدد لا يحصى .

واستأذن نائب السلطنة بحصن الاكراد في الإغارة على المرقب لما اعتمد اهله من الفساد عند وصول التتار الى حلب فأذن له السلطان في ذلك ، فجمع عساكر الحصون فاتفق هروب المسلمين ونزول الفرنج من المرقب فقتلوا من المسلمين جماعة . وترددت الرسل بين السلطان وسنقر الاشقر ، واحتاج السلطان لمصالحته لقوة التتار وتفادياً من الاشتغال بالعدو الداخلي والعدو الخارجي ، ووقع بينهما الصلح على ان يسلم سنقر قلعة شيزر الى السلطان و يتسلم سنقر الشغر وبكاس ، وكانتا قد ارتجعتا منه وحلفا على ذلك واستقر الصلح بينهما ، كما استقر الصلح بين الملك المنصور قلاوون وبين الملك خضر بن الملك الظاهر بيبرس صاحب الكرك .

وبعد ان استقر الصلح بين الاميرين المتوثبين على السلطنة كان المصاف (٦٨٠) العظيم بين المسلمين وبين التتار بظاهر حمص فجمع قلاوون العساكر من مصر والشام ومن جملتهم عسكر سنقر الاشقر وجاء الامراء كلهم في جيوشهم وكان التتار في ثمانين الف فارس وفي رواية مائة الف منهم خمسون الفاً من المغول والباقي حشود وجموع من اجناس مختلفة مثل الكرج والارمن والعجم وغيرهم والمسلمون في خمسين الفاً فانهزم التتار وتبعهم المسلمون يقتلون و يأسرون . وعقد قلاوون هدنة مع المقدم افرتركليام دبباجون مقدم بيت الداوية بعكا والساحل وبين جميع الاخوة الداوية

بانطرطوس لمدة عشر سنين على ان لا ينال بلاده ولا بلاد ولده الملك الصالح ولا حصونها ولا قلاعها ولا بلادهما ولا ضياعها ولا عساكرهما ولا عربهما ولا تركانها ولا اكرادهما ولا رعاياهما على اختلاف الاجناس ضرر ولا سوء ولا غارة ولا تعرض ولا أذية ٠

وسارت العساكر الاسلامية الى فتح جبة بشري (٦٨١) فصعدوا في وادي حيرونا وحاصروا اهدن حصاراً شديداً وبعد اربعين يوماً ملكوها فنهبوا وقتلوا وسبوا وهدموا القلعة التي في وسط القرية والحصن الذي على رأس الجبل وفتحوا بقوفا وقضوا على اكابرها وهدموها وضربوا حصرون وكفر حارون وخربوا حدث البشري وبنوا برجاً قبالة المغارة ووضعوا فيه عسكراً يكمنون للعصاة وهدموا جميع الاماكن العاصية وملكوا قلعة حوقا بتسليط الماء عليها من فوقها فملكوها بقوة الماء لانها داخلة الشير ٠ وتوجهت العساكر ايضاً الى بلاد الارمن فخربت فيها وسبت عقوبة لهم عما اتوه من معاونة المغول على المسلمين ٠

وقصد المغول دمشق في سنة ٦٨٣ ثم ذهبوا الى وادي التيم فأحرقوها وسبوا اهلها وقتلوا منهم نحو سبعمائة نفس وملكوها وفتح السلطان حصن المرقب (٦٨٤) بعد ان نقب جنده حصنها بسرعة وكان هذا الحصن للاسبتار فنزل اهله بالامان وفتح حصن الكرك (٦٨٥) بالامان وجهز عسكراً كثيفاً من العساكر المصرية والشامية الى قلعة صهيون فتسلمها من سنقر الاشقر بالامان ٠ ثم سار جيش السلطان الى اللاذقية ، وكان بها برج للفرنج يحيط به البحر من جميع جهاته ، فركب طريقاً اليها في البحر بالحجارة وحاصروا البرج وتسلموه بالامان وهدموه وفتح طرابلس (٦٨٨) ، وكان البحر يحيط بغالب اطراف هذه المدينة ولا تقاتل الا من جهة الشرق ، ولما نازلها نصب عدة منجنيقات كبيرة وصغيرة والح عليها بالحصار ففتحها بالسيف ودخلها العسكر عنوةً بعد حصار ٣٣ يوماً ، فهرب اهلها الى الميناء وركبوا في المراكب وقتل غالب رجالها وسبيت ذراريهم ، وغنم منهم المسلمون غنيمة عظيمة وامر السلطان فهدمت طرابلس ودكت الى الارض ٠ وكان في البحر قريباً من طرابلس جزيرة وفيها كنيسة تسمى كنيسة سنطماس وبينها وبين طرابلس الميناء ، فلما أُخذت طرابلس

هرب الى الجزيرة المذكورة والى الكنيسة التي فيها عالم عظيم من الفرنج والنساء ، فاقتحم العسكر الاسلامي البحر وعبروا بخيولهم سباحة الى الجزيرة ، فقتلوا جميع من فيها من الرجال وغنموا ما بها من النساء والصغار — نقلت معظم هذا من تاريخ ابي الفداء ويقول ميشو : ان المسلمين لما استعادوا طرابلس اهلكوا ساكنيها من الصليبيين الا قليلاً وامر السلطان باحراق المدينة وهدمها وكان فيها مصادر الثروة والرخاء وكل ما يزهر به السلام ويستخدم في الدفاع زمن الحرب فخرب كل ذلك تحت الفأس والمطارقة وقال : لما نزل الصليبيون عسكرهم على سواحل الشام سنة ١٣٦٦ م واستولوا على طرابلس اوقدوا النار فيها وكان حظ طرطوس واللاذقية وعدة مدن فينيقية مثل ذلك ·

وقال مؤرخو لبنان : ان الكسروانيين والجرديين نزلوا من الجبال لنجدة الفرنج في طرابلس وقتلوا من عسكر السلطان خلقاً كثيراً فبرز الامر من حسام الدين لاجين نائب دمشق الى قراسنقر ان يجمع العساكر الشامية ويزحف بها لاستئصالهم · ومن ذلك الوقت خربت كسروان والذين سلموا من اهلها تشتتوا في كل صقع · قالوا ومن جملة اوامر حسام الدين الى امراء غرب بيروت التنوخيين اذا توجهوا الى كسروان وجرده بجموعها ، ان كل من سبى امرأة منهم كانت له جارية ، اوصبياً كان له مملوكا ومن احضر منهم رأس رجل فله دينار · وذكروا ان الخراب استولى على الاقطار الشمالية بسبب تقلقل احوال ملوك مصر والشام والحروب الثائرة مع التتار من جهة ومع الفرنج من أخرى فكان الناس يرغبون في سكنى الجبال العالية الصعبة المسالك ، وقدم الى جبل لبنان في ذلك الحين خلق كثير ومنهم اهل بلاد وادي التيم وخلت بلاد وادي التيم من السكان خمسة اعوام ولم يكن فيها بلد عامراً سوى حاصبيا وكذلك البقاع · ثم عاد الناس وعمروا بعض القرى في جبل حاصبيا فقط ·

* * *

وفاة قلاوون وسلطنة ابنه الاشرف خليل واثخانه في فرنج الساحل

توفي الملك المنصور قلاوون (٦٨٩) وكان ملكاً مهيباً حليماً قليل سفك الدماء كثير العفو ، شجاعاً اقام منار العدل واحسن سياسة الملك وقام بتدبير المملكة احسن قيام وفتح الفتوح الجليلة التي لم يجسر احد من الملوك مثل

صلاح الدين وغيره على مثالها وهو الذي وطد حكم المماليك على الشام واصلح كما في المعلمة الاسلامية بالتدريج ما احدث المغول فيه من التخريب وقام باعمال مهمة من مثل ترميم قلعة حلب وبعلبك ودمشق . وهو الوحيد من ملوك المماليك الذين تسلسل الملك في اعقابهم وألفوا دولة فان اعقابه حكموا الى سنة (٧٨٣هـ ١٣٨٢م) خمسة بطون . وقد عقد معاهدات مع الدول التي يخشى بأسها و يمكن الانتفاع بحسن الصلات معها ، مثل المعاهدة التجارية مع جمهورية جنوة ومعاهدة دفاعية مع الملكين الفونس ملك قشتالة وجاك ملك صقلية . وكانت سفراؤه تغدو وتروح الى امبراطور بيزنطية والامبراطور رودولف دي هابسبورغ وملك اليمن وامير سيلان وغيرهم من امراء الشرق . ولهذا السلطان آثار جليلة في العمران في القدس ودمشق وغيرها من ربوع الشام تدل على بعد نظره وحبه للمصالح .

وجلس في السلطنة بعد قلاوون ابنه الاشرف صلاح الدين خليل وسار على قدم ابيه في جهاد الصليبيين . وكان اول عمل اتجهت اليه همته بعد ان قدم تجار الفرنج الى عكا وقتلوا من كان بها من المسلمين (٦٨٩) ان نهض من مصر لفتح عكا بالعساكر المصرية والشامية فهرب جماعة من اهلها من الفرنج في المراكب لما هاجمها المسلمون كما فعلوا في طرابلس على عهد والده . واستنزل الاشرف جميع من عصى بالابرجة التي كانت داخل البلد . وهي بمنزلة قلاع دخلها عالم عظيم من الفرنج وتحصنوا بها فاستنزلهم السلطان وامر بضرب اعناقهم عن آخرهم حول عكا ، ثم امر بالمدينة فهدمت الى الارض ودكها دكاً . وكانت كما قال الذهبي من احسن المدائن بالعمارة والبناء الفاخر فلما فتحها الاشرف وهدم سورها هرب اهل المدينة منها وصارت خراباً وصار الناس من حينئذ ينقلون منها الرخام الملون مدة طويلة . ومما وجد مكتوباً على باب كنيسة من كنائس عكا :

جمع الكنائس ان تكن عبثت بكم ايدي الحوادث او تغير حال
فلطالما سجدت على ابوابكم شمُّ الانوف جحاجح ابطال
صبراً على هذا المصاب فانه يوم بيوم والحروب سجال

ولما فتحت عكا رُعب الفرنج في الساحل فأخلوا صيدا فأخربها السلطان وجزيرتها

وقلعتها الجنوبية والشمالية · واستولى على بيروت فهدم سورها ودك قلعتها وكانت حصينة جداً واستولى على صور وكان اهلها مثل سائر الساحل · وكذلك عثليث وكانوا اوقدوا فيها النار · وسلمت انطرطوس بالامان وطرد السلطان الفرنج من جبيل وهدمها ودك قلعتها · وهربوا من انفة والبترون وصرفند واسكندرونة بالقرب من عكا وذلك في مدة سبعة واربعين يوماً وكان فتحاً مبيناً ·

خرب الساحل كما رأيت بهذه الضربة الاخيرة ولكن استقلت الشام ونجت من بقايا الصليبيين الذين كانوا ينغصون عيش الدولة والامة ، ولا يؤخذ على الاشرف استئصاله شأفة اعدائه واهلاكه لهم عن آخرهم ، فقد كان على الصليبيين بعد وقعة حطين وفتح القدس ان يغادروا البلاد جملة واحدة وظنوا تسامح صلاح الدين يوسف معهم يومئذ ضعفاً وادرك كل من تولى زعامة الشام بعده انه يستحيل انقاذ البلاد من الفرنج الا بافنائهم وآخر الدواء الكي ·

* * *

الحملة الصليبية السابعة وانتهاء الحروب الصليبية

ولقد دخلت الجيوش الصليبية سنة ٤٩١ وخرج منها آخر منهزمين سنة ٦٩٠ اي انهم ظلوا قرنين يحاربون الشام ومصر · تعاقبت فيها عدة دول اسلامية على البلاد وكلها حاربت هؤلاء الدخلاء بما وسعها ان تحارب وربما قتل من الفريقين في خلال ذينك القرنين ما لا يقل عن خمسة ملايين من الانفس ، ولو لم تنقطع الرغبات في الغرب وتبطل النجدات بل الحملات الكبرى التي اصبح البابوات والملوك يوجهونها في وجهات أخرى لقتال المسلمين لطال امدها اكثر مما طال ·

قلنا ان الحملة الصليبية السادسة كانت بقيادة الامبر فريدريك الثاني ، وهي الحملة التي عقدت معاهدة مع ملك مصر والشام تنازل فيها هذا عن القدس وبيت لحم والناصرة عشر سنين ، فلما انتهت المدة عادت القدس الى المسلمين وعندها عمد سان لوي ملك فرنسا ان يسترجعه منهم وكان هو السبب في تأليف الحملة الصليبية السابعة والثامنة جاء في الاولى الى دمياط وانهزم مع جيشه هزيمة فاضحة في المنصورة بمصر وأُسر وجميع من معه فاضطر ان يدفع فدية عظيمة عن نفسه وعن جماعته ثم عاد الى بلاده

فزين له اخوه ان يذهب الى تونس ومنها يذهب ليفتح مصر والشام فهلك في تونس بالطاعون (١٢٧٠م) وبذلك انتهت الحروب الصليبية . نشأت في فرنسا وانتهت بفشل ملكها ثم بهلاكه .

ولقد عد الفرنج من الفوائد التي جنوها من الحروب الصليبية انهم اوقفوا سير المسلمين عن التقدم ، وتعلم ملايين منهم اموراً ما كانوا يحلمون بوجودها ، واخذوا عن الروم والعرب ما كان عندهم من اسباب المدنية التي لم يكن للفرنج عهد بها . فان كثيراً من اصناف البقول نقلوها الى اوربا وشاعت هناك ولم تكن تعهد عندهم وقد تعلم صناعة الورق رجلان افرنسيان كانا اسيرين في دمشق وادخلا صناعته الى فرنسا، فكان للشام على فرنسا هذا الفضل، ومنها شاع صنعه في سائر بلاد الغرب، وتعلموا صنع الاقمشة الدمشقية والسيوف وغيرها من الصنائع الجميلة ونقلوها الى بلادهم .

ومع كثرة ما بذله اخلاف صلاح الدين من الجهد في قتال الصليبيين امثال العادل والكامل وبيبرس وقلاوون وابنه صلاح الدين خليل ، فان الصليبيين كان يتعذر القضاء عليهم في الشام لو لم ينقطع المدد عنهم من البحر وتنصرف وجهة الصليبيين الى قتال العرب في الاندلس . وفي الحق ان تلك الحملات الصليبية كانت شعبة من شعب الجنون في البشر ، فقدت فيها اوربا اكثر مما ربحت من الانفس والاموال . وما يدرينا ان تتقدم دولة السلاجقة في آسيا الصغرى على سمت الشمال وتقضي على مملكة الروم البيزنطية ثم تتقدم في فتوحها الى اوربا لو لم يشتغل ملوك المسلمين بهذه الحملة قرنين كاملين في الشام ومصر . وكانت الشام من جملة ممالك السلجوقيين وربما تبعتها مصر ففتحها صلاح الدين او غيره باسمهم بدلاً من ان يفتحها باسم نور الدين ، وما نور الدين الا صنيعة السلاجقة ، وما جده وابوه الا عاملان من عمالهم .

شغلت اوربا بمسألة انقاذ القبر المقدس من ايدي المسلمين قرنين ، وتطوعت شعوبها في هذه السبيل ، ومن الامم من لم ينلها الا قتل رجالها وذهاب اموالها ، وكان الرابح على الاكثر اهل ايطاليا فانهم حاربوا حرباً تجارية ربحوا منها ارباحاً طائلة من سفنهم وتجارتهم وخصوصاً البنادقة والجنويون والبيسيون منهم ، اما الالمان والبريطانيون

والفرنسيس والهولانديون والسويسريون وغيرهم فانهم خسروا خسارة كبيرة ·

ساق الفرنج الى الحروب الصليبية الدين والتجارة فلما فترت نغمة الدين بهلاك من كانوا يحسنون هناك الضرب على اوتارها ، ولم ير التجار في هذا الشرق ما يكفي لسد نهمتهم وأيقنوا ان الامر يطول اذا أرادوا القضاء على جميع الممالك الاسلامية في آسيا فترت هممهم بالطبع ، ولكن بلاد الشام خربت بعد هذين القرنين وان كانت الدول الاتابكية والنورية والصلاحية ودولة بيبرس وقلاوون وابنه يعمدون حالاً الى ترميم ما خربه الاعداء في داخل البلاد لايقانهم انها بلادهم ولا بد لهم من دفع اعدائهم عنها وانهم يسترجعونها لا محالة وسيدالون منهم مهما طال مقام من استصفوا بعض سواحل الشام وبيت المقدس فكان الامر كما اعتقدوا ·

ما يبلغ الاعداء من جاهل   ما يبلغ الجاهل من نفسه

وكلما طال احتلال الصليبيين كانت الامة تستمرئ طعم الموت لاخراجهم من البلاد ، وكلما رأت من ملك او أمير تغاضياً عنهم او اتقاء عاديتهم بالمعاهدات والمهادنات كانت تستهين به وتدعو ان لا تدوم أيامه · وعلى ما بذل الصليبيون من استمالة جيرانهم ما عدَّهم هؤلاء قط الا غاصبين أرضهم ، دخلاء على الملك الاسلامي ·

ولو لم يؤسس الدولة في الشام ومصر ملك عاقل عادل مثل نور الدين ويتم عمله عاقل عادل من طرازه اي صلاح الدين لما تمَّ الفتح الاخير على يد الاشرف خليل ، ولما تم اخلافه بعده الخطة المرسومة · ولو كان الملك لا يوسد الا للكفاة من ابناء الملك او لاكبرهم سناً ، ولو لم يكن شجر الخلاف بين آل ايوب لضُرِبَ الصليبيون الضربة القاضية الاخيرة بعد مهلك صلاح الدين بعشر او بعشرين سنة على الاكثر ، اذ كان يتأتى للمسلمين ان يجمعوا قواهم بعد فشل جيش صلاح الدين على عكا بما جاء الصليبيين من النجدات العظيمة في البحر · ولكن مات صلاح الدين قبل ان يطبق خطته ، وشغل اخوه واولاده بالتنازع على الملك ، وعدوا الهدنة الطبيعية التي مضت بين أخذ عكا واستلام القدس ثانية من المسلمين نعمة عليهم لتشبع نفس كل طامع منهم بالملك والسلطان ، والعهد في بلادهم وفي غيرها عهد الابطال والفرسان ، وغفلوا عن اعدائهم الذين لم يكد يغفل عنهم نور الدين وخليفته صلاح الدين سنة واحدة الا ريثما يجمعان

قواهما ، وقد كانا لهذا الغرض يصانعان جميع ملوك الاطراف ليسيروا معهما على قتال الاعداء ، اما أخلافهم فكانت سياستهم في الاكثر موجهة الى اختراع الطرق لقضاء بعضهم على بعض او لاستئثار قويهم بملك مصر او دمشق او حلب او الكرك والشوبك او ماردين اوخلاط ، فشغلوا بداخليتهم اكثر من اشتغالهم بامورهم الخارجية وهي اهم وأعظم ، هذا واكثر اولئك الملوك كانوا قد تشبعت نفوسهم بالتربية العالية والعلم والادب الغزير ، وكانوا على معرفة تامة باصول الجهاد وفتح المعاقل والحصون ، ومعرفة بعلل الحروب وقواعد السلم ، واعطاء العهد وعقد الهدنة والصلح ، ورثوها واقتبسوها من أخلاق البانيين لمجدهم نور الدين وصنيعته صلاح الدين .

ومما أخر القضاء عشرات من السنين على بقايا الصليبيين في الساحل ظهور التتار في البلاد بعد قضائهم في منتصف القرن السابع على الخلافة العباسية ، فأصبحت الشام بين عدوين أتى الاول من الغرب فأقام وطال مقامه وجاءها الثاني من الشرق ، والشر قد يأتي من الشرق ، فكان يخرب في بلادها ويغنم ويقتل ثم يذهب ثم يعاودها . ولكن ما حدث من حروب الخوارزمية ثم اخلاف هولاكو التتاري في هذا القطر يعد مناوشات اذا قيس بالحروب والخراب الذي حدث بعد ذلك فأهلك الاخضر واليابس وغدت البلاد غرض النابل وفريسة الصائل .

وفي التاريخ العام انه كان من نتائج الحروب الصليبية اذا صُرف النظر عمن هلك فيها من ملايين الخلق احداث امارات كاثوليكية في الشرق انتزعت من المسلمين والبيزنطيين واحتلها فرسان فرنساويون وتجار طليان . وقد طرد هؤلاء الاوربيون لقلتهم بدون ان يتركوا سوى آثار معاقلهم في الموانى وعلى صخور يونان والشام ، ولكن هيأ الصليبيون لنصارى اوربا ان يكونوا على صلات متصلة مع الشرق مدة قرنين اه قلنا وهذه النتيجة من ربط الصلات مع الشرق كان يتأتى لاوربا الحصول عليها بدون اهراق هذه الدماء واتلاف الاموال العظيمة وغرس البغضاء في نفوس من احتلوا بلادهم .

وفي تاريخ فلسطين ان من أضرار الحروب الصليبية في الشام ايقاد جذوة التعصب الديني بين المسلمين والمسيحيين ، ورأى هؤلاء ان مسلمي العرب أحسنوا اليهم يوم الفتح

أكثر مما رأوا من هؤلاء الفرنج الذين انكروا ابناء دينهم · ومنها تخريب البلدان وقطع الاشجار حتى زادت الاسعار ستة أضعاف ما كانت عليه ومنها تلطيخ الدين المسيحي والازدراء بتعاليمه ، لان مسيحي الصليبيين كانوا أبعد الناس عن دينهم · وقد أجمع المؤرخون على ان المسلمين تقيدوا بالفضائل الدينية وراعوا المصلحة الانسانية اكثر من الفرنج الناكثي العهود والقاتلي الاسرى والذين أفحشوا في سفك الدماء لما دخلوا القدس وحقروا الديانة المسيحية اه ·

لا جرم ان الصليبيين افتضحوا في هذا الشرق باخلاقهم وقلة معرفتهم ، وعرفوا بعد ان أخفقت الحملة الثامنة واصطلوا من الساحل مبلغ قوة اعدائهم ، وانهم في أرضهم ، وهم يحتاجون الى الرحيل أشهراً في البر وربما اشهراً في البحر · وذكر ميشو ان الفرنسيس والنورمانديين وسائر شعوب شمالي اوربا المتوحشة في القرن الثاني عشر للميلاد كانوا في حالة البداوة وهذا ما ساعدهم على اعلان الحروب الصليبية في الشرق ، فلما نشأت المدنية الحديثة في القرن السادس عشر وتسربت اولاً الى الملوك اصبحوا لا يرون الاغتراب عن اوطانهم ولا الشعوب ان تفارق مساقط رؤوسها وعمت الصناعات وحسنت الزراعة وانتشر العلم ، وغدا ذكرى كل مدينة وكل أسرة وتقاليد كل شعب وقطر والالقاب والامتيازات والحقوق المستحصلة والامل في تنميتها كل ذلك قد غير من اخلاق الفرنج وبدل من ميلهم لحياة التنقل والارتحال وجعلها صلات تربطهم بالوطن · وقد كتب التوفيق للملاحة في القرن التالي ان اكتشفت اميركا واجتاز الملاحون رأس الرجاء الصالح فنشأ من هذه الاكتشافات تبدل كثير في التجارة واخذت الافكار تتجه وجهة جديدة وانشأت المضاربات الصناعية التي كانت قائمة بالحروب الصليبية تسير نحو اميركا والهند الشرقية ، ففتحت امام الغربيين ممالك كبرى واقطار غنية تسد مطامعهم وتشبع نهمة التائقين الى المجد والثروة والوقائع · فأنست حوادث العالم الجديد ما في الشرق من عجائب اه ·

هذا ما قاله مؤرخ ثقة من مؤرخيهم في القرن الماضي واليك ما قاله اديب كبير من ادبائهم المعاصرين كلود فارير : « في سنة ٧٣٢ للميلاد حدثت فاجعة ربما كانت من اشأم الفجائع التي انقضت على الانسانية في القرون الوسطى فغمرت العالم الغربي

مدة سبعة او ثمانية قرون ان لم نقل اكثر في طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد الا على النهضة ، وكاد عهد الاصلاح يعيدها الى كثافتها الاولى ، وهذه الفاجعة هي التي أُريد ان أمقت حتى ذكراها ، واعني بها الغلبة المكروهة التي ظفر فيها على مقربة من بواتيه برابرة المحاربين من الفرنج بقيادة الكارولنجي شارل مارتل على كتائب العرب والبربر ممن لم يحسن الخليفة عبد الرحمن جمعهم على ما يقتضي من الكثرة فانهزموا راجعين ادراجهم ·

« في ذاك اليوم المشؤم تراجعت المدنية ثمانية قرون الى الوراء ، ويكفي المرء ان يطوف في حدائق الاندلس او بين العاديات التي لا تزال تأخذ بالابصار مما يبدو من عواصم السحر والخيال اشبيلية وغرناطة وقرطبة وطليطلة ليشاهد والالم الغريب آخذ منه ما عساها ان تكون بلادنا الفرنساوية لو انقذها الاسلام الصناعي الفلسفي السلمي المتسامح — لان الاسلام مجموعة كل هذا — من الاهاويل التي لا اسماء لها ، وكان منها ان انتجت خراب غاليا القديمة التي استعبدها اولاً لصوص اوستراز يا ثم اقتطع جزءاً منها قرصان النورمانديين ثم تجزأت وتمزقت وغرقت في دماء ودموع ، وفرغت من الرجال بما انبعث في ارجائها من الدعوة للحروب الصليبية ، ثم انتفخت بالجثث بما دهمها من الحروب الخارجية والاهلية الكثيرة العدد ، حدث ذلك على حين كان العالم الاسلامي من نهر الوادي الكبير الى نهر السند يزهر كل الازهار في ظل السلام تحت اعلام اربع دولات سعيدة الأُموية والعباسية والسلجوقية والعثمانية» ·

يشقى رجال ويشقى آخرون بهم ... ويسعد الله اقواماً بأقوام
وليس رزق الفتى من لطف حيلته ... لكن جدود بارزاق واقسام
كالصيد يحرمه الرامي المجيدُ وقد ... يرمي فيرزقه من ليس بالرامي

دولة المماليك

من سنة ٦٩٠ الى ٧٩٠

فتوح ارمينية وعصيان الموارنة بعوامل صليبية

اصبحت مصر والشام بعد انفضاض الصليبيين من السواحل ووضع السيف في بقاياهم واعتصام جزء قليل منهم بالموارنة في لبنان مملكة واحدة لا يتخللها ارض لغير مالكيها ، ولا ينازعها سلطان من غير المسلمين ، واصبحت حوادثها وطنية محلية يدور محورها على الاستئثار بالملك والذهاب بفضل السبق ، والتفكر فيما يدفع العوادي عن حدود البلاد، اويوسعها الى المدى المقدّر لها ، وبعد ان كانت الشام مصدر الاعمال والسياسة نازعتها مصر في هذا الشأن ، فابتلع القطر المصري الشام وعده كما كان زمن الفاطميين جزءاً متمماً لمصر لا قطراً مستقلاً بنفسه وسياسته . اي ان القوة اصبحت بعد عهد العادل تستمد في الشام من مصر لغناها الطبيعي ولانها مقر السلطان ، ومصر بين بلاد تحيط بها الصحاري من اطرافها لا سبيل كل حين الى غزوها كما تغزى الشام من اطرافها الاربعة ، وليس في امراء طرابلس و برقة وتونس والنوبة والسودان والحبشان من يستطيع ان يغزو مصر و يحلم بفتحها ، ولذلك كانت الشام بعد عهد الأُمويين اشبه بامارة سلطانها الاكبر في مصر ويتولاها نائبه او نوابه .

ولم يكتب للشام ان تصبح دار ملك بعد عهد الدولتين النورية والصلاحية وكان اهم عدو مجاور لها صاحب سيس ، فان الارمن كانوا قد جمعوا شملهم بعد ان قضت على سلطانهم الدولة الأَيوبية وانتزعت منهم خلاط اوائل القرن السابع ، وكانت

خلاط قاعدة ارمينية الوسطى اخذها بنو ايوب لمكانهم فيها من عصبية الاكراد وهي قسم من ارمينية الكبرى وقاعدتها سيس ، وقد ذهب الملك الاشرف سنة ٦٩١ في عساكره المصرية والشامية وقصد قلعة الروم ، وهي قلعة على جانب الفرات يقيم بها خليفة الارمن كيتاغيكوس فأخذه ومن معه اسرى ، ورمّ ما تخرب من تلك القلعة الحصينة .

تقدم ان فرنج الساحل لما اصابتهم الضربة القاضية اعتصم بعضهم باهل جبل لبنان ونزلوا عليهم ، وعاد آخرون الى بلادهم في المراكب ، وقد اثار هذا القسم اللاجئ الى لبنان في نفوس بعض اهله فكرة العصيان فعصوا ، فتوجست دولة الاشرف منهم خيفة فارسلت عليهم حملة من دمشق (٦٩١) بقيادة الامير بدر الدين بيدرا ، فسار الى جبل كسروان في العسكر وعدة من الامراء ، فانحل عزمه لما تمكن الكسروانيون من بعض العساكر في تلك الجبال ونالوا منهم ، وعاد العسكر شبه المكسور وحصل لاهل الجبل الطمع والقوة ، فاطلق محابيس لهم بدمشق من ارباب الجرائم العظيمة ، وحصل لهم من جميع المقاصد ما لم يكن في حسابهم . قال مغلطاي : وكل ذلك من الطمع وسوء التدبير .

وجاء الاشرف (٦٩٢) لتجهيز العسكر لقصد بلاد سيس فوردت عليه رسل صاحبها يطلب الصلح ورضا السلطان عليهم ، ففرضي على ان يسلموا لنواب السلطان ثلاث قلاع وهي : بهسنى ومرعش وتل حمدون . وكانت بهسنى قلعة حصينة في فم الدربند وباب حلب ، فلما انتقلت من ايدي المسلمين الى ايدي الارمن وقت مجيء التتار كان منها على المسلمين اذىً ، فلما فتح السلطان قلعة الروم واخذ خليفة الارمن حصل للارمن خوف عظيم فصانعوا عن انفسهم بهذه القلاع . قال مغلطاي : ورسم السلطان في هذه السنة للامير عز الدين الافرم بان يسافر الى الشوبك وان يخرب قلعتها فعاوده في ابقائها فنهره فسافر واخربها ، وكان هذا غاية الخطإ وسوء التدبير فان هذا الملك كان طالعه يقتضي الخراب فانه اخرب في قلعة الجبل اكثر بنيانها وكذلك في قلعة دمشق اخرب قاعات كثيرة وبظاهر دمشق من حد الميدان الى تحت القلعة وكان على يده خراب جميع الساحل وتعطلت بلاده من جميع الاصناف التي تجلب من البحر

وبقيت بلاد الشام معطلة . قلنا ولكن هذا السلطان وأبوه دفعا الصليبيين عن البلاد واجتثا اصولهم وفروعهم وادخلا البلاد في عهدهما في دور عز وقوة ووحدة حقيقية . واتسعت مملكة الناصر قلاوون حتى خطب باسمه في افريقية (تونس) ببلاد المغرب قال ابن اياس : وكان من اجل الملوك قدراً واعظمهم نهياً وامراً واكثرهم معروفاً وبراً ، وقد جبلت القلوب على محبته سراً وجهراً اهـ . وقد خلف آثاراً مهمة ومصانع خالدة في مصر وبعض بلاد الشام تدل على ذوق وحسن هندسة وحب للعمران ، وتسلسل الملك في اولاده واحفاده لان الرعية كانت تحبه فاحبت آل بيته ، وخفت وطأة المماليك في ايامه ثم عادت تدر يجاً الى القوة والعرامة .

قتل الملك الاشرف (٦٩٣) صلاح الدين خليل بن الملك المنصور قلاوون اغتيالاً بيد بعض اعيان الدولة بمصر واتفق قاتلوه على سلطنة بيدرا وتلقب بالقاهر ثم اتفق الحزب القوي منهم فبايعوا للملك الناصر ولد الملك المنصور ثم تغلب (٦٩٤) الامير زين الدين كتبغا نائب السلطنة على سرير المملكة واستحلف الناس على ذلك وخطب له بمصر والشام ونقشت السكة باسمه وجعل الملك الناصر في قلعة الجبل وحجب الناس عنه ، فتزعزعت اعصاب المملكة لهذه الحوادث المشؤمة التي تورث النفوس كآبة واعمال الناس فتورا .

ولما عاد الملك العادل كتبغا من دمشق الى مصر بالعساكر (٦٩٦) ووصل الى نهر العوجا تفرقت مماليكه وغيرهم فركب حسام الدين لاجين المنصوري نائب الملك العادل كتبغا ومعه فريق من الامراء فهرب كتبغا الى دمشق ودخل قلعتها واهتم في جمع العساكر والتأهب لقتال لاجين فلم يوافقه عسكر دمشق ورأى منهم التخاذل فخلع نفسه من السلطنة وارسل الى لاجين يطلب منه الامان وموضعاً يأوي اليه فاعطاه صرخد . واما حسام الدين لاجين فانه لما هزم العادل كتبغا نزل بدهليزه على نهر العوجا واجتمع معه الامراء الذين وافقوه على ذلك وشرطوا عليه شروطاً التزمها منها ان لا ينفرد عنهم برأي ولا يسلط مماليكه عليهم كما فعل بهم كتبغا ، فاجابهم لاجين الى ذلك وحلف لهم ، فعند ذلك حلفوا له وبايعوه بالسلطنة ولقب بالملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري ، ورحل بالعساكر الى الديار المصرية وارسل الى دمشق سيف الدين قبجق المنصوري وجعله نائب السلطنة بالشام .

ومن اهم ماوقع من الحوادث في عهد هذا الملك دخول غازان من احفاد هولاكو (٦٩٦) دمشق ثم ارتجاعه عنها بعد ان بذل له اهلها مالاً عظيماً . ثم تجريد السلطان العسكر الكثيف من مصر والشام (٦٩٧) لشن الغارات على بلاد سيس فضاقت على الارمن الارض بما رحبت وهلكوا من كثرة ما قتل المسلمون منهم وغنموا حتى اضطر ملكهم ان يبذل الطاعة لصاحب مصر والشام والاجابة الى مايرسم به سلطان الاسلام والى الاعتراف بانه نائب السلطان في بلاده ، فطلب منه العسكر ان يكون نهر جيحان حداً بين المسلمين والارمن وان يسلم كل ما هو جنوبي نهر جيحان من الحصون والبلاد ، فاجاب عظيمهم الى ذلك واخذ من البلاد حموص وتل حمدون وسرفندكار ومرعش وحجر شغلان وغيرها من الحصون والقلاع .

وفي سنة ٦٩٧ وفد احد مقدمي المغول الى الملك المنصور لاجين وطلب نجدة ليعود الى الروم طمعاً في اجتماع اهل الروم عليه ، فجرد معهم من حلب عسكراً مقدمهم سيف الدين بكتمر الجلمي وساروا مع المقدم سلامش المغولي حتى تجاوزوا بلد سيس فخرجت عليهم التتار واقتتلوا معهم فقتل الجلمي وجماعة من العسكر الاسلامي وهرب الباقون .

وفي سنة ٦٩٨ وحشت نفوس الدولة مما يأتيه منكوتمر من امساك الكبار وسقي بعضهم ، وذهب نائب دمشق قبجق بالعساكر فنزلوا بارض حمص وهناك بكتمر السلحدار بطائفة من المصريين فتكلموا في مصلحتهم وان منكوتمر لا يفتر عنهم فاتفقوا على المسير الى غازان ملك التتار لعلمهم باسلامه فسارا الى حمص ونزلا بخواصهما ، فاخذا على ناحية سلمية وعديا الفرات فلم يكن بعد عشرة ايام من مسيرهم الا وقد جاء البريد بقتل السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوري وقتل منكوتمر نائبه وعلم الامراء المخامرون بقتلهما ، فاتفق رأي ارباب الدولة في مصر على اعادة الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاوون الى مملكته فجيء به من الكرك وجلس على سرير سلطنته للمرة الثانية . ووصلت هذه السنة الى بيروت مراكب كثيرة وهي ثلاثون بُطْسَة وفي كل واحدة سبعمائة مقاتل من الفرنج للطلوع الى الساحل والاغارة على بلاد المسلمين فاصابتهم عاصفة اغرقت سفنهم الا قليلاً ورجع الباقون خائبين .

* * *

وقائع التتار

لم تكن نازلة الصليبيين تنحسم حتى كان المصاف العظيم بين المسلمين والتتـار في سنة ٦٩٩ فسار غازان بن أرغون خان بن هولاكو بن تولي بن جنكيز خان وهو السابع من ملوك الايلخانية في فارس ، بجموع عظيمة من المغول والتتـار والكرج والمزندة وغيرهم وعبر الفرات ووصل بجموعه الى حلب ثم الى حماة ونزل على وادي مجمع المروج وسارت العساكر صحبة الملك الناصر الى جهـة المجمع ، وكان سلار والجاشنكير متغلبين على المملكة فداخل الامراء الطمع ولم يكملوا عدة جنـدهم فنقص العسكر كثيراً مع سوء التدبير ونحو ذلك من الامور الفاسدة التي أوجبت هزيمة العسكر على رأي ابي الفداء . ثم ساروا والتقوا بالقرب من مجمع المروج في شرقي حمص على نصف مرحلة منها فولت ميمنة المسلمين ثم الميسرة وثبت القلب وأحاطت به التتار وجرى بينهم قتال عظيم وتأخر السلطان الى جهة حمص ، فولت العساكر الاسلامية تبتـدر الطريق وتمت بهم الهزيمة الى ديار مصر وانهزم السلطان الى نحو بعلبك بعد ان تلاقى عسكر مصر وعسكر التتار على مرج راهط تحت جبل غباغب ووقعت بينهما وقعة عظيمة . وكان مع العسكر المصري من العسكر الشامي وعربان من جبل نابلس نحو مائتي الف انسان في بعض الروايات ومع غازان مثل ذلك أو اكثر .

تتبع التتار المنهزمين من المسلمين في وقعة مجمع المروج حتى بلغوا دمشق واستولوا عليها ونهبوا ضياعهـا وسبوا أهلها ، وساقوا في أثر الجفّال الى غزة والقدس وبلاد الكرك . ولما استولى غازان على دمشق أخذ سيف الدين قبجق الامان لاهلها ولغيرهم منه . وكانت قلعة دمشق عصت على غازان فحاصرها وكان الامير بها سيف الدين ارجواش المنصوري فقام في حفظها أتم قيام وصبر على الحصار ولم يسلمها — هذا ما قاله ابو الفداء وابن اياس . ووصف مغلطاي ما حلّ بدمشق وضواحيهـا من التتار وما جرى على العساكر المصرية والشامية ، وما تم من تخريب الدور والمساكن بظاهر دمشق مثل الصالحية والحواضر البرانية من العقيبة والشاغور وقصر حجاج وحكر السماق وقد خرّب منهـا واستبيح ما لم يصبه الحريق من الاماكن قال : انهم أسروا من الصالحية نحو اربعة آلاف نسمة وقتلوا نحو ثلاثمائة او اربعمائة اكثرهم في التعذيب

على المال · ودام التتار نحو اربعة اشهر · وكان عدد من دخلوا دمشق من التتار اربعة آلاف مقاتل · وقد احترقت اماكن حول قلعة دمشق منها دار الحديث الاشرفية وما قبالتها الى العادلية الصغرى والعادلية الكبرى وأحرقت دار السعادة وكانت مقر نواب السلطنة وما حولها ، واحتاط التتار بهذه النواحي والاماكن التي لم يصل اليها الحريق فنهبت ونقضت أخشابها ، وقلع ما فيها من الرخام وأُخذ ما فيها من الاثاث ، وكذلك فعل بجميع الصالحية ·

وعقيب ان تم كل هذا الحيف جاء رسول التتار الى دمشق بالامان ومما شرطه في فرمانه اي امره وتقليده وكان مكتوباً بالعربية ، ان لا يتعرضوا لاحد من أهل الاديان على اختلاف اديانهم من اليهود والنصارى والصابئة ، فانهم انما يبذلون الجزية عنهم من الوظائف الشرعية · وقال صاحب التتار : انه حارب حكام مصر والشام لانهم خارجون من طريق الدين غير متمسكين باحكام الاسلام ، ناقضون لعهودهم ، حالفون بالايمان الفاجرة ، ليس لديهم وفاء ولا زمام ، وشاع من شعارهم الحيف على الرعية ، ومدّ الايدي العادية الى حريمهم وأموالهم ، والتخطي عن جادة العدل والانصاف · قال مغلطاي : انه حمل الى خزانة غازان ثلاثة آلاف الف دينار وستمائة الف دينار سوى ما لحق من التراسيم (المقررات) والبراطيل والاستخراج لغيره من الامراء والوزراء وغير ذلك · وقال الصفدي : والى شيخ الشيوخ الذي نزل بالعادلية ما قيمته ستمائة الف درهم والى الاصيل بن نصير الدين الطوسي مائة الف درهم ·

ولقد أقام غازان بمرج دمشق المعروف بمرج الزنبقية · ثم عاد الى بلاده الشرقية وعاصمتها تبريز وقرر في دمشق قبجق ولم يستنفد الا تخريب البلاد وقتل بعض جيشه وجيشي مصر والشام ، فلما بلغ العساكر مسير غازان عن الشام خرجوا من مصر وخرج السلطان الى الصالحية ، ثم اتفق الحال على مقام السلطان بالديار المصرية ومسير سلار وبيبرس الجاشنكير بالعساكر الى الشام فسارا بالعساكر ، وكان قبجق وبكتمر والالبكي قد كاتبوا المسلمين في الباطن وصاروا معهم ، فلما خرجت العساكر من مصر هرب قبجق ومن معه من دمشق وفارقوا التتار وساروا الى مصر ، وبلغ التتار بدمشق ذلك

فخافوا وساروا من وقتهم الى البلاد الشرقية ، ورتب الامير جمال الدين اقوش الافرم في نيابة السلطنة بدمشق ، وأُقر سنقر في نيابة السلطنة بحلب ، وقطلو بك في نيابة السلطنة بالساحل والحصون ، والامير كتبغا زين الدين المنصوري بحماة . وسار جمال الدين اقوش الافرم من دمشق وصحبته من الرجالة والفلاحين جمع كثير الى جبال كسروان لقتال أهلها عقوبة لهم عما قدمت أيديهم مما كانوا فعلوه مع المسلمين واخذ عُددهم ، فدخل الكسروانيون تحت الطاعة وقرر عليهم جملة مستكثرة من المال فالتزموا به وحملوه وأُقطعت بلادهم وأراضيهم .

وكان الارمن في السنة الماضية لما وصل غازان بجموع المغول الى الشام طمعوا في البلاد التي افتتحها المسلمون منهم وعجز المسلمون عن حفظها ، فتركها الذين بها من العسكر والرجالة فاستولى الارمن عليها ، ولم يبق مع المسلمين من تلك القلاع غير قلعة حجر شغلان ، واستولى الارمن على غيرها من الحصون والبلاد التي كانت جنوبي نهر جيحان ، فجردت مصر والشام في السنة التالية عسكراً الى بلاد سيس ونهبت وخربت . وعاد المغول فجرد صاحبهم غازان (٧٠٠) مرة ثانية عسكراً على الشام بدعوى ان عساكر صاحب مصر والشام أغارت على ماردين وبلادها فطرقت البلاد على حين غفلة من أهلها وهتكوا المحارم فأتاه أهل ماردين وبلادها مستصرخين ملهوفين فحركته الحمية الاسلامية — وكان دان بالاسلام حديثاً — فلاقى العسكر وفرّق شملهم ، وان سبب رحيله المرة الاولى عن الشام ان الرعية تضررت بمقامه لكثرة جيوشه ومشاركتهم الرعية في الشراب والطعام فرحل وترك عندهم من يحرسهم من تعدي بعضهم على بعض ويحفظ الشام من أعدائه المتقدمين واكراده المتمردين .

ولما عبر الفرات في المرة الثانية جفل الناس من المغول ودخلوا بلاد حلب وعاثوا في ارجائها ، وسار نائب السلطنة بحلب الى حماة ووصلت العساكر من دمشق واجتمعوا بظاهر حماة وأقام المغول ببلاد سرمين والمعرة وتيزين والعمق وجبال انطاكية وجبل السماق ينهبون ويقتلون ، وسار السلطان من مصر بالعساكر المصرية ووصل الى نهر العوجا فلم يمكنه اطراد السير لكثرة الامطار والاوحال فرجع الى مصر ، واقام المغول يتنقلون في بلاد حلب نحو ثلاثة اشهر ثم عادوا الى بلادهم . والمغول هم والتتار

شيء واحد والتتار صنف من أمم المغول . فقول المؤرخين المغول او التتار من الالفاظ المترادفة تقريباً .

وفي سنة ٧٠٢ فتحت جزيرة أرواد قبالة أنطرطوس وهي ليعقوب الطرطوسي وكان اجتمع فيها جمع كثير من الفرنج وبنوا فيها سوراً وتحصنوا وكانوا يطلعون منها و يقطعون الطريق على المسلمين المترددين في ذلك الساحل وكان النائب على الساحل اذ ذاك سيف الدين اسندمر الكرجي فسأل ارسال اسطول من مصر فسار اليها وجرى بين الفرنج والمسلمين قتال شديد انتصر فيه المسلمون وملكوا الجزيرة وقتلوا وأسروا جميع أهلها وخربوا أسوارها وكان القتلى نحواً من الفين والاسرى نحو خمسمائة . وفي هذه السنة نزلت الفرنج على نهر الدامور بين صيدا وبيروت ورفعت الشكايات الى نائب دمشق الافرم في الجرديين والكسروانيين — وكانوا أعواناً للفرنج والحكومة في دمشق تعمل جهدها لمنع الفرنج عن الاجتماع باهل كسروان — فحشدت جيوش الشام لمقاتلتهم وكانت الوقعة على ما روى ابن القلاعي عند مدينة جبيل فحمل الكسروانيون على الجيش الشامي فقتلوا اكثره وغنموا أمتعتهم وسلاحهم واخذوا اربعة آلاف رأس من خيلهم وتقدمت الاكراد لنجدتهم ، فصدهم كمينان في الفدار والمدفور فلم يخلص منهم الا القليل وخربوا بعض بلاد الغرب ، وكان امراء الغرب التنوخيون مع جيش دمشق فعاد الجرديون فغزوا عين صوفر وشليخ وعين زيتونة و بحطوش وغيرها . ويقول صالح بن يحيى : ان السبب في قتالهم ان الهاربين من وجه التتار من العسكر تفرقوا (٦٩٩) في البلاد فحصل لهم اذية من المفسدين وخصوصاً من أهل كسروان وجزين وأكثرهم اذية للهاربين أهل كسروان فانهم بلغوا الى ان أمسكوا بعضاً منهم و باعوهم للفرنج واما السلب والقتل فكان كثيراً الى ان عاملت الدولة الكسروانيين بما تقدم .

وفي هذه السنة عادت التتار قصد الشام وساروا الى الفرات وأقاموا عليها مدة في أزوارها وسارت منهم طائفة تقدير عشرة آلاف فارس وكانوا كلهم نحواً من خمسين الفاً عليهم خطلوشاه نائب غازان واغاروا على القريتين وتلك الارجاء ، وكانت العساكر قد تجمعت في حماة بقيادة اسندمر الكرجي نائب السلطنة بالساحل ومعاونة عسكر حلب وحماة فاقتتلوا مع التتار في موقع يقال له الكوم قريب من

عُرْض بين تدمر والرّصافة فانهزم التتار وقتلوا عن آخرهم ، وكان المسلمون الفاً وخمسمائة فارس والتتار ثلاثة اضعافهم وهم الطائفة التي كانت وصلت الى القريتين ونهبت التركمان .

ثم سار التتار بجموعهم العظيمة صحبة قطلوشاه نائب غازان بعد كسرتهم على الكوم ووصلوا الى حماة فاندفعت العساكر الذين كانوا بها بين ايديهم واجتمعت عساكر مصر والشام في دمشق بمرج الزنبقية ظاهر دمشق ثم ساروا الى مرج الصفَّر لما قاربهم التتار وبقي العسكر منتظرين وصول الملك الناصر وسارت التتار وعبروا على دمشق طالبين العسكر ووصلوا اليهم عند شقحب بطرف مرج الصفّر فالتقى الفريقان واشتد القتال فانهزم التتار ولحق المسلمون اثر المنهزمين الى القريتين يقتلون فيهم و يأسرون ، ووصل التتار الى الفرات وهو في قوة زيادته فلم يقدروا على العبور والذي عبر فيها هلك ، فساروا على جانبها الى بغداد فانقطع اكثرهم على شاطئ الفرات ، واخذ العرب منهم جماعة كثيرة ورجع غازان من حلب في ضيق صدر من كسرة اصحابه وتمزقهم لبعد المسافة وتخطف اهل الحصون لهم . قال شرف الدين الوحيد في انتصار التتار مرة و كسرتهم تارة أُخرى :

وجاءت ملوك المغل كالرمل كثرة وقد ملكت سهل البسيطة والوعرا
فأنصفت الايام في الحكم بيننا فكانت له الاولى وكانت لنا الاخرى

✲ ✲ ✲

غزوة الارمن والكسروانيين وتزعزع السلطنة

ولما ارتاح ذهن صاحب مصر والشام من التتار عاد فجرد عسكراً من مصر وحماة وحلب (٧٠٣) ودخلوا بلاد سيس وحاصروا تل حمدون وفتحوها بالامان وارتجعوها من الارمن وهدموها الى الارض . وكان من نتائج معاونة التنوخيين في غرب لبنان لجيش دمشق على قتال الكسروانيين ان تأصلت العداوة بين الفريقين حتى اذا كانت سنة ٧٠٤ ارسل اقوش الافرم نائب دمشق الى الجبليين والكسروانيين الشريف زين الدين عدنان ، يأمرهم ان يصلحوا شؤونهم مع التنوخية ويدخلوا في طاعتهم ، ثم ارسل اليهم ابن تيمية في صحبة بهاء الدين قراقوش فلم يحصل اتفاق ، فافتى العلماء حينئذ بنهب

بلادهم بسبب استمرارهم على العصيان وابائهم الدخول في الطاعة ، ولذلك جردت العساكر من جميع بلاد الشام ولم تزل تزداد الجموع الى سلخ هذه السنة . وقال في الدر المنظوم ان اقوش المذكور فتح كسروان من جهتها الشمالية ولذلك دعيت فتوحاً وقال آخر : انالافرم جمع رجال الدروز (٧٠٦) وكانوا عشرة امراء بعشرة آلاف مقاتل والتقت الجموع عند عين صوفر وجرى بينهم قتال عظيم وكانت الدائرة على الامراء فهربوا بحرمهم واولادهم واموالهم ونحو ثلاثمائة نفس من رجالهم واجتمعوا في الغار غربي كسروان المعروف بغار تيبية فوق انطلياس بالغرب من مغارة البلانة فدافعوا عن انفسهم ولم يقدر الجيش ان ينال منهم .ثم بذلوا لهم الامان فلم يخرجوا فامر نائب دمشق ان يبنوا على الغار سداً من الحجر والكلس وهالوا عليه تلاً من التراب وجعلوا الامير قطلوبك حارساً عليهم مدة اربعين يوماً حتى هلكوا داخل الغار، ثم احاط العسكر بتلك الجبال ووطئوا ارضاً لم يكن اهلها يظنون ان احداً من خلق الله يصل اليها ، فخربوا القرى وقطعوا الكروم وهدموا البيع وقتلوا واسروا جميع من صادفوا من الدروز والكسروانيين وغيرهم فذلت تلك الجبال المنيعة بعد عزتها .

وكل حصن وان طالت اقامته … على دعائمه لابدَّ مهدوم

ويقول مؤرخو لبنان : ان الافرم في هذه الحملة كان في خمسين الف فارس وراجل . ويقول ابو الفداء وابن الوردي : ان هذه الحملة كانت على بلاد الظنّينيين[1] وغيرهم من المارقين عن الطاعة وكانوا يتخطفون المسلمين ويبيعونهم من اعدائهم ويقطعون الطرق . وفي تاريخ بيروت ان سيف الدين أسندُمر نائب طرابلس كان يُنسب الى مباطنة الكسروانيين فافحش فيهم القتل لينفي عنه هذه التهمة اللاحقة به وان الكسروانيين بادوا وتفرقوا في البلاد واقطع هذا النائب بعضهم املاكاً من حلقة طرابلس وجازى بعضهم بالرواتب .

وفي سنة ٧٠٥ ارسل نائب السلطنة بحلب مع قشتمر مملوكه في عسكر حلب للاغارة على بلاد سيس ايضاً ، وكان ضعيف العقل قليل التدبير ، ففرّط في حفظ العسكر

(١) جبال الظنينين على ما في تاريخ بيروت هو الجبل الذي يعرف اليوم بجبل الضنية قرب عكار .

ولم يكشف اخبار العدو واستهان بهم ، فجمع صاحب سيس جموعاً كثيرة من التتار وانضمت اليهم الارمن والفرنج ووصلوا على غرة الى قشتمر فالتقوا بالقرب من اياس فلم يكن للحلبيين قدرة بمن جاءهم فتولوا يبتدرون الطريق . وتمكنت التتار والارمن منهم فقتلوا واسروا غالبهم واختفى من سلم في تلك الجبال .

ولم يحدث بعد ذلك من الكوائن المهمة شيء يستحق التدوين حتى سنة ٧٠٨ وقد خرج السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون من مصر يظهر التوجه الى الحجاز ، فلما وصل الى الكرك امر الامراء الذين حضروا في خدمته بالمسير الى الديار المصرية واعلمهم انه جعل السفر الى الحجاز وسيلة الى المقام بالكرك . وكان سبب ذلك استيلاء سلار وبيبرس الجاشنكير على المملكة واستبدادهما بالامور وتجاوزا الحدّ في الانفراد بالاموال والامر والنهي ، ولم يتركا له غير الاسم فاشتور الامراء فيما بينهم واتفقوا على ان تكون السلطنة لبيبرس الجاشنكير فجلس على سرير السلطنة على ان يكون سلار مستمراً على نيابتها .

وفي السنة التالية سار جماعة من المماليك على حمية من الديار المصرية مفارقين طاعة بيبرس الجاشنكير الملقب بالملك المظفر ، ووصلوا الى السلطان بالكرك واعلموه بما الناس عليه من طاعته ومحبته ، فاعاد السلطان خطبته بالكرك ووصلت اليه مكاتبات عسكر دمشق يستدعونه وانهم باقون على طاعته ، وكذلك وصلت اليه المكاتبات من حلب ثم جاء من الكرك الى حمان وهي قرية قريبة من رأس الماء وعاد فرجع الى الكرك واستمرت العساكر على طاعته وانحلت دولة بيبرس الجاشنكير وجاهره الناس بالخلاف بعد ان ساعفته الايام ولم يهم الا انه ستخونه الاقدار ولا تغني ان ما بناه على شفا جرف هار .

ولما تحقق الملك الناصر صدق طاعة العساكر الشامية وبقاءهم على طاعته وولائه عاود المسير الى دمشق فسار الى البرج الابيض من اعمال البلقاء ، فاطاعه جند دمشق وجند حماة والساحل ، وطلب نائب السلطنة الافرم الامان فأمنه ، ولما تكاملت العساكر الشامية عند السلطان بدمشق سار الى مصر وبلغ بيبرس الجاشنكير ونائبه ذلك فجردا عسكراً ضخماً اقاموا في الصالحية بطريق مصر . ولما وصل السلطان الى

غزة قدم الى طاعته عسكر مصر اولاً فأولاً ثم تتابعت الأطلاب والكتائب ، وبويع له بالسلطنة للمرة الثالثة ولما تحقق بيبرس الجاشنكير ذلك خلع نفسه من السلطنة وطلب الامان واعطاه السلطان صهيون ومئة مملوك ثم قبض وقتل . وكذلك فعل بسلار واكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع .

وفي سنة ٧٠٩ وقعت فتنة في حوران بين اليمنية والقيسية وحشدوا وبلغت المقتلة الف نفس وكانت بقرب السويداء وفي سنة ٧١٠ اقام السلطان ملكاً على حماة اسماعيل بن علي الملقب بابي الفداء وهو آخر من بقي من سلالة الملوك الاقدمين في الشام . ولولا حسن سياسة ابي الفداء ما وصل الى هذا المنصب لان البيور اصبح دور المماليك والغرباء عن البلاد وجميع مواطن النيابة اصبح فيها مماليك السلطان او مماليك والده او مماليك مماليك والده ، وجميعهم مرتبون من الابواب الشريفة . ولم يكن كل ملك او قيل من هؤلاء الملوك والاقيال حراً بمملكته كما زعم بعضهم ، بل كانوا حتى من تسلسل فيهم الملك في بلدان صغيرة من الشام اشبه باصحاب اقطاعات لا يزالون في حربهم وسلمهم تحت امر السلطان . واذا شذّ في الاحايين بعضهم وعدوا على سلطانهم فانهم لم يخرجوا عن كونهم ولاة او عمالاً خرجوا على السلطان ليس الا .

* * *

الغزوات في الشمال وظهور دعوة جديدة

وفي سنة ٧١١ قصد قراسنقر كبير الامراء في حلب امير العرب مهنا بن عيسى وكان على مسيرة يومين من حلب يستنصره ، وكان في ثمانمائة مملوك ، على الملك وكان يريد أن يبطش به . فركب مهنا فيمن أطاعه من أهله ، واستنفر من العرب نحو خمسة وعشرين الفاً ، وقصدوا حلب وأحرقوا باب قلعتها وتغلبوا عليها ، واستخلصوا منها مال قراسنقر ومن بقي من أهله ولم يتعدوا الى سوى ذلك ودخلت سنة ٧١٥ فارسل السلطان محمد بن قلاوون عساكر الشام ومصر الى ملطية ففتحوها ، وسبب ذلك أن حكومتها كانت تعتدي على ابناء السبيل ومن جاورها من سكان القلاع ، وان المسلمين كانوا بها يختلطون بالنصارى حتى انهم زوجوا النصراني بالمسلمة وثبت أنهم كانوا يطلعون التتار والارمن على أخبار المسلمين ، ثم رجع الجيش الى مرج دابق قرب حلب ، وترددت الرسل الى

صاحب بلاد سيس الارمني في اعادة البلاد التي جنوبي جيحان وزيادة القطيعة اي الاتاوة فزادت حتى جعلها نحو الف الف درهم · وصدر امر السلطان بان لا تكون بحماة وبلادها حماية للدعوة الاسماعيلية أهل مصياف ، بل يتساوون مع رعية حماة في اداء الحقوق والضرائب الديوانية وغير ذلك ·

وأغار سليمان بن مهنا بن عيسى بجماعة من التتار والعرب على التراكمين والعرب النازلين قريب تدمر ونهبهم ووصل في اغارته الى قرب البيضاء بين القريتين وتدمر وعاد بما غنمه الى الشرق · وجهز نائب السلطنة (٧١٧) بحلب عدة كثيرة من عسكر حلب وغيرهم من التراكمين والعربان والطماعة ما يزيد على عشرة آلاف فارس فساروا الى آمد وبغتوها ونهبوا اهلها المسلمين والنصارى · و بالغوا في النهب الحرام فخلت آمد من اهلها · وظهر في جبال بلاطنس من عمل اللاذقية انسان من النصيرية وادعى انه محمد بن الحسن العسكري ثاني عشر الائمة عند الامامية ، وقيل زعم تارة انه المهدي المنتظر وأخرى انه علي بن ابي طالب وطوراً انه محمد المصطفى وان الامة كفرة · فتبعه خلق من النصيرية نحو ثلاثة آلاف ، وهجم مدينة جبلة والناس في صلاة الجمعة فنهب أموال أهل جبلة ، وجرد اليه عسكر من طرابلس فلما قاربوه تفرق جمعه وهرب واختفى في تلك الجبال فتتبع وقتل وباد جمعه ولم يعد لهم ذكر ، بعد ان قتل مائة وعشرون رجلاً من رجاله ·

وفي سنة ٧٢٠ تقدمت مراسيم السلطان باغارة العساكر على بلاد سيس فسار الجند الشامي من الساحل ودمشق وحماة وحلب فنازلوا قلعة سيس حتي بلغوا السور ، وغنموا منها وأتلفوا البلاد والزراعات وساقوا المواشي ونهبوا وخربوا · وسار جمع عظيم من العساكر الشامية والعرب في أثر آل عيسى ، وكانت منازلهم في سلمية ، حتى وصلوا الى الرحبة فعانة فهرب آل عيسى الى ما وراء الكبيسات ، وأقام السلطان موضع مهنا محمد بن ابي بكر بن علي بن حديثة بن عصبة ثم رضي السلطان (٧٢٢) على الامير فضل بن عيسى وأقره على إمرة العرب موضع محمد بن ابي بكر أمير آل عيسى · وجردت بعض العساكر المصرية والشامية والساحلية الي بلاد سيس ونازلوا اياس

فهربت الارمن منهـا واخلوها والقوا النار فيها فملكها المسلمون وخربوا ما قدروا على هدمه وعاد كل عسكر الى بلده ·

وفي سنة ٧٣٢ مات الملك المؤيد اسماعيل بن علي صـاحب حماة وكان سلطان مصر يحبه ويستدعيه كل سنة لزيارته ومرافقته في صيوده وينعم عليـه حتى سلطنه سنة ٧٢٠ لكثرة ما شاهد من علمه وحسن سياسته ، اي انه ارسل اليـه شعار السلطنة ، وكان مؤلفاً عظيماً وعالماً مفضلاً على العلماء · قال ابن الوردي : ولقد رأيت جماعة من ذوي الفضل يزعمون انه ليس في الملوك بعد المأمون افضـل منه ، وتملك حماة ابنه الملك الافضل ناصر الدين محمد ·

وهدأت الاحوال في هذه الحقبة في البلاد ولم يحدث سوى امور طفيفة مثل قدوم مراكب فرنج جنوية (٧٣٤) الى بيروت ، قاتلوا اهلهـا يومين ودخلوا البرج واخذوا الاعلام السلطانية والمراكب · وكان السلطان يعتقل بعض الخوارج عليـه او من يرى في سيرهم ما يدعو الى الشبهة ثم يطلقهم وينعم عليهم ، وربما اخر اهلاك من يخافهم على السلطنة مثل تنكز نائب الشام عشر سنين ثم قتله وكان قتل خلقـاً فارتاحت البلاد ، وما كانت افكار السلطنة موجهة الا الى قتـال الارمن مخافة ان يستطير شرهم ، فكانوا يغزون كل مرة وآخر ما نالهم من غزوة المسلمين غزوة عسكر حلب (٧٣٥) ، وكان الارمن ملكوا مدينة سيس وطردوا من كان بها من المسلمين ، فخربوا في بلد أذنة وطرسوس وأحرقوا الزروع واستاقوا المواشي وغنموا وأسروا ، وما عدم سوى شخص واحد غرق في النهر ، وكان العسكر عشرة آلاف سوى من تبعهم ، فلما علم أهل اياس بذلك أحاطوا بمن عندهم من المسلمين التجار وغيرهم وحبسوهم في خان ثم أحرقوه وقلّ من نجا ، فعلوا ذلك بنحو الفي رجل من التجار والبغادذة وغيرهم · وبعد مدة سار العسكر من مصر والشام بقيادة ملك الامراء بحلب علاء الدين الطنبغا الى بلاد الارمن (٧٣٧) ونزلوا على مينا اياس وحاصروها ثلاثة ايام ثم قدم رسول الارمن من دمشق ومعه كتاب نائب الشام بالكف عنهم على ان يسلموا البلاد والقلاع التي شرقي نهر جيحان ، فتسلموا ذلك منهم وهو ملك كبير وبلاد كثيرة كالمصيصة وكوبرا والهارونية وسرفندكار واياس وباناس ونجيمة والنقير وغير ذلك ،

فخرب المسلمون برج اياس الذي في البحر . قال ابن الوردي : وهذا فتح اشتمل على فتوح وترك ملك الارمن جسداً بلا روح .

* * *

سياسة المماليك مع اكبر عمالهم . وفاة الناصر وتولي المنصور

كانت حكومة المماليك تكثر من نصب الولاة وعزلهم ولا سيما في دمشق ، فتولي في كل وقت نائباً جديداً وربما في كل شهر ولم تطل مدة واحد من الولاة كما طالت نيابة تنكز فان ولايته دامت من سنة ٧١٢ الى ٧٤٠ قال الكتبي: وهابه الامراء بدمشق ونواب الشام وأمن الرعايا ، ولم يكن احد من الامراء ولا ارباب الجاه يقدر ان يظلم احداً آدمياً او غيره خوفاً من بطشه وشدة ايقاعه . قال : وكان الناس في ايامه آمنين على أموالهم ووظائفهم . وهو صاحب الابنية العظيمة في دمشق وغيرها من بلاد الشام وكان ممن ينشط الزراعة . ولما اخذه ملك مصر وقتله في الاسكندرية تأسف عليه أهل دمشق .

وتوفي السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤١ بعد ان خطب له ببغداد والعراق وديار بكر والموصل والروم ، وضرب الدينار والدرهم هناك باسمه كما يضرب له بالشام ومصر ، وتألم الناس لفقده لانه أبطل المكوس وعمر البلاد وانشأ جوامع ومدارس وكانت ايامه ايام أمن وسكينة ، فتولى الملك بعده ابنه السلطان الملك المنصور ابو بكر وكان تسلطن قبل موت والده . وملك الناصر محمد ابن قلاوون ثلاث مرات مدتها ثلاث واربعون سنة وتسعة أشهر وسبعة عشر يوماً ، تملك المرة الاولى بعد وفاة اخيه الاشرف سنة كاملة ، والمرة الثانية بعد قتل لاجين ، ومدة ملكه ثانية عشر سنين وستة شهور واثنا عشر يوماً ، والدولة الثالثة أقام بها ثنتين وثلاثين سنة وثلاثة شهور وخمسة ايام ، وكان في الثالثة حاكماً متصرفاً ليس له منازع ولا معترض ولا من يخالف امره بخلاف المدتين الأوليين . وشأن قلاوون قليل في الملوك ، لانه ندر من يتخلى او يخلع من الملوك ان يعود الى دست السلطنة مرة ثانية فكيف بثلاث مرات . ومن غريب ما وقع له ايضاً انه تسلطن ثمانية من أولاده لصلبه ، وهذا مما يعد في باب سعادة آل قلاوون .

وفي سنة ٧٤١ فتح الامير علاء الدين ايدغدي الزراق ومعه بعض عسكر حلب قلعة خندروس من الروم ، وكانت عاصية وبها أرمن وتتار يقطعون الطرقات ، وفي السنة التالية (٧٤٢) بايع السلطان الملك المنصور ابو بكر الخليفة الحاكم بامر الله ابا العباس احمد بن المستكفي بالله ابي الربيع سليمان وكان قد عهد اليه والده بالخلافة فلم يبايع في حياة الناصر فلما ولي المنصور بايعه بمصر وجلس معه على كرسي الملك وبايعه القضاة وغيرهم ، وكان الخليفة من اولاد العباس يقيم في مصر كعامل كبير محترم من عمال السلطنة ويبايع السلطان عند جلوسه .

* * *

خلع الملك المنصور ومقتل غير واحد من اخوته الذين خلفوه

خلع السلطان الملك المنصور ابو بكر فاحتج عليه قوصون الناصري ولي نعمة ابيه بحجج ونسب اليه اموراً ، فأخرجه الى قوص فقتله واليها ، وأقام في الملك اخاه الملك الاشرف كجك وهو ابن ثمان سنين . اي ان الخوارج على السلطنة بعد ان سكنوا بحسن سياسة الملك الناصر محمد بن قلاوون مدة بعد خلعه نفسه ومكثه في الكرك حتى رجع الى السلطنة بعد ان اطاعه عسكر الشام ومصر ، عادوا يبدون نواجذ الشر ويقتلون ملكهم ، وقتل الملوك من أشأم ضروب الخراب في الممالك ، فقتل الملك الجديد ونصب اخوه الصبي ليكون الحكم لقوصون الناصري كما وقع ذلك في أدوار مختلفة ، ثم أرسل قوصون مع الامير قطلبغا الفخري الناصري عسكراً لحصار السلطان احمد بن الملك الناصر بالكرك ، وسار الطنبغا نائب دمشق والحاج ارقطاي نائب طرابلس باشارة قوصون الى قتال طشتمر بحلب ، لان هذا انكر على قوصون ما اعتمده في حق أخيه المنصور ابو بكر ، ونهب الطنبغا بحلب مال طشتمر وهرب هذا الى الروم ، واستمال الملك الناصر في الكرك قطلبغا الفخري وكان ذهب لقتاله وحاصره اياماً بامر قوصون من مصر فبايعه وبايع للناصر من بقي من عسكر دمشق المتأخرين عن المضي الى حلب صحبة الطنبغا ، ثم سار الفخري الى ثنية العقاب واخذ من مخزن الايتام بدمشق مالاً ، ولما بلغ الطنبغا ما جرى بدمشق رجع على عقبه فأرسل اليه الفخري لما قرب من دمشق القضاة ،

وطلب الكف عن القتال فقويت نفس الطنبغا وابى ذلك ، وطال الامر على العسكر فلما تقاربوا بعضهم من بعض لحقت ميسرة الطنبغا بالفخري ثم الميمنة وبقي الطنبغا وجماعته في قليل من العسكر ، فهرب الطنبغا ومن معه من القواد الى جهة مصر ، فجهز الفخري وأعلم الناصر بالكرك وقد خطب له بدمشق وغزة والقدس فلما وصل الطنبغا الى مصر ، وهو قوي النفس بقوصون تغير امر قوصون . وكان قد غلب على الامر اصغر الملك الاشرف ، ثم قبض جماعة الامراء على قوصون وأرسلوه الى الاسكندرية وأهلك بها ، وقبضوا على الطنبغا وحبسوه ، وسافر الملك الناصر احمد من الكرك وعمل أعزية لوالده واخيه ، وامر بتسمير والي قوص لقتله المنصور وخلع الاشرف الصغير ، وجلس الناصر على الكرسي هو والخليفة ثم أعدم الطنبغا وغيره ، وتواتر عزل الولاة والنواب بحلب ، جرى كل هذا في مدة يسيرة . وجرى في هذه السنة (٧٤٢) من تقلبات الملوك والنواب واضطرابهم ما لم يجر في مئات من السنين على رأي ابن الوردي .

ولم يصف جو السلطنة للملك الناصر احمد في مصر وسافر الى الكرك وحصنها واتخذها مقاماً له ولما حصل بها وقتل بها طشتمر والفخري قتلة شنيعة (٧٤٣) انقلب عليه عسكر الشام وهو بالكرك وكاتبوا مصر لخلع الناصر واجلس اخوه السلطان الملك الصالح اسماعيل ، واستتباب آل ملك وحصر السلطان الملك الناصر بالكرك واجتمع عليه اخوه الملك الصالح بما اخذه من اموال بيت المال ، وخرج الامير ركن الدين بيبرس الاحمدي من مصر بعسكر لحصار الكرك وكذلك من دمشق ، فحاصروا الناصر بالكرك وذكر المؤرخون انه وردت المراسيم الى جميع ولايات الاعمال الشامية بتجريد العشران وغيرهم الى الكرك ، فذهبوا اليها سنة ٧٤٣ ووجدوا في القلعة مع السلطان احمد خلقاً كثيراً ، وقد نصبوا على القلعة في اعلاها خمسة مناجيق ومدافع كثيرة ، ونصب المحاصرون على باب القلعة منجنيقاً يرمي بحجارة وزنها خمسة وثلاثون رطلاً وخرجت السنة ولم يحصل فيها شيء يذكر واغار التركمان مرات على بلاد سيس فقتلوا ونهبوا واسروا وشفوا الغليل بما فتكت الارمن ببلاد قرمان ، وعاد العسكر (٧٤٤) المجهز الى بلاد سيس وما ظفروا بطائل ، وكانوا قد اشرفوا على اخذ اذنة وفيها خلق

عظيم واموال عظيمة وُجفال من الارمن فارتشى اقسنقر مقدم عسكر حلب من الارمن وثبط الجيش عن فتحها واحتج بان السلطان مارسم باخذها . وحاصر يلبغا النائب بحلب زين الدين قراجا بن دلغادر التركماني بجبل عسر الى جانب جيحان فاعتصم منه بالجبل، وقتل في العسكر واسر وجرح ، وما نالوا منه طائلا فكبر قدره بذلك واشتهر اسمه وعظم على الناس شره ، وكانت هذه حركة رديئة من يلبغا ثم اوقع دلغادر بالارمن وفتح قلعة كابان (٧٤٦) وبعد فتحها قصد النائب بحلب ان يستنيب فيها من جهة السلطان فعتا ابن دلغادر عن ذلك ، فجهزوا عسكراً لهدمها ثم اخذتها الارمن . وفي سنة ٧٤٥ حوصرت الكرك ونقبت ، وأُخذ الملك الناصر احمد وحمل الى اخيه الملك الصالح بمصر فكان آخر العهد به ، وفي هذه السنة كانت الوقعة بين اهل البقاع ووادي التيم وقتل من الفريقين خلق كثير ، واحرق ابن صبح قرية من وادي التيم ، وانقطعت السبل لا سيما طريق الزبداني . وتوفي الملك الصالح اسمعيل بن الملك الناصر محمد بن قلاوون (٧٤٦) وجلس مكانه اخوه السلطان الملك الكامل شعبان . وفي سنة ٧٤٧ خرج نائب الشام يلبغا الى ظاهر دمشق خوفاً من القبض عليه وشق عصا الطاعة وعاضد امراء مصر حتى خلع السلطان الملك الكامل شعبان واجلسوا مكانه اخاه الملك المظفر امير حاج ، وسلموا اليه اخاه الملك الكامل فكان آخر العهد به ، وكان هذا الملك الكامل شعبان سيئ التصرف يولي المناصب غير اهلها بالبذل ويعزلهم عن قريب ببذل غيرهم ، وكان يقول عن نفسه انا ثعبان لا شعبان .

وفي سنة ٧٤٨ سافر الامير ناصر الدين بن المحسني بعسكر من حلب لتسكين فتنة ببلد شيزر بين العرب والاكراد قتل فيها من الاكراد نحو خمسمائة نفس . وفيها عزمت الارمن على نكبة اياس ، فاوقع بهم امير اياس حسام الدين محمد بن داود الشيباني ، وقتل من الارمن خلقاً واسر خلقاً ، واحضرت الرؤوس والاسرى الى حلب واقتتل سيف الدين بن فضل امير العرب واتباعه مع احمد فياض من الامراء في جمع عظيم قرب سلمية فانكسر سيف ونهبت امواله وجرى على المعرة وحماة وغيرهما من العرب اصحاب سيف واحمد فياض من النهب وقطع الطرق مالا يوصف وكانت هذه الحرب ضربة قاضية على بادية حماة فطفق البدو ينهبون القرى و يغيرون على حماة

والمعرة ففر الفلاحون ودرست القرى · وفي هذه السنة قتل السلطان الملك المظفر امير حاج ابن الملك الناصر بن قلاوون بمصر واقيم مكانه اخوه السلطان الملك الناصر حسن ، وكان الملك المظفر قد اهلك اخاه الاشرف كجك وفتك بالامراء وقتل من اعيانهم نحو اربعين اميراً ·

* * *

احداث وكوائن وعصيان ومخامرات | ومن الاحداث ان نائب الشام يلبغا اليحياوي هرب فتبعه جماعة من عسكر دمشق فتقاتل معهم فقتل فقطعوا رأسه وحملوه الى السلطان بمصر · وفي سنة ٧٥٠ دخل الامير جبغا نائب طرابلس مدينة دمشق في جماعة كثيرة من عسكر طرابلس ، وكان ارغون شاه نائب الشام مقيماً بالقصر الابلق فدخل عليه الامير جبغا وهو نائم بين عياله وقبضه ، فلما اصبح الصباح طلب الامير جبغا القضاة والامراء بدمشق واخرج لهم مرسوم السلطان بالقبض على ارغون شاه فسكن ما كان بين الناس من الاضطراب ، وظنوا ان ذلك صحيح فسجنه واحتاط على موجوده ، ثم وجدوا ارغون شاه مذبوحاً في السجن ففشا الكلام بين الناس بان ذلك من فعل الامير جبغا فوثب عليه عسكر دمشق وحاربوه فهرب جبغا الى المزة فلم يتبعه احد من العسكر وخافوا عقبى ذلك ، وكاتب امراء دمشق السلطان بما وقع من الامير جبغا فانكر ما وقع لارغون شاه ، ورسم لامراء دمشق ان يحاربوا الامير جبغا فخرج عليه عسكر دمشق قاطبة ، وحاربوه وهو في طرابلس فانكسر جبغا وقبضوا عليه وشنقوه ·

وفي سنة ٧٥١ اغار شخص من التتار اسمه هندو على مدينة سنجار وملكها، فارسل سلطان مصر والشام له تجريدة فحاصروه فطلب الامان ثم رحل عن سنجار · وفي سنة ٧٥٤ قدمت على رواية ابن سباط مراكب الفرنج الى صيدا فقتلوا طائفة من أهلها وأسروا جماعة وقتل منهم خلق كثير وكسر مركب من مراكبهم ، فوصل الصريخ الى دمشق ، فاجتمعت العساكر من صفد ودمشق وأسرعوا الى فك الاسرى ، وأخذوا من ديوان الاسرى ثلاثين الفاً واعطوا عن كل رأس خمسمائة درهم ·

وان الخلل الذي طرأ على السلطنة بمصر بعد ذهاب عظماء السلاطين من اولاد

قلاوون وسرعة قتلهم واستخلاف غيرهم من المماليك ، قد سرى من شرارته شيء كثير في هذه الحقبة من الزمن ، ومسألة اليحياوي مع أرغون شاه مثال منها . ومن أمثلة الخلل في تلك الدولة خروج بيبغا اروس نائب حلب عن الطاعة واظهاره العصيان للسلطان ، وكذلك الامير بكلمش نائب طرابلس ، والامير احمد نائب حماة ، والامير الطنبغا برقاق نائب صفد ، ولم يبق على الطاعة الا نائب دمشق الامير أرغون الكاملي ، فأرسل يخبر السلطان في مصر بما قد جرى من النواب ، ثم اضطر نائب الشام لما رأى عين الغلبة الى الهرب تحت الليل هو ومماليكه وتوجه الى نحو غزة ، فأقام يعلم السلطان والامراء بما جرى ، والتف على الامير بيبغا اروس العربان والعشائر مع العساكر الحلبية والشامية وكان معه نحو ستين اميراً لما فتح دمشق واستعرض العساكر بها ثم أرسل الى نائب قلعة دمشق يطلب منه اطلاق امير كان مسجوناً فيها فاعتذر عن ذلك الا بمرسوم السلطان ، وحصن القلعة تحصيناً عظيماً وركب عليها المكاحل بالمدافع وارسل يقول لاهل المدينة لا تفتحوا دكاناً ولا سوقاً ولا تبيعوا عسكر حلب شيئاً ، فلما بلغ الامير بيبغا اروس ذلك اشتد به الغضب ، وامر عسكره بان ينهبوا ضياع دمشق والبساتين ويقطعوا الاشجار ، فلما سمعوا هذه المناداة ماأبقوا ممكناً من الاذى والفساد ، فنهبوا حتى النساء والبنات والقماش ، وجرى على أهل دمشق من بيبغا اروس ما لم يجر عليهم من عسكر غازان لما دخل دمشق .

ثم ان سلطان مصر جهز عسكراً عظيماً وجعل عليهم من امراء الطبلخانات والعشراوات (١) نحو ثمانين اميراً وكان صحبته القضاة الاربعة والخليفة الامام احمد الحاكم بامر الله فأمر بقتال جماعة بيبغا فانهزم هذا ولحق ببلاد التراكمة ، وجيء بجماعته في القيود يرسفون . ثم عاد السلطان الى مصر بعد ان عزل من عزل وولى

(١) الطبلخانات من الرتب العسكرية وظيفتها الضرب بالآلات الموسيقية وكان عدة من في باب السلطان منهم اربعين أميراً وبخدمة كل واحد منهم أربعون مملوكاً ولهم الطبول الصغار والزمارات والابواق - قال الظاهري : وبالطبلخانات من الكوسات (الطبول الصغيرة) التي تدق على باب السلطان أربعون حملاً وأربعة طبلي دهول وأربعة زمور وعشرون نفيراً ولها مهتار وبها عدة خدام .

من ولي . والسلطان هذا هو الملك الصالح صلاح الدين صالح وهو العشرون من ملوك الترك واولادهم . والثامن من اولاد الملك الناصر محمد بن قلاوون . ثم ان نائب حلب بيبغا ونائب طرابلس بكلمش ونائب حماة احمد الذين كانوا هربوا من بلاد السلطان الى بلاد التركمان قطعوا رؤوسهم وأرسلوها الى السلطان بمصر .

وخلع السلطان على الامير ارغون الكاملي واستقر به نائب حلب عوضاً عن بيبغا اروس وجرد ارغون الى قراجا بن ذي القدر امير التركمان في مرعش وحواليها ، وكان ذنب قراجا انه وافق بيبغا اروس على العصيان فلما وصل اليه الامير ارغون هرب منه فتبعه الامير ارغون الى أطراف بلاد الروم فقبض عليه وارسله الى السلطان بمصر فسمره على جمل .

وفي سنة ٧٦٠ توجه الامير بيدمر الخوارزمي نائب حلب الى بلاد سيس وحاصر أهلها فطلبوا منه الامان فتسلمها وكذلك المصيصة ، وفتح في تلك السنة عدة قلاع ثم رجع الى حلب . وفي سنة ٧٦٢ أظهر بيدمر الخوارزمي نائب الشام العصيان وملك قلعة دمشق وقتل نائب القلعة وقد وافقه على ذلك جماعة من النواب فاضطرب السلطان بمصر لهذه الاخبار ، وخرج قاصداً الشام ، ولما بلغ دمشق أرسل له أماناً فقبض عليه وقيده .

وفي سنة ٧٦٥ جاء الفرنج الى قلعة اياس وحاصروها فخرج اليهم الامير منكلي بغا الشمسي نائب حلب وصحبته العساكر الحلبية ، فلما سمعوا به رحلوا عن قلعة اياس ثم قصدوا نحو طرابلس وكانوا ثلاثة ملوك وهم صاحب قبرص وصاحب رودس وصاحب الاسبتار فجاؤا في مائتي مركب حربي الى طرابلس ، وكان النائب غائباً عنها فطمعوا في أخذها ثم خرج اليهم بعض عسكرها فوقعوا معهم فانكسر عسكر طرابلس ودخل الفرنج المدينة ونهبوا أسواقها وقتلوا بها جماعة من المسلمين نحو الفي انسان فلما تسامع أهل البلاد بذلك جاؤا الى الفرنج وحاربوهم وقتلوا جماعة كثيرة منهم فانكسرت الفرنج كسرة قوية ورحلوا عن طرابلس .

وفي سنة ٧٦٧ عصا على السلطان نائب دمشق بيدمر واجتمع اليه مقدمو البلدان

وحضر اليه ابن اكلش ومعه آلاف وقدم الزبداني ومعه الف نفس فأرسل السلطان اليه جيشاً وبعد حصار شهرين تسلم دمشق وقبض على النائب وقتله ٠

وفي سنة ٧٧١ وقع تشاجر بين الامير جبار من آل الفضل امير العرب وبين نائب حلب قشتمر المنصوري فخرج اليه نائب حلب بالعساكر الحلبية فتقاتل مع الامير جبار فقويت العربان على نائب حلب فقتل في المعركة ٠

***

مقتل الاشرف شعبان والاحداث بعده

وفي سنة ٧٧٨ قتل في القاهرة الملك الاشرف شعبان ٠ قال ابن اياس : وكان من محاسن الزمان في العدل والحلم وكان ملكاً هيناً ليناً محباً للناس منقاداً للشريعة محسناً وكانت الدنيا في أيامه هادئة من الفتن والتجاريد الى البلاد الشامية وفساد العرب وساس الناس أحسن سياسة ٠ وتولى الملك بعده ابنه الملك الصالح بن الحاج وله من العمر نحو احدى عشرة سنة وهذا آخر من تولى السلطنة من ذرية بني قلاوون وبه زال الملك عنهم وقد أقامت السلطنة في قلاوون وذريته مائة سنة وثلاث سنين وأشهراً ٠

وفي سنة ٧٧٣ شدد الامير سيف الدين منجك نائب الشام وكان تولاها للمرة الثانية منذ سنة ٧٧٠ على أهل اللهو بدمشق وامر بقطع الاشجار والصفصاف الذي بين النهرين وتخريب المكان الذي أحدث في الشرف الاعلى وأزال المنكرات من هذا المكان ومن الذي فوق الجبهة ايضاً وهدم الابنية والحوانيت المستجدة هناك ٠ قال ابن طولون : انه فعل الخيرات وبنى المحطات في الدروب وبنى زاوية بالكسوة وعمل لها سماطاً وعزل الطرقات وعدل في الرعايا ٠ وفي السنة التالية أرسل الجاي اخاه طقتمر الحسني الى دمشق لعرض الاجناد فيها فحصل اموالاً عظيمة ، حتى قيل ان الذي خصه خمسون الف دينار ، وأخذ من ذخائر القلعة اشياء نفيسة وبالغ في الظلم ، فاستغاث الناس الى منجك نائب الشام فكاتب فيه ثم توجه المذكور الى جهة حلب ففعل في بقية البلاد أشد مما فعل بدمشق ٠ قال ابن حجر : ولولا تلطف النائب وناظر الجيش لهلكوا معه ٠

وفي سنة ٧٧٦ خرج نائب حلب الى مدينة سيس هو والعساكر الحلبية وفتحها وكانت في أيدي الارمن ٠ وفي سنة ٧٧٩ خامر جميع نواب البلاد الشامية وخرجوا عن الطاعة فساقت مصر تجريدة عليهم ٠ وفي سنة ٧٨٠ خرج نائب الشام بيدمر الخوارزمي عن الطاعة وقصد الهرب الى بلاد التركمان ببركه ورجاله فقبضه عسكر دمشق وسجنوه بالقلعة فأرسل سلطان مصر واخذه منها وسجنه ثم اطلقه بعد ثلاث سنين وأعيد الى منصبه ٠ وفي سنة ٧٨٠ نازل الفرنج طرابلس في عدة مراكب فالتقاهم يلبغا الناصري فهزمهم ، ثم امر العسكر ان يتأخروا فطمع فيهم الفرنج وتبعوهم الى ان أبعدوا عن البحر فرجع عليهم بالعسكر فهزمهم وقتل منهم جمع كبير قبض على أكثرهم وأقلع من بقي في المراكب ٠ وثار اقبغا عبد الله (٧٨١) وجماعة معه على نائب الشام وكان قد تجرد مع نائب حلب في عسكر البلدين بسبب التركمان فوقعت بينهم وبين اقبغا المذكور ومن معه وقعة فكسرهم نائب الشام وهرب اقبغا الى نعير امير عرب الفضل ٠ وفي سنة ٧٨٣ نهبت طائفة من التركمان بعض ضياع حلب وعاثوا وافسدوا وعين لهم الاتابك برقوق في مصر تجريدةً وخرج اليهم ثلاثة من الامراء المقدمين وخمسمائة مملوك فالتقوا مع التركمان وكسروهم وقتلوا منهم جماعة كثيرة ونهبوا أموالهم وطردوهم الى ملطية ٠

وفي سنة ٧٨٤ حضر الى القاهرة رسول صاحب سيس ومعه كتاب يخبر فيه بان الارمن الذين هناك مات كبيرهم فأمّروا عليهم زوجته فحكمت فيهم مدة ثم عزلت نفسها ، فاتفق رأيهم ان يفوضوا امرهم لصاحب مصر فيختار لهم من يوليه عليهم ، فانتقى لهم برقوق واحداً من الارمن الاسارى الذين يسكنون ظاهر القاهرة ويبيعون هناك الخمور فاخذوه معهم فملكوه عليهم ٠ وفي السنة التالية جاءت رسل صاحب سنجار ورسل صاحب قيسارية ورسل صاحب تكريت يسألون صاحب مصر ان يكونوا تحت حكمه ويخطبوا باسمه فاجيب سؤلهم وكتب لهم بذلك تقاليد وخلع عليهم ٠ وفي هاتين الواقعتين دليل على ان صاحب مصر والشام في تلك الفترة كان اقوى من جاوره من الملوك خطب وده الاتراك والاكراد والارمن من مجاوريه ٠

وفي سنة ٧٨٥ وقعت بين قبلاي نائب الكرك وخاطر امير العرب بها مقتلة عظيمة

فانكسر قبلاي وخلص خاطر ، وكان قبلاي امسكه قبل ذلك منهم ثم تحيل قبلاي على خاطر الى ان حضر عنده فذبحه وذبح ولديه غدراً . وفيها نازل الفرنج بيروت في عشرين مركباً فراسلوا نائب الشام فتقاعد عنهم واعتل باحتياجه الى مرسوم السلطان فقام اينال اليوسفي فنادى الغزاة في سبيل الله ففر معه جماعة فحال بين الفرنج وبين البحر وقتل بعضهم ونزل اليه بقية الفرنج فكسرهم وقبض من مراكبهم ستة عشر مركباً فسر المسلمون بذلك سروراً عظيماً ، وكان الفرنج دخلوا صيدا فوجدوا المسلمين قد بدأوا بهم فاحرزوا اموالهم واولادهم بقرية خلف الجبل فوجد الفرنج بعض امتعتهم فنهبوها واخذوا ما وجدوا من زيت وصابون واحرقوا السوق وقصدوا بيروت فتدار كهم المسلمون ثم رحل النائب وانكسر الفرنج ثم عاد الفرنج الى مباهلة بيروت فتيقظ لهم اهلها فحاربوهم ونزل طائفة من الفرنج فوجدوا بالساحل خمسة عشر نفسا فقتلوهم ثم قتل من الفرنج جماعة .

وفي سنة ٧٨٥ وقعت فتنة بين نعير بن مهنا امير العرب وابن عمه عثمان بن قارا ، فساعد يلبغا الناصري عثمان فكسر نعير ونهبت امواله حتى قيل ان من جملة ما نهب له ثلاثون الف بعير . وفيها سار يلبغا الناصري بالعساكر الحلبية وبعض الشامية الى جهة التركمان ، فنازلوا احمد بن رمضان التركماني عند الجسر على الفرات فكسر التركمان وأُسر ابراهيم بن رمضان وابنه وابوه ، فوسطهم يلبغا الناصري ، ثم تجمع التركمان وواقعوا الناصري عند اذنة فانكسر العسكر وقلعت عين الناصري وجرح ثم تراجع العسكر ولم يفقد منه الا العدد اليسير ، فطردوا التركمان الى ان كسروهم فغدر التركمان بنائب حماة وبيتوه فانهزم ثم ركب يلبغا الناصري فهزمهم .

وفي سنة ٧٨٧ توجه نواب الشام الى قتال التركمان فانكسر العسكر وفتك فيهم التركمان وقتلوا سودون العلائي نائب حماة وغيره . وكان اصل ذلك ان السلطان امر نواب الشام بالتوجه الى قتال سولي بن دلغادر ومن معه من التركمان فوصلوا الى طيون وهي بين مرعش وابلستين فالتقى بهم سولى فقتل سودون نائب حماة في المعركة وكذا سودون نائب بهسنى فبلغ السلطان ذلك فشق عليه ولم يزل يعمل الحيلة حتى دس على سولي من قتله وقتل اخاه .

سلطنة برقوق وحالة المماليك البحرية والشراكسة | دخل الهرم في دولة الاتراك المصرية وزاد فساد العربان في البلاد ، وخامر غالب النواب في الشام وخرجوا عن الطاعة ، فاجتمع الاتابك برقوق متولي الامر والقضاة مع الخليفة وسائر الامراء في مصر فرأوا الحاجة ماسة الى إقامة سلطان كبير تجتمع عليه الكلمة ويسكن الاضطراب فتكلم القضاة الاربعة مع الخليفة في سلطنة الاتابكي برقوق فخلعوا الملك الصالح امير حاج من السلطنة وسلطنوا الاتابك برقوق (٧٨٤) وهو اول ملوك الشراكسة بمصر والشام والخامس والعشرون من ملوك الترك .

وكانت هذه الدولة التركية والشركسية التي أولدتها عجبًا في ضعف الادارة وقيام الخوارج ، لان الملك على الاكثر كان ضعيفاً يُنزله عن عرشه كل من عصا عليه ، واستكثر من المماليك وقدر ان يتسلط على عقول السذج من العربان وارباب الدعارة والطمع من الناس « والمماليك السلطانية الذين جرت العادة على انهم يفعلون الامور المشهورة عنهم من اخذ اموال الناس وهتك حريمها » . والقاهرة لا شأن لها بعد ان يتقاتل المتقاتلون على الملك او يقاتل القواد ارباب العصيان والتمرد ويظفر احد المتنازعين على السلطنة ، او الامير الذي وسد اليه اجتثاث دابر العاصي ، الا ان تزين أسواقها سبعة ايام او ثلاثة ايام على الاقل . تفعل ذلك لاقل حادث يحدث حتى ولو قبض جماعة السلطان على احد صعاليك المماليك ممن خامر عليه واستتبع أناساً من الغاغة . وكانت دمشق في ايام الشراكسة ثم في ايام الاتراك اخلافهم تزين سبعة ايام لاقل ظفر يقع ، فيفرح السلطان وتدق البشائر . وكان من سلاطين المماليك اهل خير تغلب عليهم الرحمة وحسن السياسة ، وكان ضعفهم آتيًا من جماعتهم المماليك لان لكل امير منهم جوقة يتفانون في حبه اذا تغلب عليه خصمه سجنهم او اقصاهم او نكبهم ، فلا يزالون يعملون على إثارة الخواطر حتى يطلق سراحهم ثم يعودون الى ما نهوا عنه وهكذا دواليك . والامة من اجل هذا تخرب ديارها ، وتهلك ابناؤها وتذهب اموالها وعروضها ، حتى يسعد الطالع احد المتخاصمين فيتغلب على من يريد التغلب عليه . وهناك خليفة في مصر يعتضد به السلاطين يوم الشدائد ،

و يبايعهم يوم تنصيبهم ، وربما سجنوه واقصوه عن انظار الامة اذا شعروا بان هواه مع غيرهم او يمكن ان يكون كذلك : اتخذوه آلة كما كان خلفاء العباسيين مع المتغلبة من سلاطين السلجوقيين والبويهيين وغيرهم في بغداد .

وقائع تيمورلنك

من سنة ٧٩٠ الى ٨٠٣

بداءة تيمورلنك ومناوشة جيشه

بينا كانت امور الدولة في الشام ومصر مختلة معتلة لا تستقر الادارة الشركسية على حال ، والمتوثبون على السلطنة يكثرون ويقلون بضعف الملك وقوته ،جاء تيمورلنك من الشرق واخذ يتقدم نحو البلاد بجيوش جرارة لا قبل للمالكين زمام الامر بدفعها ان لم يستعينوا بجيوش أُخرى فاصبحت البلاد بين عدوين داخلي وخارجي ، كما اصبحت في اواسط القرن السابع بين عدوين احدهما من الشرق وهم التتار والآخر من الغرب وهم الصليبيون . وتيمورلنك هو ابن ترغاي بن ابغاي مؤسس مملكة المغول الثانية ، ومعنى تيمور الحديد واللنك الاعرج او الكسيح بلغتهم، لان راعياً ضربه فيما قيل بسهم في فخذه ادخله به في زمرة العرجان، وفي رواية انه اصيب بسهم في الحرب في صباه . ولد تيمورلنك في قرية خواجه ايلغار من اعمال كش من مدن ماوراء النهر سنة ٧٣٧ هـ ١٣٣٦ م (ومات في اوترار سنة ٨٠٧ — ١٤٠٥ بينا كان ذاهباً لفتح بلاد الخطا في الصين وجيء به الى سمرقند فدفن فيها) .

وكان تيمور يمت بقرابة بعيدة الى آل البيت الملوكي من المغول ذرية جنكيز خان ، وذلك من جهة الامهات لا الآباء ، ورأس ابوه قبيلة برلاس التركية وحكم ولاية كش وقد تيتم صغيراً وسلبه جيرانه امارته ، فتوسل تيمور الى امير بلاد كشغر ملك الجغتاي فانعم عليه بولاية ما وراء نهر جيحون ، ثم نزع يده من يد امير كشغر وانضم الى عمه حسين ، ولما ماتت زوجته وقيل انه هو الذي قتلها بيده اصبح تيمور في

حلَّ من امره ، وداهم حسينًا وتغلب عليه واستولى على بلخ فاصبح ملكاً على بلاد الجغتاي كلها « ولما استولى تيمور على ما وراء النهر وفاق الاقران تزوج بنات الملوك فزادوه في القابه كوركان وهو بلغة المغول الختن » وكان عهد تيمور كله عهد حروب وفظائع في القتل ، يقتل الناس بالالوف وعشرات الالوف ، اذا لم يخضعوا لسلطانه في الحال قال السخاوي : وكان يقرب العلماء والسمراء والشجعان والاشراف وينزلهم منازلهم ولكن من خالف امره ادنى مخالفة استباح دمه ، فكانت هيبته لا تداني بهذا السبب ، وما اخرب البلاد الا بذلك فانه كان من اطاعه من اول وهلة أمن ومن خالفه ادنى مخالفة وهى ، انجد تيمور احد الخانات على اوروس خان مالك قسم من بلاد روسيا الجنوبية الشرقية ثم فتح خراسان وهرات وطوريس وقارص وتفليس وشيراز واصفهان وكشغر ومازندران والعراق بأسره وخرب حفيده محمد بلاد بولونيا وروسيا ودخل الهند فنازل مملكة المسلمين حتى غلب عليها وفتح افغانستان وجلب من الهند الى بلاده المهندسين والنقاشين . ثم حارب السلطان بايزيد العثماني (٨٠٥) وغلبه ووضعه في قفص من حديد واخذه يعرضه على الناس فهلك قهراً ، وباستيلائه على ازمير اضطر امبراطور القسطنطينية ان يؤدي اليه الجزية .

هذا الفاتح خرب عاصمتي الشام حلب ودمشق وكم خرب من مدن عامرة جداً في آسيا وكان ملوك اوربا يخافونه وكثيراً ما ارسلوا الوفود لتهنئته بانتصاراته .

هذا الرجل الجبار لم يحمل على الشام حملته المشؤومة الا باسباب اوجدها النواب والامراء والملوك على الارجح ، فقد ذكر ابن حجر في حوادث سنة ٧٩٨ ان اطلمش قريب تيمورلنك قبض عليه قرا يوسف التركماني صاحب تبريز وارسله الى الملك الظاهر فاعتقله ، فكانت هذه الفعلة اعظم الاسباب في حركة تيمورلنك الى البلاد الشامية . وقال في حوادث سنة ٧٩٩ وصلت كتب من تيمورلنك فعوقت رسله بالشام وأرسلت الكتب التي معهم الى القاهرة ومضمونها التحريض على ارسال قريبه اطلمش الذي اسره قرا يوسف ، فامر السلطان اطلمش المذكور ان يكتب الى قريبه كتاباً يعرفه فيه ما هو عليه من الخير والاحسان بالديار المصرية ، وارسل ذلك السلطان

مع اجوبته ومضمونها اذا اطلقت من عندك من جهتي اطلقت من عندي من جهتك والسلام ٠

فالقائمون بالامر هم الذين فتحوا لتيمورلنك السبل لغزو البلاد فيما بعد ، غزوة اذلت العزيز وافقرت الغني وخربت العامر ٠ قال ابن حجر ايضاً : لما رجع تيمورلنك الى الشرق وكان هذا دأبه اذا بلغه عن مملكة كبيرة وملك كبير لا يزال يبالغ في الاستيلاء عليها الى ان يحصل مقصوده فيتركها بعد ان يخربها و يرجع ، ففعل ذلك بالمشرق كله و بالهند و بالشام و بالروم ٠

ارسلت مصر في سنة ٧٩٠ عسكراً على تيمورلنك في سيواس فانكسر عسكر تيمورلنك وكان ذلك من الوقائع الاولى بين تيمورلنك وعسكر الشام ، ولو كان في الدولة اذ ذاك رجال عقلاء لضموا شملها حتى تقوى على عدوها الزاحف عليها ولكن شغلت البلاد بنفسها ٠ ومن الاحداث في هذه السنة منازلة الفرنج طرابلس الشام فواقعهم المسلمون فكسروهم واخذوا منهم ثلاثة مراكب ٠

٭ ٭ ٭

القتال على الملك

خامر يلبغا الناصري نائب حلب (٧٩١) وخرج عن الطاعة وقتل الامير سودون المظفري الذي كان نائب حلب قبله وقتل اربعة أنفس من مماليك سودون ، وامسك حاجب الحجاب بحلب وجماعة من امرائها ، وأظهر يلبغا الناصري العصيان والتف عليه جماعة كثيرة من مماليك الاشرف شعبان ، وكان من جملة من التف على يلبغا تمربغا الافضلي المدعو منطاش مملوك الظاهر برقوق ، وعهد سلطان مصر الى اينال اتابك العساكر بدمشق ليكون نائب حلب وحلّف السلطان الامراء من الاكابر والاصاغر بان يكونوا معه كلمة واحدة وعصبة واحدة على يلبغا الناصري فحلفوا على ذلك جميعهم ، وأرسل الى يلبغا تجريدة ٠ وانتشب القتال بين امراء الغرب التنوخية وبين عشران البر أهل كسروان والامراء اولاد الاعمى وكان التنوخية ميالين الى الملك الظاهر وكان الكساروة مع أرغون نائب منطاش في بيروت فاستظهر أهل كسروان على امراء الغرب وقتلوا منهم نحو ٩٠ نفراً وأمسكوا جماعة فسمروا بعضهم ووسطوا آخرين

وأحرقوا عدة قرى من الغرب وتلقبوا بعشران البر . ثم ان العساكر الظاهرية زحفت على تركمان كسروان وجرت بين الفريقين وقعة في الساحل فقتلوا منهم جماعة كثيرة .

ولما استولى كمشبغا على قلعة حلب عمر أسواق هذه المدينة أحسن عمارة في أسرع وقت وكانت من وقعة غازان خراباً ، فلما انتصر كمشبغا على اعدائه قتل غالب اهل محلة بانقوسا وكانوا زيادة على اربعة آلاف نفس وقتل كبيرهم احمد بن الحرامي وخربها الى ان جعلها دكاً .

* * *

عوامل الخراب قيس ويمن

ذكر الاسدي ان السبب في خراب الشام في القرن الثامن انتشار الشرور بين القيس واليمن ووقوع الحرب والقتال بينهم ، والسبب في ذلك تغيير العوائد والتدليس على الملوك والحكام وولاة الامور ، بالاغراء والتسلط على الفلاحين بالظلم وطلب العاجل ، والعسف في الحكم والميل مع القوي ، وانتهاك الضعيف وعدم رد لهفة الملهوف ، ومع تغيير العوائد وقع الاغراء فيما بينهم والشرر والتحاسد فاضطر كثير من اهل الزرع والضرع الى التمرد والعصيان والتشرد عن الاوطان وتسلطت العربان والعشران(١) على الاراضي والبلدان ، وتراكت الأهواء ووقع التحاسد والاغراء الموجبان لسفك الدماء ، فنهبت الاموال وقتلت الرجال وتخلت العشائر وعظمت الفتن بين القبائل ، وصار اهل الزرع والضرع من الفلاحين على صهوات الخيول مارقين ، الى ان اوجب ذلك الخراب في كثير من رستاق الشام والقرى والبلدان ، وصارت دمناً ليس فيها انسان ، وفي ذلك ما يشهد به الديوان من اسماء القرى التي صارت مزارع وتسمى بالخراب الداثر في هذا الزمان ، والموجب لهذا جميعه سوء التدبير مع نقص القوة والامكان ، ونقض سنة العدل وسوء التصريف والاخذ في جانب التقصير والنقصان الى ان صار الحكم لمقدمي الفلاحين ورؤساء العشران وصار الاعيان منهم يظهرون

(١) العشران جمع عشير أطلق في الشام على بعض القبائل التي سكنت في البقاع وجبل لبنان . قال المقريزي : عشير الشام فرقتان قيس ويمن لا يتفقان قط وفي كل مدة يثور بعضهم على بعض .

الطاعة للسلطان و يبطنون المخالفة والعصيان ، ويستخرجون الاموال بالظلم والطغيان ، و يرضون ببعضهـا من له في الدولة كلام وامكان ، وبما يحملونه من الهدايا والاموال يرشون به الاعوان ، فيسعى لهم ويلبسون التشاريف الملوكية بين يدي الملك والامير والسلطان ، فيصير كل واحد منهم في بلده وإقليمه اذاعاد اليه ذا قوة وسلطان ، وسطوة وأعوان ، وخيول وميدان ، واقطاعات ونعم وديوان ٠

قلنا وهذا الاختلاف الدائم بين قيس ويمن كان يقوى ويضعف بحسب الوازع ، فاذا وفقت البلاد الى حاكم يقول ما كان يقوله و يعمل به السندي والي دمشق في القرن الثالث وهو يسوي بين القحطاني والعدناني : « لسنا نقدمكم الا على الطاعة لله عز وجل وللخلفاء ، وكلكم اخوة وليس للنزاري شيء ليس لليماني مثله » وكان يتغدى مع جلة الفريقين و يسوي بينهم في الاذن والمجلس ٠ فاذا كان الحاكم من هذا الطراز تسكن نغمة القيسي واليماني والا فيتقاتلون و يخربون العمران و يقتلون الانسان ٠ وكانت هذه النغمة شديدة في بلاد دون أخرى من ارض الشام ، فقد كانت في القديم في حمص حتى ضرب المثل بها فقالوا : « اذل من قيسي بحمص » وذلك ان حمص كلها لليمن ليس بها من قيس الا بيت واحد ٠ ثم كانت ترى آثارها في حوران ولبنان وربما انتقلت نغمتها من حوران منذ عهد جلاء كثير من الأسر المسيحية الى جبل لبنان وبقيت في هذا الجبل الى القرن الماضي ثم اضمحلت ٠

وفي هذه الاثناء ركب عسكر طرابلس على النائب وقتلوا من امراء طرابلس جماعة وركب مماليك نائب حماة سودون العثماني مع عسكر حماة وأرادوا قتله فهرب الى دمشق ، فوقعت الفتنة في سائر بلاد الشام ٠ ولما تحقق برقوق ان البلاد قد افلتت خاف على نفسه وامر نائب القلعة بمصر بان يضيق على الخليفة ويمنعه من الاجتماع بالناس ، وكان مسجوناً بالقيد في برج بالقلعة ،وأصدر امره بالتضييق على السادة اولاد السلاطين في دور الحرم ، ووصلت التجريدة من مصر الى دمشق والتقى عسكر مصر مع عسكر يلبغا الناصري فأوقعوا معه بظاهر دمشق واقعة عظيمة حتى جرى الدم بينهم وقتل من الفريقين ما لا يحصى عددهم ، فانكسر عسكر السلطان وانتصر عليهم يلبغا ، ثم جيش يلبغا وساق جيشه الى مصر فالتف اكثر امراء مصر عليه

وقاتل قليلاً حتى اضطر السلطان برقوق الى ترك سرير السلطنة وأُعيد الملك الصالح امير حاج بن الملك الاشرف شعبان سلطاناً على مصر والشام ، وأُخذ الظاهر برقوق الى قلعة الكرك فسجن فيها وانتدبوا بعد حين لقتله رجلاً فقتله الرجل الذي بخدمة الملك الظاهر ، وأراد اقارب الرجل الذي بخدمة الملك قتل نائب الكرك فاستجار بالملك الظاهر فأجاره واستولى برقوق على القلعة بعد ان قاسى من المحن والاهوال امراً عظيماً واتاه مماليكه الذين كانوا بقوص من ارض مصر وقتلوا واليها والتحقوا به والتف عليه العربان وقصد دمشق فجاءه نائب غزة في خمسة آلاف مقاتل من عربان جبل نابلس فأوقعوا مع الظاهر برقوق وقعة عظيمة انكسر فيها نائب غزة فنهب عسكر برقوق عسكر غزة فتقووا بتلك الغنيمة ، وكان الظاهر كلما مر بقرية يخرج اليه اهلها و يلاقونه ومعهم العلف والضيافة ، ولما بلغ برقوق قرية شقحب خرج اليه عسكر دمشق وأوقعوا معه هناك واقعة عظيمة فقتل بها من امراء دمشق ستة عشر اميراً ومن المماليك نحو خمسين مملوكاً وقتل من عسكر برقوق نحو ذلك ٠

وصادف ان خرج عن الطاعة كمشبغا الحموي نائب حلب واستولى ابناء اليوسفي على قلعة صفد وهو من جماعة الظاهر فقويت شوكته ودخل الظاهر برقوق دمشق ، ونزل في الميدان فكبس عليه اهل دمشق واخرجوه من المدينة الى ظاهر البلد ، لان بعض مماليكه عبث ببعض السوقة واخذ منه شيئاً من البضائع بالغصب فاستغاث ذلك السوقي فحضر اليه جماعة من اهل دمشق وتعصبوا له فاستطال ذلك المملوك وضربهم فرجمه اهل دمشق ، فرمى المماليك على عوام دمشق بالنشاب فتكاثرت على المماليك العوام بالحجارة والمقاليع ، فكسروا المماليك كسرة قوية فركب الظاهر برقوق ومن معه من الامراء وخرجوا من دمشق الى قبة يلبغا فدخل العوام الى الميدان ونهبوا برك الظاهر برقوق وأُغلقت ابواب دمشق وكان برقوق اشرف على اخذ قلعة دمشق وراج امره فتعطل بسبب ذلك ٠

ثم جرد الملك المنصور امير حاج عسكراً من مصر وجاء الشام لينزع الملك من الملك برقوق ، فلما وصل العسكر الى غزة تسحب اكثر عسكر الملك المنصور الى الملك برقوق لان دواهم كان معه ، ووقعت بين عسكر الملك المنصور وعسكر الظاهر برقوق

على شقحب (٧٩٢) فانكسر الظاهر برقوق كسرة قوية فهرب برقوق في نفر قليل من العسكر وتوارى خلف الجبل الذي تحته الملك المنصور والخليفة والقضاة ، فاتى اليه بعض العرب واخبره بان الملك المنصور تحت ذلك الجبل ، وكان على يوم من دمشق فكبس عليهم برقوق بمن معه من العسكر وكانوا نحو اربعين انساناً فذعر عسكر المنصور وغلت ايديهم عن القتال ، فنزل عليهم الظاهر برقوق كالباز على الطائر واحتوى على كل ما معهم من البرك والاثقال والقرش والسلاح وخزائن المال ، فلما جرى ذلك تسامع به الناس فجاؤا اليه افواجاً من كل مكان ، وبلغ ذلك منطاش وحضر ومعه عساكر دمشق وغيرهم فحصل بينهم واقعة اعظم من الواقعة الاولى وقتل بها كثير من الخلائق فانكسر الاتابكي منطاش وعسكر دمشق فولوا هاربين الى نحو دمشق ، واقام الظاهر برقوق بمنزلة شقحب ، ثم ان شخصاً من الصالحين يقال له الشيخ شمس الدين الصوفي مشى بين الملك الظاهر برقوق وبين الملك المنصور امير حاج في ان يخلع نفسه ويسلم الامر الى الملك الظاهر برقوق ، فاجاب الملك المنصور الى ذلك واحضر الخليفة المتوكل والقضاة الاربعة وخلع نفسه من الملك واشهدوا عليه بذلك . ثم ان الخليفة والقضاة بايعوا الملك الظاهر برقوق بالسلطنة وذلك بمنزلة شقحب واقام الظاهر هنالك تسعة ايام ، ثم رحل الى مصر ومعه الخليفة والملك المنصور والقضاة الاربعة ودخل مصر بلا منازع ، وكان مماليكه قد وطدوا له الامر قبل وصوله وخطبوا له على المنابر فعاد واستولى على مصر والشام .

* * *

الخوارج على ملوك مصر | وملك منطاش (٧٩٢) مدينة بعلبك والتف عليه جماعة من عسكر دمشق ومن عسكر صفد ومن عسكر طرابلس ومن عربان جبل نابلس ونهب عدة ضياع من الشام ، وارسل منطاش شخصاً يسمى تمان تمر الاشرفي الى مدينة حلب ، وكان نائب حلب كمشبغا الحموي قد ثقل امره على اهل حلب فما صدقوا بهذه الحركة فحاصروا نائب حلب اشد المحاصرة وتعصبوا لمنطاش فنقبوا القلعة من ثلاثة مواضع ، فصار كمشبغا نائب حلب يقاتلهم من داخل النقب على البرج ، واستمروا على ذلك نحو ثلاثة اشهر ، فانتصر كمشبغا نائب حلب على

تمان تمر الاشرفي الذي ولاه منطاش على حلب فانكسر تمان تمر وولى هاربا ثم توجه منطاش الى طرابلس فحاصرها حتى ملكها وهرب من كان بها من الامراء والنائب وهرب اكثر اهلها الى دمشق ، ثم حاصر منطاش دمشق فاتفق عوامها على ان يسلموه المدينة ليلاً وكانوا يحبونه اكثر من الملك الظاهر برقوق .

فلما بلغ ذلك الامراء الذين من قبل الظاهر برقوق خرجوا الى ظاهر دمشق واوقعوا مع منطاش ومع عوام دمشق واقعة عظيمة قتل فيها من الفريقين نحو الف انسان . ثم رجع عسكر دمشق الى المدينة ثم توجه منطاش الى عينتاب فالتف عليه جماعة كثيرة من التركمان ، فحاصر المدينة اشد ما يكون من المحاصرة فملكها ، وهرب النائب الذي كان بها فلما دخل الليل جمع نائب عينتاب جماعة كثيرة من التركمان وكبس على منطاش فقتل من عسكره نحو مائتي انسان وهرب منطاش نحو الفرات ، ثم ان منطاش جمع قوته وخامر على السلطان اكثر التركمان والعربان واتفقوا على منطاش (٧٩٣) فتوجه الى دمشق وحاصرها فخرج اليه نائبها فهرب منطاش الى جبل يقرب من طرابلس فتبعه نائب دمشق ، فجاء منطاش من وراء ذلك الجبل وجاء الى دمشق فلم يجد بها احداً من الامراء ولا النائب ، ففتح له عوام دمشق باباً فدخل منه الى المدينة ونهب الاسواق واخذ اموال التجار والخيول ، والتف عليه جماعة من عسكر دمشق فقويت شوكته .

بلغ السلطان في مصر ما وقع في الشام فقوي عزمه على الخروج الى منطاش ، فجاء دمشق ونادى فيها بالامان لان اهل دمشق لما خرج الظاهر برقوق من الكرك ودخل الى دمشق رجموه واخرجوه من بلدهم هائماً على وجهه ونهبوا اثقاله وقماشه ، فضج اهل دمشق له بالدعاء وسكن ما كان عندهم من الاضطراب ، واقام اياماً في دمشق . ولما توجه الى حلب جاء نعير بن جبار امير آل فضل ونهب ضياع دمشق وكان نعير عاصياً على السلطان وهو ملتف على منطاش واخرب غالب بلاد الشام ونهب ضياعها فلما بلغ نائب دمشق مجيء نعير خرج اليه واوقع معه واقعة قوية في قرية الكسوة فانكسر نائب دمشق وقتل عسكر دمشق جماعة ثم رجع نعير الى بلاده . اما منطاش فلما بلغه مجيء السلطان من مصر هرب الى بلاد التركمان .

ولما عاد سلطان مصر الى عاصمته هجم (٧٩٤) نحو خمسة عشر مملوكاً وقيل خمسة انفس على نائب قلعة دمشق وتوجهوا نحو السجن الذي بها واخرجوا من كان به من المحابيس الذين من عصبة منطاش وكانوا نحو مئة مملوك ، فقويت شوكتهم بالسجناء وهجموا على نائب القلعة وقتلوه وملكوا القلعة ، فقاتلهم عسكر دمشق وحاصروا من بالقلعة ثلاثة ايام فقتل من عسكر دمشق جماعة ثم هجم عسكر دمشق على باب القلعة واحرقوه ودخلوا الى القلعـة وقبضوا على المماليك كلهم ووسطوهم اي قطعوهم نصفين تحت باب القلعة وامسكوا الثائرين فلم يبقوا منهم الا من هرب .

وعاد منطاش (٧٩٤) فحاصر حلب مع جماعة التركمان فخرج اليه عسكر حلب وأوقعوا معه واقعة فكسروه ورجع هارباً الى الفرات ، ثم ان منطاش ونعير بن جبار امير العربان اتفقا (٧٩٥) بمن معهما من العسكر وحاصرا حماة فخرج اليهم نائبها فأوقع معهم واقعـة قوية فانكسر نائب حماة وهرب ، فدخل منطاش ونعير الى المدينة ونهبوا أسواقهـا وأخذوا اموال التجار ، فلما بلغ ذلك نائب حلب ركب هو وعساكر حلب وكبس على بلاد نعير ونهب أمواله واخذ اولاده ونساءه وأحرق بيوته وقتل من عربانه كثيراً فأرسل نعير يطلب من نائب حلب اولاده ونساءه الذين أسرهم فأرسل نائب حلب يقول له : ما أطلق لك أولادك ونساءك حتى تسلمنـا منطاش . وكان منطاش قد تزوج من بنـات نُعير واستنسل منهم . فلما رأى نعير ان السلطان ونائب حلب عليه وقد نهبوا أمواله ومواشيه وأسروا أولاده ونساءه ، قصد ان يرضي السلطان بإمساك منطاش حتى يزول ماعنده مما جرى منه في حق السلطان ، فندب نعير الى منطاش اربعة عبيد قبضوا عليه فلما وقع في أيديهم أخرج من تكته خنجراً شق به بطنه فغشي عليه فحمله العبيد واتوا به الى نعير فقيده وارسله الى نائب حلب ثم حمل الى القاهرة ، وجعل الموكل بحمله يعاقبه ويعصره ويقرره على الاموال التي غصبها من البلاد فلم يقر بشيء ، ودخل عليه النزع فقطع رأسه ووضعه في علبة وحمله الى السلطان في مصر ثم ارسل السلطان الى نعير خلعة وأقره على عادته امير آل فضل .

قال ابن اياس : وعنه اخذنا هذه الحوادث فما صدق النـاس بان فتنة منطاش قد خمدت عنهم حتى استؤنفت لهم فتنة أخرى ، فوردت الاخبار بان تيمورلنك اخذ

تبريز وشيراز وركب الظاهر برقوق الى الشام وجاءه في حلب قاصد من عند ابن عثمان ومعه مطالعات مضمونها ان يكون هو والظاهر يداً واحدة على دفع تيمورلنك فأجابه الظاهر الى ذلك ورد له الجواب بما يطيب به خاطره ، ثم حضر اليه قاصد طقتمش خان صاحب بسطام وعلى يده مطالعات تتضمن ماقاله ابن عثمان فأجابه الظاهر كما أجاب ابن عثمان . فلما اقام الظاهر بحلب بلغه ان جاليش (اعلام) عسكر تيمورلنك قد وصل الى البيرة . ثم بلغه ان تيمورلنك رجع الى بلاده فلما تحقق ذلك عاد هو الى مصر . وفي سنة ٧٩٩ اخذ عسكر تيمورلنك مدينة ارزنجان وقتل اهلها ونهب ما فيها فلما سمع سلطان مصر والشام ذلك ارسل الى نوابه في الشام ان يتوجهوا الى شاطئ الفرات و يحصنوا البلاد فخرجوا كلهم واقاموا هناك ، وكانت ارزنجان من جملة البلاد التي خطب فيها لصاحب مصر والشام الملك الظاهر برقوق كما خطب له في تبريز والموصل وماردين وسنجار ودوركي ، وضربت السكة باسمه في هذه الاماكن .

وفي سنة ٨٠١ تحرك ابن عثمان ملك الروم على بلاد السلطان ووصلت طلائعه الى الابلستين وهو قاصد حلب فوقع الاتفاق في مصر على محاربته والخروج عليه ، وان يؤخذ من اجرة الاملاك شهر واحد يتقوى بها العسكر على دفع العدو ، ثم ظهر ان ابن عثمان وصل الى ملطية وملكها ولم يشوش على احد من اهلها وامر عسكره بان لا ينهبوا لاحد من الرعية شيئاً ، فأقام بملطية اياماً ثم رجع الى بلاده فبطل امر التجريدة عليه .

* * *

وفاة برقوق وسلطنة ابنه الناصر فرج والخوارج على الملك

وفي سنة ٨٠١ توفي الظاهر برقوق وتولى السلطنة بعده ابنه الناصر فرج وله من العمر نحو اثنتي عشرة سنة فكانت وفاته من سوء طالع الشام كثر طمع القريب والبعيد في اكتساح البلاد . وكان من ذلك الحظ الاكبر لتيمورلنك حتى انه لما بلغه موت الظاهر برقوق فرح واعطى من بشره بذلك خمسة عشر الف دينار ، وتهيأ للمسير الى الشام فجاء الى بغداد واخذها ثانية .

وفي سنة ٨٠٢ خامر نائب الشام واظهر العصيان واطلق من كان مسجونًا من الامراء بقلعة دمشق ثم جمع النائب وكان اسمه تنم عسكراً عظيماً من الشام وقصد نحو الديار المصرية ووصل اوائل عسكره غزة ، فجيش السلطان الملك الناصر فرج وسار الى الشام ، فلما وصل كان اقبغا اللكاش نائب غزة خرج هو ونائب حماة ونائب صفد الى قتال الملك فدهش النواب ، فكان اول من دخل تحت طاعته نائب حماة ثم نائب صفد . فلما رأى عسكر الشام دخول النواب تحت طاعة السلطان — وكان مع تنم نائب الشام نواب طرابلس وحلب وحماة وصفد وكثير من العربان وظن نفسه انه اصبح سلطانًا — خامر الجميع على تنم نائب الشام وتوجهوا اليه في غزة فملك السلطان غزة وبلغ ذلك نائب دمشق فخرج منها هو وبقية الامراء واتوا الى المدينة الرملة فصار السلطان في غزة وهم في الرملة ، فراسلهم السلطان في الصلح فابوا فتلاقى العسكران (على مكان يسمى الحبتين) فكان بينهم هناك وقعة عظيمة فوقعت الكسرة على تنم نائب الشام وامسك واحتاطوا على بركه ودوابه ، وقبض الملك الناصر فرج على جملة من الامراء الذين خامروا عليه وقيدهم وحبسهم في قلعة دمشق . ودخلها في موكب عظيم وقدامه تنم نائب دمشق . وهو مقيد راكب على كديش ابلق ومعه عشرة من امراء دمشق وهم في قيود فحبسهم في القلعة ، ثم قتل وخنق عدة امراء منهم وذكر ابن حجر هذه الحوادث بما نصه : وفيه (٨٠٢) توجه اقبغا اللكاش ومعه جماعة الى غزة من جهة نائب الشام فملكها في ربيع الاول ، وتوجه حلتان ومعه جماعة الى حلب فحاربوا صاحبها ثم تبعهم الامير تنم بمن تأخر معه ، فلما وصل الى حمص تسلمها وتسلم القلعة ولم يشوش على النائب بل قرر غيره في النيابة ، ثم وصل الى حماة فحاصرها فاتصل به وصول اتمش ومن معه فرجع منها الى دمشق ، ووصل اليه نائب طرابلس فبلغه بعد ان خرج من طرابلس ان اهلها وثبوا على نائبه واقفلوا ابواب البلد الجدد فرجع عليهم ودخلها عنوة وقتل من اهلها مقتلة عظيمة ، حتى قيل ان اقل من قتل منهم الف نفس منهم مفتي البلد وقاضياها ومحدثها وهرب اكثر اهلها ومن تأخر اما قتل واما صودر قال : واراد يونس الرماح نائب طرابلس احراق البلد فاشتريت منه بثلاثمائة وخمسين الف درهم جبيت ممن بقي بها من اهلها .

الحروب الاولى مع تيمورلنك

وفي هذه السنة انكسرت طليعة جيش تيمورلنك في وقعة مع صاحب بغداد القان احمد بن اويس وقرا يوسف امير التركمان ، فلما انكسر التتار اتوا الى ملطية وكانوا نحو سبعة آلاف انسان فأرسلوا الى نائب حلب يقولون له عين: لنا مكاناً ننزله، فلما سمع نائب حلب بذلك ركب هو ونائب حماة فتوجهوا الى عسكر تيمورلنك فأوقعوا معهم وقعة عظيمة فانكسر نائب حماة وقتل من عسكر حلب جماعة كثيرة ، وكانت هذه اول الفتن الكبرى بين عسكر مصر والشام وبين تيمورلنك في هذه الديار ، فأمر السلطان نواب دمشق وصفد وطرابلس بان يجمعوا العساكر ويتوجهوا الى حلب يقيمون بها ، فأرسل تيمورلنك الى دمرداش نائب حلب يعده بان يبقيه على نيابته بشرط ان يمسك سودون نائب الشام ، فأطلع دمرداش على ذلك سودون فوثب على الرسول فضرب عنقه فلما بلغ ذلك تيمورلنك نازل حلب ، ولكن تيمور اذا تظاهر الشراكسة بالقوة أمامه يعرف ما تندمج عليه نفوسهم وتصل اليه قرائحهم ، واذا انكسر له فيلق صغير لم يكن الا على أتم المعرفة بما عند من يريد فتح بلادهم ، وكان له « جواسيس في جميع البلاد التي ملكها والتي لم يملكها ، فكانوا ينهون اليه الحوادث الكائنة على جليتها ويكاتبونه بجميع ما يروم ، فلا يتوجه الى جهة الا وهو على بصيرة من امرها ، وبلغ من دهائه انه كان اذا أراد قصد جهة جمع اكابر الدولة وتشاوروا الى ان يقع الرأي على التوجه في الوقت الفلاني الى الجهة الفلانية ، فيكاتب جواسيس تلك الجهات فتأخذ الجهة المعينة حذرها ويأمن غيرها ، فاذا ضربوا النفير واصبحوا سائرين ذات الشمال عرّج بهم ذات اليمين ، فالى ان يصل الخبر الثاني يكون دهم هو الجهة التي يريد واهلها غافلون » .

وذكر ابن حجر انه كان ابتداء حركة تيمورلنك الى البلاد الشامية في سنة اثنتين وثمانمائة . وأصل ذلك ان احمد بن اويس صاحب بغداد ساءت سيرته وقتل جماعة من الامراء وعسف على الباقين ، فوثب عليه الباقون فأخرجوه منها ، وكاتبوا نائب تيمورلنك بشيراز ان يتسلمها فتسلمها ، وهرب احمد الى قرا يوسف التركماني بالموصل فسار معه الى بغداد فالتقى به اهل بغداد فكسروه ، واستمر هو وقرا يوسف منهزمين الى قرب حلب ، وقيل بل غلب على بغداد وجلس على تخت الملك ، ثم صار

صحبة قرا يوسف فوصلا جميعاً الى أطراف حلب وسألا ان يطالع السلطان بامرهما فكاتب احمد بن اويس يستأذن في زيارته مصر ، فأجيب بتفويض الامر الى النائب فخشي دمرداش نائب حلب ان يقصد هو وقرا يوسف حلب فسار دمرداش نائب حلب ومعه طائفة قليلة منهم نائب حماة ليكبس احمد بن اويس بزعمه ، فكانت الغلبة لاحمد فانكسر دمرداش وقتل من عسكره جماعة ، ورجع منهزماً وأُسر نائب حماة ثم فدي بستمائة الف درهم ، ثم جمع نعير والنائب ببهسنى جماعة والتقوا مع احمد بن اويس فكسروه واستلبوا منه سيفاً يقال له سيف الخلافة وصحفاً واثاثاً كثيرة . فوصلت الاخبار بذلك الى القاهرة فسكن الحال بعد ان كان امر السلطان بتجريد العساكر لما بلغه هزيمة دمرداش وأرسل بريدياً الى الشام بالتجهيز الى جهة حلب .

* * *

تيمورلنك على ابواب حلب وصل تيمورلنك بعد فتح عينتاب الى الباب و بزاعا بالقرب من حلب وأرسل الى نائب حلب قاصداً ومعه المكاتبات من تيمورلنك فيها عبارة خشنة لنائب حلب . وذكر ابن حجر ان كتاب تيمورلنك الى نائب حلب يقول فيه : انا وصلنا في العام الماضي الى البلاد الحلبية لاخذ القصاص ممن قتل رسلنا بالرحبة ثم بلغنا موته يعني الظاهر ، وبلغنا امر الهند وما هم عليه من الفساد فتوجهنا اليهم فاظفرنا الله تعالى بهم ، ثم رجعنا الى الكرج فاظفرنا الله بهم ، ثم بلغنا قلة ادب هذا الصبي ابن عثمان فاردنا عرك اذنه فشغلنا بسيواس وغيرها من بلاده ما بلغكم ، ونحن نرسل الكتب الى مصر فلا يعود جوابها فنعلمهم ان يرسلوا قريبنا اطلمش وان لم يفعلوا فدماء المسلمين في اعناقهم والسلام .

حنق نائب حلب وامر بضرب اعناق قصاد تيمورلنك ، فاضطربت عند ذلك احوال مدينة حلب وحصنوا سورها بالمدافع والمكاحل والمقاتلين ، وقد ارتكب نائب حلب خطأً فاحشاً بقتل الرسول والرسل لا تقتل في العادة ، ظاناً وجماعته من الحلبيين ان لهم قوة تقاوم قوة تيمورلنك . قال بعض المؤرخين : لما كان اهل حلب وصاحبها يتشاورون في دفع عادية تيمور عنهم قال نائب طرابلس في جملة قوله : اننا

نطير الى الآفاق اجنحة البطائق الى الاعراب والاكراد والتراكمة فيتسلطون عليه من الجوانب . وفي ذلك دليل آخر على جهل امراء الشام بقوة تيمورلنك وعجزهم عن كشف اخبار جيوشه وتقدير مبلغ قوته . وذكر بعض المؤرخين ان عسكر تيمورلنك كان لما أسر سلطان العثمانيين اربعمائة الف فارس وستمائة الف راجل . وذكر ابن حجر عن ابن الشحنة عن الخوارزمي ان ديوان اللنك اشتمل على ثمانيمائة الف مقاتل، وعلى كل فعسكره كان بضع مئات الالوف .

لما بلغ تيمورلنك ما فعل الحلبيون بقصاده زحف الى قرية حيلان واحاط بمدينة حلب ونهب ماحولها من الضياع ، فخرج عساكر حلب وسائر النواب بعساكرهم، وخرج لقتال تيمورلنك من أهل حلب حتى النساء والصبيان ، واوقعوا مع تيمورلنك فكان بينهم ساعة تشيب منها النواصي ، وقد دهمتهم عساكر تيمورلنك كأمواج البحر المتلاطمة ، فلم تثبت معهم عساكر حلب وولوا على أعقابهم مدبرين الى المدينة ، وقد داست حوافر الخيل أجساد العامة ، وكان احتمى بالمزارات والمساجد الجم الغفير من النساء والاطفال ، فدخل التتار اليهم وأسروهم وقرنوهم بالحبال وأسرفوا في قتل النساء والرجال ، وصارت الابكار تفتض في المساجد وآباؤهن يشاهدونهن ، ولم يرعوا حرمة الجوامع وأصبحت كالمجزرة من القتلى واستمر ذلك يتزايد أربعة ايام .

وفي كنوز الذهب ان جيش تيمورلنك لما دخل الى حلب نهب وأحرق وسبى وقتل وصاروا يأخذون المرأة ومعها ولدها الصغير على يدها فيلقونه من يدها ويفعلون بها ما لا يليق ذكره ، فلجأ النساء عند ذلك الى جامعها ظناً منهن ان هذا يقيهن من أيدي الكفرة وصارت المرأة تطلي وجهها بطين او بشيء حتى لا ترى بشرتها من حسنها ، فيأتي عدو الله اليها ويغسل وجهها ويجامعها في الجامع . قال : وحكى بعض من حضر الوقائع بان تيمور عرض الاسرى من بلاد الشام ونواحيها فكانوا ثلاثمائة الف اسير وستين الف اسير .

رأى دمرداش نائب حلب عين الغلب فنزل من القلعة هو وبقية النواب ، واخذوا في رقابهم مناديل وتوجهوا الى تيمورلنك يطلبون منه الامان ، فلما مثلوا بين يديه خلع عليهم أقبية مخمل احمر والبسهم تيجاناً مذهبة ، وقال لهم : انتم صرتم نوابي ،

ثم ارسل معهم جماعة من امرائه يتسلمون القلعة ، وكان فيها من الاموال والذخائر والحلي والسلاح ما تعجب الناك من كثرته ، حتى اخبر بعض اخصائه انه قال : ما كنت اظن ان في الدنيا قلعة فيها هذه الذخائر ، فاستنزلوا من كان بها وهم في قيود وغدر بهم بعد ان أمنهم ، واخذ جميع ما كان فيها من الاموال والمتاع ثم خرب القلعة واحرق المدينة . واستمر مقيماً على حلب نحو شهر ، وعسكره ينهبون القرى التي حول المدينة ويقطعون الاشجار التي بها ويهدمون البيوت ، وقد اسرفوا في القتل ونهب الاموال ، وصارت الارجل لا تطأ الا على جثة انسان لكثرة القتلى ، حتى قيل انه بنى من رؤوس القتلى عشرة مآذن ، دور كل مئذنة نحو عشرين ذراعاً ، وصعودها في الهواء مثل ذلك ، وجعلوا الوجوه فيها بارزة تسفو عليها الرياح وتركوا اجساد القتلى في الفلاة تنهشها الكلاب والوحوش . فكان عدة من قتل في هذه الواقعة من اهل حلب من صغار وكبار ونساء ورجال نحواً من عشرين الف انسان ، عدا من هلك من الناس تحت ارجل الخيول عند اقتحام ابواب المدينة وقت الهزيمة وهلك من الجوع والعطش اكثر من ذلك — هذا ما قاله ابن تغري بردي وابن حجر وابن اياس وعنهم نلخص . وقال ابن حجر : ان اعظم الاسباب في خذلان العسكر الاسلامي ما كان دمرداش نائب حلب اعتمده من القاء الفتنة بين التركمان والعرب حتى اعانه بعض التركمان على اموال نعير فنهبها فغضب نعير من ذلك وسار قبل حضور تيمورلنك فلم يحضر الوقعة احد من العرب . وقال بعضهم : ان دمرداش كان باطن تيمورلنك لكثرة ما كان تيمورلنك خدعه ومناه .

☆ ☆ ☆

تيمورلنك على حماة وسلمية وحمص

ووصل تيمورلنك الى حماة وسلمية فأرسل جماعة من عسكره الى نحو طرابلس فتاهوا عن الطريق فدخلوا في وادٍ بين جبلين فوثب عليهم جماعة من عربان جبل نابلس فقتلوا منهم جماعة كثيرة بالنشاب والحجارة فولوا مدبرين . وذكروا ان ابن رمضان امير التركمان جمع عساكره وجاء حلب بعد رحيل تيمورلنك وطرد من بها من عساكر تيمورلنك النازلين بحلب . وفعل تيمورلنك باهل حماة كما فعل باهل حلب من القتل والنهب واحرق معظمها ، ولم تطل

يده الى حمص فوهبها كما قال لخالد بن الوليد . قال ابن حجر : وذكر بعض من يوثق به انه قرأ في الحائط القبلي بالجامع الأموي النوري بحماة منقوشاً على رخامة بالفارسي ما نصه : ان الله يسر لنا فتح البلاد والممالك حتى انتهى استخلاصنا الى بغداد ، فجاورنا سلطان مصر والشام فراسلناه لتتم بيننا المودة فقتلوا رسلنا ، فظفرت طائفة من التركمان بجماعة من اصلنا فسجنوهم ، فتوجهنا لاستخلاص قريبنا من ايدي مخالفينا واتفق في ذلك نزولنا بحماة في العشرين من شهر ربيع الآخرة .

* * *

تيمورلنك على دمشق | وجاء تيمورلنك دمشق فنزل عند سفح جبل الثلج (الشيخ) اي في غربي دمشق في قطنا واقليم البلان الى ميسنون وقوي عزمه على فتحها لما بلغه ان الملك فرّ منها الى مصر فأرسل تيمور الى نائب دمشق رسولاً من قبله فقتله قبل ان يسمع كلامه . جرى في ذلك على ما جرى عليه نائب حلب فزاد تيمورلنك حنقاً .

ومن الغريب ان نائبي حلب ودمشق لم يقدرا قوة تيمورلنك حق قدرها وهي منهما على قيد غلوة وظنا باعتصامهما في قلعتي المدينة وبالقليل ممن عندهما من العسكر واحداث البلدين يستطيعان ان يتغلبا على جيوش تيمورلنك المؤلفة كما قال عربشاه : من رجال توران ، وابطال ايران ، ونمور تركستان ، وفهود بلخشان ، وصقور الدشت والخطا ، ونسور المغول وكواسر الجتا ، وافاعي خجند ، وثعابين ايدكان ، وهوام خوارزم ، وجوارح جرجان ، وعقبان صغانيان ، وضواري حصارشادمان ، وفوارس فارس واسود خراسان ، وضباع الجبل وليوث مازندران ، وسباع الجبال وتماسيح رستمدار وطالقان ، واهل قبائل خوز وكرمان ، وطلس ارباب طيالس اصبهان ، وذئاب الري وغزني وهمدان ، وافيال الهند والسند وملتان ، وكباش ولايات اللور وثيران شواهق الغور وعقارب شهرزور ، وحشرات عسكرمكرم وجندي سابور .

قوم اذا الشر ابدى ناجذيه لهم   طاروا اليه زرافات ووحدانا

مع ما أضيف اليهم من اعيار الخدم ، وفواعل التراكمة والاوباش والحشم ،

وكلاب النهاب من رعاع العرب وهمج العجم ، وحثالة عباد الاوثان ، وانجاس مجوس الامم ، ما لا يكتنفه ديوان ، ولا يحيط به دفتر حسبان اه ٠

غلطة ارتكبها نائب دمشق المغرور بقوة سلطانه ومن معه من المتعصبة والمتلصصة وارباب الدعارة من الشطار والاحداث الاغيار ، قضت على اعظم مدينة في الارض كانت في غابر الايام ٠ وذكر ابن اياس : انه كان بين اهل دمشق وبين عسكر تيمورلنك في اول يوم واقعة عظيمة فقتل من عسكر تيمورلنك نحو الفي انسان ، فارسل تيمورلنك يطلب من اعيان دمشق رجلاً من عقلائهم ، يمشي بينه وبين اهل دمشق في الصلح فلما اتى قاصد تيمورلنك بهذه الرسالة اشتور اهل دمشق فيمن يرسلونه الى تيمور لنك فوقع الاختيار ان يرسلوا اليه القاضي تقي الدين بن مفلح الحنبلي فانه كان انساناً طلق اللسان يعرف بالتركي و باللسان العجمي فأرخوه من اعلا السور بسرياق ضخم ومعه خمسة انفس من اعيان دمشق ، فغاب عند تيمورلنك ساعة ثم رجع من عنده فأخبر بان تيمورلنك تلطف معه في القول ، وقال له : هذه بلد فيها الانبياء وقد اعتقها لهم ٠ وشرح من محاسن تيمورلنك شيئاً كثيراً ، وجعل يخذل اهل الشام عن قتاله و يرغبهم في طاعته ، فصار اهل البلد فرقتين فرقة ترى ما رآه ابن مفلح وفرقة ترى محاربته وكان اكثر اهل البلد يرون مخالفة ابن مفلح ، ثم غلب رأيه ورأي اصحابه ، فقصد ان يفتح باب النصر فمنعه من ذلك نائب قلعة دمشق وقال لهم : ان فعلتم ذلك أحرقت البلدة جميعها ، ولكن نائب القلعة لما رأى عين الغلب سلم اليهم القلعة بعد تسعة وعشرين يوماً قال : ثم قبض تيمورلنك على ابن مفلح واصحابه واودعهم في الحديد وآخر الطب الكي ٠

٭ ٭ ٭

وصف افعال تيمورلنك في دمشق — وذكر ابن تغري بردي انه لما قدم الخبر على اهل دمشق بأخذ حلب نودي في الناس بالرحيل من ظاهرها الى داخل المدينة والاستعداد لقتال العدو ، فأخذوا في ذلك فقدم عليهم المنهزمون من حماة فعظم خوف اهلها ، وهموا بالجلاء فمنعوا من ذلك ، ونودي من سافر نهب فعاد اليها من كان خرج منها ، وحصنت دمشق ونصبت المناجيق على قلعة دمشق ونصبت المكاحل على اسوار المدينة واستعدوا للقتال ثم نزل تيمور بعساكره على قطنا ،

فملأت عساكره الارض كثرة ، وركب طائفة منهم لكشف الخبر فوجدوا السلطان والامراء قد تهيأوا للقتال ، وصفت العساكر السلطانية فبرز اليهم التمرية وصدموهم صدمة هائلة ، وثبت كل من العسكرين ساعة فكانت بينهم وقعة انكسرت فيها ميسرة السلطان ، وانهزم العسكر الغزاوي وغيرهم الى ناحية حوران وجرح جماعة وحمل تيمور بنفسه حملة عظيمة شديدة ليأخذ دمشق ، فدفعته ميمنة السلطان باسنان الرماح حتى اعادوه الى موقفه ، ونزل كل من العسكرين بمعسكره وبعث تيمور الى السلطان في طلب الصلح وارسال اطلمش احد اصحابه اليه وانه هو ايضاً يبعث من عنده من الامراء المقبوض عليهم في واقعة حلب . ثم هرب الملك لانه بلغه انهم يسلطنون غيره في مصر فاراً بجماعته .

وكان اجتمع في دمشق خلائق كثيرة من الحلبيين والحمويين والحمصيين واهل القرى ممن خرج جافلاً من تيمور ، ما عدا العساكر الذين خلفوا بدمشق من اهل دمشق ولما اصبحوا وقد فقدوا السلطان والامراء والنائب غلقوا ابواب دمشق ، وركبوا اسوار البلد ونادوا بالجهاد ، فتهيأ اهل دمشق للقتال وزحف عليهم تيمور بعساكره فقاتل الدمشقيون من اعلى السور اشد قتال ، وردوهم عن السور والخندق ، واسروا منهم جماعة ممن اقتحم باب دمشق ، واخذوا من خيولهم عدة كبيرة وقتلوا منهم نحو الالف وادخلوا رؤوسهم الى المدينة ، ولما اعيى تيمور امرهم جعل يخادعهم فأرسل يريد الصلح .

وطلب تيمور الطقزات اي التسعة الاصناف من المأكول والمشروب والملبوس وغيره وهذه كانت عادته في كل بلد يفتحه صلحاً . فأجابه الدمشقيون الى ما طلب باقناع ابن مفلح لهم وتقرر ان يجبي تيمور من دمشق الف الف دينار ففرض على النـاس فقاموا به من غير مشقة لكثرة اموالهم ، فلم يرض تيمور وقال : ان المطلوب بحساب بلاده وهو عشرة آلاف الف دينار او الف تومان والتومان عبارة عن عشرة آلاف دينار من الذهب . قال ابن حجر : واستقر الصلح على الف الف دينار فتوزعت على اهل البلد ثم روجع تيمورلنك فتسخطها وقال : انه انما طلب الف تومان فنزل بالنـاس باستخراج هذا منهم ثانياً بلاء عظيم ، ولما اخذه ابن مفلح

وحمله الى تيمور قال هذا لابن مفلح واصحابه : هذا المال لحسابنا انما هو ثلاثة آلاف دينار وقد بقي عليكم سبعة آلاف دينار وظهر لي انكم عجزتم ، ثم سلمت اموال المصر بين وكراعهم وسلاحهم واموال الذين فروا من دمشق ، ولما كمل ذلك الزمهم ان يخرجوا اليه جميع ما في البلد من السلاح جليلها وحقيرها فأخرجوه كله ، فلما فرغ من ذلك كله قبض على ابن مفلح ورفقته والزمهم ان يكتبوا له جميع خطط دمشق وحاراتها وسككها ، فكتبوا ذلك ودفعوه اليه ، ففرقه على امرائه وقسم البلد بينهم فساروا اليها بمماليكهم وحواشيهم ونزل كل امير في قسمة وطلب من فيه وطالبهم بالاموال فحينئذ حلّ باهل دمشق من البلاء ما لا يوصف ، وجرى عليهم من انواع العذاب وهتك الاعراض شيء تقشعر منه الجلود ، واستمر هذا البلاء تسعة عشر يوماً فهلك في هذه المدة بدمشق بالعقوبة والجوع خلق لا يعلم عددهم ، ثم امر امراءه فدخلوا دمشق ومعهم سيوف مسلولة مشهورة وهم مشاة فنهبوا ما قدروا عليه من آلات الدور وغيرها وسبوا نساء دمشق باجمعهن ، وساقوا الاولاد والرجال وتركوا من الصغار من عمره خمس سنين فما دونها ، وساقوا الجميع مربوطين في الحبال ، ثم طرحوا النار في المنازل والدور والمساجد ، وكان يوماً عاصف الريح فعم الحريق جميع البلد حتى صار لهيب النار يكاد ان يرتفع الى السحاب ، وعملت النار في البلد ثلاثة ايام بلياليها ، ثم رحل تيمور عنها بعد ان اقام ثمانين يوماً وقد احترقت كلها وسقطت سقوف جامع بني أمية من الحريق وزالت ابوابه وتفطر رخامه ولم يبق غير جدره قائمة ، وذهبت مساجد دمشق ودورها وقياسرها وحماماتها وصارت اطلالاً بالية ورسوماً خالية ولم يبق بها الا اطفال .

قال ابن تغري بردي : ولقد ترك المصريون دمشق اكلة لتيمور ، وكانت يوم ذاك احسن مدن الدنيا واعمرها .

قال بهاء الدين البهائي يرثي دمشق المظلومة ويصف ما حل بها من التتار في سنة ثلاث وثمانمائة ويذكر حلب وحماة :

لهفي على تلك البروج وحسنها حفت بهن طوارق الحدثان
لهفي على وادي دمشق ولطفه وتبدل الغزلان بالثيران
وشكا الحريق فؤادها لما رأت نور المنازل ابدلت بدخان

جناتها في الماء منها اضرمت فعجبت للجنات في النيران
كانت معاصم نهرها فضية والآن صرن كذائب العقيان
ما ذاك الا تُركهم ولجت بها فتخضبت منها باحمر قان
كرهت جداولها حوافر خيلهم فتسابقت هرباً كخيل رهان
خافت خدود الارض من افعالهم فتلثمت بعوارض الريحان

* * *

لو عاينت عيناك جامع تنكز والبركتين بحسنها الفتان
وتعطش المرجين من اورادها وتهدم المحراب والايوان
لاتت جفونك بالدموع ملوناً دمعاً حكى اللولو على المرجان
قطرات جفن ترجمت عن حرقتي فكأنهن قلائد العقيان
ابني امية اين يُمن وليدكم والمغل تفتل في ذرى الاركان
شربوا الخمور بصحنه حتى انتشوا القوا عرابدهم على النسوان
لم يرحموا طفلاً بكى فقلوبهم في الفتك صخر لا ابو سفيان
قصوا جناح النسر بعد نهوضه يا ليته لو فاز بالطيران
الواحه اجرت دموعي اسطراً كتبت على اللوحين من اجفاني
ان انكروا يوم الحساب فعالهم فشهيدنا عثمان ذو القرآن
لهفي على كتب العلوم ودرسها صارت معانيها بغير بيان
اعروسنا لك أسوة بحماتنا في ذا المصاب فانتما اختان
غابت بدور الحسن عن هالاتها فاستبدلت من عزها بهوان
ناحت نواعير الرياض لفقدهم فكأنها الافلاك في الدوران
حزني على الشهباء قبل حماتنا هو اول وهي المحل الثاني
لا تدّعي الاحزان يا شقراءنا السبق للشهباء في الاحزان
رتعت كلاب المغل في غزلانها وتحكمت في الحور والولدان
لهفي عليك منازلاً ومنازهاً ومقام فردوس وباب جنان

ثم رجع ورثى دمشق فقال :

لم ادر من ابكي واندب حسرة   للقصر للشرفين للميدان
للجبهة الغراء ام خلخالها   للمزة الفيحا ام اللوّان

* * *

الخراب الاعظم واخلاق تيمور ونجاة فلسطين منه

وعلى ما منيت به دمشق من قتل سكانها وسبي نسائها واولادها ، واحراق مصانعها وبيوتها ، واستخراج أموالها وطرائفها ، أصابتها من تيمورلنك مصيبة لا تقل عن تلك في ارجاعها القهقرى واضعاف مادياتها اضعافاً لا يجبر كسره في قرون واليك ما قاله ابن عربشاه في تفصيل هذا الهول العظيم : وبينا كان رجال تيمور يحاصرون قلعة دمشق أخذ هو يتطلب الافاضل وأصحاب الحرف والصنائع وارباب الفضائل واستمر نهب عسكر تيمور لدمشق ثلاثة ايام ، وارتحل وجماعته وقد أخذ من نفائس الاموال فوق طاقتهم ، وتحملوا من ذلك ما عجزت عنه قوى استطاعتهم ، فجعلوا يطرحون ذلك في الدروب والمنازل ، ويلقونه شيئاً فشيئاً في أوعار المراحل ، وذلك لكثرة الحمل وقلة الحوامل ، وأصبحت القفار والبراري والجبال والصحاري من الامتعة والاقمشة كأنها سوق الدهشة ، وكأن الارض فتحت خزائنها ، وأظهرت من المعادن والفلزات كامنها ، وأخذ تيمور من دمشق أرباب الفضل وأهل الصنائع وكل ماهر في فن من الفنون بارع من النساجين والخياطين والحجارين والنجارين والاقباعية والبياطرة والخيمية والنقاشين والقواسين والبازدارية وبالجملة اهل اي فن كان ، وأخذ جملة من العلماء وربما أخذ أناساً من الاعيان والسادة النبلاء ، وكذلك كل امير من امرائه وزعيم من زعمائه ، اخذ من الفقهاء والعلماء وحفاظ القرآن والفضلاء واهل الحرف والصناعات والعبيد والنساء والصبيان والبنات ما لا يسعه الضبط .

ونقل في الضوء اللامع ان تيمور كان يسلك الجد مع القريب والبعيد ولا يحب المزاح ويحب الشطرنج وله فيها يد طولى ومهارة زائدة ، وزاد فيها جملاً وبغلاً ، وجعل رقعته عشرة في احد عشر بحيث لم يكن يلاعبه فيه الا افراد قال : وكان ذا رأي صائب ، ومكائد في الحروب عجيبة ، وفراسة قل ان تخطيء ، عارفاً بالتواريخ لادمانه

على سماعها ، لا يخلو مجلسه عن قراءة شيء منها سفراً وحضراً ، مغرى بمن له معرفة بصناعة ما اذا كان حاذقاً فيها ، أمياً لا يحسن الكتابة ، حاذقاً باللغة الفارسية والتركية والمغلية خاصة ، ويعتمد قواعد جنكيزخان و يجعلها اصلاً ، ولذلك أفتى جمع جم بكفره مع ان شعائر الاسلام في بلاده ظاهرة ٠

ولما رحل تيمورلنك عن دمشق ، وقد أصبحت اطلالاً لا مال ولا رجال ولا مساكن ولا حيوان ، صار من بقي فيها من عسكر السلطان ومن أهلها يجتمعون ويترافقون و يخرجون من دمشق الى الديار المصرية فيخرج عليهم العربان والعشير وينهبون ما معهم ويعرونهم ولم يتركوا لهم غير اللباس في وسطهم ، فجرى عليهم من العربان والعشير ما لم يجر عليهم من عسكر تيمورلنك ، فذهبت حرمة المملكة ولم يبق للسلطان قيمة ولا للترك حرمة ، فعزم السلطان الناصر على العود الى دمشق ثم بلغه ان تيمورلنك رحل عن دمشق وهو مريض فعدل عن حملته ، وأرسل تيمورلنك الى صاحب مصر سودون نقيب قلعة دمشق يعتذر له مما قد جرى ويطلب قريبه الذي كان أسر في ايام الملك الظاهر برقوق وانه اذا أطلقه يطلق ما عنده من الاسرى فأطلقه وكساه السلطان وأحسن اليه ، فلما وصلوا الى تيمورلنك اكرمهم وقبل مراسيم السلطان ونفارش وبكى واعتذر مما وقع منه وقال هذا كان مقدراً ٠ رحل تيمورلنك عن دمشق ولم يتعدها الى فلسطين وكان علماء القدس انتدبوا الشيخ محمد فولاد بن عبد الله وجهزوه بمفاتيح الصخرة الى تيمور ولما بلغهم اخذه دمشق فلما كان بالطريق بلغه رجوعه فرجع ٠

وكانت اكثر المدن الصغرى في أواسط الشام قد خضعت وصافت بحكم الطبيعة ومنها طرابلس أحضر له منها مال وقد اجتاح بعلبك ونهبها ، ولما وصل الجبول في عودته لم يدخلها وامر بتخريبها واحراقها ، وحرق حلب مرة ثانية وهدم أبراج القلعة وأسوار المدينة والمساجد والجوامع والمدارس وقتل وأسر كل من وجدهم في طريقه وأخذ من كان في قلعة حلب من المعتقلين خلا القضاة فأطلق الشرف موسى الانصارى والكمال عمر بن العديم وجماعة معهما واخذ بقيتهم الى بلاده فمنهم من هرب من الطريق ومنهم من وصل الى بلاده ٠ قفل تيمور راجعاً بعد ان أذاق الشام كأس

الذل والحمام ، وربما اذا جمعت جملة تخربياته لا يتأتى وقوع مثلها في مئات من الاعوام ، عملها بجيشه الجرار في عشرات من الايام .

قال تيمور : ان ما فعله كان مقدراً فكأنه شعر بعظم تبعته على عادة الفاتحين السفاكين ، بيد انه كان مغرى بغزو المسلمين والتخلي عن غيرهم صنع ذلك في بلاد الروم وبلاد الهند وغيرها ، ولكن ما فعله لم يكن كله عن غير علم بل أخذ بما يؤخذ به كل من تفانى في الوصول الى غرض ، ويستحيل بعد ان فتحت عليه الاقاليم وفتح ثلث آسيا تقريباً بالقهر والسيف وجعل جيشه مؤلفاً كالجيش العثماني من جميع العناصر التي كانت تحت حكمه ان لا يكون على شيء من العلم وبعد النظر . وكان يصحب معه في رحلاته زمرة من العلماء المحققين . ومن جملة ما قرأته في هذا الباب وهو مما ينم عن عقله وانه كان يرمي الى ان يفتح افريقية كما فتح آسيا قوله لما اجتمع بابن خلدون في هذه المدينة على ما نقل ذلك عنه تلميذه ابن الزملكاني : اين بلدك فقال ابن خلدون : بالمغرب الجواني فقال : وما معنى الجواني في وصف المغرب فقلت : هو في عرف خطابهم معناه الداخلي اي الابعد . لان المغرب كله على ساحل البحر الشامي من جنوبه فالاقرب الى هنا برقة وافريقية ، والمغرب الاوسط تلمسان وبلاد زناتة ، والاقصى فاس ومراكش . وهو معنى الجواني فقال لي : واين مكان طنجة من ذلك المغرب فقلت : في الزاوية التي بين البحر المحيط والخليج المسمى بالزقاق ومنها التعدية الى الاندلس لقرب مسافته لان هناك نحو العشرين ميلاً فقال : وسجلماسة فقلت في الحد ما بين الارياف والرمال من جهة الجنوب فقال : لا يقنعني هذا وأحب ان تكتب لي بلاد المغرب كلها أقاصيها وأدانيها وجبالها وأنهارها وقراها وأمصارها فقلت له : يحصل ذلك بسعادتك قال ابن خلدون : وكتب له بعد انصرافي من المجلس ما طلب من ذلك وأوعيت الغرض فيه في مختصر وجيز يكون في ثنتي عشرة من الكراريس المنصفة القطع الى ان قال : وأقمت في كسر البيت واشتغلت بما طلب مني في وصف بلاد المغرب ، فكتبته في ايام قليلة ودفعته اليه فأخذه من يدي ، وامر موقعه بترجمته الى اللسان المغلي . ثم هرب ابن خلدون الى مصر ناجياً بنفسه من تيمورلنك مخافة ان يسقط في يده أسيراً ويحمله الى بلاده ، وكان قدم له هدية

يوم اجتماعه الاول به منها علب حلوى مصرية فتحها تيمور وأطعم منها رجاله ولم يذقها ، وأهداه سجادة صلاة فوضعها الى جانبه ، وأهداه مصحفاً شريفاً فقبله ووضعه الى جانبه . وكان تيمور يتظاهر بالتدين والتصوف و يصدر عن رأي المتصوفة لانهم اعانوه بنفوذهم في العامة على تدويخ الاقطار وعقد القلوب على محبته .

ولو قدّر للبلاد ان يكون فيها سلطان يحسن الانتفاع بالقوة ، و يحالف ابن عثمان صاحب الروم وغيره من امراء الشرق الذين فاوضوا ملك مصر والشام في امر تيمورلنك قبل انهيال جمهرة جيوشه على بلادهم ، ونظموا قواهم وهم في أرضهم وديارهم ، واستعملوا اللين تارة والشدة أخرى ، ولم يفتحوا للفاتح العظيم باباً من أبواب الحجج التي يحجهم بها في عرف السياسة والفتح ، لكانت البلاد أمنت عادية تيمورلنك او لكان اكتفى بمعاهدة تضمن له بعض الغرامات فرحل عن البلاد بسلام ، لان تيمورلنك يعرف بان بلاده ومملكته أوسع مجالاً يتيسر بقاؤها لا له لقربها من مهد عصبيته ودار ملكه .

بيد انه لم يكن في مصر ولا الشام على ذاك العهد رجل سياسي بعيد النظر والغور في السياسة كالظاهر برقوق والظاهر بيبرس مثلاً فكان ما كان لان البلاد أصبحت بلا راعٍ يرعاها ، وأصبح الحكم لمماليك الطبقة الثانية من عماله ، ولمن يتحمسون لأول وهلة ثم يقودون بلادهم بجهلهم الى الخراب . والغالب ان السبب في مغادرة تيمور البلاد انتشار الجراد فيها حتى اكل الناس أولادهم فأصبح من المتعذر عليه بعد ذلك تموين جيشه العظيم و بهذا الرأي قال ابن حجر فذكر ان رحيل تيمورلنك انما كان لضيق العيش على من معه فخشي ان يهلكوا جوعاً .

وقيل ان تيمورلنك أراد ان يفتح مصر فأرسل جماعة من قواده يكشفون له الطرق ، فلما عادوا قصوا عليه ماراوه وهو ساكت حتى أتوا على حديثهم فقال لهم : ان مصر لا تفتح من البر بل تحتاج الى اسطول لتفتح من البحر وبذلك صرف النظر عن فتحها ، و كهذا نجت مدن الجنوب في الشام من تخريبه وكذلك مصر وما اليها من بلاد افريقية فنجت الدولة الشركسية من عادية جيوشه .

عهد المماليك الاخير

٨٠٣ الى ٩٢٢

البلاد بعد الفتنة التيمورية ومخامرة العمال

خرجت حلب وحماة ودمشق خصوصاً من بين مدن الشام بعد فتنة تيمور كالهيكل العظمي لا لحم ولا دم وأصيبت بنقص في الانفس وخراب في العمران، يبكي لها كل من عرف ما كانت عليه قبل تلك الحقبة المشؤومة من العمران وكثرة السكان ، ولم يقيض للبلاد سلطان عاقل قوي يداوي جراحاتها فبقيت نافرة نغـارة . ولما رحل تيمورلنك عن دمشق نصب صاحب مصر المقر السيفي تغري بردي في نيابة دمشق ورسم له ان يخرج الى الشام من يومه ليعمر ما افسده تيمورلنك من عاصمة البلاد ، ونصب نواباً آخرين على نيابات الشام ممن كانوا في أسر تيمورلنك فاطلقهم ، مثل نائب الكرك ونائب طرابلس ونائب حماة ونائب بعلبك ونائب صفد وغيرهم ، وامرهم ان يعمروا البلاد المخربة وهيهات ان يعمر في قرن ما خربه تيمورلنك في ثلاثة اشهر . بيد ان الضعف المتأصل في جسم المملكة ابقى تلك الاوامر اللطيفة حبراً على ورق وطمع النواب في البلاد .

رجم اهل دمشق (٨٠٤) نائب الشام تغري بردي وارادوا قتله فهرب الى نائب حلب فلما بلغ سلطان مصر ذلك ارسل تقليداً الى المقر السيفي اقبغـا الجمالي بان يستقر نائب الشام . وخامر امير غزة وخرج عن الطاعة واسمه الامير صُرُق الظاهري فاوقع الامير جرم وعربان نابلس مع صرق ، فانكسر صرق ، وقتل

في المعركة ، وخرج ايضاً عن الطاعة نائب طرابلس شيخ المحمودي وامسك حاجب طرابلس جماعة من امرائها سجنهم بسجن المرقب واستخدم جماعة كثيرة من التركمان والعشير وعمل له برك عظيم . وخرج دمرداش نائب حلب الى الامير دقماق المحمدي الذي خلفه في نيابتها واوقع معه واقعة قوية فانكسر دمرداش ونهب بركه وهرب الى ملطية .

وفي سنة ٨٠٦ نازل الفرنج طرابلس فأقاموا عليها ثلاثة ايام فبلغ ذلك نائب الشام فنهض اليهم مسرعاً فانهزموا فأوقع بهم وكان ذلك مبدأ سعادته . ثم توجه الفرنج الى بيروت وكانوا في نحو من اربعين مركباً فواقعهم دمرداش ومن معه من الجند والمطوعة وقتل بعض الناس من الفريقين وجرح الكثير ، وكان نائب الشام ببعلبك فجاءه الخبر فتوجه من وقته وارسل الى العسكر يستنجد به ومضى على طريق صعبة الى ان وصل الى طرابلس ثم توجه من فوره الى بيروت فوجدهم قد نهبوا ما فيها وأحرقوها وكان أهلها قد هربوا الى الجبال الا المقاتلة منهم ، فوقع بين الفريقين مقتلة عظيمة فأمر النائب باحراق قتلى الفرنج ثم توجه الى صيدا ومعه العساكر فوصل اليها وقد أخذ الفرنج من البهار الذي للكيتلان شيئاً كثيراً فوصل النائب بالعسكر فوجدهم في القتال مع أهل صيدا ولم يتقدمه احد بل كان معه عشرة انفس فحمل على الفرنج فكسرهم وفروا في مراكبهم راجعين الى ناحية بيروت ثم نزلوا لأخذ الماء فتبعهم بعض اصحاب النائب فغلبوه على الماء واخذوا حاجتهم وتوجهوا الى جهة طرابلس — نقلته من ابن حجر .

ودامت الفوضى في البلاد حتى خامر النواب الا قليلاً في الشام (٨٠٦) واصبح الناس فرقتين فرقة مع الملك الناصر وفرقة عليه الى ان خلع سنة ٨٠٨ وفي سنة ٨٠٦ اوقع نائب الشام بعرب آل فضل وكان كبيرهم علي بن فضل قد قسم بلاد الشام سنة ثلاث وثمان مائة فطمع ان يفعل ذلك هذه السنة فبلغ هذا النائب فقبض عليه ونهب بيوته وفيها وقع بين نعير امير عرب آل فضل وبين حجا بن سالم الدوكاري التركماني وقعة عظيمة قتل فيها ابن سالم وانكسر عسكره وغاب نعير وارسل برأس ابن سالم الى القاهرة . وكان عسكر حجا طاف في اعمال حلب وافسد فيها الفساد الفاحش وذلك في بلد عزاز وغيرها وكان وقع بينه وبين نعير قتال بين جعبر

وابلستين واستمر اياماً الى ان قتل حجا · وفي هذه السنة وقع بين دمرداش والتركمان وقعة عظيمة فانكسر دمرداش · وفي ايام الملك الناصر فرج بن برقوق نصب الامير نوروز الحافظي على دمشق والامير جكم العوضي نائباً على حلب فلما توجها الى عملهما اظهر كل منهما العصيان والمخامرة على السلطان فتسلطن جكم العوضي بحلب وقبل الامراء الارض بين يديه وتلقب بالملك العادل ووضع يده على البلاد الحلبية وكتب الى نواب الشامات فأطاعوه الا القليل منهم واخرج اوقاف الناس وجعلها اقطاعات وفرقها مثالات على عسكر حلب وصار يحكم من الشام الى الفرات فانتزعت يد الملك الناصر من البلاد الشامية والحلبية وصار حكمه لا يجاوز غزة ·

وفارق جكم حلب (٨٠٧) فثار بها عدة من امرائها ورفعوا لواء السلطان بالقلعة فاجتمع اليهم العسكر وتحالفوا على طاعة السلطان وقام بتدبير امور حلب الامير يونس الحافظي وامتدت أيدي عرب ابن نعير والتركمان الى معاملة حلب فقسموها ولم يدعوا لاحد من الامراء والاجناد شيئاً · ومدح المؤرخون جكم بانه كان يتحرى العدل ويحب الانصاف ولا يتمكن احد معه من الفساد ·

وفي سنة ٨٠٧ حاصر دمرداش نائب حلب انطاكية وبها فارس بن صاحب الباز التركماني فأقام مدة ولم يظفر بها بطائل وكان جكم مع فارس فتوجه جكم بعده الى طرابلس فغلب عليها وطرد عنها وهو شيخ السليماني ثم توجه الى حلب فنازلها وبها دمرداش فالتقيا وجرى بينهما قتال كثير فانكسر دمرداش وخرج من حلب فركب البحر الى القاهرة وملكها جكم ثانية ثم خرج الى جهة البيرة وغزا التركمان وأسر منهم جمعاً كبيراً ·

والتف الامير نوروز الحافظي على الامير شيخ المحمودي نائب طرابلس واظهرا العصيان والتف عليهما جماعة من النواب وصاروا يأكلون البلاد الشامية والحلبية من غزة الى الفرات وليس بيد الملك الناصر سوى مصر واعمالها · وخربت صفد واعمالها خراباً شنيعاً وذلك لان شيخ المحمودي ومن معه من النواب والتركمان حاصروها مدة لان واليها بكتمر جلق لم يوافقهم على رغائبهم من جهة سلطان مصر ·

وخرج نعير بن مهنا الحياري البدوي (٨٠٨) على أعمال دمشق فأخرج يلبغا

العساكر وتواقعوا بالقرب من قرية عذراء خارج دمشق فانهزمت عساكر الشام وامراء غرب بيروت واستوات العرب على دمشق وزادوا في الجور والضرب . واستولى التركمان على كثير من البلاد الشمالية وكان رأسهم اياس ووصلوا الى حماة فغلبوا عليها ثم ردوا عنها .

* * *

وقائع التركمان مع الناشزين على السلطان

وفي سنة ٨٠٨ كانت الوقعة العظمى بين جكم نائب حلب والتركمان ورئيسهم فارس ويدعى اياس بن صاحب الباز صاحب انطاكية وغيرها وكان قد غلب على اكثر البلاد الشمالية ودخل حماة وملكها وكان عسكره يزيد على ثلاثة آلاف فارس غير الرجالة فواقعه جكم بمن معه فكسره كسرة فاحشة وعظم قدر جكم بذلك وطار صيته ووقع رعبه في قلوب التركمان وغيرهم ، ثم انه واقع نعير ومن معه من العرب فكسره ، ثم توجه جكم الى انطاكية وأوقع بالتركمان فسألوه الامان وان يمكنهم من الخروج الى الجبال والى مواطنهم القديمة و يسلموا اليه جميع القلاع التي بأيديهم فتقرر الحال على ذلك وأرسل الى كل قلعة واحداً من جهته ودخل الى حلب مؤيداً منصوراً ، فسلم فارس بن صاحب الباز لغازي بن اوزر التركماني وكان بينهما عداوة فقتله وقتل ولده وجملة من جماعته وكان اميراً كبيراً شجاعاً بطلاً انشأ بانطاكية مدرسة بجوار تربة حبيب النجار . وكان قد استولى على معظم معاملة حلب ومعاملة طرابلس فصار في حكمه انطاكية والقصير والشغر وبغراس وحارم وصهيون واللاذقية وجبلة وغير ذلك ، فلما أحيط به تسلم جكم البلاد ورجعت معاملة كل بلد اليها على ما كانت اولاً .

و برز جكم الى دمشق فالتقى مع ابن صاحب الباز وجمعهم من التركمان فكسرهم كسرة ثانية وضرب أعناق كثير منهم صبراً وقتل نعيراً وأرسل برأسه الى القاهرة واستعد نائب الشام لقتاله ووصل توقيع دمرداش بنيابة حلب عوضاً عن جكم من القاهرة فتجهز صحبة نائب الشام ثم وصل اليهم المعجل بن نعير طالباً ثار ابيه وكذلك ابن صاحب الباز طالباً ثار ابيه وأخيه ، وكان معهم من العرب والتركمان خلق كثير ،

ووصل توقيع المعجل بن نعير بإمرة ابيه ووصل نائب الشام ومن معه الى حمص وتكاتبوا مع جكم في الصلح ووقعت الواقعة بينهم فانكسر عسكر اهل دمشق ، ووصل شيخ ودمرداش الى دمشق منهزمين ، وكانت الواقعة في الرستن ثم رحل نائب دمشق الى مصر ، ودخل جكم الى دمشق و بالغ في الزجر عن الظلم وعاقب على شرب الخمر فأفحش حتى لم يتظاهر بها احد وكانت قد فشت بين الناس .

ذكر هذا ابن حجر وقال في وفيات سنة ٨٠٨ ان فارس صاحب الباز التركماني كان ابوه من امراء التركمان فلما وقعت الفتنة اللنكية جمع ولده هذا فاستولى على انطاكية ثم قوي امره فاستولى على القصير ثم وقع بينه و بين دمرداش في سنة ست وثماني مائة فانكسر دمرداش ثم جمع دمرداش لعياله بانطاكية فحاصره وكان جكم مع فارس ثم رجع عنه بغير طائل فاستولى فارس على البلاد الغربية كلها وعظم شأنه فبنى في انطاكية مدرسة حسنة واستولى على صهيون وغيرها من عمل طرابلس وصارت نواب حلب كالمحصورين معه لما استولى على اعمالهم ، فلما ولي جكم نيابة حلب تجرد له وواقعه فهزمه ونهب ما معه واستمر جكم وراءه الى ان حاصره بانطاكية سنة ثمان وثماني مائة ولم تزل الحروب بينهما الى ان طلب فارس الامان فأمنه ونزل اليه وسلمه لغازي بن اورت وكان عدوه فقتله وقتل معه ابنه وجماعة منهم في شوال واستنقذ جكم البلاد كلها من ايدي ابن صاحب الباز وهي انطاكية والقصير والشغر وحارم وغير ذلك وانكسرت بقتل فارس شوكة التركمان .

وفي سنة ٨٠٩ بعث شيخ الى نابلس جيشاً قبضوا على عبد الرحمن بن المهتار وأحضروه له الى صفد فقتل بحضرته وكان المذكور قد عصى بأخرة على الناصر واتفق شيخ ونوروز فأرسله الى نابلس فصادر أهلها و بالغ في ظلمهم فكانت تلك عاقبته . ووقعت وقعة بين شيخ والحمزاوي عند حلبين فقتل في المعركة أناس من الامراء وقبض على الحمزاوي . واستولى تمربغا المشطوب على حلب وذلك انه لما هرب من الوقعة التي كانت بين جكم وبين قرايلك جاء مع طائفة من المغل الى جهة حلب فوجد ابن دلغادر قد جمع التركمان وحاصرها فأوقع بهم وكسرهم ودخل البلد وعصت عليه

القلعة ولما بلغهم قتل جكم سلموها له فاستولى على ما بها من الحواصل وعلى مابحاب ايضاً من الخيول والمماليك المخلفة عن جكم ٠

ثم قدم الملك الناصر من مصر فانهزمت العرب ودخل السلطان دمشق وبنى ما كان هدم وامر الناس بالرجوع ٠ وفي سنة ٨٠٩ ثارت طائفة من المماليك ومعهم عامة حلب على شركس المصارع ٠ وهكذا كثرت الفتن في الشام في العقد الاول من القرن التاسع وكلما قوي امير قتل رجال الامير الذي كان قبله ، وشأن الظلم في الرعايا عجيب والمصادرات قائمة على ساق وقدم ، وبالجملة فقد كانت الدولة التي تولت امر مصر والشام على حالة سيئة وكثير من ملوكها لم يتم لهم في الملك أشهر معدودة ، وناهيك بهذا التبدل قال ابن تغري بردي : وكثرت المصادرات بدمشق وغيرها في ايام هذه الفتن (٨١٠) وأُخرجت الاوقاف عن اربابها وخربت بلاد كثيرة بمصر والشام لكثرة التجاريد وسرعة انتقال الامراء من إقطاع الى إقطاع ٠

قال ابن حجر : : وفيها كملت عمارة قلعة دمشق وكان ابتداؤها في العام الماضي وصرف على عمارتها مال كثير جداً وظلم بسببه اكثر الخلق من الشاميين وغيرهم ٠ وبسط نوروز يده في المصادرات بدمشق فبالغ في ذلك حتى ان بعض التجار كانوا يترحمون على تيمورلنك وفرض على جميع الجهات مثليها وتناول حتى الخانات والحمامات وارباب المعايش حتى الذين يبيعون الخزف تحت القلعة حتى باعة الشراطين حتى الباعة في الطبالي حتى انقطعت الاسباب وتعطلت المعايش ٠

ونازل التركمان حلب (٨١٠) فحصرها علي باك بن خليل بن قراجا بن دلغادر ومعه عدة من امراء التركمان وعدة من امراء العرب ونازلوا حلب اياماً وقاتلهم العوام ومن بها ، وكان بها يومئذ قربغا المشطوب فدخلوا ولم يظفروا بطائل ، وكان لعلي بك ولد محبوس بقلعة حلب فصانع اهل حلب اياه بارساله مكرماً فما افاد ذلك وجد في الحصار ونازل العجل بن نعير حماة وحاصرها ، ونهب علي بك ومن معه القرى التي حول حلب وجدوا في الحصار وبالغ اهل حلب بالذب عن انفسهم واشتدوا للقتال وهان عليهم الامر خشية على اموالهم وحريمهم بحيث انهم كانوا كل يوم لا يرجعون

الا وقد انكوا في التركمان نكاية كبيرة ، واوقع نوروز بالمجل ومن معه من العرب على حماة وكسرهم فرحلوا ٠

وجرت في هذه السنة وقعة في وادي عقيبة من كروم بعلبك بين انصار السلطان وبعض امراء المماليك الفارين من القاهرة فكاثرهم نوروز ومن معه ثلاثة وقتل منهم وحملت رؤوسهم الى مصر ٠ وتصافى شيخ ونوروز بعد الخلاف وتوجها بعسكرهما الى بلاد ابن بشارة فاوسعوها نهباً وهرب ابن بشارة ٠ وقصد تمربغا المشطوب نائب حلب النزول على التركمان فبيتوه وكسروه ورجع منهزماً ، ونهب نوروز للعرب ابلاً كثيرة فكبسوا عليها واستنقذوها وحاصر شاهين دويدار شيخ صهيون فغلب عليها فضربت البشائر بدمشق ٠

وقال ابن اياس : ومن الوقائع الغريبة ٠ جاءت الاخبار (٨١١) بان جاليش (اعلام) الامير شيخ المحمودي والامير نوروز قد جاء من غزة وهم في عساكر لا تحصى فلما سمع الملك الناصر بذلك خرج هو والامراء على الهجن فتلاقى العسكران على السعيدية وكان بينهما واقعة عظيمة فانكسر الملك الناصر ورجع الى القاهرة وهو مهزوم فتبعه شيخ ونوروز ودخلا الى القاهرة فقوي حال الملك الناصر على شيخ ونوروز فكسرهما كسرة قوية فرجعا الى الشام مهزومين وانتصر عليهما الملك الناصر ولكن قتل في هذه الحركة جماعة كثيرة من الامراء والمماليك ٠ وفيها تعين نوروز لنيابة الشام ثم نحى نوروز عن نيابة الشام وأرسل السلطان تقليداً الى شيخ بنيابة الشام وتقليداً الى دمرداش بنيابة حلب ، ثم عين نوروز الى القدس بطالا ثم كتب الى دمرداش نائب حلب بالحضور الى مصر ورسم لشيخ بنيابة طرابلس مع نيابة حلب وهذا من العجائب ثم ان شيخ بعد ذلك خامر على السلطان فجرد اليه ورجع عن غير طائل اه ٠

وذكر ابن حجر ان نوروز برز الى صفد ثم انثني الى سعسع ثم انثنى الى بكتمر جلق ومعه محمد وحسن وحسين بنو بشارة فاقتتلوا فقتل منهم جماعة وحرقت الزروع وخربت القرى وكسرهم وأقام بالرملة ، ثم قصد صفد ليحاصرها فقدم عليه الخبر بحركة شيخ الى دمشق وكان قد جمع من التركمان والعرب والترك جمعاً وسار من حلب فرجع

نوروز فسبقه الى دمشق ، فتراسل شيخ ونوروز في الكف عن القتال ولم ينتظم لهما امر وصمم شيخ على اخذ دمشق و باتا على ان يباكرا القتال فأمر شيخ بوقيد النيران في معسكره واستكثر من ذلك ، ورحل جريدة الى سعسع فنزلها ، وأصبح نوروز فعرف برحيله وسار نوروز الى سعسع فلقي بها شيخ وهو في نفر قليل نحو الالف فالتقيا فانكسر نوروز ، و يقال انه كان معه اربعة آلاف نفس ولم يكن مع شيخ سوى ثلاثمائة نفس ، وركب شيخ أقفيتهم فدخل نوروز دمشق ورحل نوروز الى ملطية وأرسل شيخ عسكراً الى حلب لمحاصرتها ثم لحق عسكر شيخ بالتركمان بانطاكية وأوقعوا بهم واستنقذوها منهم . وفيها ألزم النائب اهل دمشق بعمارة مساكنهم والاوقاف التي داخل البلد وضرب فلوساً جدداً ثم نودي عليها كل مائة واربعين بدرهم . وكتب الناصر الى الشام باسقاط ما على الناس من البواقي من سنة ثمان وتسعين الى سنة ثنتي عشرة وفي السنة التالية الزم الناس في دمشق بعمارة ما خرب من المدارس . وفيها توجه الدوادار الى البقاع للاستعداد لبرديك لما طرق الشام فوصلت كشافة برديك الى عقبة سحورا ثم نزل هو شقحب فتأهب من بالقلعة بدمشق وخرج العسكر مع سودون بقجه وحمل هو على عسكر برديك فكسرهم ثم انهزم برديك على خان ذي النون فرجع الى صفد ونهب من كان معه . واشتد الحصار على نوروز ودمرداش بحماة فقتل بينهما اكثر من كان معهما من التركمان وانضم اكثر التركمان الى شيخ ووصل اليه المعجل بن نعير نجدة له بمن معه من العرب نخيم بظاهر حماة فوقع القتال بين الطائفتين واشتد الخطب على النوروزية فمالوا الى الخداع والحيلة ولم يكن لهم عادة بالقتال يوم الجمعة فبينما الشيخية مطمئنين اذ النوروزية قد هجموا عليهم وقت صلاة الجمعة فاقتتلوا الى قبيل العصر فكانت الكسرة على النوروزية وتفرق اكثر العساكر عن نوروز ولحق كثير منهم بشيخ وكتب الى دمشق فدقت بشائره وزينوا البلد وكبس اصحاب نوروز المعجل بن نعير ليلاً فأنجده شيخ وكتب دمرداش الى الناصر يستنجده ويحثه على المجيء الى الشام والا خرجت عنه كلها فانه لم يبق بيده منها الا غزة وصفد وحماة وكل من بها من جهته في اسوإ حال .

قال ابن حجر في حوادث سنة ٨١٣ : انه وصل الفرنج الذين استأذنوا الناصر

في العام الماضي لما دخل القدس ان يجددوا عمارة بيت لحم فوصلوا في هذا العام الى يافا ومعهم عجل وصناع واخشاب فأخرجوا المرسوم فاستدعوا الصناع للعمل بالاجرة فأتاهم عدة وشرعوا في ازاحة ما بطرقهم من الادغال ووسعوا الطريق بحيث تسع عشرة افراس ولم تكن تسع غير فارس واحضروا معهم دهناً اذا وضعوه على الصخر سهل قطعها فلما رجع الناصر الى دمشق عرفه نصحاؤه بسوء القالة في ذلك فكتب الى ارغون كاشف الرملة بمنعهم من ذلك والقبض عليهم وعلى من معهم من الصناع والآلات والسلاح والجمال والدهن فختم على مخازنهم وحملهم ومعهم ما رسم به الناصر اه ٠

وفي سنة ٨١٤ ارتفع الطاعون عن دمشق وما حولها واحصي من مات من اهل دمشق خاصة فكانوا نحواً من خمسين الفاً وخلت عدة من القرى وبقيت الزروع قائمة لاتجد من يحصدها ٠

* * *

الملك السكير وقتله | وبقي الامر على ذلك في الشام متقلقلاً لان ملك مصر على هذه الصورة من السخافة والضعف وهو شارب الليل والنهار تصدر الاعمال عنه مختلة كلها ، ويتسلى في خلواته بقتل مماليكه حتى قتل منهم زهاء الفي مملوك للتسلية والتخلية ، ولما كانت سنة ٨١٣ قطع شيخ المحمودي ونوروز الحافظي اسم الملك الناصر من الخطبة بدمشق واعمالها ، ونفرت قلوب المماليك من الملك الناصر وصار منهم جماعة (٨١٤) يتسحبون تحت الليل و يتوجهون الى نوروز الحافظي وشيخ المحمودي ، يأتون الشام من العقبة الى غزة فتسحب من العسكر نحو الثلث ، فقويت شوكة الحافظي والمحمودي والتف عليهما سائر النواب في الشام وغالب عسكر مصر وكثير من العشير وعربان جبل نابلس ، واجتمع عندهما من الامراء ما يزيد على اربعة وعشرين اميراً من مصر والشام ٠ ولما تحقق الملك الناصر ذلك جرد عليهم جيشاً فكانوا يتوجهون في كل يوم من بلد الى بلد والملك الناصر خلفهم ليلاً ونهاراً فأتعب العسكر وانقطع منهم جماعة من شدة السوق والتعب ٠ ووصل الملك الناصر الى اللجون (٨١٥) فتلاقى والنواب بعد العصر وكان الملك الناصر قد اصطبح وهو لا يعي من شدة السكر ، فاراد الكبس على النواب في تلك الساعة فمنعه

الامراء ذلك فابى ، فلما رأوا ذلك تسحبوا من عنده مع عسكره فلم يبق معه الا القليل من العسكر ، فكبس على النواب فانكسر الملك النـاصر وهرب بمن بقي معه من العسكر الى نحو دمشق ، واستولى شيخ ونوروز على اثقاله وخزائن المال وانتصرا عليه .

فلما دخل شيخ ونوروز الى دمشق طلعا الى دار السعادة واجتمع هناك الامراء واحضروا القضاة الاربعة ورسموا بان يكتبوا محضراً بافعال الملك الناصر بانه سفاك للدماء مدمن للخمر فكتبوا محضراً بذلك وشهد فيه جماعة كثيرة من اعيان الناس ، ثم خلعوا الملك الناصر من السلطنة واشتوروا فيمن يولونه فقال نوروز لشيخ : لا انا ولا انت نتسلطن . ولكن اجعلوا الخليفة العباسي هـذا هو السلطان ، ويكون الامير شيخ اتابك العساكر ومدبر المملكة في مصر ، و يكون الامير نوروز نائب الشام و يحكم في البلاد الشامية من غزة الى الفرات ، يولي من يختار و يعزل من يختار ، فتراضوا على هذا وحلف جميع الامراء على ذلك وتعاهد الامير شيخ والامير نوروز ثم سلطنوا الخليفة واستمر الامير نوروز الحافظي نائب الشام .

واما ما كان من امر الملك الناصر فرج بعد الكسرة التي وقعت له على اللجون فانه ولى منهزماً الى نحو دمشق واقام في تربة تنم ، وارسل الى الامير شيخ يطلب منه الامان ، وكان الامير نوروز صهر الملك الناصر زوج اخته ، فلو طلب منه الامان اولا لما اصابه شيء ولكن قصد الامير شيخ فارسل اليه من قيده واحضره الى السجن بقلعة دمشق ، ثم انهم اثبتوا عليه الكفر كما قيل ودخل عليه بعد ايام جماعة من المداوية وقتلوه بالخناجر وهو بالبرج بقلعة دمشق والقوه على مزبلة خارج البلد وهو عريان مكشوف الرأس ليس عليه غير اللباس في وسطه وصار الناس يأتون اليه افواجاً ينظرون اليه ، ولو امكن مماليك ابيه ان يحرقوه لفعلوا به ذلك مما قاسوه منه فأقام على ذلك ثلاثة ايام ثم دفنوه « وكانت الدنيـا على ايامه حائلة وحقوق الناس ضائعة ، وقد خربت غالب البلاد الشامية في ايامه من تيمورلنك ومن عصيان النواب وخربت اوقاف الناس في الشام ، وكم قتل من ابطال و يتم من اطفال ، وجرت في ايامه امور شتى يطول شرحهـا » . قال المقريزي : لم تزل ايام الناصر كلها كثيرة الفتن والشرور والغلاء والوباء . طرق بلاد الشام الامير تيمورلنك فخربها كلها وحرقها وعمها بالقتل

والنهب والاسر حتى فقد منها جميع انواع الحيوانات وتمزق اهلها في جميع اقطار الارض ثم دهمها بعد رحيله عنها جراد لم يترك بها خضراء فاشتد بها الغلاء على من تراجع اليها من اهلها وشنع موتهم واستمرت بها مع ذلك الفتن ·

* * *

الخليفة السلطان وسلطنة شيخ

عهد الامراء الذين قضوا على سلطان الملك الناصر بالسلطنة الى الخليفة العباسي وكان المسكين اشبه بعامل محترم من عمال الشراكسة لاعصبية له ولا جيش ، الا ما كان له في نفوس الرعية من حرمة بني العباس ، والغالب ان ذلك العهد بالسلطنة اليه كان دسيسة سياسية من الاميرين نوروز وشيخ يوم قال الاول للثاني وهما يتفاوضان فيمن يوسدان اليه السلطنة « لا انا ولا انت نتسلطن » فاستولى الامير شيخ على ملك مصر بالفعل واليه قيادة الجند واستولى الامير نوروز على الشام يحكم فيها حكم الملك وبقي الامر على ذلك الى سنة ٨١٦ وقد بلغ نوروز الحافظي امير الشام ان المؤيد شيخ خلع الخليفة العباسي في مصر وتسلطن عوضه فعزّ عليه ذلك ولم يقبل الارض للملك المؤيد شيخ واظهر العصيان واستمر نوروز يخطب باسم الخليفة العباسي على منابر دمشق واعمالها ولم يخطب باسم الملك المؤيد شيخ ولا ضرب باسمه سكة واستمر مستأثراً بملك الشام من غزة الى الفرات ·

وفي سنة ٨١٧ خرج الملك المؤيد شيخ من مصر في العساكر قاصداً الى دمشق للقضاء على سلطة نوروز الحافظي ، وكان نوروز قد حصن دمشق وركب على سورها المدافع من كل جانب ، فحاصره الملك المؤيد شيخ حصاراً شديداً طويلاً ونصب حول مدينة دمشق عدة مناجيق حتى غُلب نوروز وسلم نفسه الى شيخ فقطع رأس نوروز في قلعة دمشق ، وكان نوروز مهاباً شديد البأس سفاكاً للدماء ما كان في عسكر الا انهزم ولا ضبط انه ظفر في وقعة قط وهو الذي عمر قلعة دمشق بعد تيمورلنك ·

ومهد الملك المؤيد شيخ البلاد الشامية وعزل من عزل وولى من ولى وخلع على قانباي المحمدي واستقر به نائب الشام وخلع على الامير اينال الصصلاني واستقر به نائب حلب ، وخلع على الامير سودون بن عبد الرحمن واستقر به نائب طرابلس ، وخلع على

الامير جاني بك البجاسي واسنقر به نائب حماة ، ولم يلبث هؤلاء النواب (٨١٨) ان خامروا على الملك المؤيد شيخ وخرجوا عن الطاعة فجرد اليهم الملك المؤيد ثانياً وخرج اليهم بنفسه وأوقع معهم فانتصر عليهم ، وقبض على قانبـاي المحمدي نائب الشام وقطع رأسه ، ثم قبض على اينال الصصلاني وقتله على صدر ابيه ثم قتل الاب بعد ذلك ثم ولى جماعة من الامراء نواباً غير هؤلاء ورجع الى الديار المصرية فلم يقم سوى مدة يسيرة حتى خامر النواب ايضاً فجرد اليهم ثالث مرة وخرج بنفسه فلما بلغ النواب مجيئه هربوا من وجهه وتوجهوا الى قرا يوسف امير التركمان فنصب الملك المؤيد نواباً غيرهم ممن يثق بهم ومهد البلاد الدمشقية والحلبية وقطع شـأفة النواب الذين عصوا سلطانه . ومن الاحداث في هذا الدور دخول قرا يوسف التركماني من العراق الى حلب (٨٢١) في نحو الف فارس فجفل من كان خارج مدينة حلب باجمعهم ، واضطرب من بداخل سور حلب وألقوا بانفسهم من السور ولم تسكن الحالة الا بعد رحيله .

* * *

هلاك المؤيد شيخ وسلطنة ابنه في القماط

هلك الملك المؤيد شيخ سنة ٨٢٤ وكان ملكاً جليـلاً كفؤاً للسلطنـة وافر العقل مقداماً في الحرب عارفاً بمكايدها وحيلها وقت التقاء الجيوش حتى ضرب به المثل فكان يقال : نعوذ بالله من ثبات شيخ ومن حطمة نوروز الحافظي . هذه رواية ابن اياس بيد ان المقريزي يقول : انه حدث في ايام هذا الملك اكبر خراب مصر والشام لكثرة ما كان يثيره من الشرور والفتن ايام نيابته بطرابلس ودمشق ، ثم ما افسده في ايام ملكه من كثرة المظالم ونهب البلاد وتسليط اتباعه على الناس ، يسومونهم الذلة ويأخذون ما قدروا عليه من غير وازع ولا عقل ولا ناهٍ من دين . وتولى بعد الملك المؤيد شيخ ابنه الملك المظفر ابو السعادات احمد وهو في القماط فخامر نائب دمشق جقمق الارغوني ونائب حلب يشبك المؤيدي وكذلك بقية النواب في الشام ، وكان الاتابكي الطنبغا القرشي لما توجه في العسكر المصري أوقع معهم بمن معه من الامراء فهربوا الى نحو صرخد ثم ان الاتابكي الطنبغا لما توجه الى صرخد جمع العربان

والعشير ورجع الى دمشق وأوقع مع نائب الشام جقمق فانكسر جقمق وهرب منه الى نحو حلب ، فملك الاتابكي الطنبغا دمشق وقلعتها ، فلما بلغه وفاة الملك المؤيد وسلطنة ابنه أظهر العصيان وأقام بدمشق وحصنها ونصب على سورها المكاحل بالمدافع ، والتف عليه العربان والعشير ، فلما بلغ الامراء بمصر ذلك خلعوا على ططر واستقروا به اتابك العسكر عوضاً عن الطنبغا القرشي · ثم اتفق الحال على ان الاتابكي ططر يأخذ السلطان معه في محفة و يتوجه هو والعسكر الى دمشق بسبب الطنبغا القرشي والنواب فخرج ططر من القاهرة وصحبته الملك المظفر احمد في محفة والمرضعة معه وكانت امه خوند سعادات صحبة ابنها في المحفة لما خرج الى الشام لتأمن عليه من القتل فدخل الملك المظفر الى دمشق وألقي الرعب في قلب الطنبغا وجقمق فحضر الطنبغا وفي رقبته منديل فقبل الارض قدام الملك المظفر وهو في المحفة فلما وقعت عليه عين الاتابكي ططر قبض عليه وسجنه بقلعة دمشق ثم قبض على جقمق وامر بخنق جقمق والطنبغا ثم قبض على جماعة من النواب وقتل منهم البجاسي نائب دمشق وقبض على اربعين اميراً من الامراء المؤيدية وسجنهم بقلعة دمشق وقبض على جماعة من المماليك المؤيدية نحو ثلاثمائة مملوك وحبسهم · ثم خلع الملك المظفر احمد من السلطنة وتسلطن عوضه بدمشق وخطب باسمه على المنابر وكان معه الخليفة المعتضد بالله داود ، فكان مثل ططر في هذه الحيلة مثل اكثر عمال هذه السلطنة الشركسية متى اشتد ساعدهم استأثروا بالملك والسلطان ·

* * *

وفاة ططر وسلطنة ابنه ثم تولي الاشرف برسباي

هلك ططر بعد ان ملك ثلاثة اشهر واياماً وخلفه في السلطنة ابنه الملك الصالح محمد وله من العمر نحو من احدى عشرة سنة وجعل جاني بك الصوفي اتابكه ومدبر مملكته ، فعز ذلك على بقية الامراء فوثب الامير برسباي الدقماقي امير دوادار كبير على جاني بك وقيده وسجنه فاجتمعت الكلمة على برسباي وصار صاحب الحل والعقد فتعصب له جماعة من الامراء وخلعوا الملك الصالح وسلطنوا برسباي (٨٢٥) فكانت مدة سلطنة الملك

الصالح ثلاثة اشهر واربعة عشر يوماً . وخلع برسباي على المقر السيفي جاني بك الجاسي واستقر به نائب الشام واستقامت احواله في السلطنة وراق له الوقت .

وفي سنة ٨٣٦ سار الملك الاشرف في حملة من مصر قيل انه غرّم عليها خمسمائة الف دينار وقصد الشام وسار منها الى آمد لحاصرها وكانت لابن قرابلك فلم ينل منها طائلاً ، فمشى بعض الامراء بالصلح على ان لا يتعدى على بلاد السلطان نخلف صاحب آمد على ذلك ولما عاد الجيش المصري ادراجه عاد صاحبها الى العصيان قال ابن اياس : والملك الاشرف هو آخر من جرد من الملوك وخرج بنفسه الى البلاد الشامية .

توفي الملك الاشرف برسباي سنة ٨٤١ قال السخاوي : انه ساس الملك ونالته السعادة ودانت له البلاد واهلها وخدمته السعود حتى مات وفتحت في ايامه بلاد كثيرة من ايدي الباغين من غير قتال ، وكذا فتحت في ايامه قبرص وأسر ملكها . قال المقريزي : وكانت ايامه ايام هدوء وسكون الا انه كان له في الشح والبخل والطمع مع الجبن والحذر وسوء الظن ومقت الرعية وكثرة التلون وسرعة التقلب في الامور وقلة الثبات أخبار لم نسمع بمثلها ، وشمل بلاد مصر والشام في ايامه الخراب وقلت الاموال بها وافتقر الناس وساءت سيرة الحكام والولاة مع بلوغ آماله ونيل اغراضه وقهر اعاديه وقتلهم بيد غيره . وقد عقد برسباي معاهدة مع فرسان رودس وقهر صاحب مملكة ذي القدرية في آسيا الصغرى وكان الذي يثير عليه الفتن في الشام شاه رخ بن تيمورلنك لان سفراءه أهينوا في مصر كما أهين تجاره في جدة وابى عليه صاحب مصر ان يكسو الكعبة المشرفة . وقال ابن اياس : ان الملك الاشرف كان منقاداً الى الشريعة ، وكانت معاملته أحسن المعاملات من أجود الذهب والفضة ولا سيما الاشرفية البرسبايية فانها من خالص الذهب ، وكان عنده معرفة باحوال السلطنة ، كفوءاً للملك ، كثير البر والصدقات ، وله معروف وآثار ، لكنه كان عنده طمع زائد في تحصيل الاموال محباً لجمعها من المباشرين وغيرهم قال وكان من خيار ملوك الشراكسة اه .

وكان تولي رجل عظيم مثل برسباي زمام السلطنة بعد سخافة فرج وابنه الطفل

وسخافة ططر وابنه اليافع من أجمل الموافقات للبلاد أعاد الى السلطنة عزها الذي اولاها اياه مؤسسها برقوق . وبرسباي لا يقلّ عنه تدبيراً وحنكة وربما امتاز عنه بامور :

اذا تصفحت امور النـاس لم تلفَ امرءاً حاز الكمال فاكتفى
عوّل على الصبر الجميل انه امنع ما لاذ به اولو الحجى
وعطف النفس على سبل الاسى اذا استفز القلب تبريح الجوى
والدهر يكبو بالفتى وتارة ينهضه من عثرة اذا كبا

* * *

الملك العزيز يوسف والملك الظاهر جقمق | تولى الملك بعد الاشرف برسباي ابنه يوسف وسمي الملك العزيز وله من العمر اربع عشرة سنة وجعل الاتابكي جقمق العلائي نظام المملكة ثم خلع (٨٤٢) وجعل جقمق سلطاناً ولم يملك الملك العزيز سوى ثلاثة أشهر وخمسة ايام ولقب جقمق بالملك الظاهر . وفي سنة ٨٣٧ ندب السلطان العساكر الى بلاد الارمن فملكوا مدينة اياس . وفي سنة ٨٤٣ خرج اينال الجكمي نائب دمشق عن الطاعة واظهر العصيان على السلطان وكذلك تغري برمش نائب حلب فعين السلطان لهما تجريدة من مصر وخلع على المقر السيفي اقبغا التمرازي واستقر به نائب دمشق عوضاً عن اينال الجكمي وخلع على المقر السيفي يشبك السودوني واستقر به اتابك العساكر عوضاً عن اقبغا التمرازي فأوقعا مع النائبين العاصيين واسراهما وقطعا رأسيهما وارسلاهما الى القاهرة . وفي سنة ٨٥٢ حصل بين نائب حمص تمراز المصارع وناظره الاميني عبد الرحمن بن الديري قتال عظيم بآلة الحرب بسبب ابي طبر الساوري امير جرم .

وفي سنة ٨٥٥ طرق صور زهاء عشرين مركباً للفرنج ونهبوا منها فادركهم بجموعه ابن بشارة مقدم العشير بالبلاد الشامية وقاتلهم قتالاً شديداً حتى ازاحهم عن البلد بعد ان قتل من الفريقين جماعة وامسك من الفرنج جماعة وقطع رؤوسهم . وفي سنة ٨٥٦ ركب طوغان نائب الكرك بمماليكه فكبس بعض عرب الطاعة وقاتلهم حتى ظفر بجماعة منهم فاسرف في قتلهم ثم نزل بمكان هناك فكثر عليه جماعة منهم فقاتلهم ثانياً فكسروه

وقتلوه اسوأ قتلة — قال هذا وما قبله السخاوي . وهدأت البلاد من الفتن والتجاريد على عهد الملك الظاهر جقمق المتوفى سنة ٨٥٧ وكانت مدة سلطنته بالديار المصرية والبلاد الشامية وما مع ذلك اربع عشرة سنة وعشرة اشهر وكان ملكاً جليلاً ديناً خيراً متواضعاً كريماً ويفعل الخير وقد كانت علائقه حسنة مع سلطان العثمانيين وملوك آسيا الصغرى .

* * *

المنصور والاشرف والمؤيد
والظاهر خشقدم والظاهر
بلباي والاشرف قايتباي

وخلف الملك الظاهر جقمق الملك المنصور فخر الدين عثمان فخلع بعد ثلاثة واربعين يوماً وتسلطن بعده الملك الاشرف اينال العلائي وكانت ايامه ايام لهو وانشراح وقيل انه لم يسفك دماً بغير وجه شرعي فعد ذلك من النوادر وتوفي سنة ٨٦٥ وخلفه الملك المؤيد احمد وكان حسن السياسة بصيراً بمصالح الرعية قمع مماليك ابيه عما كانوا يفعلونه من الافعال الشنيعة الا ان مدته لم تطل سوى اربعة اشهر وثلاثة ايام وخلفه الظاهر خشقدم ابو سعيد سيف الدين وكان اهل الدولة يريدون سلطنة الامير جانم نائب الشام فلما ابطأ عليهم سلطنوا الظاهر خشقدم (٨٦٥) وسار جانم الى مصر فارجعه الملك الجديد الى الشام ، ولما بلغها ارسل السلطان الى نائب قلعة الشام مراسيم في الدس بان يقبض على جانم نائب الشام فرمي عليه بالمدافع وهو جالس في دار السعادة فهرب الى الرها ، واستمر في هياج وعصيان وارسل عليه سلطان مصر تجريدة بقيادة الامير جاني بك وعين المقر السيفي تنم المؤيدي نائب الشام .

وفي سنة ٨٧٢ تحرك شاه سوار صاحب مملكة ذي القدرية على بلاد حلب فرسم السلطان خشقدم للامير برديك الجمقدار نائب حلب ان يخرج اليه فخرج ثم التف عليه واظهر العصيان على السلطان وقصدا التوجه الى الشام فارسل سلطان مصر عليهما تجريدة وانهزم الجند الذين ارسلتهم مصر لقتال شاه سوار ودخلوا حلب وهم في اسوإ حال ثم ارسل السلطان تجريدة أخرى فهزمها سوار ايضاً ؛ فاحتال عليهم حتى ادخلهم في مواضع ضيقة بين اشجار فخرج عليهم السواد الاعظم من التركمان بالقسي والنشاب والسيوف والاطبار فقتلوا من العسكر عدداً كبيراً وقتل من مشايخ جبل نابلس

وعربانه والعشير والتركمان والغلمان عدد كبير جداً واشرف سوار ان يأخذ حلب ثم خمدت نائرته · توفي الظاهر خشقدم وملكه نحو ست سنين ونصف وخلفه الظاهر بلباي وخلع بعد سلطنة ستة وخمسين يوماً وبه زالت الدولة المؤيدية وخلفه الاتابكي تمربغا ودامت سلطنته ثمانية وخمسين يوماً وخلفه الملك الاشرف قايتباي ·

* * *

مصائب القطر الطبيعية ثم السياسية	بعد ان نجت البلاد من فتن التتار وتيمورلنك خاصة ووقائع الصليبيين عاودتها الاوبئة والمجاعات والزلازل

فقد زلزلت حلب مرات سنة ٨٠٦ فخرب كثير من اماكنها ومساجدها وكانت كثيرة جداً وفي سنة ٨٢٠ كان بحلب غلاء عقبه طاعون مات فيه سبعون الفاً وخلا البلد من السكان وفي سنة ٨٦٣ وقع الطاعون بحلب فاربى من هلك فيها وفي ضواحيها على مائتي الف انسان وفي سنة ٨٧٤ اشتد الغلاء والفناء بحلب وكانت الحال في البلاد كلها على ذلك فجارت عليها الطبيعة وكانت من قبل يجور عليها امراؤها · وقال الدويهي في حوادث سنة ٨٧٥ : ومن اخبار هذا العصر يستدل على انه في دولة المقدمين واحكامهم العادلة توفرت الراحة لاهل لبنان وكثرت عندهم المدارس والكنائس ·

وبينا كانت الشام تدافع الخارجين على المماليك او تشترك معهم احياناً وقد غضب عليها جبار الارض وجبار السماء ظهر لها بل لدولة المماليك الشركسية في مصر والشام عدوان لدودان او حكومتان مسلمتان نجت من شر الاولى ووقعت في شر الثانية ونعني بهما دولة حسن الطويل ودولة ابن عثمان · ودولة حسن الطويل هي المعروفة بدولة الحمل الابيض (آق قيونلي) استولى حسن الطويل على ديار بكر سنة ٨٧١ وقتل في السنة التالية جهانشاه ومرزا حاكم دولة الحمل الاسود (قره قيونلي) وابا سعيد حفيد تيمورلنك فاصبح ملك العراقين العربي والعجمي وفارس وكرمان وتلك الانحاء وانشأ دولة كبرى جعل تبريز عاصمتها · اما دولة ابن عثمان في الروم اي الاناضول فقد قويت على ذلك العهد ولاسيما بعد ان غلب السلطان محمد الثاني حسن الطويل (ازون حسن) سنة ٨٧٧ ·

ففي سنة ٨٧٢ ارسل سلطان مصر والشام عسكراً على شاه سوار فانكسر كسرة

شنيعة وقتل وجرح كثير من امراء المماليك ونهب اثقال الامراء والعسكر قاطبة وعاد الذي سلم الى حلب في اسوإ حال من العري والمشي ، وقد قوي امر سوار وتوجه الى عينتاب وحاصر قلعتها وملك البلد ثم قوي عسكر سوار بما نهبه من عسكر الشام ومصر وكان جيشاً جراراً فقوي عزمه على مداهمة حلب ، فجرد سلطان مصر تجريدة ثانية فكسرها عسكر سوار وفي هذه السنين كثر تبديل نواب حلب فقال ابن الوردي :

هذي امور عظام من بعضها القلب ذائب
ما حال قطر يليه في كل شهر بن نائب

وفي سنة ٨٧٥ تحرك حسن الطويل على اخذ البلاد الحلبية واظهر العداوة لسلطان الشام ومصر وقد طمع في عسكر مصر لما رأى من هزيمتهم وهزيمة الشاميين مرتين امام شاه سوار لما فعله سوار معهم ، واستظهر عليهم فثار السلطان لهذا الخبر وقصد ان يخرج الى حلب بنفسه خصوصاً لما بلغه ان سواراً استولى على سيس وقلعتها فان فزعه زاد ، وارسل السلطان هذه السنة الى شاه سوار الامير يشبك الدوادار الكبير وفوض اليه السلطان امور البلاد الشامية والحلبية وغير ذلك من البلاد وجعل له التصرف في جميع النواب والامراء ما خلا نائب حلب ونائب دمشق فقط ، ففلّ يشبك عسكر شاه سوار على نهر جيحان ، فانكسر عسكر شاه سوار وقتل منهم جمهور كبير ، وارسل سوار يطلب الصلح من الامير يشبك وان يكون نائباً عن السلطان في قلعة درنده وانه يرسل ولده بمفاتيح القلعة فما وافق السلطان ذلك الا ان يحضر سوار بنفسه ويقابل السلطان ، ثم قبض عليه في قلعة زمنوطو وحمل الى مصر فقتله سلطان مصر هو واخوته واقاربه .

قال ابن اياس : وخمدت فتنة سوار كأنها لم تكن بعد ما ذهبت عليها اموال وارواح وقتل جماعة كثيرة من الامراء وكسر الامراء ثلاث مرات ونهب بركهم وقد انتهكت حرمة سلطان مصر عند ملوك الشرق وغيرهم حتى ان الفلاحين طمعوا في الترك و« تبهدلوا » عندهم بسبب ماجرى عليهم من سوار وكادت تخرج المملكة عن

الشمرا كسة وقد اشرف سوار على اخذ حلب وخطب له في الابلستن وضربت هناك السكة باسمه ٠

وفي هذه السنة (٨٧٧) جمع حسن الطويل ملك العراقين جنداً جراراً وزحف على بلاد الشام واستولى في طريقه على كخيا وكركر فانتدب ملك مصر الامير يشبك الدوادار لقتاله كما كان انتدب لقتال سوار في السنة الفائتة ٠ اما العسكر فما صدقوا ان خمدت عنهم فتنة سوار حتى انتشبت فتنة حسن الطويل ٠

وقبض نائب حلب (٨٧٧) على بعض رجال حسن الطويل في حلب وجماعة آخرين نسبوا الى المواطأة مع حسن الطويل وكانوا يكاتبونه باخبار المملكة ، فامر نائب حلب بصلبهم وارسل في هذه السنة الامير يشبك نائب حلب جيشاً الى البيرة لقتال حسن الطويل فخذل عسكره بعد ما عدوا الفرات وطرقوا البلاد الحلبية من اطرافها وتلاشى امر حسن الطويل فارسل يكاتب الفرنج ليعينوه على قتال عسكر مصر ، وارسل ابن عثمان ملك الترك قاصده الى الامير يشبك بان يكون عوناً له على قتال حسن الطويل وكان حسن الطويل استعان بالفرنج ليقاتلوا صاحب مصر والشام وصاحب الروم ابن عثمان بحراً وهو يقاتلهم براً ولكنه عاد في سنة ٨٧٩ يرسل الى سلطان مصر معتذراً عما كان منه حتى عفا السلطان عما بدر منه ٠ وفي سنة ٨٨٠ صدرت من برهان الدين النابلسي وكيل السلطان قايتباي قبائح عظيمة باهل دمشق فرجموه ورموا عليه بالسهام واحرقوا داره بالنار وارادوا قتله فركب نائب قلعة دمشق وتلطف بالعوام حتى سكنت هذه الفتنة قليلاً وقد كادت ان تخرب دمشق في هذه الحركة بسبب ظلم النابلسي وكان قد طغى على الناس وتجبر ٠

قال السخاوي : وكان النابلسي يخرب البلاد الشامية بنفسه وبولده احمد وقد وصفه حسن بن احمد عربشاه في كتابه ايضاح الظلم والعدوان في تاريخ النابلسي الخارجي الخوان ووصف مظالم ابنه بما تقشعر منه الابدان وكان طالع النابلسي احمد الخراب ، صادر أهل طرابلس وهتك ستر نائبها وصادر كثيرين في دمشق ، وأراد ان يعرج على حلب فمنعه صاحبها من اتيان ما عمل في دمشق ٠ اما ابنه فاحتكر الاقوات وطفف الكيل وغش الحبوب وأدار باسمه الطواحين والافران

تسبب في الجزية على المدارس وأنقص معاليم الطلبة وجمع من الاموال مالايحصيه العد وكثر تظلم الناس من ظلمه حتى أرسل ملك مصر قاصداً حاسبه على الاموال فظهر اختلاسه فنكل به وأقام الناس عليه الشكاوي كما نكل بابيه في مصر لما اتى من المساويء هناك وقبض عليهما في وقت واحد ·

وذهب في هذه السنة نائب حلب تمرباي في العسكر الى التركمان وانكسر عسكر حلب كسرة لم تسبق مثلها من التركمان فعظم شأنهم · وفيها بعث ابن حسن الطويل يستنجد بنائب حلب على ابيه فجهز نائب حلب معه جماعة من عساكر حلب فقاتلوا عسكر الطويل فانكسر عسكر حلب وقتل منهم جماعة ·

وفي سنة ٨٨٣ خرج سيف بن نعير الغاوي وقرابته عن الطاعة فقاتله نائب حماة فكسر النائب وقتل من عسكره كثير ثم خرج اليه نائب حلب وأوقع معه ففر منه فتبعه وقد اضطربت أحوال حماة بسبب ذلك ·

مات حسن الطويل ملك العراقين (٨٨٣) وانقرضت دولة بني أيوب على يده وكان تحرش بابن عثمان ملك الروم بان يأخذ من ملكه شيئاً فما قدر عليه ، ثم تحرش بسلطان مصر وجرى له مع الاشرف قايتباي امور وكان الاشرف يخشى من سطوته لانه كان ملكاً جليلاً عاقلاً سائساً كثير الحيل والخداع · وفي سنة ٨٨٥ كبس عمرو بن غانم البدري ومن معه من العرب الامير ناصر الدين محمد بن أيوب نائب القدس باريحاء الغور وحصلت فتنة قتل فيها جماعة ·

* * *

وقعة مشؤومة وأحداث

وكانت سنة ٨٨٥ من أشأم السنين على دولة الاشرف قايتباي فان الامير يشبك الدوادار كان قد ندب ايضاً من مصر لقتال الامير سيف امير آل فضل فسار ومعه جيش من مصر وكان في صحبته نواب دمشق وحلب وطرابلس وحماة مع العسكر الشامي والمصري وغير ذلك من العساكر فتوجه الى الرها واجتمع معه نحو عشرة آلاف انسان وكان المتولي امر الرها شخص يقال له بابندر احد نواب يعقوب بك بن حسن الطويل فحصر الامير يشبك مدينة الرها أشد المحاصرة وكان يريد بعد أخذها ان يسير لفتح العراق فعاد

عليه بابندر وكسر جيش يشبك وأسره مع النواب الذين في جملته وشتت شمل جيشه وأخذ يشبك وقتله وقتل من امراء الشام عدد كبير جداً وكذلك من العسكر حتى كانت حوافر الخيل لا تطأ الا على جثث القتلى من العسكر . قال ابن اياس : وكانت هذه الكسرة على عسكر مصر من الوقائع الغريبة وكانت مصيبة عظيمة هائلة . وقال : وكان الامير يشبك باغياً على بابندر فانه قصد محاربته من غير سبب ولا موجب لذلك فكان كما قيل :

من لاعب الثعبان في وكره يوماً فلا يأمن من لسعته

اضطربت الشام ومصر من مهاجمة عسكر يعقوب بن حسن الطويل بلاد حلب ودمشق فان النواب قاطبة كانوا في أسره وسحق جيش سلطان مصر والشام فأعد السلطان له جيشاً آخر قال ابن اياس : ولولا فعله ذلك لخرجت من يده غالب جهات حلب . وفي هذه السنة ثار عامة حلب بمحمد بن حسن بن الصوا الحلبي نائب قلعة حلب بسبب مظالم أحدثها بحلب فقتلوه وقتلوا حاجب الحجاب بحاب . وفي سنة ٨٧٨ هـ وقعت فتنة بين طائفة الدارية وطائفة الاكراد بالقدس فحصل بينهما تشاجر فقتل من الفريقين ثمانية عشر نفراً واستنفر كل من الطائفتين من ينتصر لها من العشير فدخلوا المدينة ونهبوا ما فيها عن آخره الا القليل منها وخربت أماكن وكان الامر عظيماً لم يسمع بمثله في هذه الازمنة .

* * *

اول مناوشة مع الاتراك العثمانيين

وفي سنة ٨٨٩ قتل كثير من امراء حلب والشام في الوقعة التي جرت بين المصريين والتركمان ، وفيها خرج نائب حلب في جمع من العساكر ونقاتل مع علي دولات أخي سوار وأمده ابن عثمان بجمع كثير من عساكره فلما التقى الفريقان وقعت بينهما وقعة هائلة انهزم فيها العسكر الحلبي وقتل نائب حلب وجماعة من العسكر الحلبي والمصري . وكانت هذه الوقعة اول فتنة تحرش فيها ابن عثمان بملك الشام ومصر . ولما حصلت هذه الكسرة لعسكر حلب ركب الامير تمراز هو والامير ازدمر والعسكر المصري وتوجهوا الى علي دولات فتقاتلوا معه فانكسر علي دولات وعسكره وعسكر ابن عثمان ونهبوا جميع بركهم

وأخذوا سناجق ابن عثمان ودخلوا بها الى حلب وهي منكسة واستمرت الفتن يومئذ بين السلطان وابن عثمان ·

والشر مبدأوه في الاصل اصغره وليس يصلى بحر الحرب جانيها
والحرب يلحق فيها الكارهون كما تدنو الصحاح الى الجربى فتعديها

وفي سنة ٨٩٠ استولى جند ابن عثمان على قلعة كولك من مملكة حلب وفي السنين التالية استولى على سيس وطرسوس وغيرهما من البلاد الحلبية وطمع في أخذ سائر البلاد فأخذت حكومة مصر ترسل بالتجريدة إثر التجريدة فساءت حال الشام وخربت الاصقاع الشمالية منها · ولكن الجند المصري او جيش المماليك الشركسي وقع له مصاف سنة ٨٩١ في أرض حلب مع عسكر ابن عثمان وانتصر عليه وقتل منهم جماعة كثيرة قدروهم باربعين الفًا وأسر احمد بك هرسك قائد جند ابن عثمان ومن أجل امرائه وصفَّدوا عدة من امرائه في الحديد · وفي هذه الاثناء (٨٩٢) فحش امر خضر بك نائب القدس وتزايد ظلمه وسفكه الدماء وأخذ أموال الناس · وفي سنة ٨٩٣ استقر الامير دقماق في نظر الحرمين ونيابة القدس والخليل ببدل عشرة آلاف دينار للخزائن الشريفة غير ما تكلفه لاركان الدولة قال ابن ابي عذيبة : وكان ذلك من أقبح الامور وأبشعها فان ناظر الحرمين الامير ناصر الدين بن النشاشيبي كان من أهل الخير والصلاح فأُبدل بظالم فاجر ·

وفي سنة ٨٩٣ استولى عسكر ابن عثمان على قلعة اياس من غير قتال وبعث ستين مركبًا من البحر مشحونة بالسلاح والعسكر الى جهة باب الملك ليقاطع بها على العسكر المصري فما تم له ما أراد · واستخلص جيش السلطان باب الملك من ابن عثمان فجاءت العاصفة وأغرقت غالب المراكب ومن طلع الى البر من العسكر العثماني قتله العسكر المصري · قال ابن اياس : وكانت لهم النصرة على الجنود العثمانية وكانت على غير القياس ·

ووقعت (٨٩٣) معركة عظمى بين عسكر مصر وعسكر ابن عثمان في اطراف الولاية الحلبية قتل فيها من الفريقين الف وانهزم العثمانيون وشرع العسكر المصري في حصار الجند العثماني في اذنة ودام حصارها ثلاثة اشهر قتل فيها من الفريقين خلق كثير حتى

استولى عليها عسكر المماليك ثم رجع في السنة التالية فطمع عسكر ابن عثمان في اخذ البلاد الحلبية فارسل سلطان مصر تجريدة في الحال لحفظ مدينة حلب ثم جرد تجاريد اخرى على ابن عثمان . قال ابن اياس : وطال الامر بين السلطان وبين ابن عثمان في امر هذه الفتن فزحف العسكر المصري والعسكر الشامي على اطراف بلاد ابن عثمان ووصلوا الى قيسارية واحرقوها وفتكوا باهلها وكذلك فعلوا في كثير من بلاد ابن عثمان وفي سنة ٨٩٤ كان الفناء العظيم والغلاء الشديد في الديار المصرية والشامية ومات خلق لايحصى ومات في يوم واحد بدمشق ١٤٢٠ انساناً على ما ورد في سجل الاموات واشتد ظلم نائب القدس على من اتهم بالتقصير في المهم الشريف ببلاد الروم وقبض على بني اسمعيل مشايخ جبل نابلس ومن الناس من تسحب وقبض على من يكون منسوباً اليه من اقاربه واصحابه وجيرانه و باع بعض بناتهم بيع الرقيق وتفاحش الامر . وفي سنة ٨٩٦ حدثت في حلب فتنة كبيرة بين نائبها وجماعة من اهلها فقتل سبعة عشر من مماليك النائب وخمسون من اهل حلب ثم احرق جماعة من حاشية النائب بالنار وكادت حلب ان تخرب عن آخرها فاخمد هذه الفتنة قانصوه الغوري حاجب الحجاب بحلب اذذاك وضاق الامر بالناس لان المماليك او سلاطينهم كانوا كلما ارادوا ارسال تجريدة على عدو لهم يضربون الضرائب الفاحشة على الناس و يسلبون اموال التجار ومساتير البلاد .

وفي سنة ٨٩٧ اشتد الوباء بالقدس ودمشق وحلب و بلغ عدد الهالكين بدمشق كل يوم ثلاثة آلاف و بحلب في كل يوم الفاً وخمسمائة وبغزة في كل يوم اربعمائة و بالرملة مئة . وفي سنة ٨٩٨ ثارت فتنة كبيرة بدمشق ورجم اهلها قانصوه اليحياوي . وفي سنة ٨٩٩ تغلب العربان على الكرك والشوبك وحدثت فتن هائلة وكان في (٩٠٠) وقعة بين اهل داريا وغوطة الشام فخرج العسكر وقتل ما يربو على مئة قتيل وتوفي نائب دمشق وخلت من الحكام وكثر النهب والفسق ووقع الاختلاف بين القيسية واليمنية ، ولما بلغ السلطان قانصوه خرج بالعساكر المصرية فالتقى الجمعان عند جب يوسف فكانت الهزيمة على المصريين .

* * *

وفاة الاشرف قايتباي وتولي ابنه ناصر الدين محمد

وفي سنة ٩٠١ توفي الملك الاشرف قايتباي المحمودي وخليفة الوقت بمصر الامام المتوكل على الله ابو العز عبد العزيز العباسي وكانت مدة سلطنة الاشرف بالديار المصرية والبلاد الشامية تسعاً وعشرين سنة واربعة اشهر واحد عشر يوماً وهو الحادي والاربعون من ملوك الترك واولادهم في العد والخامس عشر من ملوك الشراكسة واولادهم بالديار المصرية ، وكان كفوءاً للسلطنة وافر العقل سديد الرأي ، عارفاً باحوال المملكة يضع الاشياء في محلها ، ولم يكن عجولاً في الامور بطيء العزل لارباب الوظائف يتروى في الامور قبل وقوعها ، وكان لايخرج اقطاع احد من الجند الابحكم وفاته ، ولا من ابناء الناس المقطعين الابحكم وفاته . قال ابن اياس : بعد ايراد ما تقدم ولكنه كان محباً لجمع الاموال ناظراً لما في ايدي الناس ولولا ذلك لكان يعد من خيار ملوك الشراكسة على الاطلاق ، ولكنه كان معذوراً في ذلك ، تحرك عليه في ايام سلطنته شاه سوار وحسن الطويل وابن عثمان وغيرهم من ملوك الشرق وجرد عليهم تجاريد وهو ثابت على سرير ملكه ولم يتزحزح ، حتى قيل ضبط ما صرفه على نفقات التجاريد التي جردها في ايام سلطنته الى ان مات فكانت نحواً من سبعة آلاف الف دينار وخمسة وستين الف دينار خارجاً عما كان ينفقه عند عودهم من التجاريد . وهذا من العجائب التي لم يسمع بمثلها ، وكان مغرماً بشراء المماليك حتى قيل لولا الطواعين التي وقعت في ايامه لكان تكامل عنده ثمانية آلاف مملوك . وكان مولعاً بالبنيان الفاخر خلف آثاراً كثيرة في ارجاء مملكته وصادر اليهود والنصارى مرتين في ايامه ، وخلفه ابنه ناصر الدين محمد ، وبدأت امارات الضعف في اعصاب المملكة لصغر سنه وكان ابوه لايريد سلطنته بعده ولكن عاجله النزع فعمل الامراء من عند انفسهم ، وكان الفساد مستشرياً في مصر منذ تولي ، وكثيراً ما كان السلطان يتخوف على نفسه من الامراء فيحضر لهم المصحف العثماني و يحلفهم وقد حلفهم اربع مرات وكانت ايمانهم كاذبة فاجرة :

ولا خير في امر يكون حسيكة ولا في يمين ليس فيها مخارم

وكان هذا الضعف ينال منه الشام قسط عظيم حتى خرب ولا سيما شماله لكثرة

غارة اعداء البلاد عليها · قال ابن طولون في حوادث سنة ٩٠٦ وقفت حال الناس وقطعت الطرق من كثره العرب المفارجة وبني رام خارج دمشق واطرافها و كثر الظلم والاختلاف والناس مرتقبون الفتن :

واذا تأملت البلاد رأيتها ... تثري كما تُثري الرجال وتُعدم

وفي هذه السنة وقع قتال بين الامير علي الشهابي في جماعة من وادي التيم ورجال الشوف و بين الامير بكر الشهابي عمه في مرج الشميسة فنال ابن الاخ من عمه وقتله بيده مع ثلاثين من اصحابه وسار الى حاصبيا فالتقاه بقية اهالي البلاد والامراء وساس الرعية احسن سياسة فصح فيه قول الشاعر :

من الناس من يغشى الاباعد نفعه ... و يشقى به حتى الممات اقاربه
فان يك خير فالبعيد يناله ... وان يك شر فابن عمك صاحبه

✲ ✲ ✲

الملوك المتأخرون وآخرهم الغوري | توفي السلطان الناصر محمد وكانت مدة سلطنته نحواً من سنتين وثلاثة اشهر وتسعة عشر يوماً وكانت ايامه كلها فتناً وشروراً وتسلطن بعده الملك الظاهر ابو سعيد قانصوه ولم تطل مدته اكثر من سنة وثمانية اشهر وثلاثة عشر يوماً وكان ملكاً هيناً مسلوب الارادة مع الامراء وتسلطن بعده الملك الاشرف ابو النصر جان بلاط بن يشبك الاشرفي وكانت مدة سلطنته ستة اشهر وثمانية عشر يوماً وثب عليه الامير طومان باي وخلعه من السلطنة وتسلطن عوضه وسمي بالملك العادل طومان باي بن قانصوه ابي النصر الاشرفي قايتباي وفي سنة ٩٠٦ تولى السلطنة الملك الاشرف قانصوه الغوري ·

وفي سنة ٩٠٣ عصا اقبردي الدوادار وذهب الى الشام فاستولى على غزة ثم جاء دمشق وحاصرها فلم يقدر عليها فنهب الضياع التي حولها وخرب غالبها وحاصر حماة واخذ منها اموالاً لها صورة وحاصر حلب شهرين واحرق من قراها وكان اينال السلحدار يومئذ نائب حلب وكان من عصبة اقبردي ، فقصد ان يسلمه المدينة فرجمه الحلبيون وطردوه من بلدهم وحصنوها بالمدافع على الاسوار ، ثم هرب اقبردي الى علي دولات · وفي هذه السنة زحف ابن عثمان على بلاد المماليك في الشام فساءت حالها

وكثر تبديل النواب مخافة ان يتأصل نفوذهم وتسمو بهم الهمم الى شق عصا الطاعة عليهم . ولما بلغ عسكر ابن عثمان رجوع العسكر المصري طمعوا في اخذ البلاد الحلبية فارسل سلطان مصر تجريدة لحفظ حلب ، فساءت احوال البلاد وآلت الى الخراب وبطلت التجارة بين مصر والشام . ثم تفاوض صاحب الروم وصاحب مصر والشام في الصلح وحمل ابن عثمان الى صاحب مصر مع قاصد مفاتيح القلاع التي كان ابن عثمان قد استولى عليها فسلمها الى السلطان في القاهرة . وفي سنة ٩٠٤ اغار كرتباي الشركسي نائب دمشق على عرب هتيم بارض الزرقاء وكان كرتباي على رواية الغزي حسن السيرة بالنسبة الى غيره من الامراء . وقتل الناصر محمد بعد سنتين وثلاثة اشهر من توليه السلطنة وكان سيئ التدبير خالعاً ماجناً وخلفه خاله المقر السيفي قانصوه الدوادار الكبير ولقب بالظاهر ، وعاد في اول امره اقبردي الدوادار وحاصر حلب حصاراً شديداً واحرق ما حولها من الضياع واشرف على اخذها والتف عليه كثير من العربان والتركمان وحصل منه غاية الضرر ، فجرد السلطان لقتاله حملة . وزحف (٩٠٤) عسكر ابن عثمان على ارض الشام وآل الامر الى انه ارسل يقول لنائب حلب : اعزل ابن طرغل فاجابه نائب حلب الى ذلك وعزله وفي هذه السنة جرى الصلح بين الامراء المصريين وبين اقبردي الدوادار وكانوا انتدبوا لقتاله فوجه عليه السلطان نيابة طرابلس بعد ان ساءت حال البلاد بفتنته .

وفي سنة ٩٠٥ خرج قصروه نائب الشام عن الطاعة واظهر العصيان جملة واحدة واستولى على قلعة دمشق واموالها وطرابلس وقلعتها وكان السلطان حاول ان يولي قصروه الشام فاختفى السلطان في الفتنة وخلفه في الملك الاشرف ابو النصر جان بلاط فلما تسلطن السلطان أرسل الى قصروه في الشام بالبشارة فلم يزدد الا عصياناً . وفي هذه السنة ولي نيابة الشام قانصوه المحمدي فأتي الى البقاع فهرب منه مقدمها ناصر الدين بن محمد بن حنش ، وجرت بينهما امور كثيرة . ثم وقعت الفتنة بين اهل دمشق ونائبها فأُحرق حي الشاغور وجرت بينهم حروب كثيرة ثم وقع الصلح عن يد ابن الكسيح شيخ الاسلام بدمشق .

* * *

سلطنة طومان باي | وانتدب السلطان احد المقدمين الى الكرك لقتال بني لام واجتمع السلطان بالامراء وضربوا مشورة في امر قاصروه نائب الشام فأشاروا عليه بان يرسل قاصداً وكان قصروه قد استولى على غزة واعمالها والقدس وغير ذلك من النواحي فعزم السلطان على ارسال تجريدة لنائب الشام ، وكان دولات باي نائب حلب معه في شق عصا الطاعة ، ولكن لم تنفع التجريدة وأعلن طومان باي سلطنته بالشام وتلقب بالملك العادل وكان العسكر المصري نزل بسعسع بالقرب من دمشق فركب قصروه نائب الشام في نفر قليل من عسكره واظهر انه طائع فاطمأن له العساكر وكان غالب الامراء من ندمائه ولما حضر اليهم دخل معهم الى دمشق واجتمعوا في القصر الابلق ثم ثارت فتنة كبيرة بالقلعة ، وامر قصروه والامير طومان باي بالقبض على جماعة من الامراء وسجنهم بالقلعة .

وحضر الى دمشق دولات باي بن اركماس نائب حلب الشهير باخي العادل فلما حضر تعصب للامير طومان باي وتكلم في سلطنته فأحضر قضاة الشام وكتب صورة محضر في خلع الاشرف جان بلاط من السلطنة وبايعوا طومان باي من غير خليفة وتلقب بالملك العادل ابي النصر وأحضر له شعار الملك فأُفيض عليه . فلما تم امره عين لاتابكية مصر قصروه نائب الشام وعين لنيابة الشام دولات باي نائب حلب وعين لنيابة حلب اركماس بن ولي الدين وهكذا عين سائر نواب الشام وخطب باسمه على منابر دمشق . ثم ذهب الى مصر ومن أطمعهم بالمناصب من الامراء وكان تقدم الى من في مصر من الامراء فخلع عليهم ونصبهم قبل حضوره وتسلطن فيها .

وفي سنة ٩٠٨ حدثت فتنة بالشاغور بدمشق حرقت فيها المحلة وقتل أناس وضرب النائب على أهل دمشق مالاً لاجل مشاة تخرج معه الى حلب تجريدة حرمة للبلاد لما قيل من امر الخارجي حيدر الصوفي وذلك مع وقوف حال الناس من الظلم وكثرته — قاله ابن طولون . وفي سنة ٩٠٩ جهز الامير ناصر الدين بن حنش مقدم البقاع خمسة آلاف مقاتل على عبد الساتر بن بشارة في قرية شيحين فقتل من جماعة ابن حنش نحو مائتين .

ومن الاحداث في هذه الايام تجهيز نائب دمشق العسكر على جوان بك الفرنجي

الدوادار سنة ٩١٠ الى البقاع فقتل الدوادار عند جسر كامد اللوز وقتل معه نحو ثلاثمائة شخص وكانت الوقعة بينهم وبين الامير فخرالدين بن عثمان بن معن امير الشوف ٠ وكثرت بعد سنة ٩١١ الرميات والغرامات على حارات دمشق فهاج الناس وصعد أهل القبيبات الى مأذنة الجامع الاموي وكبروا على المتسلم حتى أفرج عن المحبوسين ٠ واشتد الجور سنة ٩١٦ في لبنان فهجر اكثر الناس مواطنهم الى البلدان البعيدة ومن اللبنانيين من هاجر الى قبرص ثم عادوا منها بعد ثلاث سنين للضيق العظيم الذي حصل فيها بسبب الجراد وكثرة الضرائب التي فرضها الحكام على الرعية ٠

* * *

القضاء على مملكة ذي القدرية وطبيعة دولتي المماليك البحرية والمماليك البرجية

وأهم ماوقع من الحوادث التي عجلت في سقوط الشام بعد ذلك في أيدي العثمانيين استيلاء السلطان سليم سنة ٩٢١ على مملكة ذي القدرية التركمانية وكانت عاصمتها مرعش تارة والبستان تارة أخرى واستولت على بهسنى وملاطية وخربوت ، قامت هذه الدولة سنة ٧٨٠ وتولاها عشرة امراء أولهم زين الدين قرهجه وآخرهم علاء الدولة بن سليمان الذي قتله سنان باشا وأخاه وبعض اولاده في المعركة واستولى على بلادهم باسم سلطان العثمانيين ، فبذلك سقطت الانحاء الشمالية من الشام في يد عدوة الدولة الشركسية ، وكان امراء ذي القدرية يغزون الشام حتى استولوا مرة على مملكة حماة فردهم الظاهر برقوق مدحورين ٠

ومنها ذهاب سلطان مصر الى دمشق سنة ٩٢٢ فنثر على رأسه بعض تجار الفرنج ذهباً وفضة ، وفرش برسيباي تحت حافر فرسه الشقق الحرير وخرج الى المصطبة التي يقال لها مصطبة القابون في القابون الفوقاني ورسم لبعض حجاب دمشق بعمارتها وأقام بها تسعة أيام ٠ وكان ذلك الذهب المنثور شؤماً على السلطان ومملكته انتثر بعدها سلك ملكه ٠

هذه أهم الاحداث التي حدثت قبيل دخول العثمانيين الى الشام وخروجها من ملوك الشراكسة بعد ان ملكوها بسلطنة الاتابك برقوق ١٣٩ سنة وكان المماليك

البحرية ملكوها منذ سنة ٦٥١ هـ والاختلاف لا يكاد يذكر بين روح دولة المماليك البحرية ودولة الشراكسة فكلتاهما أعجميتان ولكن القائمين بهما لايخرجون في التخاطب والتكاتب والاصول عن اللغة العربية والشريعة الاسلامية ، وقد كان من تينك الدولتين المماليك والشراكسة رجال عظام مثل الظاهر بيبرس وقلاوون وابن قلاوون وبيبرس الجاشنكير وقايتباي و برسباي ولكن جاء بعدهم ملوك قون مخروصبيان آل اليهم الامر فأفسدوه او من كفلوهم فلم يحسنوا كفالتهم من رجال الدولة الفاسدين وقد ظفرت هذه الدولة اي المماليك البحرية والبرجية باخراج بقايا الصليبيين من الساحل واستعملت الشدة فيهم فنجحت في التنكيل بهم حتى دثرت بقاياهم ، ولكنها لم تقو على انقاذ البلاد من غارات التتار والمغول فقاست الشام منهما ألوان العذاب والخراب .

وكان سلطان مصر والشام متى دهم الشام مداهم عظيم يعتصم بمصر وينعم ويلذ في قصوره ويكتفي بارسال تجريدة قد تكون ضعيفة او يصدر أمره لنائب حلب ان ينجد دمشق ولنائب دمشق ان ينجد حلب مثلاً . ولا يخرج الاعداء من البلاد الا اذا أرادوا ، وأتوا على الناطق والصامت وألحقوا العامر منها بالغامر ، و باتت امور السلطنة ألعوبة في كثير من الادوار بايدي ضعاف الاحلام من أسرة ذاك المملوك فتهيأت السبل لقيام دولة أخرى وهي الدولة العثمانية .

اما قانصوه الغوري آخر ملوك الشراكسة الذين حكموا الشام ومن حكمه انتقلت الى العثمانيين فلم يكن بالذي ترجح حسناته على سيئاته ومع ذلك بذل جهده لدفع عادية العثمانيين فلم يفلح وطال عهده نحو ست عشرة سنة فكانت ايامه فتناً وغوائل ومخاوف ، حتى قضى الله في دولته بامره واستطال عليها سلطان أقوى .

الدولة العثمانية

من سنة ٩٢٢ هـ الى ١٠٠٠ هـ

حالة الشام قبيل الفتح العثماني

كانت الشام اخت مصر في آخر الدولة الشركسية تقاسمها شقاءها شق الأبلمة ، فيستبد المتغلبة من المماليك بالاحكام بحسب ضعف صاحب مصر وقوته ، والصالح في نوابها وملوكها قليل . ولم تسعد البلاد بعد فتنة تيمورلنك بسلطان عادل يطول عهده ليعرف مواقع الضعف فيسدخللها ، ويزيح بحسن الادارة عللها . وشغل ملوك الشراكسة بالتجاريد على حسن الطويل وشاه سوار وابن عثمان من الملوك في شمالي المملكة وشرقها يجرّدونها فيجردون بها الرجال والاموال ، وقد خرج الناس بعد وقائع الصليبيين والمغول وما اعقبها من الاوبئة والزلازل والمجاعات اعرى من مغزل وازمنت الفوضى في ارجائها وساءت حالتها الاقتصادية والاجتماعية .

احسّ اكثر الناس بما عرض للدولة من الضعف فأخذوا يتطلعون الى الدولة العثمانية ، وكانت الى الشام ومصر اقرب الدول الاسلامية الكبرى هذا والدولة العثمانية اذ ذاك في إبان شبابها وقوتها ، وقد وَقَرت في النفوس منذ أُسس بنيانها السلطان عثمان التركماني سنة ٦٩٩ على انقاض دولة السلجوقيين ، ولاسيما بما قام به محمد الثاني فاتح القسطنطينية من الغزوات والفتوحات ، وتوفق له من فتح عاصمة الروم البيزنطيين ، بعد ان حاول كثير من ملوك العرب وغيرهم ذلك فلم يفلحوا لبعدها عن مواطن قواتهم ، ولقوة سلطان القسطنطينية في تلك العصور والامور مرهونة باوقاتها .

هذا والناس لافرق عندهم اذا استولى عليهم الترك الاعاجم ، بعد ان حكمهم المماليك المنوعون في اجناسهم زمناً طويلاً ، ماداموا كلهم غرباء عن البلاد يستعبدونهم وينالهم من ضعفهم ضعف وشقاء ، ومن قوتهم بعض راحة وسعادة ، ولا فرق في الاسلام بين عربي واعجمي في الحقوق والواجبات ، واقصى ما يتطلبه الناس سلطان عادل عاقل في الجملة ، لان الامة كانت تفنى باسرها في سلطانها خلال القرون الوسطى ، وسلطان غشوم خير من فتنة تدوم .

* * *

مقاتل الغوري ومقدمات الفتح كان السلطان قانصوه الغوري آخر من ملكوا الشام من الشراكسة على شيء من الدهاء ، لايخلو من حسنات ولكن سيئاته اكثر ، اعدّ للايام عدتها من الماديات وادرك ما يحيق بمملكته من خطر ابن عثمان ولكن ما ينفع التدبير اذا كانت المعنويات في حكومته مريضة ضئيلة ، والقوى في جيشه غير موحدة ، وداء الهرم قد استحكم منه ومن دولته . وكان في الثمانين من عمره يوم صحت نية السلطان سليم العثماني ، رجل الارادة القوية والجيش الجرار ، على اخذ الشام ومصر ، والقضاء على دولة المماليك . وكان الغوري على رواية كامل باشا لايعرف على من يعتمد عليه من رجاله وامرائه غريب الاطوار في ذاته ، فكان ذلك من دواعي خروج الامر عنه ووقوع الخلل في جيشه ، وكان يعتقد بعلم الجفر ، وقد ذكر احد ادعياء هذا العلم ان الشر يأتيه من رجل يبدأ اسمه بحرف السين ، فصار يتيطر من كل من يبدأ اسمه بذلك الحرف ومنهم الامير سيباي كافل الشام . ودون الغيب اقفال لايفتحها الزجر والفال .

ترجم للغوري احد المعاصرين من الفرنج بقوله : « انه من مماليك الغور في افغانستان كان حاجب الحجاب في حلب سنة ٨٩٣ (١٤٩٠) ورأس محكمة عسكرية ووفق الى قمع ثورة فيها فابان عن كفاءة وكان وزيراً لما حنق المماليك على طومان باي واختاروه للملك فتردد كثيراً في قبوله لانه كان تجاوز الستين من عمره واخذ مكوساً وضرائب من كل انسان حتى من البوابين وضرب نقوداً زائفة اضرت بالتجارة الداخلية والخارجية فاستلزم عمله حنق الناس وانتقاد معاصريه فعجل بخراب مالية البلاد وذلك لوضعه

رسوماً فاحشة على البضائع ؛ وعلى البضائع التي تمر ببلاده وانه استعمل جزءاً من هذه الضرائب في إقامة القلاع ولا سيما في حلب وانشأ طرقاً وآباراً في الحجاز . وكانت المكوس التي تجبى في الموانى ورسوم البضائع الآتية من بلاد الهند المارة بالبلاد الى اوربا من طريق مصر آتية من عدن وجدة والسويس واسكندرية او من طريق الشام ذاهبة من البصرة وحلب من أهم واردات المملكة . وتفاديا من اداء هذه الرسوم الفادحة اجتهد البرتقاليون ان يكشفوا طريقاً في البحر الى الهند مما ظفر به ملاحهم فاسكودي غاما وتوفقوا على التدريج الى النزول على شاطئ بلاد الهند وبعثوا الى اوربا تواً بسفنهم النقالة الكبرى عن طريق البحر وذلك بقطع طريق رأس الرجاء الصالح فتحاموا اداء المكوس الفاحشة التي كانت تؤخذ في الموانى المصرية عن البضائع التي ينقلونها وعن نفقات النقل في البر فاستفاد البرتقاليون من ذلك ، ولم يسع الغوري ان يسكت عما يلحق المسلمين من مظالم البرتقاليين فحارب الاسطول البرتقالي غير مرة في بحري الهند والاحمر ونال منهم ونالوا منه قليلاً . قال وساءت حالة الغوري حتى لم يستطع ان يدفع رواتب المماليك في اوقاتها بحيث فقدت حكومته كل معاونة قوية ، وكانت سياسته الخارجية تعسة لانه اضطر ان يحالف عدوه اللدود اسماعيل شاه خوفاً من السلطان سليم العثماني ولم يخف ذلك عن السلطان سليم وعرفه بواسطة جواسيسه .

وبينا كان قانصوه الغوري يغوص في احلامه واوهامه ، كان السلطان سليم الاول وهو التاسع من آل عثمان الملقب بياوز اي الشديد الجبار يجيش الجيوش ويعدُّ الزحوف ويستجد السلاح فبدأ بقتل الشيعة في تخوم الاناضول وكانوا اربعين الفاً ثم زحف سنة ٩٢٠ على بلاد الشاه اسماعيل الصفوي صاحب شروان واذربايجان وتبريز والعراق العجمي وفارس وكرمان وديار بكر وبغداد وباكو ودربند وخراسان وانتصر في وقعة جالديران المشهورة وانهزم عسكر الشاه اسماعيل شر هزيمة وجرح الشاه في المعركة وفتح السلطان سليم ديار بكر وبلاد الاكراد فهب قانصوه الغوري من مصر لانجاده فيما قيل والارجح انه هبّ للدفاع عن بلاده . وكان نائب سلطان مصر على البيرة رجلاً اسمه علاء الدولة بن سليمان (وهو صاحب مرعش والبستان) فلما اجتاز السلطان

سليم بالبيرة يريد قصد الشاه الصفوي امر علاء الدولة اهل مرعش ان لا يبيعوا شيئاً لعسكر السلطان سليم فهلك كثير من رجالهم ودوابهم جوعاً ، فشق ذلك على السلطان سليم كما قال بعض المؤرخين وشكاما وقع له الى الغوري فقال : ان علاء الدولة لم يصدر عن امره وانه عاصٍ عليه وانه اذا قتله يكون له شاكراً ، وكتب الغوري الى علاء الدولة يحمله على متابعة عمله فأحس السلطان سليم بان الغوري يكيد له وزاد علاء الدولة بان سرق بعض احمال من ذخائر عسكر السلطان سليم فلما عاد هذا من غزاته قتل علاء الدولة واولاده وارسل رؤوسهم الى الغوري . بمعنى ان سنان باشا استولى سنة ٩٢١ باسم السلطان سليم على مملكة ذي القدرية التي كانت في مرعش والبستان وملطية وبهسنى وخربوت وما اليها ، وكانت الدولة العثمانية جعلت حكومة ابناء رمضان التركمانية التي نشأت سنة ٧٨٠ هـ في جهات أذنة وطرسوس وسيس تحت ظلها ، بعد ان كانت علائق امرائها الثلاثة الاول مع دولة المماليك الشركسية اصحاب الشام ومصر مسترخية ، ففتحت السبل والمنافذ الى الشام وصارت الجيوش العثمانية تأمن على مقدمتها وعلى خط رجعتها .

ولما اضعف السلطان سليم مملكة كبرى وهي مملكة الصفوي ، وقضى على مملكة صغرى وهي مملكة ذي القدرية ، طمحت نفسه الى فتح الشام ومصر وينزعها من دولة المماليك ليضمها الى مملكته فتدخل في طور العظمة وتكون ممالك في مملكة ، وكان ابوه وجده من قبله يقاتلان بعض حاميات الشام يتعرفان بذلك مبلغ قوة المماليك ، ويدفعان امراء الاطراف امثال امراء ذي القدرية وغيرهم الى مجاذبة ملوك الشراكسة حبل السلطة على التخوم . وكان اولئك الامراء كثيراً ما يسيرون مع المماليك سيرة الصغير مع الكبير ، لعلمهم بان اثارة العثمانيين لهم على المماليك لا لخيرهم بل لينتقموا بهم ثم ينتقموا منهم ويضعفوهم ويضعفوا بهم .

لابدّ للمصدور ان ينفثا   وللذي في الصدر ان يبعثا

* * *

صلات العثمانيين مع المماليك ووقعة مرج دابق

وذكر مؤرخو الترك ان الصلات السياسية بين ملوك الشراكسة اصحاب مصر والشام وبين

سلاطين آل عثمان كانت مسترخيـة منذ عهد محمد الفاتح · ولما سمت همة السلطان سليم الى فتح الشام ومصر (٩٢٢) ارسل جيشاً الى ديار بكر يوري بانه يريد قصـد ايران ، ولادنى سبب اخذ الجيش يتوجه صوب الجنوب ، فبعث قانصوه الغوري بعض رجاله يتوسطه في الصلح فقتل السلطان سليم رجال السفير واراد ان يقتل السفير نفسه فوقع وزيره على قدميه وشفع فيه ، وقال له : ان ذلك مخالف لحقوق الدول فالسفراء لا يقتلون ، فاكتفى السلطان بحلق شعر السفير ولحيته ، واركبه على حمار اعرج اجرب واعاده الى صاحبه الغوري جزاء ما قدمت يداه فيما يقال من امتهان الغوري رسل السلطان العثماني ·

وترددت الرسل بين السلطانين في مرج دابق اولاً ، وكان ابن عثمان فوض الى رسله ان يتظاهروا بطلب سيدهم للصلح ليثني بذلك عزم الغوري عن القتال ، وقد احضر سلطان العثمانيين فتاوى من علماء بلاده يجيزون له قتل الشاه اسمعيل الصفوي ، وارسل يقول للغوري انت والدي واسألك الدعاء لكن لا تدخل بيني وبين الصفوي — بينا الامر على ذلك وقد خلع الغوري على قصاد ابن عثمان الخلع السنية ، وارسل اليه ابن عثمان يطلب منه سكراً وحلوى فارسل له منها مائة قنطار في علب كبار عدا الهدايا والتحف ، هجم سلطان العثمانيين على ملك الشراكسة وكسره شر كسرة في وقعة دامت من طلوع الشمس الى ما بعد الظهر ، فقتل من عسكر ابن عثمان ومن عسكر الغوري خلق كثير ، فلما تحقق الغوري انه غُلب اصابه للحال فالج ابطل شقه وارخى حنكه ، واستعد للركوب فمشى خطوتين وانقلب عن الفرس الى الارض وفاضت روحه من شدة قهره ، واكثر المؤرخين على انه لم تظهر جثته في المعركة · ويقول بعض مؤرخي الترك : ان جاويشاً من الجيش العثماني أُمر بان يبحث عن جثة قانصوه الغوري فقطع رأسه وقدمه الى السلطان سليم ، فامتعض منه السلطان وامر ان يُضرب عنقه ، لتزلفـه الى مولاه بقطع رأس الملك المقتول ولولا ان الوزراء توسطوا له لما صرف السلطان النظر عن قتل الجاويش مكتفياً بعزله ·

وذكروا ان الغوري قد خانه لاول الامر ثلاثة عشر الفاً من جيشه ، امتنعوا عن الحرب عند الصدمة الاولى وابوا قتال الاتراك ، ومن الامراء الذين كانوا موالسين

على الغوري وَضلعهم مع السلطان سليم خير بك نائب حلب وجان بردي الغزالي نائب حماة فان السلطان سليماً كان فاوضهما سراً ليوليهما الشام ومصر على ما قيل اذا ساعداه على فتح هذا القطر ، فلما انهزمت ميمنة الغوري وقتل الاتابكي سودون العجمي وملك الامراء سيباي نائب الشام ، انهزم جانب كبير من العسكر وانهزم خير بك وهرب فانكسرت الميسرة ، وكان ابن معن وامراء الساحل صحبة خير بك والغزالي فقال الامير ابن معن لمن معه من رجاله وقومه : دعونا ننفرد لننظر لمن تكون النصرة فنقاتل معه . ولما اضطرمت نار الحرب فر الغزالي وخير بك الى ناحية عسكر السلطان سليم بمن معهم من امراء الديار الشامية وبقي الغوري بعسكر المصر بين اي عسكر الشام والمعوَّل عليهم من امرائها من الشراكسة والوطنيين قد استمالهم السلطان سليم فقاتلوا في صفوفه بدلاً من ان يقاتلوه ، ونائب الشام سيباي الذي كان يتطير منه الغوري لان اسمه يبدأ بحرف السين قد هلك دونه في المعركة يدافع عن ملك سيده لا كما كان هذا يتوهم :

يفر جبان القوم عن أم رأسه ويحمي شجاع القوم من لا يناسبه
و يرزق معروف الجواد عدوه ويحرم معروف البخيل اقاربه
ومن لا يكف الجهل عمن يوده فسوف يكف الجهل عمن يواثبه

* * *

قوة الغالب والمغلوب وغنائم الغالبين واضطراب البلاد ولقد اختلف تقدير المؤرخين لقوة العثمانيين والمماليك فاغلبهم على ان ابن عثمان كان في اربعين الف مقاتل مجهزين بمدافع حسنة ، وروى نامق كمال ان العثمانيين كانوا في ثمانين الفاً وثمانمائة مدفع ، وان الغوري كان في خمسين الفاً لا مدافع لهم . وذكر الغزي ان الغوري اتى من حلب الى دابق في ثلاثين الفاً . وذكر بعض المؤرخين ان السلطان سليم امر ان تعد القتلى من الفريقين في مرج دابق فكان قتلى الشراكسة الف نفس وقتلى الروم اي الترك اربعة آلاف . وكان فقدان المدافع من جيش الغوري وخيانة ربع جيشه وعدم ثقته باحد ، من دواعي القضاء عليه وعلى سلطانه ، وأهمُّ ذلك خيانة بعض قواده ، وامتناع امراء البلاد عن الدفاع في صفوفه او يظهر لهم الغالب .

ولقد قويت نفس السلطان سليم بما أصاب جماعته من الانتصار الباهر ، وما قتل من رجال الغوري ، ثم تحول من مرج دابق ودخل حلب من غير ممانع ، ونزل في الميدان الذي كان السلطان الغوري نزله ، وانتشر خبر الهزيمة وقتل الغوري في انحاء الشام فوثب الناس بعضهم على بعض ونهبوا الزروع وأخذوا الاموال ، واضطربت البلاد أيما اضطراب ، ووثب أهل دمشق بعضهم على بعض ونهبوا حارة السمرة وقتلوا جماعة وأخذوا أموالهم ، وكذلك فعلوا بتجار الفرنج ونهبوا أموالهم ، وكانت فتنة هائلة ونهبوا بيوت أعيان الناس بدمشق من القضاة والتجار ، فخرج غالب الصدور منها بسبب ذلك و بسبب فتنة ابن عثمان وفساد الاحوال بمصر والبلاد الشامية وتوجه امراء الغوري وعسكره المهزوم الى حلب ، فوثب عليهم أهل حلب قاطبة ، وقتلوا جماعة من العسكر ونهبوا سلاحهم وخيولهم وأثقالهم ، ووضعوا أيديهم على ودائعهم التي كانت بحلب ، وجرى عليهم من أهل حلب ما لم يجر عليهم من عسكر ابن عثمان كما قال ابن اياس . وكان بين أهل حلب والمماليك السلطانية إحنٌ منذ توجهوا قبل خروج السلطان من القاهرة الى حلب فنزلوا في بيوت أهل حلب غصباً وفسقوا في نسائهم وأولادهم ، وآذوا الحلبيين كل الايذاء ، فما صدق أهل حلب ان وقعت لهم هذه الكسرة حتى يأخذوا بثأرهم .

وعلى الجملة فان ما نال البلاد وأهلها في اواخر حكم المماليك مما عجل بالقضاء على الدولة المالكة وفتح القلوب للسلطان سليم الاول ، وخدمه كثير من أهل الشأن في البلاد قبل مجيئه فكانوا يوافونه بالاخبار تترى عن مقاتل الغوري ومواطن الضعف من دولته ، وقد بدأوا يتجسسون للعثمانيين منذ اواخر القرن الماضي فكان ذلك من العوامل القوية في الفتّ في عضد الجيش الشركسي واماله القوة الى الجيش التركي ففتحت الشام في وقعة واحدة ولم يبك على دولة المماليك الا من كانوا باسمها يتمتعون بالخيرات وينالون مظاهرها و يسلبون نعمة الامة . « وما قرعت عصا على عصا ، الا حزن لها قوم وسرّ آخرون » .

* * *

دخول السلطان سليم حلب ودمشق

وافى السلطان سليم مدينة حلب فاستقبله اهلها بالمصاحف والاعلام يجهرون بالتسبيح والتكبير ويقرأون « وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » وطلبوا منه الامان فأمنهم وأنعم عليهم ثم أخذ يجمع مالاً من التجار سماه « مال الامان » ورأى خلفاء ارباب الطرق الصوفية فسأل عنهم وهم يحملون أعلامهم و يرحلون الى الشام وأشار عليه خير بك بان يقتلهم وكانوا نحو الف نفس ، واستسلم نائب قلعتها فأرسل السلطان اليه شخصاً من جماعته أعور أعرج وفي يده دبوس خشب ليقول بلسان الحال انه اخذ حلب باضعف جنده . وطلع السلطان سليم الى القلعة فرأى فيها ماادهشه من مال وسلاح وتحف وكان بها على رواية ابن اياس نحو مائة الف الف دينار وثمانمائة الف دينار . وقال مؤرخو الترك انه كان فيها مليون دوكا . ورأى السلطان سليم من انواع الاسلحة والزينة ما جمعه الغوري من الاموال من وجوه الظلم والجور والتحف التي اخرجها من الخزائن من ذخائر الملوك السالفين من عهد ملوك الترك حكام مصر والشام بعد الايوبيين وذلك عدا ما كان في بيوت الامراء وغيرهم من رجال الدولة .

ووجه ابن عثمان الجيش الى مرعش ففتحها وملك معها ثلاثة عشرة قلعة من بلاد الغوري واحتوى على ما فيها من مال وسلاح . وذكروا ان العثمانيين عثروا في خيمة الغورى في مرج دابق على مئتي قنطار من الفضة ومئة قنطار من الذهب وفي رواية ان هذه الخزينة كان فيها ما قيمته مليون ليرة وقيل انه وجد في قلعة حلب ثلاثمائة الف ثوب كامل .

واقام السلطان في حلب ثمانية عشر يوماً و بايعه اهلها بحضور واليها خير بك ، وتوجه اليه امير المؤمنين المتوكل على الله العباسي وكان جاء مع الغوري من مصر ومعه القضاة الثلاثة فأجلس السلطان الخليفة وجلس بين يديه وخلع عليه وانعم عليه بمال ورده الى حلب ، ووكل به ان لا يهرب اي انه اسره بأسلوب لطيف ، وصلى صلاة الجمعة في الجامع الكبير فأطلق الخطيب على السلطان العثماني لقب خادم الحرمين الشريفين فكان ذلك كما قال راسم في تاريخه : فأل خير بان السلطان سليماً سيكون صاحب دولة اسلامية كبرى . قال : وكان خيره باي (خير بك) احد امراء

الغوري استأمن السلطان العثماني لما تقهقر جيش مصر فأنقذ نفسه · وولى السلطان على حلب قراجا باشا ·

سار السلطان في جيشه الى حماة وحمص ففتحت له ابوابها ، و بايعه اهلها على الطاعة كما بايعه اهل طرابلس والقدس · وجاء دمشق فاستقبله اهلها ورضوا به سلطاناً عليهم فكأنه بدخوله دمشق عاج ببعض بلاده القديمة · قال ابن طولون : « وفي يوم الخميس ثامن عشرين (شعبان ٩٢٢) وصل متسلم ملك الروم (الاتراك) الى القابون الفوقاني واسمه مصلح ميزان ، ثم وجه اثنين من الخاصكية ومعها السمرية ويونس العادلي وابن عطية التاجر الى دمشق ، ليكشفوا هل يسلمون أم يقاتلون ، وقد كانت اتفقت اكابر دمشق ومشايخ الحارات على تسليم البلد فقلقت الخلق لهذين الخاصكيين ومن معها وسلموهم دمشق · وفي يوم الجمعة تاسع عشرين دخل نائب الشام الجديد من قبل ملك الروم واسمه يونس باشا ، وخطب في هذا اليوم في الجامع الأموي المولوي ابن فرفور باسم ملك الروم وكذلك في سائر الجوامع ، ثم تتابع دخول العسكر وفي يوم السبت مستهل رمضان منها وصل ملك الروم الى المصطبة السلطانية بارض برزة في عساكر عظيمة يقال ان عددها مائة الف وثلاثون الفاً وعزل ملك الروم بدمشق عن نيابة دمشق يونس باشا وولى مكانه الامير شهاب الدين احمد بن يخشي · وفي يوم الاثنين العشرين من ذي القعدة وهو خامس شهر كانون الاول ورابع الاربعينيات الشتوية سافر ملك الروم من دمشق الى مصر لاخذها من يد الشراكسة » ·

* * *

مقابلة امراء البلاد سلطانهم الجديد وتغير الاحكام

قابل امراء البلاد السلطان سليماً ومنهم الامير فخر الدين المعني الاول امير الشوف فخطب امامه بالنيابة عن امراء البر خطبة جميلة استمال بها قلب الفاتح ، فأحسن اليه وخلع عليه فسماه سلطان البر وأفضل عليه وعلى رفاقه من الامراء مثل الامير جمال الدين الارسلاني اليمني الذي جعله والياً على بلاد الغرب والامير عساف التركماني امير بلاد كسروان وبلاد جبيل ، وامرهم ان يحسنوا السياسة لقومهم وان

يسعوا بكل ما يؤول الى عمران بلادهم ، وقدمت اليه الناس من كل جانب الا الامراء التنوخيين القيسيين فانهم لم يأتوا لانهم كانوا من حزب الدولة الشركسية . وقال كامل باشا : ان امير العرب ناصر الدين (ابن الحنش) وكان عهد اليه الدفاع عن دمشق من قبل الشراكسة قبل بالصلح الذي اقترحه عليه خير باي وخضع للسلطان سليم ، فنزل هذا في القصر الابلق فجاءه محافظو قلاع سورية وامراء العرب والدروز يعرضون الطاعة له . و يقول ابن اياس : ان الامير ناصر الدين بن الحنش امير عربان حماة لما بلغه ان ابن عثمان ارسل طلائع عسكره وقد وصلت الى القابون بالقرب من دمشق لقيهم ابن الحنش وحصل بينه وبين عسكر ابن عثمان مقتلة عظيمة مهولة وقتل منهم جماعة واطلق عليهم الماء من انهر دمشق حتى صار كل من دخل في تلك المياه بفرسه يوحل فلا يقدر على الخلاص فهلك من عسكر ابن عثمان جماعة كثيرة .

ولما استقرت الحال بالشام ضرب السلطان سليم المكوس على الناس وعلى الاحكام الشرعية فتعطلت الحدود . قال الغزي : ولما بلغ الامام علي بن محمد المقدسي ان العثمانيين ضربوا الجزية حتى على المومسات تخم الدم من كبده وتمنى الموت ، للقهر الذي اصابه وللغيرة على دين الاسلام وتغير الاحكام وقال في دخول السلطان سليم دمشق هذه الابيات :

ليت شعري من على الشام دعا بدعاء خالص قد سمعا
فكساه ظلمة مع وحشة فهي تبكينا ونبكيها معا
قد دعا من مسه الضر من الـ ظلم والجور اللذين اجتمعا
فعلا الحجب دعا فانبعثت غارة الله بما قد وقعا
فأصاب الشام ما حل بها سنة الله التي قد ابدعا

هذا ما رواه مؤرخ ذاك العصر ، وربما كان فيما بلغه مبالغة نشأت من تعصب للدولة الشركسية او رجاء أخفق وكان يظن انه يتم على يد ابن عثمان من اقامة الحدود ورفع المظالم شيء كثير في مدة قصيرة ، وما خلت دولة مهما بلغ من سخفها وسخف القائمين بها من انصار لها على الحق والباطل ؛ وكثير من الامور اذا نظرت

اليها من وجهها الحسن راقتك ، واذا ملت فيها الى الوجه القبيح احصيت عليها بعض العيوب ٠

* * *

السلطان في دمشق وفي الطريق لفتح مصر

جهز السلطان سليم جيشه في دمشق وقضى فصل الشتاء فيها يعمر بعض المباني ٠ وقال صولاق زاده: ان السلطان سليماً كان مدة اقامته في دمشق يختلف في الاوقات الخمسة (كذا) الى الشيخ محمد بدخشي في جوار جامع بني أمية وان السلطان سليماً لما كان يعتقد بالاستمداد من ارواح الانبياء العظام الطاهرة وارباب المقامات الشريفة لم يغفل هذا المقصد مدة اقامته في دمشق ، ولما رأى قبر العارف بالله محيي الدين بن عربي قد تداعى وخربت تربته امر بتعميره على ما يجب وانشأ بجواره جامعاً على اجمل طرز وعمر زاوية بقربه ووقف على ذلك عدة قرى ومزارع ٠ وقال ايضاً ان السلطان سليماً صرف الامراء والجند فاخذوا دستوراً الى بلادهم ليقضوا فيها فصل الشتاء ، وجاء دمشق بعد ان استراح اثني عشر يوماً في المحل المسمى المصطبة ٠

وذكر ابن طولون ان النائب بدمشق الشهاب بن يخشى نادى في ٢ ذي الحجة ٩٢٢ بالامان والاطمئنان ، وان لاظلم ولا عدوان ، ولا يحمل احد سلاحاً ، وان لا يتكلم احد فيما لا يعنيه ٠

سار السلطان عن طريق البر الى غزة فعصت عليه ففتحها حرباً والتقى جيش العثمانيين مع جيش المصريين في خان يونس بين غزة والعريش ، فشتت الجيش العثماني الجيش المصري ، ثم عصت غزة والرمله فقمع ثائر الغزاة فيها ، وكانت الوقعة المهمة بين عسكر مصر وعسكر ابن عثمان على الشريعة بالقرب من بيسان اندحر فيها المصريون وقائد جندهم الغزالي ٠ قال ابن طولون وفي ١٦ ذي الحجة ٩٢٢ التقى سنان باشا الوزير الاعظم لملك الروم مع جان بردي الغزالي فكسر الغزالي فدقت البشائر بقلعة دمشق وسيب بها نفط كثير ثم نادى النائب بالزينة واستمرت مدة اسبوع ٠

ذهب السلطان سليم في جيشه الى مصر وقتل الملك الذي كان بايع له المصريون

بعد هلاك السلطان الغوري واسمه طومانباي ، وشتت شمله فتح القطر المصري على ايسر سبب . قال ابن طولون : ولما وردت البشائر بفتح مصر زينت دمشق سبعة ايام ودارت مبشرو الاروام على بيوت الاكابر والحارات بالطبول والنايات ثم اتبعوها بزينة سبعة ايام لما ورد الخبر بان السلطان سليماً افني الشراكسة .

وعاد السلطان عن طريق البر الى الشام بعد تغيبه ثمانية اشهر ودخل دمشق (١١ رجب ٩٢٣) وفي يوم ٢٢ منه طلبت العساكر النزول في البيوت فهجموا على النساء وتضرر الخلق بذلك ضرراً زائداً وتحقق ان السلطان عزم على الاقامة بدمشق فغلت الاسعار وعند ذلك شرع بعمارة تربة ابن عربي وصرف عليها عشرة آلاف دينار ومن غريب التوفيق ان السلطان سليماً كان اعد في ذهابه الى مصر خمسين الف جمل لحمل المياه في الصحراء التي تفصل الشام عن مصر فامطرت السماء مطراً غزيراً اغنى جيشه عن ماء الروايا ، وسهل عليه قطع صحراء التيه على ايسر وجه :

واذا السعادة لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلهن امان

وبينما كان السلطان سليم سائراً الى مصر تأخر من جماعته بعض اناس في الرملة ، فشاع الخبر ان اهل المدينة قتلوهم ، و بلغ ذلك السلطان فامر بقتل اهل البلد فقتلوا عن آخرهم ولم يبق فيها ديار ولا نافخ نار . و يقول القرماني ان السلطان امر بقتل عامة اهل الرملة عند عودته من مصر وقد بلغه الثقات ان اهلها قتلوا من كان عندهم من العسكر المجروحين . وقال ابن اياس : ان الغزالي لما تلاقى مع سنان باشا على الشريعة اشيع في غزة ان الغزالي قد انتصر على عسكر ابن عثمان وقتل سنان باشا وعسكر ابن عثمان ، فبادر علي باي دوادار نائب غزة واجناده فنهبوا وطاق العثمانيين واحرقوا خيامهم وقتلوا من كان في الوطاق والمدينة من العثمانية نحو اربعمائة انسان ما بين شيوخ وصبيان وممن كان بها مريضاً ، فلما ظهر ان الكسرة على عسكر مصر وقتل من قتل من الامراء رجع سنان باشا الى غزة فوجد من كان بها قد قتل ونهب الوطاق ، فجمع اهل غزة قاطبة وقال لهم : من فعل ذلك بنا قالوا : علي باي دوادار نائب غزة ، واجناد غزة ، ولم نفعل نحن شيئاً من ذلك ، فامر سنان باشا بكبس بيوت غزة فوجدوا فيها قماش العثمانية وخيولهم وخيامهم ، فقال لهم سنان باشا : نحن لما دخلنا غزة هل

شوشنا على احد منكم قالوا : لا ٠ فقال لهم : كيف فعلتم بعسكرنا ذلك ، فلم يأتوا بجواب ولا عذر ولا حجــة ، فعند ذلك امر عسكره ان يلعبوا فيهم بالسيف فقتلوا منهم مالا يحصى عدده وراح الصالح بالطالح ٠

ونصب السلطان واليًا على مصر خير باي نائب حلب وواليًا على دمشق جان بردي الغزالي نائب حماة واضاف الى هذا القدس وغزة وصفد والكرك ، واما حمص وطرابلس والمدن البحرية فجعلها بايدي عماله من الاتراك ، وبقي الحال على ذلك مدة طويلة ٠ قال شمس الدين سامي : ان جانبردي الغزالي كان قائداً عاماً للجيش الذي ارسله طومانباي لقتال السلطان سليم فغلب في الوقعة التي جرت في غزة وفرَّ ثم رأى ان يستأمن السلطان سليماً ويخدمه ، فاعانه على قهر طومانباي وفتح مصر ثم كان سببًا لقتل طومانباي ٠ ومكافأة لخدمته نصبه السلطان واليًا على الشام ٠ اما حلب فقد نصب عليها السلطان قره جه احمد باشا بن جعفر لمكانتها ، ودام فيها واليًا ثلاث عشرة سنة لغنائه وكفايته في خدمة دولته ٠

✲ ✲ ✲

فتوق وغارات وتأذي السكان

ولما مهد السلطان سليم الاقطار الشامية والمصرية ورجع الى الشام عصى عليه الامير ناصر الدين محمد بن الحنش صاحب صيدا والبقاعين وشيخ الاعراب (٩٢٤) ثم هرب واتهم الامير زين الدين والامير قرقماز والامير علم الدين سليمان انهم من حزبه فقبض عليهم الغزالي وبعث برأس ابن الحنش ورأس ابن الحرفوش الى السلطان سليم في حلب واطلق سراح هؤلاء المعتقلين وكان الامير ناصر الدين كثير العصيان على نواب حلب بل وعلى سلاطين مصر ٠ ولما ملك ابن عثمان دمشق امتنع من مقابلته فأخذه الغزالي وقتله وحز رأسه هو وابن الحرفوش وقبض على اربعة من مشايخ عربان جبل نابلس منهم قراجا بن طراباي شيخ عربان جبل نابلس وكان اتفق على هذا عربان بني عطاء وبني عطية والسوالم وكسروه ، فارسل الغزالي رؤوسهم الى السلطان ، فلما جرى ذلك اضطربت احوال جبل نابلس وصار العربان ينهبون الضياع التي حول حاضرتها ويقتلون اهلها ٠ وفي مدة اقامة السلطان سليم في حلب لدن عودته من فتح الشام ومصر قتل بعض اشرار حارة بانقوسا ، ولما بلغه

ان الشاه اسماعيل الصفوي يريد ان يهاجم حلب اخذ يطيب خاطر الحلبيين ورفع عنهم ما كان اثقل كواهلهم به من الضرائب والمكوس واخذ يعتني بتحصين حلب .

ومن اعمال الغزالي استيلاء العربان (٩٢٥) على الحاج الشامي فخرج اليهم ومعه نائب غزة بعسا كر غزة ونائب الكرك ، فاقتتل مع العربان وقتل منهم جماعة كثيرة وغنم اموالهم . وفي السنة التالية اتى الفرنج (ولا نعلم ان كانوا من البنادقة او البرتقاليين) الى ساحل بيروت وحاصروا من بها فكسروهم وملكوا مدينة بيروت وظلوا فيها ثلاثة ايام ، فلما بلغ ملك الامراء نائب الشام جان بردي الغزالي ذلك عين دواداره [1] ومعه الجم الكثير من العساكر فتوجهوا الى بيروت واقتتلوا مع الفرنج . وكان بين الفريقين واقعة هائلة قتل فيها كثير من الفرنج وأسر منهم ثلاثمائة انسان وغنموا منهم اشياء كثيرة من سلاح وقماش وغير ذلك ، وقيل اسروا جماعة من اولاد ملوك الفرنج وملكوا ثلاثة من كبار مراكبهم .

وفي ذهاب السلطان الى مصر وعودته الى الشام قاسى اهل البلاد من اعتداء جنده كثيراً ، فقطع الاجناد الاشجار ورعوا الزروع واخرجوا الناس من بيوتهم في البلاد التي احتلوها وتعدوا على اعراض الناس ، فتضرر الناس بذلك وعرفوا انهم اخطأوا في نفض ايديهم من ايدي الشراكسة لاول ما بدا لهم من قوة العثمانيين ، وخاب رجاؤهم في ان تغيير الدول قد يكون منه رحمة ، والغالب ان فيه نقمة لا نعمة ، خابت الظنون لما جاء دور العمليات وغلط في الحساب من كانوا يتوقعون من الدولة الجديدة كل الخير وان الحظ يحظهم متى خفقت اعلامها عليهم وكانوا يرقبون طاعة العثمانيين منذ سنين رقبة هلال العيد ، للاستمتاع بحكمهم الرشيد وعهدهم السعيد ، ولطالما ساء فأل من يهتمون للامر الجديد ويفتحون له قلوبهم وصدورهم بادئ الرأي مع علمهم احياناً بتهورهم ، واي فشل أعظم لمن كانوا يطلعون الدولة الخالفة على عورات الدولة السالفة ، حباً بان يكون لهم او للبلاد شيء من الراحة والهناء اذا تغيرت الدولة .

* * *

(١) الدوادار .

محاسن السلطان سليم ومساويه ومهلكه { صرف السلطان سليم سنة وشهراً في فتح الشام ومصر وهلك بعد مغادرته البلاد بنحو ثلاث سنين (٩٢٦)

وقد بالغ مؤرخو الترك في وصف فضائله خصوصاً من كتبوا بلسان الرسميات ٠ وكثيراً ما يكون في الروايات الرسمية نظر كبير اذا وضعت على محك النقد التاريخي ٠ وكان مؤرخو العرب أقرب الى الانصاف والثقة في وصف هذا الفاتح الذي هو بلا مراء نابغة العثمانيين او من نوابغهم بعد محمد الفاتح ٠ ترجمه النجم الغزي في الكواكب السائرة بقوله : كان السلطان سليم سلطاناً قهاراً ، وملكاً جباراً ، قوي البطش ، كثير السفك ، شديد التوجه الى أهل النجدة والبأس ، عظيم التجسس عن اخبار الملوك والناس ، وربما غير لباسه وتجسس ليلاً ونهاراً ، وكان شديد اليقظة والتحفظ ، يحب مطالعة التواريخ وأخبار الملوك ، وله نظم بالفارسية والرومية (التركية) والعربية ٠

وترجمه ابن اياس بقوله : انه لم يجلس بقلعة الجبل (بمصر) على سرير الملك جلوساً عاماً ولا رآه أحد ، ولا أنصف ظالماً من مظلوم ، بل كان مشغوفاً بلذته وسكره ، واقامته في المقياس بين الصبيان المرد ، ويجعل الحكم لوزرائه بما يختارونه ، فكان ابن عثمان لا يظهر الا عند سفك دماء الشراكسة ، وما كان له امان اذا أعطاه لاحد من الناس ، وليس له قول ولا فعل ، وكلامه ناقض ومنقوض ، لا يثبت على قول واحد كقول الملوك وعادتهم في أفعالهم ٠ وقال ايضاً : ان السلطان سليماً قتل يونس باشا الصدر الاعظم وكان مقرباً جداً عنده ولكن ابن عثمان ليس له صاحب ولا صديق ولا أمان منه لاحد من وزرائه ولا من عسكره ومن طبعه الرهج (الشغب والفتنة) والخفة ، ويحب سفك الدماء ولو كان لولده ، ويقال انه قتل أباه واخوته ، لاجل مملكة الروم ، وآخر الامر انه قتل يونس باشا لكونه صار له عليه يد قديمة ٠

وفي الواقع ان السلطان سليماً قتل وزيره حسن باشا في رحيله الى مصر لان هذا لاحظ ان في قطع الصحراء هلاك الجيش فضرب السلطان عنقه ، ولما غادر السلطان مصر والف جمل تحمل امامه الى الاستانة ما غنمه من مصر من الذهب والفضة قتل وزيره الآخر يونس باشا في صحراء قطية والسبب في ذلك ان السلطان

اقترب من الصدر الاعظم وهو سائر معه وقال له : أرأيت كيف أصبحت مصر الآن وراءنا وغداً نبلغ غزة . فلم يتمالك الصدر ان أجاب السلطان : نعم ولكن اي ثمرة حصلت من هذا التعب والمشقة ، ان لم يكن هلاك نصف الجيش السلطاني في الحروب ووسط الرمال ، وبقيت حكومة مصر بعد هذا في أيدي الخونة . فلما قال الصدر ذلك استشاط السلطان غضباً فضرب عنق الوزير في الحال ودفن في الخان الذي كان أنشأه بين مصر والشام يونس بن عبدالله التركي الدوادار بالقرب من غزة فدفن يونس باشا في خان سميه يونس الدوادار وعهد السلطان بالصدارة الى بيري باشا .

وقال الشرقاوي : ان خير بك لما دفع الى السلطان سليم مفاتيح مصر ردها عليه وولاه عليها الى ان يموت فشاوره على ان ابناء الشراكسة يريدون الدخول في جملة الاجناد فأجازه بذلك ، وشاوره على ابقاء أوقاف الشراكسة وهي نحو عشرة قراريط من ارض مصر فأجازه بابقائها على ما كانت عليه ، فتشوش وزيره وقال فني مالنا وعساكرنا ، وتبقى لهم أوقافهم يستعينون علينا بها ، فقال السلطان سليم : أين الجلاد وكانت احدى رجليه في الركاب فضرب عنق الوزير ووضع رجله الثانية في الركاب . وقال : عاهدناهم على انهم ان مكنونا من بلادهم أبقيناهم عليها وجعلناهم امراءها ، فهل يجوز لنا ان نخون العهد ونغدر ، واذا أدخلنا أبناءهم في جندنا فهم اولاد مسلمين ويغارون على ديارهم ، وأما اراضيهم فأصلها ملك القائمين ومنهم من وقف معهم من قامت ذريته عليه من بعده ، فهل يجوز ان ننازع الملاك في املاكهم ، وانا أزلت الوزير كراهة ان يغير عليّ اعتقادي بتكرار كلامه اه .

كان القتل عند السلطان سليم أسهل أمر وألطفه ، وكان شديداً جداً على وزرائه قتل منهم سبعة لاسباب تافهة . وقال القرماني : انه خنق أخوته وغيرهم من أهل بيته وعددهم سبعة عشر نفراً وذلك حين توليه الملك وجرى عند الاتراك في حكم الامثال قولهم : من أراد الموت فليكن وزيراً للسلطان سليم ، لان لقب وزير كان شهادة على الموت العاجل . وقال صولاق زاده : في عصر سليم كان الوزراء ابداً عرضةً للتنحية ثم للقتل بعد شهر من تنصيبهم ، ولذلك اعتادوا ان يحملوا معهم صكوك وصاياهم ، وكلما كانوا يخرجون من مجلس السلطان يعتقدون انهم عادوا الى

الحياة بعد الموت · وقد وصفه فوسكولو المؤرخ البندقي بانه أقسى البشر قلباً لا يحلم بغير الفتوح والحرب اهـ · ولم يكن السلطان سليم يراعي من جميع رجاله الا المفتي الاعظم زنبيللي علي افندي ، وكان هذا قوالاً بالحق وكثيراً ما كان يرده عن مظالمه ، ويحول بينه وبين ازهاق النفوس بلا حق ، وقد انقذ بعمله من القتل مئات من البشر ، وهذا المفتي العظيم تولى مشيخة الاسلام ستاً وعشرين سنة على عهد ثلاثة سلاطين وهم بايزيد الثاني وسليم الاول وسليمان الاول ·

لم يطل عهد هذا الفاتح الجبار اكثر من ثمان سنين وثمانية اشهر ، ولم يعمل في الشام الا ان أقرّ القديم على قدمه في أسلوب الاحكام ، وغنم ما تيسر من ثروة المماليك وأغنياء البلاد ، وزاد في الضرائب والمكوس ، ونصب حكاماً ممن استأمنوا اليه او خانوا الدولة الاولى وتقربوا اليه من أهل البلاد ومن الحكام ، ووضع قيد الاسر منذ دخل حلب الخليفة اميرالمؤمنين المتوكل على الله محمد بن امير المؤمنين المستمسك بالله يعقوب آخر خلفاء بني العباس بمصر ، وأخذه معه لما انصرف الى الاستانة ، ثم القى الاختلاف بينه وبين أولاد عمه ابي بكر واحمد · وقال ابن اياس: ان السلطان سليماً تغير خاطره على الخليفة المتوكل على الله وأرسله الى مكان عسر يبعد سبعة ايام عن الاستانة يقال له السبع قلبات · والمظنون انه كان هناك آخر العهد به فقتله وأشاع بين الملإ انه مات ، ولا يستكثر ذلك من ملك قتل اباه لاجل الملك فضلاً عن اخوته وآله · ويقول « نامق كمال » : ان الخليفة العباسي قد تخلى لآل عثمان عن حقه في الخلافة في جامع أياصوفيا علناً ·

وروى المؤرخون ان السلطان سليماً كان يريد ان يعمل عملاً نافعاً للامة باسرها · كان ينوي ان يجعل اللغة العربية لغة الدولة الرسمية بدلاً من التركية فعاجلته المنية قبل اتمام هذا العمل الجليل · والغالب انه نشأ له هذا الفكر يوم افتتح مصر والشام وخطب له في الحرمين الشريفين فسمي فاتح ممالك العرب ، فرأى ان العرب في مملكته أصبحوا قوة لا يستهان بها ، وان الترك وهم عنصر الدولة الاصلي لا يشق عليهم ان يستعربوا دع سائر العناصر من البشناق والارناؤد والكرد واللاز والشركس والكرج · ولو وفق السلطان سليم الى انفاذ هذه الامنية لخلصت الدولة العثمانية في

القرون التالية من مشاكل عظيمة ، ودخلت في جملة العرب عناصر كثيرة مهمة ولا رتقت اللغة العربية فأصبحت الاستانة موطناً لها كما كانت بغداد ودمشق والقاهرة وقرطبة وغرناطة ٠

***

خارجي خان اولاً وثانياً | أصبحت الشام بالفتح العثماني آمنة غزوات الشمال والشرق والجنوب ، اذ أصبحت بين أملاك الدولة الفاتحة فأمنت من هذه الوجهة ولكن أصبح أعداؤها في داخلها من نفسها ومن دولتها ذاتها ٠ كانت البلاد يوم كانت فيها قوى هائلة خاضعة للقوة ٠ وقد فتحت الشام ومصر في الحقيقة في وقعتين مهمتين وما عداهما فمناوشات لا يؤبه لها ٠ فلما رحلت القوة وخلا الجو لجان بردي الغزالي نائب الشام حدثته نفسه بالخروج عن الطاعة وصعب على طبعه الا ان يخون سيده الثاني كما خان سيده الاول :

ومن يتعود عادة ينجذب لها على الكره منه والعوائد املك

ففاوض بعض امراء لبنان والعربان فوعدوه ان يمالؤه على عمله ، ودعا لنفسه بالسلطنة في دمشق و بايعه الناس على ذلك طوعاً او كرهاً ، ووافقه على عصيانه جميع العربان ومقدمي المماليك ولقب نفسه بالملك الاشرف صاحب الفتوحات ، وزينت له دمشق ثلاثة ايام واوقدت له الشموع على الدكاكين ، وقبل له الامراء الارض وقد جمع العسكر الكثير ، وخطب باسمه على منابر دمشق وضربت السكة باسمه على الذهب والفضة ٠ وارسل الى اميرالامراء بمصر ليقوم معه قومة واحدة وينزع حكم العثمانيين عن مصر والشام فنمَّ عليه للسلطان ، فقام الغزالي وحده مدفوعاً بتنشيط أهل البلاد والمماليك والعربان والاكراد اتباع كل ناعق للنهب والغنيمة ، وكثر الملتفون عليه حتى تسحب المماليك اليه من مصر وكثروا سواده ٠ وذكروا ان من اجتمع عليه من الجند كان خمسة عشر الفاً من المماليك والتركمان وثمانية آلاف ممن يضربون البنادق ٠ ولما بلغ قراجه باشا والي حلب موت السلطان سليم كان بعسكره في حيلان فرجع الى حلب وحصنها واستخدم خلقاً كل انسان بثلاثمائة درهم ، وأنفق عليهم من مال السلطان شهرين ، واعطى الانكشارية كل واحد الفين والاصبهانية كل واحد الفاً

زيادة على الجامكية ، وخرج الى قرية سرمين وقرية داريخ ونهبهما فخرج اليه في الطريق امير شيزر من جهة نائب الشام الغزالي فأخذ منه جميع المكسب وغنم منه جماعة وجهز رؤوسهم الى دمشق ، ودخل نائب حلب اليها مكسوراً ووصل عسكر الغزالي الى الانصاري وخرج اليه عسكر حلب . فأرسلت الدولة على الغزالي فرهاد باشا في ثمانية آلاف انكشاري عدا من انضم اليه من قوى الاناضول وكان معهم ثمانية عشر مدفعاً كبيراً .

سار الغزالي الى حلب ليستولي عليها فحاصرها مدة ولم يقدر عليها لصدق أهلها في قتاله ، وداهمه الجيش العثماني بما أتاه من المدد فانكسر ، وجاء الى حماة فتبعه العسكر العثماني واقتتلوا معه فهرب منهم ، وقصد التوجه الى دمشق وخرب في طريقه قناطر الرستن على العاصي فتبعوه فكانت بين الفريقين معركة عظيمة خارج دمشق قتل فيها نحو عشرة آلاف انسان وقيل اكثر من ذلك ، بينهم عربان ومماليك وجماعة من عوام دمشق وفيهم أطفال وصغار من أهل الضياع وغيرهم ممن حضر الوقعة . قال ابن اياس : وكانت هذه الوقعة تقرب من وقعة تيمورلنك لما ملك الشام وجرى منه ما جرى من قتل ونهب وسبي وحرق ضياع وما أبقوا في ذلك ممكناً وليس الخبر كالعيان . ثم نودي في دمشق بالامان سنة ٩٢٧ وخرب في وقائع الغزالي نحو ثلث دمشق من ضياع وحارات وأسواق وبيوت ، وأصاب حلب وحماة وحمص من خراب القرى وهلاك الانفس وذهاب الاموال شيء كثير .

وكان الغزالي لما جاء دمشق مهزوماً من الجيش العثماني قتل خمسة آلاف انكشاري كان السلطان سليم جعلهم حامية لدمشق عندما فتحها ، وذلك مخافة ان يلتحقوا بجيش فرهاد باشا فأولم لهم وليمة وقتلهم على بكرة أبيهم شر قتلة . ثم دارت الدائرة عليه وتشتت جيشه فقتله خازن أمواله وجاء برأسه الى القائد التركي ، فذهب ودولته الموهومة لم ينل الشام منه الا الضغط والشدة بعدها :

فما هو الا خائض الوحل كلما تحرك منه ناهضاً راح راسخاً

قال المقار : ان الغزالي استولى على دمشق وطرابلس وحمص وحماة وحلب وخطب له بالجامع الأموي بانه سلطان الحرمين الشريفين ولقب بالاشرف ، وان الدولة أرسلت

عليه جيشاً مؤلفاً من ثلاثين الفاً وأربعة آلاف انكشاري ومعهم مائة وثمانون عربة ، فالتقى عسكره وعسكرها عند قرية الدوير شرقي قرية برزة ، وتواصل العسكر الرومي وركب السلطان من المصطبة ببقية عسكره فما كان لحظة حتى انكسر وقطع رأسه ، ثم تلاحق العسكر الرومي ببقية العسكر الهاربين الى الصالحية ونواحي دمشق وارتجف الناس رجفة عظيمة وقتل من شباب الصالحية نحو الخمسين ومن كل حارة نحو المائة وكذا من القرى وقيل ان عدد القتلى ٧٠٧٠ ، وهجم العسكر على الصالحية وجميع الحارات والقرى فكسروا الابواب وحواصلها وبيوتها ودكاكينها وغير ذلك وآذوا النساء فضلاً عن الرجال فلم يحترموا صوفياً ولا فقيهاً ولا كبيراً وكانت النساء قد اجتمعن بجامع الحنابلة ومدرسة ابي عمر وغيرهما فهجموا عليهن وعروهن وأخذوا بعض نساء وجوارٍ وعبيد وصبيان ، وجهز الباشا رأس الغزالي ومعه نحو الف اذن من المقتولين الى السلطان سليمان .

وبعد هذه الوقعة الهائلة اقتسم العثمانيون نيابات الشام فجعل آياس باشا في دمشق وفرجات بك في طرابلس وقره موسى في غزة . اما فرهاد باشا فاتح الشام ثانية ومنقذها من الغزالي فقد ضج الناس من شدته و بأسه وتمثيله بالبريء والمجرم على السواء .

* * *

طبيعة الدولة العثمانية

وقد بقي ارباب المقاطعات في الدولة العثمانية كما كانوا في دولة المماليك يضمنون الخراج مقابل أموال يتعهدون بها ، ويعرقون اللحم والعظم بعد ذلك لحسابهم ، مثل امير عرب الشام مدلج بن ظاهر من آل جبار وكانت منازل قومه في سلمية وعانة والحديثة والامير فخر الدين المعني الاول حاكم الشوف والامير جمال الدين الارسلاني حاكم الغرب وبني شهاب في وادي التيم وبني الحرفوش في بعلبك وبني ساعد امراء البر وحوران وعجلون وغيرهم في غيرها وكلهم أشبه بامراء صغار يخضعون الخضوع التام لحكام المدن ، والمقتدر منهم الذي كان على صلات حسنة مع الوالي التركي القريب من عمله ، ومن يجعل له وكيلاً يرجع اليه في اعماله في دار السلطنة ، واذا غضب الوالي على الامير المتغلب يرسل

عليه جيشاً من الانكشارية كما فعل والي دمشق سنة ٩٣٠ مع امير الشوف ، فيخرّب العسكر قراه و يستصفي امواله و يأسر اهله ورجاله و يسبي نساءه ، فعلوا ذلك مرات في لبنان والبقاع وبعلبك ووادي التيم وغيرها من البلاد وينشأ هذا الغضب من تأخرهم عن تأدية الخراج . اما المظالم التي تنزل بالناس فحدث ما شئت ان تحدث عنها .

كان من قواعد الدولة العثمانيـة اذا فتحت البلاد ان تولي امورها الكبرى لولاتها وقضاتها والصغرى لابناء البلاد ، وتلقي حبلهـا على غاربها لا تهتم لتنظيمها اهتمامها لفتح بلاد جديدة ، واذ كان الولاة يبتـاعون مناصبهم على الاغلب بالمزاد في دار الملك ، كان المزايدون في الاكثر من الساقطين في اخلاقهم ، لا يتأخرون عن ارتكاب كل محرم ليسلبوا الرعية ما امكن فيملأوا خزائنهم وخزائن من حملوهم على رقاب الامة . وساعد على ايغال العمال في الفساد قلة المواصلات وبعد دار السلطنة عن اكثر الولايات فبين دمشق والاستانة مثـلاً ١١٠٠ كيلومتر و٣٨٦ ساعة من المسافة ، وان قدّر لارباب الظلامات فوصلوا العاصمة رغم هذه المصـاعب وتعذّر الاسفار في تلك الامصار ؛ لبث شكواهم الى السلطان كان بعض اصحاب الشأن يحولون دون ذلك ، فكانت ديار الشام كله يستأثر بها والٍ او واليان يحكمان فيها بحسب مزاجهما بدون مراقب الا من ذمتهما ، فاذا كانا ممن تجردا منهـا فهناك البؤس والنحس ، وضياع الحقوق وفساد النظام .

قال جودت في تاريخه : ان الدولة العليـة لما انتقلت من دور البداوة الى دور الحضارة لم يتخذ رجالها الاسباب اللازمة لهذا الانتقال ، وحصروا اوقاتهم في حظوظ انفسهم وشهواتهم ، يقيمون في العاصمة القصور الفخمة و يفرشونها بانواع الاثاث والرياش مما لا يتناسب مع رواتبهم ، فاضطروا الى الارتشـاء و بيع المناصب بالمال وتلزيم البلاد واقطاعها بالاثمان الفاحشة ، فضـاق ذرع الاهلين ، واضطر كثير من اهل الذمة ان يهجروا الارض العثمانيـة الى البلاد الخارجية ، وترك غيرهم القرى وجاء الاستانة فراراً من الظلم فلم يبق مكان في الاستانة ، وتلاصقت الدور وتضايقت انفاس الناس و كثر الحريق والاوبئة ، وصعب تدارك ما يلزم هذه المدينة الضخمة

من الحبوب فأصبحت الحكومة تأتي بها من القاصية ، والتجارة ليست من شأن الحكومة اه ٠

من امثال الترك السمكة تفسد من رأسها ، وحقيقةً ان فساد الولايات كان ينبعث من العاصمة ايام كان يقبض فيها على زمام الاحكام غالباً جهلاء ظلام وصموا بسلب الناس بكل حيلة ، حتى ينعموا بما يجمعون في قصورهم ومصايفهم على ضفاف الخليج والمضيق في فروق ٠ واذا صادفت العناية ان تولى الصدارة رجال عظام على شيء من حسن الادارة وقوة الارادة وبعد النظر ، فان رئاسة النظار كثيراً ما تولاها في السلطنة العثمانية الندماء والسخفاء بل الطباخون والطبالون والمزينون والبساتنة وغيرهم من المقربين من نساء القصر الملوكي ، او الزنوج الخصيان الذين كانوا يولون و يعزلون كما يشاؤن و يشاء ضيق عقولهم ٠

ولا عجب في حكومة هذا شأن نصب الرئيس فيها اذا كان الوزراء والعمال على هذا النحو ، فلطالما ولي المشيخة الاسلامية في الترك اغبياء ادنياء في منشإهم ومسالكهم ممن ليس لهم من العلم الديني الا قشوره وشارة اهله من جبة وعمامة ، وعلى نسبة وسائط بعضهم و كثرة ما يعرف من المقربين من السلاطين كان ارتقاء احدهم الى المناصب العليا ، فكان الوالي الذي يحكم الشام على الغالب اشبه بالقاضي ٠ وهذه الطبقة لا تقرب من اهل البلاد الا من كانوا على شاكلتها من الجهل والفساد بالطبع ٠ ومثل هؤلاء الرجال اذا كان لهم قوة يستندون اليها وهي جيش الانكشارية فهناك الخراب بلفظه ومعناه ٠ فان هذا الجيش الذي خدم الدولة لاول امره خدمات جلى وفتحت به الفتوحات ووصلت الى فينا وحاصرتها عاد فمحق باختلاله واعتدائه على الرعايا كل حسنة سلفت ودمر كل بلد فتحت ٠

ولئن خلف السلطان سليماً ابنه السلطان سليمان القانوني وهو العاشر من ملوك آل عثمان سنة ٩٢٦ وكان على جانب من العقل وحب القانون ، الا ان الشام اصبحت في ايامه الطويلة التي دامت ٤٨ سنة في معزل لان السلطان مشغول بفتوحاته حارب اثنتي عشرة مرة وخرج في اكثرها ظافراً ، فلا يهمه كأكثر اجداده واحفاده من كل بلاد مفتوحة الا ان تضرب السكة وتقام الخطبة باسمه ، فكانت الشام جزءاً

صغيراً بالنسبة لضخامة ملكه ، فلم ينلها منه شيء من العدل والاشراف ينسيها ما لاقته في القرن السالف من التردد والانحلال ٠

وكان السلطان سليمان بطاشا كأبيه ولكن لم يشتهر شهرته، هاج مرة اهل حلب في اوائل حكمه وقتلوا في الجامع القاضي والمفتي فصدرت ارادته السنية بقتل جميع اهل حلب لولا ان كان في الصدارة اذ ذاك رجل عاقل اسمه ابراهيم باشا ، فألغى هذا الامر البربري واكتفى بقتل زعماء الثورة ٠ وابراهيم باشا كان على جانب من الاخلاق الحسنة والذكاء تولى الصدارة من سنة ٩٢٩ — ٩٤٢ اي ١٧ سنة وقام باصلاحات مهمة ثم قتله السلطان وندم على قتله ، ولا عجب اذا استسهل سليمان القتل فقد قتل ابنه الاكبر مصطفى وحفيده وابنه بايزيد واولاده الخمسة على افظع صورة ٠

* * *

كوائن داخلية وامراء المقاطعات — ومن الاحداث في الشام بعد فتنة الغزالي ما وقع في سنة ٩٢٧ من ثورة جماعة من عربان دمشق على نائب الشام اياس باشا ، فلما خرج اليهم ووقع معهم انكسر وجرح ورد الى دمشق وهو مكسور وقتل من عساكر الشام كثير ومن عربان جبل نابلس ايضاً ، وكانت فتنة هائلة بدمشق ٠ وفي سنة ٩٢٨ كان مقتل حسن وحسين اولاد الامير عساف في بيروت ، وذلك لما كان من الاختلاف بينهما و بين اخيهما الامير قائد بيه على الحكم فتوسط بينهما حتى طلبا الصلح ونزلا على اخيهما قائد بيه فغدر بهما وقتلهما فحكم قائد بيه بلاد كسروان حتى مات سنة ٩٣٠ وخلفه الامير منصور ابن اخي الامير حسن وامتد حكمه الى بلاد عكار ٠ وكانت طرابلس بيد النواب يستأجرها محمد اغا شعيب من اهل عرقة ويستأجر الامير منصور بلاد جبيل والبترون وجبة بشرة والكورة والزاوية والضنية ٠ وفي سنة ٩٣٠ جهز والي دمشق خرم باشا حملة لقتال الدروز في الشوف فانتصر عليهم واحرق قرية البـاروك وثلاثاً واربعين قرية ، وارسل الى دمشق اربعة احمال من رؤوسهم فعلقت على القلعة ورجع ومعه مجلدات من كتب الدروز ، ثم ارسل اربعة احمال من رؤوسهم واحرق نحو ثلاثين قرية ونهب قرية البرج وسبى نحو ٣٦٠ من النساء والاطفال وغنم ما لا يحصي من البقر والجمال والغنم وغير ذلك ٠

وفي سنة ٩٣٥ وقع قتال بين اولاد شعيب واولاد سيفا امير التركمان وقتل علي الشعيبي في عرقة وتولى اولاد سيفا عكار ثم قتلوا محمد اغا شعيب حاكم طرابلس قدام القاضي فاعطاهم القاضي فتوى بانهم ابرياء من دمه وانه هو الزمهم بذلك . وفي سنة ٩٤٠ وقعت فتنة اهلية في جهات العاقورة وجبة المنيطرة في لبنان نشأت من خصام بين مالك اليمني وهاشم العجمي من مشايخ العاقورة ، وكثرت الدسائس بين بني الحرفوش امراء بعلبك وآل سيفا حكام طرابلس ، واخذ ابناء العم يقتلون اولاد عمهم للاستئثار بالامارة ، وخربت بعض تلك الديار واحرقت ، ومنها ما نزح سكانه عنه . قال الشهابي : وكبر قدر بني حبيش عند ابن سيفا وصاروا متصرفين في تدبير حكمه وبقيت العاقورة خراباً سبع سنين لم يقطن فيها احد . ثم ان القيسية سكنوا في بلاد طرابلس واستحصل اليمنية امراً من نائب دمشق ورجعوا فبنوا العاقورة ثانية وفي سنة ٩٥١ توفي الامير فخر الدين بن عثمان بن معن الذي حكم من حدود يافا الى طرابلس وبنى بنايات وقلاعاً عظيمة واستراح الناس في حكمه واطاعته العرب وخلفه ولده الامير قرقماز وبعد وفاة الامير فخر الدين امتد حكم الامير منصور بن عساف من نهر الكلب ببيروت الى حدود حمص وحماة وقوي بماله ورجاله .

* * *

مهلك السلطان سليمان وتولي سليم السكير } توفي السلطان سليمان القانوني سنة ٩٧٤ ولا شأن للشام في عهده الا ان تظهر شعورها باخبار انتصاراته وغاراته ، وفتح قلاعه ومعاقله التي كان يملأوها بجند الانكشارية ويفرق قوى الدولة ، ولاجل ان يكون له جيش دائم على استعداد للحرب كل ساعة كان يقتضي له من النفقات الباهظة ما تنوء به قوة ابناء البلاد ، وكان اهل الاسلام يودون بعد تكبير رقعة الملك في آسيا ان تصح ارادة الدولة على فتح فارس وقد بدت امارات الهرم فيها فتتصل بالهند ، وذلك خير من ان تفتح المجر وتحارب امبراطور المانيا وتؤلب عليها دول اوربا . ذكر ضيا باشا ان الاتراك بددوا شملهم في الحروب والقلاع والبلاد البعيدة وجعلوا انفسهم في اوربا وراء سور من المرابطين يقلي علمهم وتربيتهم يوماً فيوماً ، وفيه امم من الخرواتيين والبلغار والروم ممن لم يقبلوا الاسلام ، وفي آسيا العرب

والاكراد والزيدية والشيعة الذين نشأوا وكبروا ببذر الفساد الذي بذره الشاه اسمعيل ، فكان الاولون خصماء للاسلام والآخرون خصوم الاتراك ، وما كانت مناداتهم بنصر السلطان الا من الالسن لا من القلوب اه ٠

خلف السلطان سليمان ابنه السلطان سليم الثاني ، وهذا لم يذكر اسمه في الشام الا على منابرها فقط لانه كان شريباً خميراً حتى لقب بسليم السكير (مست سليم) وله من اعمال الخلاعة ما يخجل منه ، ولم يخرج من الاستانة للغزاة وهو اول ملك من آل عثمان تخلى عن الحرب بنفسه ، ومات على سريره في قصره ، على حين كان اجداده كلهم يموتون في الحرب وفي طريق الغزو والفتح ٠ وفي ايام السلطان سليم الثاني فتحت قبرص وكانت للبنادقة وهلك واسر من اهلها نحو ثلاثمائة الف انسان في بعض الروايات ٠

هلك السلطان سليم الثاني سنة ٩٨٢ بعد ان حكم ثمان سنين وستة اشهر وخنقوا اولاده الخمسة يوم دفنه على ما جرت بذلك عوائدهم القبيحة ٠ وفي ايامه جاء امثال محمد باشا الصقللي من الصدور العظام ، الذي تدارك بعمله الدولة من السقوط بما قام به من الاصلاحات ، واهمها اثخانه في العصاة وارباب الدعارة ، وجاء غيره من الرجال الذين يعدهم الاتراك من العظام بحسب عرفهم ٠ ولكن الشام لم تر طلعة هذا الملك كما انها لم تشهد من والده من قبل شيئاً من خطط الاصلاح ولا من القوانين النافعة ، ولا شاهدتهم او وكلاءهم يشرفون على البلاد ليرفعوا الضيم عن الناس ، وفي عهده (٩٨٠) وزع القشلاق (اي العساكر المشتية) على بلاد الشام ونهب عسكر الدولة بلاد لبنان وما اليها وسلبوا سائمتها واسرفوا في الظلم ، حتى كادت الناس تسأل الموت لنفوسها ، واقفرت في لبنان قرى كثيرة وفي الدر المنظوم انه قتل من الموارنة في تلك المعمعة نحو ثلاثين الفاً (؟) عدا الذين قتلوا في ليماسول من بلاد قبرص حين حاصرها الاتراك سنة ١٥٣٨ م وفتحت ٩٧٨ ٠

* * *

عهد السلطان مراد الثالث وحملات على ارباب الدعارة

وفي سنة ٩٨٢ تولى الملك السلطان مراد الثالث فقتل اخوته الاربعة وكانت همته مصروفة الى توسيع حدود مملكته ايضاً وفي ايامه (٩٩١) وجه عسكراً الى لبنان لحرب الموارنة

وذلك لانه قدمت اليه شكاوى من طائفة الروم القاطنين في سواحل مدينة طرابلس بانهم اخربوا تلك الكور . وفي سنة ٩٩٣ ولى السلطان خسرو باشا ايالة الشام وجاء دمشق وتخاصم مع محمد علي باشا الوند الوالي السابق مدة شهر ، ووقع بينهما الجدال واستقرت الحال على تولية علي باشا وانفصل خسرو باشا ، وكانت مدة ولايته سبعة اشهر فعزل ثم خلفه جامورجي محمد باشا وبقي في الولاية اربعة اشهر ثم خلفه علي باشا مرة ثانية وبقي والياً اربعة اشهر . وفيها سرقت الخزينة السلطانية بينما كانت محمولة من مصر الى الاستانة في جون عكار فوجهت الدولة ابراهيم باشا وضربت على ايدي المعتدين وسار جعفر باشا حاكم طرابلس واحرق بلاد عكار ، وتقدمت الشكايات من حاكم طرابلس ضد الامير محمد بن عساف وضد امراء الدروز بانهم هم الذين سلبوا الخزينة ، فسار اليهم ابراهيم باشا ولما وصل الى عين صوفر حضر اليه عقال بلاد الدروز فغدر بهم وقتل منهم نحو ستمائة رجل . ويقول كامل باشا : ان ابراهيم باشا لما جاء من مصر الى الشام كان في عشرين الف جندي ودعا امراء الدروز الى المعسكر فأبى ابن معن ان يجيب الدعوة لان والي دمشق مصطفى باشا كان استدعى اباه وغدر به وقتله فأقسم هو ان لا يجيب دعوة احد من رجال العثمانيين ، فأحرق الجيش العثماني ٢٤ قرية من قرى ابن معن وقتل الدروز القائد اويس باشا مع خمسمائة من جنده ، وطلب ابراهيم باشا ترحيلة فأرسل اليه ابن معن مئة الف دوكا و ٤٨٠ بندقية وخيلاً واشياء ثمينة ، وبعد ان تسلمها الوزير العثماني امر باحراق ١٩ قرية من قرى ابن معن وأعدم ثلاثمائة من رجاله ، وفي خلال ذلك كان الاسطول العثماني اخرج الى صيدا اربعة آلاف جندي وضرب جميع الساحل واخذ ثلاثة آلاف اسير . وقال البوريني : ان ابراهيم باشا لما خرج من مصر خرج باموال عظيمة وتحف كثيرة منها انه جعل للسلطان مراد تختاً من الذهب مرصعاً بالجواهر العظيمة ورجع ومعه عساكر مصر ، وجمع عساكر الشام وحاكمها اذ ذاك اويس باشا وكبس جبل الشوف فقتل ونهب وحرق واخذ منهم اموالاً جمة وحاصرهم محاصرة عظيمة حتى ان اميرهم قرقماز بن معن مات قهراً .

وفي سنة ٩٩٤ اراد جماعة من اقارب الامير علي الحرفوش صاحب بعلبك ان

ينزعوا حكومتها من يد ابي علي الشهير بالاقرع بن قنبر لانه ليس من اولاد الامراء ، وحكومة بعلبك موروثة لبني الحرفوش ، فعرف ابن الاقرع ما دبّر له فجاءه الفا رجل جمعهم بنوا حرفوش من كسروان والشوف وعين داره وارادوه على ان يخرج بعياله ومن يلوذ به حيث شاء فابى الا قتالهم ، واستنجد بالامير قرقماز بن الفريخ امير بلاد البقاع وبغيره من التركمان والعرب فاجابه من طلبه فخرج اليهم ، فلما التقى بهم انتصر عليهم وولى الدروز هاربين فتبعهم اهل بعلبك يقتلونهم ، وقتلوا منهم الفاًوثمانين قتيلاً في لحظة واحدة ولم يقتل من جماعته سوى شخص واحد — البور يني . قال : وكان اصلح له ولجماعته طعاماً قبل المعركة فقاتل اعداءه ورجع والطعام لم يبرد وارسلت الرؤوس لدمشق لتعرض فيها . ثم قتل الامير علي بن الحرفوش ابن الاقرع وندم على قتله واخذت الدولة بعد ذلك الامير علياً الى دمشق بالامان وغدرت به وقتلته وقتلت معه عسافاً الكذاب الذي ادعى انه ابن الامير طرباي امير بلاد اللجون .

✲ ✲ ✲

بنو عساف وبنو سيفا وابن فريخ وخراب البلاد	وفي سنة ٩٩٩ جمع الامير محمد بن عساف الرجال وسار لطرد يوسف باشا بن سيفا من بلاد عكار

فلما بلغ يوسف باشا ذلك جمع رجاله و كمن له في العقبة بين البترون والمسيلحة وقتله هناك ولم يكن له ولد فانقطع نسله وكان لبني عساف في كسروان ٢٣٢ سنة فانقرضت دولتهم تلك السنة . ذكر المؤرخون في حوادث سنة ٩٩٩ : ان منصور بن فريخ أُعيد الى لواء صفد واعطى قرقماز لواء نابلس وصاحبه الدالي على لواء عجلون ، وذلك بالتزام مال لجهة السلطنة قدره ثمان كرات كل كرة مائة الف دينار غير ما ينوبها من الكلف . وقد خرب ابن فريخ هذا بلاداً كثيرة وقتل خلقاً كثيراً وكان في اول امره بدوياً من خدام ابن الحنش فترقى به الحال الى ان التزم مالاً عظيماً على لواء صفد ولواء نابلس وامارة الحج وعمر عمارات عظيمة بالبقاع بقرية قب الباس وشرع في عمارة دار عظيمة خارج دمشق واستعمل فيها العملة بالسخرة وقد خُنق في قلعة دمشق لظلمه وتخريبه البلاد التي استولى عليها خصوصاً بلاد البقاع و بلاد صفد وبلاد جبل نابلس .

وفي سنة ١٠٠٠ امر قاضي الشام مصطفى بن سنان بقيام النواب كلهم من المحاكم واغلاق ابوابها كلها فاغلقت ثم اغلقت اسواق البلد كلها ، وسبب ذلك ان الدفتردار محمود ارتشى من ابن الاقرع بخمسة عشر الف دينار وولاه على بعلبك بدل ابن الحرفوش فادى ذلك الى خراب بعلبك ظاهرها وباطنها ، ورحل اكثر اهلها حتى تعطلت الاحكام الشرعية بها وعتا بها ابن الاقرع واتباعه وصادر الناس مصادرة عظيمة ليوفي بها المال الذي التزم به لجهة السلطنة ٠

وكان المكس في هذه الحقبة حتى على الخمور والخمارات يتقاضاه كل من كان باشا الشام يلتزمه صاحب الشحنة وهو من كبراء الانكشارية بمال كبير يدفعه للباشا ويحرق الاخضرين في جبايته وكان من الولاة في ذلك الدور ببلاد الشام الصالح والطالح مثل سليمان بن قباد باشا الذي تولي نيابة القدس وقطع دابر المفسدين ثم تولى محافظة دمشق (٩٩٠) وكان ينوع العذاب للسراق وقطاع الطريق ٠

ومنهم من خلفوا آثاراً مثل خسرو باشا وعادلي محمد باشا وبهرام باشا من ولاة حلب فانهم بنوا مدارس وجوامع فخمة في الشهباء ومنهم لالا مصطفى باشا الذي ولي دمشق سنة ٩٨١ خمس سنين وقد مدحه ابن بدير والمقار ووصفه هذا بانه صاحب الخيرات والحسنات وانه عمر تحت القلعة بدمشق الخان والحمام اللذين لا نظير لهما واثنى ايضاً على مراد باشا الذي تولى دمشق سنة ٩٧٦ وعمر جامعاً في السويقة المحروقة وهو صاحب خيرات وحسنات أيضاً ٠

وأثنى المؤرخون ايضاً على الامير احمد بن الامير قانصوه الغزاوي الساعدي الذي تولى أمارة عجلون وما والاها من بلاد الكرك والشوبك بعد وفاة ابيه الامير قانصوه وباشر الامارة في هاتيك النواحي في زمن سلطنة المرحوم السلطان مراد بن السلطان سليم وقالوا : انه كان قليل الاذى للرعايا وهو من قوم لهم قدم في الامارة في هاتيك البلاد كانوا في زمن الشراكسة امراءها وكان من اجداده الامير محمد بن ساعد اميراً في جبل عجلون ٠ ومنهم درويش باشا نائب دمشق وصاحب الجامع المنسوب اليه وخان الحرير (٩٨٧) ومن ظلمتهم والي حلب حسين باشا المتوفى (٩٤٩) كان كثير القتل بغير سجل شرعي سفاكاً للدماء على صورة قبيحة من تكسير الاطراف والاحراق

بالنار والمحرق حي وغير ذلك متناولاً للرشى لا نفع له سوى مضرة اللصوص ، ومن سفاكيهم العظام سنان باشا فاتح اليمن وصاحب الجامع المنسوب اليه بدمشق تم انشاؤه سنة ٩٩٩ وقد ذكر ابن المقار جريدة مخلفاته التي أرسلت الى الاستانة بعد موته فاذا هي تساوي مئات الالوف من الدنانير لما حوت من الاعلاق والنفائس ، فمن أين لسنان هذا المال ؟ . وقد قال مؤرخو الترك ان الخيرات التي قام بها سنان باشا في ممالك مختلفة من جوامع ومدارس وتكايا وخانات تقدر نفقاتها بمليوني ليرة ذهب بسكة زماننا ، وان ما عمره من المعاهد والمباني الفخمة في الاقطار التي نزلها تناهز المئة . لاجرم انه من العتاة الطغاة الذين يجيزون خراب البلاد ليعمروا جيوبهم وخزائنهم . وأعمالهم الخيرية قد تأتي بالعرض اولحب الشهرة . وأقبح بصدقة اوعمل خير يكون أصل ما أنفق عليه من السحت وقتل الانفس وتخريب البلاد لاستصفاء أموال أهلها .

لا تظلمن لتعطي فالشحيح على ما فيه اعذر ممن خان او ظلما

***

حالة البلاد في الحكم العثماني

حكم الشام في هذه الحقبة من الزمن اي مدة ٧٨ سنة اربعة من ملوك آل عثمان وهم السلطان سليم خان الاول والسلطان سليمان خان القانوني والسلطان سليم خان الثاني والسلطان مراد خان الثالث ، وبقيت روح الدولة في البلاد واحدة لم تتغير . ولئن جاء فيهم واضع القوانين السلطان سليمان القانوني وطال عهده على ما لم يقع له مثال في تاريخ هذه الدولة ، وكان معروفاً بحب القوانين في الجملة وضع بعضها حتى أطلق عليه اسم القانوني ، فان الشام كانت حاله بعد الفتح العثماني تنتقل من سيئ الى اسوإ والوالي او الولاة في هذه الديار هم الكل في الكل ويكونون على الاغلب ممن لا ذم لهم ولا قدرة الا على جلب المغانم لانفسهم وازهاق الارواح في ذاك العصر من الامور الهينة التي لا تستغرب .

بعد الفتح العثماني واندحار المماليك في مرج دابق والضرب على أيدي العصاة في فلسطين ، كان الرجاء معقوداً ان تخلد البلاد الى الراحة ويرفرف عليها طير السعد والرغد ، فزادت المكوس والضرائب على وجهٍ قاسٍ ، وكثر فساد جيش الدولة من

الانكشارية والسباهية ، فكان يأتي على الاخضر واليابس في المدن والقرى ، خصوصاً اذا جاء البلاد منهم فوق حاميتها كتائب أخرى لتشتي فيها ، وهناك يزيد الاعتداء على بيوت الناس وأموالهم وأعراضهم ، وربما تخطفوا النساء والاولاد في الازقة رابعة النهار ، وفي اول حكم السلطان سليمان اي بعد اربع سنين من الفتح كان ما كان من عصيان الغزالي فهلك كثير من الابرياء في دمشق وحلب ، وارتكب الوزير فرهاد باشا لتسكين الفتنة والضرب على يد الثائر من الشدة ما ضاقت به الارض بما رحبت ·

ويمكن حصر مصائب هذا الدور في مصادر ثلاثة ، وهي ظلم الوالي اذا كان عاتياً مرتشياً ، وظلم الجند في حلهم وترحالهم ، وشقاء البلاد بصغار الامراء من اهلها ، في الجبال والسهول وكبار ارباب النفوذ في المدن · وهذه الطبقة تطورت تطوراً جديداً في عهد العثمانيين فكانت من اكبر الاسباب في فساد البلاد ، ولو صلحت وسلمت من ظلم بعضها بعضاً لما استطاع الوالي التركي والقاضي التركي والقائد التركي ان يعملوا مباشرة في هذا القطر عملاً مضراً · وأهمّ من هذا وذاك ان الدولة العثمانية على عهد عزها لم تفكر الا في الفتوح وفي حرب من يجاورها من صغار الامراء والملوك حتى اذا كانت ايام إدبارها وهي تبدأ من اواخر سلطنة سليمان القانوني ، كانت همتها مصروفة الى قمع الفتن الاهلية ، ورد عادية اعدائها عن بلادها الواسعة ·

ان ابن الشام لا يهتم كثيراً اذا بلغت جيوش الدولة العثمانية اواسط اوربا في فتوحها وفتحت فينا وبودابست ، واذا فتح السلطان سليمان زهاء ثلاثمائة حصن وقلعة ، واصبح اسمه في الغرب مضرب الامثال في الرهبة ، فكانت بعض الامهات يخوفن ابناءهن باسمه اذا أرادوهن على الرقود والكف عن البكاء · ولا يهتم ابن الشام ايضاً اذا كثرت الخيرات على العاصمة بما يصرف فيها من اموال المغانم والمغارم ، ما دامت طرق الجباية في بلاده مختلة منهكة لقواه ، وما دام الولاة يسنون لان يأخذوا المكوس لانفسهم من الحانات ومن المسكرات ، وما دامت الضرائب تستوفى حتى من المغنيات والمومسات ، وما دامت المناصب الكبيرة دع الصغيرة يتوصل اليها بطرق دنيئة على سبيل الضمان والايجار ، وما دام الامن مختل النظام وأهل البادية

ولصوص الاعراب على عاداتهم في السلب والنهب ، ومن المتعـذر ان ينتصف المظلوم من الظالم وان تعمل الدولة في باب العمران جزءاً مما تأتي في تخريبه ٠

وضع السلطان سليمان قوانينه وما ندري اذا كانت وصلت الى هذه الديار ، وهب انها انتهت اليهـا فهي في السجلات محفوظة على الاغلب لم يطبق منهـا الا ما لا ينفع العلم به ولا يضر الجهل بمضامينه ٠ وما دام القانون السماوي الذي عملت الشام به منذ الفتح الاسلامي غير نافذ على مايجب فما الحال بقانون يعمله رجال قد يغيرون من الغد اجتهادهم وهو غير مطبق المفاصل او يتعذر تطبيقه وانفاذه ٠ بدأت الدولة منذ دور سليمان بالرسميات وأخذت تلقي الشغب بين العلماء ، وذلك برتب اخترعتها لهم وجرايات أدرتهـا عليهم ، فزادت لاجل هذه النفقات الضرائب والخراج على الامة وكثر التنافس بينهم ، وقلّ القوالون بالحق من رجال العلم ، وانشـأ معظمهم يدلسون و يوالسون و يتمدحون السلطان مهما ضل وغوى ، وارتكب اغلاطاً في ادارته وسياسته ٠ وسهل بعد ربط العلماء بروابط الرتب والرواتب ان يستصدر السلاطين كما قال ضيا باشا فتاوى بقتل الابرياء ممن تغضب عليهم الدولة ، وكان الذين يقتلون كل سنة على هذه الصورة عدداً من الناس لا يستهان به وفيهم العاقل والدراكة ، وكل من في قتله راحة للدولة او مصلحة يتوهمها السلطان وبعض الزبانيـة الطغاة في الولايات ٠ وقد تعاقب على دمشق خلال القرن العاشر اي مدة ٧٨ — خمسة واربعون والياً وعلى حلب سبعة عشر ولم يحس الناس بتبدل نافع في حكم العثمانيين عن عهد المماليك حتى بعد ثمانية عقود من السنين ٠

العهد العثماني

من سنة ١٠٠٠ الى ١١٠٠

عهد محمد الثالث وامراء الاقطاعات وفتن

دخل القرن الجديد والبلاد في حالة شدة تسير من بؤس الى بؤس ، وتعاقب تبدل الولاة على الشام والسعيد منهم من كان يحول عليه الحول ، واكثرهم يقيمون فيها اشهراً ثم يصرفون ويستبدل غيرهم بهم ، ومنهم من كان يقيم اياماً ومنهم سبعة ايام ومنهم ثلاثة ، وتعاقب على دمشق خلال هذا القرن واحد وثمانون والياً وعلى حلب تسعة واربعون والياً ، فكان الوالي من ثم لا يتمكن من الاصلاح ان اراده وقلبه متعلق ابداً بثبات منصبه والغالب انه لا يتوفر على غير جمع المال بالطرق المنوعة ليوفي ما عليه من المقرر لجماعة الاستانة من الاموال وكان الولاة يبتاعون الولاية ابتياعاً والمزايد الاكبر هو الذي توسد اليه قال راسم في تاريخه : امر السلطان مراد ان يكتب الى احمد باشا كوجك والي الشام بان يدفع الى السلحدار باشا عشرين الف ليرة و يبقى في منصبه فاضطر الوالي ان يؤدي المبلغ .

ومن اهم ادوات التخريب في هذا القرن خروج جند الانكشارية عن حد الاعتدال وكثرة اعتدائهم على الرعية ، يستطيلون على اموالها واعراضها و يثلمون شرفها ويذلون اعزتها ، وهم القوة القاهرة في البلاد لا ينالهم من الناس اذى وكل اذاهم لاحق بالكبير والصغير . وكثيراً ما حاول الولاة ان يخففوا من غلوائهم ليستأثروا بالقوة دونهم او يرفعوا عن عاتق الامة التعسة بعض شرورهم ، فيسفر قتالهم عن زيادة

ايصال الشرور الى رؤوس الناس على ما يأتي تفصيله في هذا الفصل المغموسة حوادثه بالدماء ٠

كان المتغلبون على اكثر البر في اوائل القرن ، الامير شديد بن الامير احمد حاكم العرب من آل جبار وكان كلقبه واسمه ظالماً جباراً عنيداً ٠ قال كاتب جلبي : وما زال آل عثمان يعطون لواء سلمية لامراء العرب وامراؤهم هم عرب آل جبار وهم قبيلتان آل حمد وآل محمد يمتد حكمهم الى جهات حلب والرقة ٠ وكان الامير قرقماز المعني في لبنان ، والامير احمد بن رضوان في غزة بعد الامير قانصوه امير عجلون وما والاها من بلاد الكرك ، والامراء بنو الحرفوش في بعلبك ، والامراء بنو شهاب في وادي التيم والامير احمد بن طرباي الحارثي امير اللجون في نابلس ، والامير منصور بن فريخ البدوي على البقاع تغلب عليه بعد ابن الحنش وحكم نابلس وصفد وعجلون وانحاز اليه جماعة من جند دمشق واشتهر واخاف الدروز ثم شن الغارة وقتل منهم مقتلة عظيمة وقد خرب بلاداً كثيرة وقتل خلقاً حتى اخذه وزير دمشق وقتله سنة ١٠٠٢ ٠ قال البوريني في سنة ١٠٠٢ ذهب على حصار قلعة الشقيف النفوس النفيسة والاموال العظيمة ، حاصرها والي دمشق ونازل قلعتي الشقيف وقلعة بانياس ، وكانتا مغلقتين على جماعة ابن معن من السكبان وغيرهم من الاشقياء ٠

وفي سنة ١٠٠٣ توفي السلطان مراد الثالث وخلفه ابنه محمد خان الثالث فقتل يوم جلوسه تسعة عشر اخاً له وعشر جوارٍ حاملات من ابيه ثم ابنين له وكان مع ذلك على رواية المحبي صالحاً عابداً ساعياً في اقامة الشعائر الدينية واوصافه كلها حسنة وهو مظفر في وقائعه عالي الهمة ٠ لم ينل الشام شيء من تدين محمد الثالث وطالبت الحكومة الاهلين باموال سنتين فلقوا شدة وعنتاً ٠

ذكر المقدسي في حوادث سنة ١٠٠٤ انه جاء ساعٍ من الباب العالي يأمر بان يجتمع العلماء والصلحاء والمشايخ والفقراء واولاد المكاتب في الجامع الأُموي ، ويقرأوا القرآن ويدعوا لعساكر الاسلام بالنصر ، وما اعجبها من قضية جمع فيها بين ظلم المذكورين وطلب الدعاء منهم ، فليت شعري باي لسان يدعون وقد اشتهر انهم يطالبون الرعايا بعوارض سنتين جديدة وعتيقة وطالبوا اليهود بمال عظيم اه ٠

وقال ايضاً في حوادث سنة ١٠٠٥ انه استقر في دمشق كيوان بلك باشي (رئيس سرية) منشئ الظلم بالشام سرداراً (قائداً) بباب صاحب الشحنة ، فشرع يصادر الناس و يسلبهم باطناً وظاهراً ، و كثرت القتلى في ازقة دمشق والطرق والاسواق ، وكان الانسان يمشي فلا يسمع الا من يقول غرموني اربعين قرشاً ومن يقول سبعين قرشاً وثلاثين وعشرين وا كثر واقل . واصطلم الناس من كثرة الظلم وبقي من يخشى الفضيحة يحمل الجريمة الى كيوان المذكور قبل ان يرسل اليه . هذا ما كان يجري في عاصمة الشأم على مرأى ومسمع من القريب والغريب ، فما بالك بما كان يجري في انحاء البلاد حيث تقل المراقبة و تضعف قوة المقاومة ، ولكن تهيأ لاخبارها هنا من دونها او بعضها حتى وصلت الينا وهناك ضاعت اخبارها كما ضاع كثير من الكوائن في هذه الديار على عهدها الحديث . وظهر في ايام احمد مطاف باشا كافل حلب (١٠٠٥—١٠٠٨) فساد كثير من العربان في انحاء حلب فأرسل عليهم ابنه درويش بك فاقتتلوا فانهزم عسكر حلب مع انهم كانوا الف فارس واخذ عرار امير العرب يتبعهم ويقتل منهم و يغير .

وفي سنة ١٠٠٧ كانت الواقعة في نهر الكلب بين ابن معن وابن سيفا بسبب بلاد كسروان فانكسر ابن سيفا وقتل ابن اخيه علي وتشتتت جيوشه وتولى الامر فخر الدين المعني على بلاد كسروان وبيروت . و يوسف باشا سيفا كردي الاصل استولى على جهات طرابلس لما اهلك رؤساء عصاة ابن جانبولاذ التركماني ، واستقل بها واخرج بواسطة عسكر السكبان جند الانكشارية من بلاده ونكل بهم وصار له بذلك نفوذ وسلطان .

وقال نعيما في حوادث سنة ١٠٠٨ ان عسكر الانكشارية في دمشق جاؤا حلب بحجة جباية اموال الدولة ، وتسلطوا على فقرائها وعملتها وتجاوزوا الحدود في الاعتداء ، واساءوا استعمال سلطانهم في الرعية ، فقطع والي حلب رأس سبعة عشر رجلاً منهم ، ودام الشقاق بين الاهالي والانكشارية مدة طويلة ادى الى سفك دماء كثيرة بغير حق اه . ومن ذلك اعتداء خداوردي سردار حلب على الناس وفتكه ونهبه وتعديه حتى ضجر منه اهاليها وحكامها حين قامت الحرب بينه وبين نصوح باشا وبينه وبين

ابن جانبولاذ ، وكان هو واحفاده قد عاثوا في البلاد وفتنوها ومنه نشأ طغيان العسكر الشامي .

ومن فتن هذه الايام خروج عبد الحليم اليازجي رأس جماعة الامير درويش الرومي حاكم صفد ، وارسال خسرو باشا نائب الشام عسكراً الى الامير درويش ليسلم الولاية الى آخر ، فقاتل عبد الحليم اليازجي عن مخدومه بالسيف فاخذ الامير درويش الى دمشق وصلب بامر السلطان . اما عبد الحليم وجماعة درويش فساروا على ساحل البحر الى طرابلس ثم الى جانب حلب ثم دخلوا مدينة كاز فتنبه لهم نائب حلب وارسل جيشاً لمحاربتهم ، فقتلوا من اصحاب عبد الحليم مقتلة عظيمة ، وخرج عبد الحليم بمن بقي معه من اصحابه المفلولين ، وما زال يحارب جيوش السلطنة في الاناضول حتى هلك سنة ١٠١٠

وفي سنة ١٠١١ باغت الامير يونس بن الحرفوش جبة بشري ، فلما بلغ ذلك ذلك يوسف باشا بن سيفا جمع السكبان الذين عنده واهل البلاد وهاجم مدينة بعلبك فاجتمع بيت الحرفوش في القلعة ، ونهب بنو سيفا بلاد بعلبك وحاصروا قلعة حدث بعلبك خمسين يوماً وملكوها وبعدان قتلوا بعضهم ثم نادوا بالامان . وفي سنة ١٠١٤ كانت وقعة جونيه بين يوسف باشا سيفا وبين الامير فخر الدين المعني فانكسر عسكر ابن سيفا .

* * *

وفي سنة ١٠١٢ توفي السلطان محمد الثالث وخلفه السلطان احمد الاول ولم يتغير شيء من حالة البلاد { عهد احمد الاول وفتنة ابن جانبولاذ وغيرها } وغاية الامر ان الخوارج في ايام السلطان الجديد اشتدت شوكتهم فنال الامة منهم كل حيف ودخلت في هرج ومرج من ذلك ، وفي ايامه ظهرت الخوارج في جهات حلب ومازالت الامور في تخبط حتى خرج جانبلاط وادعى السلطنة واضطربت الاحوال على ما سيجيء . قال القرماني : وفي ايام هذا السلطان قام الطغاة والبغاة ، وانمحت من الوجود امهات الامصار وشملها البوار ، اما القرى والقصبات والرساتيق والمزدرعات فاكثر من ان تحصر .

قال العرضي : كان من قديم الزمان في دولة بني عثمان يرسلون شرذمة من عساكر

دمشق وعليهم شور بجي بحوالات اموال السلطنة فيحصل لهم الانتفاع و يخدمون عند الدفتردار و في دار الوكالة وفي باب القنصل الفرنجي وفي كل مدة يرسلون غيرهم وعليهم شور بجي ، حتى قطن بحلب اعداد كثيرة منهم واتسعت اموالهم و كبر جاههم ، واستولوا على اغلب قرى السلطنة يعطون مال السلطنة عن القرية و يأخذون من اهلها أضعافاً مضاعفة ، وتبقى أهل القرية جميعاً خدمة لهم جميع ما يجمعونه لغيرهم لا لانفسهم ·

ومن الكوائن ان خارجياً من السكبانية اسمه رستم جاء الى كلز ومعه من البغاة أجناد كثيرة ، وكان ضابط كلز عزيز كتخدا من جماعة حسين باشا بن جانبولاذ الكردي امير الامراء بحلب ، فبعث واستنجد بعسكر حلب ومنهم العسكر الجديد فخرجوا لنصرته ، فتقابلت الاجناد وقامت بينهم سوق الحرب والضرب فانتصر رستم على عسكر كلز وحلب وقتل عزيز كتخدا وقتل من العسكرين كثير وولوا منهزمين فنهب الخارجي كلز وصادر أعيان القرى ·

ولما ولي نصوح باشا نيابة حلب — وكان متغلباً في حكمه عسوفاً قوي النفس شديد البأس كما قال المحبي — كان لجند دمشق اي الانكشارية الغلبة والعتو فيذهب منهم في كل سنة طائفة الى حلب وينصب عليهم قائد من كبارهم وكان بعض كبار الجند قد تقووا في حلب وفتكوا وجاروا خصوصاً طواغيتهم خدا ويردي وكنعان الكبير وحمزة الكردي وأمثالهم ، حتى رهبهم أهلها وصاهرتهم كبراؤها ، واستولوا على اكثر قراها ، فلما رأى نصوح باشا ما فعلوه بحيث قلت أموال السلطنة ، وصارت أهالي القرى كالأرقاء لهم رفع أيديهم عن قراها ، وجلاهم عن تلك البلاد ووقعت بينه وبينهم فتنة بل فتن وعجز عن اخراجهم فاستعان بحسين بن جانبولاذ فبعث هذا ابن اخيه الامير علي بعسكر عظيم ، فاستولى نصوح باشا على قلعة حلب ووضع متاريس تحتها واستعد للقتال ، فأخذ العسكر الدمشقي باب بانقوسا واستعدوا وجمعوا جموعهم ، وهم لا يعلمون ان حسين باشا جانبولاذ بعث عسكره ، ودخل الامير علي في اليوم التالي بالعساكر المتكاثفة فتبعهم نصوح باشا ومعه الامير علي الى قرية كفرطاب فوقع بينهم حرب فانهزم الدمشقيون بعدما قتل منهم جم غفير · ثم خرج

نصوح باشا في عسكره الى كلز فقابل حسين باشا بعسكره والتقت الفئتان فانكسر نصوح باشا وقتل اكثر عسكره ودخل حلب منهزماً وأخذ في جمع الاجناد وبذل الاموال لتكثير العدد والاعتاد . وبينا هو على ذلك جاء الامر بان حسين باشا عين كافلاً للممالك الحلبية وعزل نصوح باشا ، فلبس نصوح باشا جلد النمر وامتنع من تسليم حلب لحسين باشا ، وأقبلت بعد اسبوع عساكر الوالي الجديد حسين باشا الى قرية حيلان فاستقبلهم نصوح باشا بالحرب ثانياً فانكسر ايضاً ، ونزل حسين باشا بعساكره في أحياء حلب خارج السور وأغلق نصوح باشا أبواب المدينة وسدها بالاحجار ، وفتح باب قنسرين وحرسه ، وقطع حسين باشا الماء عن حلب ومنع الميرة والطعام عن المدينة ، ونصب نصوح باشا المتاريس على الاسوار وصف عسكره عليها مع المكاحل ، وقامت بين الواليين حرب شعواء ، وأخذ حسين باشا في حفر اللغوم والاحتيال على اخذ البلدة ، وانشأ نصوح باشا يحفر السراديب لدفع اللغوم ، وعم الحلبيين البلاء من المبيت على الاسوار وحفر السراديب ، ومصادرة الفقراء والاغنياء كل يوم وليلة لطعام عسكر السكبان وعلوفاتهم ، وأغلقت الدكاكين وتعطلت الصناعات ، وحرقت الاخشاب للطعام والقهوة ، واشتد غلاء الحاجيات وعدم القوت للحيوان والانسان ، واستمر الحصار نحو أربعة أشهر واياماً ، ثم تصالح نصوح باشا وحسين باشا فخرج الاول واستولى حسين باشا على الديار الحلبية ، وشحنها بالسكبان وصادر الاغنياء والفقراء لاجل علوفة السكبان .

ولما قتل حسين باشا خرج ابن اخيه الامير علي عن طاعة السلطنة ، وجمع جمعاً عظيماً من السكبانية حتى صار عنده منهم ما يزيد على عشرة آلاف ، ومنع المال المرتب عليه وقتل ونهب في تلك الاطراف ، الي ان تعهد الامير يوسف بن سيفا صاحب عكار للسلطنة بازالة الامير علي عن حلب فجمع له الجند من دمشق وطرابلس والتقى بابن جانبولاذ (جانبلاط) قرب حماة فكانت الغلبة على ابن سيفا ، فاستولى ابن جانبولاذ على مخيمه ومخيم عسكر دمشق ، وبعث ابن جانبولاذ فاستولى على طرابلس ، واستخرج الاموال من أهلها وأخذ دفائن كثيرة لهم ، ولم يستطع فتح قلعتها ثم سار مع حليفه ابن معن صاحب لبنان وكان هو وابن شهاب صاحب وادي التيم

وابن الحرفوش صاحب بعلبك خرب بعلبك وأحرق قراها ، وخرب ابن جانبولاذ البقاع ووصل الى دمشق ، واقتتل ابن جانبولاذ مع العسكر الشامي فانفل العسكر الدمشقي ، وأرضوا ابن جانبولاذ بمال حتى فرج عن دمشق ، واستمر النهب في أطرافها ثلاثة ايام ، ثم سار الى حلب وجاءته الرسل من السلطنة تقبح عليه فعله في دمشق ، فكان تارة ينكر فعلته ، وطوراً يحيل الامر على عسكر دمشق ، و يشرع بسد الطرق ويقتل من يعرف انه سائر الى أطراف السلطنة لابلاغ ما صدر منه ، حتى أخاف الخلق ونفذ حكمه من أدنة الى نواحي غزة ، وصاهر ابن سيفا فامتثل هذا امره ، وانقطعت أحكام السلطنة عن هذه الديار نحو سنتين ، وكان ابن سيفا بعد ان غلبه ابن جانبولاذ على دمشق ونهب ولايته التجأ الى الامير احمد بن الامير طرباي بن الامير علي الحارثي امير لواء اللجون ·

وقال القرماني : ان ابن جانبولاذ لما ولي حلب جمع كل شقي من القبائل والعشائر ، ليأخذ ثأره من جماعة الانكشارية فالتقوه في مدينة حماة ومعهم محمد باشا الطواشي نائب الشام وعامة الجيوش من الكماة ، فانهزم عسكر الدولة واستمر ابن جانبولاذ في أثرهم الى حدود دمشق فاستقبله الامير فخر الدين بن معن بمن معه من الدروز وطائفة السكمانية ، ثم التقى ابن جانبولاذ مع العساكر الشامية فاستولى على أموالهم ·

ولما حدث ما حدث في البلاد من الفتن والغوائل عهد السلطان الى مراد باشا ان يعيد الشام الى حكم الدولة اذ قد ثبت انه خرج عن حكمه ، فجاء في عشرين الف فارس وعشرين الف راجل وقيل في اكثر من ذلك ، فبرز اليه ابن جانبولاذ في أربعين الفاً فغلب ابن جانبولاذ وهرب الى الاستانة وأقنع السلطان بحسن حاله ، وجاء مراد باشا بعد ان كسر ابن جانبولاذ في سهل الروج قرب المعرة وقتل من جماعته احد وعشرين الفاً وتسلم قلعتها بالامان ، و بالغ في قطع شأفة الاشقياء والسكبانية · وكان علي باشا جانبولاذ لما انكسر مع مراد باشا حصن قلعة حلب ورفع اليها عياله واسبابه وولى عليها اطلي طوماش باشا وأمره بحفظها لمدة ثلاثة اشهر ريثما يرجع اليه بالنجدة من سلطان العجم ، ثم تجهز للسفر وحال خروجه من اراضي حلب وصل مراد باشا الوزير ومعه احمد باشا حافظ الشام ويوسف باشا ابن سيفا

وشددوا الحصار على حلب وافتتحوها ، بعد ان نصب مراد باشا المنجنيقات على قلعتها ، ووعد الطلي طوماش بالنيابة على حلب فاطمأن وسلم القلعة ثم قبض عليه وقتله وضبط القلعة ، وباع عيال علي باشا جانبولاذ بيد الدلال فبيعت والدته بثلاثين قرشاً ، ثم وقعت المناداة على المحافظين وكان عددهم فيما قيل نحو ثمانين الفاً ، فقتلوهم في اماكن مختلفة واتوا برؤوسهم الى الوزير ولم ينج منهم الا القليل ، وكان الرجل يقتل العشرة منهم ، ومهد الوزير امور حلب وخدمته جميع امراء العرب . وقالوا ان الامير فخر الدين المعني فرّ الى البادية في جماعة الدروز والعربان بعد تلك الوقائع : لانه أعان الخوارج على السلطنة . وللقيم محفوظ الدمشقي مرتجلاً ومؤرخاً واقعة دخول السكبانية مع ابن جانبولاذ الى دمشق في اوائل سنة ست عشرة بعد الالف نقلها في التذكرة الكمالية .

دخل الشام جيوش لجمال قد رغوا
كل كردي غبي بهم الناس لغوا
ودروز ولئام لمقال ما صغوا
نهبوا الشام وآذوا وعلى الناس بغوا
نهبوها في جمادى أفحشوا أرخ طغوا
(١٠١٦)

ولم تقتصر فتنة ابن جانبولاذ على دمشق وحلب بل تناولت بعلبك والبقاع وطرابلس وغيرها من البلاد . قال النجم الغزي : ان كافلي الشام وطرابلس دخلا على أهل حماة وحمص وأمرا اهلها باخلاء المدينتين وكان ابن جانبولاذ في أثرهما ، فدخل هو وعساكره حماة وحمص ونهبوهما ونهبوا قراهما ، واتفق كيوان رئيس سرية دمشق مع ابن معن على العصيان وعلى مساعدة ابن جانبولاذ ، فذهبا اليه واجتمعا به في الجون بالقرب من نهر البارد من معاملة طرابلس ، فاستولوا على بلاد حماة وحمص وعكار وجبلة واللاذقية والحصن وطرابلس وغزير وبيروت ، ثم اجتمع ابن جانبولاذ وابن معن وكيوان وحاصروا دمشق على ما تقدم قال : وكان الامر مهولاً واجتمع اكثر الناس بدمشق ،

وقال ابن المقار في حوادث ١٠١٦ : انه ظهرت طائفة من الخوارج يقال لهم السيمانية تناول ضررهم البلاد والعباد ، وأظهروا في الارض أنواع الفساد ، وحدث بين امراء الشام حروب وفتن عظيمة عم فيها النهب وخربت اكثر البلاد .

ومن الاحداث في تلك الايام ما رواه مؤرخو لبنان في حوادث سنة ١٠١٦ من ان الجند المشتى « وقيشلاق » السلطاني تفرق على البلدان من حلب الى بلاد الشوف ، وكان عدده نحو اربع كرات والكرة مئة الف . كذا قالوا وهو عدد مبالغ فيه جداً ، وما نخال عدده بلغ الاربعين الفاً ، قالوا : وكانت الناس في ضيق عظيم من الغلاء ومن الضرائب التي كانت على الضياع والاديار . ووقع في زمن تولية كوجك سنان باشا كفالة دمشق وكان يتولاها سنة ١٠١٧ ان فرقة من عرب آل جبار المعروفين باولاد ابي ريشه نفروا من العراق فوصلوا الى تدمر ، وانضم اليهم قوم من طائفة السكبانية الذين هربوا من وقعة الامير علي بن جانبولاذ . فعاثوا في تلك البلاد وقطعوا الطريق ، ولما ورد من حلب العسكر المصري الذي كان قد طلب لقتال كبير السكبانية محمد بن قلندر والاسود سعيد ، التقى جيش السلطان مع جيش البغاة فغُلب عسكر السلطان وهرب منهم جمع ، ومن جملة الهاربين الجماعة المذكورون وكانوا نحو اربعمائة سكباني ، فلما انضموا الى العرب المذكورين كان السكبان يضربون بالبندق والعرب يضربون بالرماح والسيوف ، واخذوا قلعة القسطل وقلعة القطيفة ونهبوا المعصرة وقتلوا من بها من الرجال والنساء . فلما بالغوا بالقتل والنهب والغارة والعدوان قصدهم سنان باشا ومعه العسكر الدمشقي ، وانضم اليهم عرب المفارجة وكبيرهم عمرو بن جبير فادركوا العرب والسكبان في نواحي قلعة القطرانة ، فقتلوا من السكبان نحو ثلاثمائة رجل وامسكوا منهم نحو خمسين رجلاً ، ودخلوا بهم الى دمشق على متون الجمال وعلى كتف كل واحد منهم خشبة طويلة وهي وتد (خازوق) وفي اليوم الثاني اتلفوهم وفرقوا اجسادهم على احياء دمشق .

* * *

الامير فخر الدين المعني وآل شهاب وفتن	تخوفت الدولة من الامير فخر الدين المعني الثاني لتحصينه القلاع وامتداد سلطته في اصقاع الشام ،

فارسلت عليه في سنة ١٠٢٠ الحافظ احمد باشا كافل دمشق في جيوش دمشق وكافل حلب وكافل ديار بكر وكافل طرابلس وامراء الاكراد في جيوشهم ونحو النصف من الفرسان في جيش مؤلف من ثلاثين الفاً ، وحاصر ابن معن تسعة اشهر فلم يقدر ان يأخذ قلعة من القلاع ، فلما اعيته الحيلة ارسل رجلاً من جماعته لمن في القلاع يقول : أنا مالي عندكم غرض بل ان للوزير الاعظم شأناً مع الامير فقولوا له ان ينزل الى خيامنا وعليه امان الله ونأخذ منه دراهم للسلطان وللوزير ونُقرّه في اماكنه فقالوا : الامير ذهب في المركب الى بلاد الفرنج فلما تحقق ذلك رضي بنزول ام فخر الدين فقالت : نحن ما ضبطنا بلداً بغير اذن السلطان ، ولا انكسر عندنا مال ، فعند ذلك اعطت السلطان مائة الف قرش واعطت الوزير خمسين الفاً والحافظ احمد باشا مثلها وانفصل الامر على ذلك .

هرب الامير فخر الدين الى ايطاليا تاركاً الحكم في لبنان وما اليه لابنه الامير علي واقام فيها خمس سنين وشهرين تعرف خلالها الى ملوك طسقانه من أسرة ميديسيس المشهورة في فلورنسة ، واطلع على طرف من المدنية الاوربية ثم عاد الى بلاده بعد مهلك خصمه والي دمشق فاستلم زمام الاحكام ولا سيما المسائل الحربية ، بقوة اعظم وتدبير احكم ، مستصحباً معه كثيراً من المهندسين لبناء القلاع وعمل الذخائر الحربية كما صرح كثير من المؤرخين ، وكان ابنه الحاكم في الظاهر وهو الحاكم في الحقيقة ، واخذ يحصن بلاده ويكثر الصلات الحسنة مع الفرنج ولا سيما مع الطليان ، وعقد معاهدة دفاعية هجومية مع اصحاب طسقانه كأنه ملك مستقل ، فخافت الدولة منه وكانت تعده من قبل عاصياً قوي الشكيمة ، واخذت تحاذره وتنظر اليه نظرها لعاص عارف بمقاتلها ، وانه لابد له يوماً ان يقلب لها ظهر المجن ويستقل كل الاستقلال عنها ببلاد الشام ، اذ بلغ اتباعه الى نحو مائة الف من الدروز والسكبان ولم يستول فقط على الشوف وجبل عاملة بل تعداهما الى عجلون والجولان وحوران وتدمر والحصن والمرقب وسلمية ، وسرى حكمه من صفد الى انطاكية وملك نحو ثلاثين حصناً مثل صفد ونيحا وشقيف تيرون وعجلون وقب الياس وبعلبك والمرقب والبترون .

وفي سنة ١٠٢١ خرج احمد باشا بالعساكر من دمشق الى وادي التيم ونزل في

خان حاصبيا وهرب بيت شهاب اصحاب وادي التيم منها فهدم دورهم واتلف املاكهم ونهب حاصبيا (١٠٢٢) وفي سنة ١٠٢٣ خرج الحافظ احمد باشا من دمشق الى، قب الياس واجتمع اليه حكام صفد وصيدا وبيروت وغزة وحماة وعشائرهم وامراء الغرب وبعلبك ووادي التيم، فوقع بين اهل الجرد والغرب والمتن واهل الشوف قتال بقرب نهر الباروك انكسر فيه اهل الغرب والجرد والمتن وعسكر الدولة كسرة عظيمة، فاحرق احمد باشا قصر بيت معن في دير القمر وكان رئيسهم اذ ذاك الامير يونس وقرية عبيه. ثم جرت وقعة بين جماعته وجماعة من حزب المعنيين على قلعة الشقيف فانكسر جماعة احمد باشا وقتل منهم نحو خمسمائة قتيل واكثرهم من السكبان وكان عسكر الدولة نيفاً وعشرين الفاً ثم امتنع (١٠٢٤) يوسف اغا من ان يتسلم حصن الشقيف وحصن ارنون الى ان يخرج منهما اولاد معن اولاد العرب ويتصرف بهما الاتراك تمام التصرف فشق ذلك على الامير يونس واخذ في هدمهما، ولما انتهى الخبر الى الوزير فرح جداً وامر بخرابهما ولبث المسلمون في تخريبهما اربعين يوماً. وجرت (١٠٢٥) وقائع بين اولاد ابن معن واصحاب المقاطعات في لبنان وحرق الشوف والجرد والغرب والمتن وهلك كثيرون وكانت النصرة للقيسية خربت بيت معن وكان بنو تنوخ امراء الغرب منذ سنة ٥٤٢ يميلون الى بني معن، فلما حاربتهم الدولة انتهز علي بن علم الدين اليمني والي الشوف الفرصة وقبض على اعيان المعنيين وقتلهم واستصفى اموالهم، ثم سار الى قرية عبيه فدعاه الامراء التنوخيون الى مأدبة في سرايتهم فاغتالهم وقتلهم كلهم صغاراً وكباراً فانقرض التنوخيون بموتهم.

* * *

عهد مصطفى الاول وعثمان الثاني } وفي سنة ١٠٢٦ توفي السلطان احمد الاول وخلفه السلطان مصطفى الاول المعروف بالابله فخلع بعد ثلاثة اشهر وخلفه السلطان عثمان الثاني ولم يجر في ايامه ما يستحق ان يدون في الشام اللهم الا ما كان من حرب بين ابن معن وابن سيفا (١٠٢٨) فخرب ابن معن قرية عكار وسرايا بيت سيفا في طرابلس وخرب هذه كما خرب قلعة جبيل. ثم عاد السلطان مصطفى الاول سنة ١٠٣١ فتولى الملك اربعة عشر شهراً وخلع بعدما اذ لم يعد في

الامكان ستر نقصه الذي كان يتولاه العلماء ليحكموا باسمه فأبرزوه في صورة ولي من الاولياء وما هو الا ابله من البلهاء . فزادت الدولة خلال هذه الحقبة تغاضياً عن الشام حتى قويت شوكة المتغلبين وارباب النفوذ في المدن والقرى والسهول والجبال ، واصبحت البلاد بلا راعٍ خصوصاً بعد الضعف الذي ظهر من الدولة في العقد الثاني من هذا القرن في فتنة ابن جانبولاذ وحصار الدولة لحصون ابن معن ، وتجلى لاذكياء المتغلبة موقف الدولة معهم ، فأصبحوا يزدادون في ارهاق الرعيـة بالظلم ، والولاة الكبار ليسوا دونهم في العنت والتخريب والقتل والنهب .

وكان نائب حلب محمد باشا (١٠٣١) ظلوماً غشوماً اخذ اموالاً كثيرة من كل قرية من غير سبب ، وقضى ان لاتباع البضائع كلها الا لمن عينه من جماعته ثم تباع من السوقة بعد ذلك ، فكان ظلمه مزدوجاً على المدني والقروي ، وفي هذه السنة خرب صاحب الشرطة جميع قرى القنيطرة وفي السنة التالية (١٠٣٢) خرب الامير فخر الدين ابن معن كرك نوح وسرعين نكاية ببني الحرفوش .

* * *

عداء على الفرنج وفتن داخلية

وبينا كان ابن معن يهيء السبل للفرنج حتى تزيد متاجرهم مع اهل الساحل ويكثر سوادهم في مدنها ولا سيما في موانيها ويرخص لهم بتأسيس قنصليات ويدخل رجال الدين في ايامه الى لبنان ، ارتكب ابن سيفا حاكم طرابلس سنة ١٠٣٢ امراً عظيماً نفر الفرنج من غشيان الموانى لاستبضاع القطن والحبوب ، فضبط مركبين فرنساويين كان معهما ثمانون الف قرش لابتياع بضائع ، فأرسل ابن سيفا وامسك ولدين صغيرين من المراكب وعلمهما ان يقولا ان المركبين للقرصان ، وانهما اخذا في طريقهما مركب تجارة للمسلمين ، وزعم انه وجد في المركبين اسباباً لمداخلة المسلمين ، ولم يكن ذلك صحيحاً ولكن جعل ذلك طريقة لضبط جميع ما في المركبين من البضائع والاموال ، وامسك جميع من فيهما من التجار والنوتية وقتلهم جميعاً . وبعد ذلك باع المركبين بثلاثة آلاف قرش . قال الشهابي : ومن حين حدوث هذه الفعلة لم يدخل ميناء

طرابلس من تجار الفرنج احد ، وتوجه اناس من الفرنج الى الباب العالي للشكوى على ابن سيفا ، ولكن لكثرة اختلاف الاحكام وعزل الوزراء لم يلتفت احد اليهم وراحت على من راح .

ومن الفتن الاهلية ما حدث سنة ١٠٣٢ من دخول الامير احمد الشهابي والشيخ حسن الطويل بلاد عجلون ومقابلة أهل القرى لهما وتجمع أهالي بلاد نابلس وعربها ، وحرقت من القرى قرية فارا وقرية الخربة وقرية حلاوى وكانت من اكبر قرى عجلون ، وحرق الامير علي الشهابي قرية مسرعين في البقاع وجميع قرى بعلبك وتحصن أهل بعلبك في القلعة . وجرت فتنة بين عساكر دمشق والامير يونس الحرفوش — وكان هذا ظالماً متجاهراً بالظلم — وكرد حمزة سنة ١٠٣٣ فاغتنم الانكشارية الفرصة وأغاروا على المستضعفين من الاهلين وتعاقب تغيير الولاة وانحاز بعض الخوارج اليهم ونقل الناس أمتعتهم وأثقالهم من خارج مدينة دمشق الى داخلها مراراً ، وحارب العسكر الدمشقي اولاد الحرفوش لاخراجهم من بعلبك .

وكان كيوان أحد كبراء الاجناد في دمشق خلال هذه المدة ينزع الى التعدي ولا شكيمة ترد جماحه ولا وازع يكف من غربه ، فأخذ الناس بالتهمة وتطاول الى أخذ أملاكهم حتى استولى على اكثر بساتين الربوة والمزة من ضواحي دمشق وضم بعضها الى بعض ، وكان اذا أخذ حصته في مكان احتال على الشركاء فيه حتى يأخذ حصصهم طوعاً او كرهاً ، وكان نواب محكمة الباب وأعيان شهودها يساعدونه على عدوانه حتى أهلك الحرث والنسل . وذكر الغزي ان كيوان الطاغية أعيا أهل الشام ظلماً وفتنة ، وكانت بداية كيوان نهاية اويس ثم تجاوز عنه بمراتب ، فطمع هو وقائد الصالحية اولاً في املاك الفلاحين واستخلاص ماملكوه بالشراء او بالمغارسة فكان يعمل الحيلة لاحدهم حتى يوقعه في مخالب صاحب الشحنة ولو بالتهمة والاستتباع . وقد اقترف يوسف السقا من الاجناد الدمشقيين ضروب المظالم ، وصادر الناس في أموالهم وعقارهم ، وقبض على غالب أعيان دمشق وشيوخها وهرب بعضهم ، واغتصب من تجارها المشاهير وبعض أهلها الضعفاء مالاً جزيلاً أناف على مائتي الف دينار ومن التحف والاقمشة ما لا يحصى . ومثل هذه الشؤون كانت تجري على مشهد من

الولاة في عاصمة الشام ويتغاضون عنها لانها قد تكون بايعازهم وهم لا محالة شركاء اولئك الزعماء ؛

* * *

حملات على الامير فخر الدين المعني وغيره

أدركت الدولة ان خطر الامير فخر الدين المعني على حياتها في هذه الديار زاد عن سنة ١٠٢٠ وانه تأصلت أحكامه بعد عودته من ايطاليا ، وما كانت في حملتها الاولى والثانية لتغضي عن تخريب بلاده الا اضطراراً ، فساق هذه المرة مصطفى باشا والي دمشق (١٠٣٣) جيشاً على الامير فخرالدين فاستظهرهذا بالاميرمحمدالشهابي حاكم وادي التيم كما استظهر حاكم الشام بابن سيفا حاكم طرابلس وابن الحرفوش صاحب بعلبك فهلك جمهور من عسكر الشام قدر بمائتي قتيل ولم يقتل سوى رجال قلائل من جماعة ابن معن ، وكانت الوقعة في عين الجر (عنجر) من عمل البقاع . وقبض جماعة ابن معن على والي دمشق فجاء الامير فخر الدين وقبل ذيله ، وقيل شفع بالوالي علماء دمشق وكبراؤها لدى ابن معن ، ورجع عسكر دمشق مفلولين وفي رواية انهم خامروا على الوالي وأطلق الامير فخر الدين والي دمشق مكرماً ، فعاد الى الفيحاء ينتقم ممن كان السبب في غزو ابن معن . وهذه الوقعة زادت في مكانة امير لبنان في نظر الدولة والامة ، ودلت على انه كان مع قوته عاقلاً بعيدالنظر ، وانها عاجزة عن أخذه الا بتجهيز جيش عظيم لانها حاولت غير مرة ذلك فرجعت بالخيبة خصوصاً وقد علمت محالفته لكوسموس الثاني كبير دوجات طسقانه ، وان فخر الدين لما استظهر باسطول فرديناند الطسقاني استولى على ساحل الشام وغلب جيش الدولة غير مرة .

وفي سنة ١٠٣٣ ايضاً جلس جماعة الوالي بدمشق على الطرق ومعهم الريش يضعونه على رأس كل من يرونه و ينادون عليه « مستاهل لم يقدر ان يرفعها من شدة الخوف » قال المقار : فلما كملوا أرسلوهم الى اليمن فقتلوا كلهم هناك . ومعنى ذلك انالدولة كانت تريد تجنيد أناس لتبرسلهم منالشام الى اليمن فلم تر أظرف ولااعدل من هذه الطريقة في التجنيد . وفي سنة ١٠٣٨ عين والي دمشق شرذمة من

العسكر لمنازلة بني شهاب الذين يسكنون وادي تيم الله بن ثعلبة فنهبوا بلادهم وأحرقوا قراها ·

وقد وزعت الدولة عسكرها على بلاد الشام ليشتي فيها سنة ١٠٤١ وكان جيشاً كبيراً نخص دمشق منهم اثناعشر الف جندي ماعدا اتباعهم ، وكان مأكلهم ومشربهم من اهل دمشق أقاموا بها اربعة اشهر ؛ فلما عزموا على السفر أخذوا ترحيلة من اهل دمشق خمسين قرشاً من كل دار فاضطرب أهل دمشق اضطراباً عظيماً · وقال شيخ الادب في عصره ابو بكر العمري من قصيدة وصف بها سنة « القشلق » :

قوم من الاتراك عاثوا بها على خيول ضمّر سبق
من جهة الشرق لقد اقبلوا والشر قد يأتي من المشرق
في رقعة الشام غدت خيلهم وذلت الأرخاخ للبيدق
اجلوا اهالي الدور عن دورهم بالسيف والدبوس والبندق
واتخذوها مسكناً دونهم بالفرش من خز واستبرق
وحملوهم كلفاً أعجزت غنيهم جهداً فكيف الفقي

قال المحبي : ان القشلق من عسكر السلطان مراد بن احمد كانوا عينوا لمحاربة شاه عباس فدهمهم الشتاء دون الوصول الى خطة العجم فأُمروا ان يشتوا في دمشق وأطرافها من القرى وضيقوا على الناس امر المعيشة و بالغوا في التعدي ونهب أموال الناس · وكان قاضي القضاة بدمشق احمد بن عوض العينتابي تولى هذا المنصب سنة ١٠٤١ فسعى بقمعهم وكف شرهم ·

وفي سنة ١٠٤٣ جاء السردار الاعظم محمد باشا الى حلب يحمل مرسوماً سلطانياً بقتل نوغاي باشا لانه تهامل في قتل من يجب قتلهم من الاشقياء واكتفى منهم بمصادرة أموالهم ، فقتل وأرسل رأسه بلحيته البيضاء الى جانب السلطنة · قال نعيما : وهذا الوزير ممن سبقت لهم خدم جلى للدين والدولة وهو من أقدر الوزراء · وفي هذه السنة تجمع نحو خمسمائة من أرباب الفساد من الانكشارية وثاروا بوالي حلب فقتل منهم خمسون وجرح كثيرون ، ثم جاء رؤساؤهم معتذرين للوالي بما صدر من أوباشهم فتأثر جميع النافخين في بوق الفتنة وقتل الجرحى والهاربين منهم فسكنت

النائرة . وفي هذه السنة خرجت عساكر كثيرة من دمشق و باغتوا بلاد ابن شهاب امير وادي التيم فنهبوها وأحرقوا قراها و باغت صاحبها العسكر الدمشقي فظفر بهم ورجعوا عن بلاده .

* * *

القضاء على الامير فخر الدين المعني

وفي سنة ١٠٤٣ قويت كلمة الامير فخر الدين بن معن الثاني وكانت الدولة منذ ثلاث وعشرين سنة تنظر اليه نظر الخارج عن طاعتها ، حاولت غيرة مرة أخذه فلم تستطع لانه كان بجيشه أقوى من الجيوش التي تساق عليه ، وبلاده حصينة بطبيعتها وحصونه كثيرة ممتنعة ، ولولا ان كانت الدولة مرتبكة بغوائل خارجية لضمت قوى كثيرة من قوتها وأخذته اخذ عزيز مقتدر ، فلما استراح بالها من مشاكلها أرسلت عليه جيشاً من الاناضول بقيادة احمد باشا الارناؤدي كافل دمشق فانتصر عليه الامير فخر الدين في وقعتين قرب صفد ثم انتصر عليه القائد العثماني في وادي التيم وقتل ابنه علياً وتوفي أخوه متأثراً من جراحاته ، وكانت أرسلت الدولة عليه اسطولاً من البحر فغلب على اكثر سواحله وعاون بنو سيفا وأصحاب الاحزاب بعسكر وافر الجيوش العثمانيـة ومشوا مقابل المراكب على طريق البر فتشتت المعنيون ، وكانت الدولة تحـاذر من معاونة اسطول البنادقة او الطسقانيين له ، ولجأ الامير الى شقيف تيرون فضاقت نفسه وفي رواية انه هام على وجهه في الجبال سنة ودل جماعته عليه ، ثم عمد الى مغارة في جزين فاضطر ان يسلم نفسه الى الوزير العثماني فدخل به الى دمشق بموكب حافل وهو مقيد على الفرس خلفه ، ثم حمل الى الاستانة فقابله السلطان مقابلة لابأس بها ولامه على افعاله فقدم اعذاره ، واحتج بانه جمع الرجال لامور مختصـة بالوزراء والنواب وما قتل غير العصاة على السلطنة ، وان القلاع التي استولى عليها وفتحها كانت بيد العصاة وسلمها للسلطنة فاقتنع السلطان من كلامه وعفا عنه ولكنه ابقـاه مخفوراً - ولما قام حفيده الامير ملحم وكسر جيش والي دمشق ونهب صور وبيروت وعكا صدر امر السلطان بقطع رأس الامير فخر الدين وخنق ابنه الاكبر .

وذكر الشهابي ان الامير علي بن علم الدين اليمني الذي وسد اليه حكم لبنان بعد

اسر الامير نخر الدين قد ضبط جميع ارزاق بيت معن وقبض على تابعيهم وقتل بعضاً منهم ، ثم باغت الامراء بيت تنوخ وكانوا في الحمام في السراي التي تحت القرية فقتلهم وردم البرج على اولادهم الصغار ، ولم يترك من بني تنوخ ذكراً يخلفهم ، فلما بلغ ذلك الامير ملحم بن معن جمع من كان معه من القيسية وركب على اليمنية فقتل منهم كثيرا وقدر من قتل من الفريقين بنحو اربعمائة نفس ، وقتل مدبر كوجك احمد باشا وانهزم الامير علي بن علم الدين الى دمشق وخرج بعسكر من دمشق نحو خمسمائة رجل وعندما وصل تحت قب اليـاس نزل سعيد احمد ابو عذرا الى مقاتلتهم برجال العرقوب في نحو اربعمائة رجل ، فأخلت له الدولة الخيام حتى دخل بالرجال ثم اطبقوا عليه فما سلم منهم الا القليل ، فرجع الامير ملحم واختبأ في الشوف وتجـددت عند ذلك الشكايات على الامير فخر الدين وعنـدها امر السلطان بقتله ٠ قال المرادي : ان املاك الامير فخر الدين وهبها السلطان مراد الى احمد باشا الكوجك ، وكان عمر التكية خارج باب الله بالقرب من مسجد القدم بدمشق فوقف عليها ذلك من متعلقاته في بعلبك وصيدا وريشيا وحاصبيا وكانت املاكاً لفخر الدين ٠

وبهلاك الامير فخر الدين وضعف سلطة الامراء المعنيين استراح الامراء المجاورون لبلده امثال بني سيفا في طرابلس والامير احمد بن طرباي الحارثي امير اللجون في بلاد نابلس ، وقد وقعت بين هذا وبين الامير فخر الدين حروب كثيرة ، وكان ابن معن توجه الى بلاده ثلاث مرات لقتاله ورحل ابن طرباي الى الرملة وكان في كل مرة يكسر عسكر ابن معن ويدحره ، واشهر وقعاته معه وقعة يافا وكان هو وحسن باشا حاكم غزة والامير محمد بن فروخ امير نابلس فقتل من جماعة ابن معن مقتلة عظيمة وغنم غنيمة وافرة ٠ وحارب مرة بدو الساحل على نهر العوجا قرب يافا وبدد جموعهم ولكن اهل بلاد حارثة من عمل جينين حاصروه في قلعة جينين واخرجوه منها ٠

هلك ابن معن بعد ان كاد يستولي على البلاد كلها بأخذه اولاً املاك بني سيفا وبني الحرفوش في طرابلس وبعلبك ، وقد كان واسع الصدر بعيد الغور والنظر متسامحًا يسير مع المدنية سير تعقل ، واخذ في آخر امره يعمر في بيروت حديقة للوحوش تقليداً لملوك ايطاليا ، وعمر قلعة صرخد وقلعة شميميس على كتف الروج من عمل

حلب وقلعة فوق انطاكية وجهزها بالعساكر. فشكته حكومة حلب للباب العالي .
قال المحبي : ان ابن معن بلغ مبلغاً لم يبق وراءه الا دعوى السلطنة . وعلل البوريني سبب اخذ الدولة للامير فخر الدين المعني انه اخذ يحصن قلعة الشقيف عدة اعوام واخذ لواء صفد ، فعظم شأنه وارتفع مكانه وبعد صيته ، وكثرت امواله لانه تصرف في بلاد ما خطر في بال احد من الامراء التصرف فيها ، وكان متصرفاً في بلاد كفر كنه وبلاد عكا والساحل وصفد وبلاد ابن بشارة والشقيف وبيروت وصيدا وجبل كسروان وجبة المنيطرة وجبيل وانطلياس والبترون والجرد والغرب والمتن والشوف والمقيطع والشحار والبقاع وبعلبك وصور والمعشوقة ، وما كفاه ذلك حتى انه جاء الى قلعة الشقيف وحصنها وجددها وشحنها بالارزاق الكثيرة وجعل بها من آلات الحصار ما لا يعد ولا يحصى واستمر في ذلك التحصين نحو عشرة اعوام فتفطن له الامراء والوزراء .

وقال نعيما : ان قلاع الشقيف وبانياس ودير القمر كانت محصنة في عهد ابن معن فصعب استيلاء الجند العثماني عليها لما عصى على الدولة ، وان من قتلوا في برهة قليلة من عصاة الدروز بلغ نحو ثلاثة آلاف وأُحرقت بيوتهم وقراهم وان عهده وما بعده في الجبل مضى مع الدولة تارة في حرب وطوراً في سلم وصلح اه . ومن الحصون التي رمها وانشأها قلعة قب الياس وبانياس وبرج الكشاف في بيروت وبرج البحصاص في طرابلس ورأس بعلبك واللبوة وحدث بعلبك والصات وحيفا ونوله وسمر جبيل وطرابلس وصافيتا والمرقب وحصن الاكراد .

وكانت له في باب قوة الارادة آيات منها انه لما حدث اختلاف بينه وبين بيت سيفا اصحاب طرابلس ، اتى بنو سيفا واحرقوا ونهبوا الشوف فاقسم كما قيل هكذا : « وحق زمزم والنبي المختار لعمرك (لاعمرك) يا دير بحجر عكار » . وهكذا كان فانه لما فاز على بني سيفا وحاصر قلعة الحصن واخذها وهدمها ، جعل الجمال بالالوف تجلب الحجارة من قلع عكار الى دير القمر وبنى جميع الدور القديمة في الدير ووزع في جدرانها من حجارة عكار الصفراء .

كان ابن معن يجمع الى الحسنات سيئات فمن حسناته انه كان يميل الى عمران

بلاده ، و يتسامح مع الاجانب حتى تكثر صلات الشاميين بهم للتجارة ، وكان عنده على الدوام عشرة آلاف جندي تحت السلاح و يستطيع ان يجند مثلها وقيل انه كان يستطيع ان يجند اربعين الفًا . وقد سئل لما كان في ايطاليا كم يقدر ان يجهز من العسكر فقال: كنت اجمع نيفًا وعشرين الفًا ماعدا الذين يتأخرون في البلاد للمحافظة ، وكان يفضل على الادباء والعلماء وكذلك كان يفعل خصومه بنو سيفا . اما سيئاته فكان مفرطًا باخذ الاموال من الناس ولا سيما بعد ان زار ايطاليا وتعلم منها البذخ حتى اشمأزت منه رعيته وقد بلغت جبايته تسعمائة الف ليرة يعطي الدولة نحو ثلثها ويتمتع بالباقي . وكان نزوعًا الى العلي محافظًا على صلواته مع الجماعة وعلى عاداته الاسلامية حتى في ايطاليا ، وبنى جامعًا ومأذنة في البلدة التي نزلها ولما كان في الغرب عرض عليه ملك اسبانيا ان يدين بالنصرانية و يتولى مملكة عظيمة اعظم من مملكته فاعتذر بلطف . ذكر هذا مؤرخه الخالدي الا ان « المعلمة الاسلامية » تقول : ان الامير فخر الدين لما فر الى ليفورنا (١٠٢٢) واستقبله كوسموس الثاني الدوق العظيم باحتفال حافل لم يتحقق الامل الذي كان عقده من العودة في الحال بجيش معاون من المسيحيين للقضاء على السلطة التركية في الشام . وعبثًا حاول ان يظهر ان الدروز من نسل مسيحي اسمه الكونت دي درو وانه هو ايضًا من ابناء كودفري دي بوليون من امراء الصليبيين ولم يوفق ان يحمل المسيحيين على اعلان حرب صليبية جديدة . ور بما كانت قواه اذا قيست بقوى ابن سيفا صاحب طرابلس متكافئة لان الدولة كانت تعضد سرًا ابن سيفا حتى لا يتعاظم نفوذ ابن معن ، ولكن شتان بين الرجلين في الغناء وبعد النظر .

***

فتن في الساحل

وفي سنة ١٠٤٤ حارب الامير عساف بن يوسف باشا سيفا الامير علي بن عساف واحرق بلاد جبيل والمنيطرة ثم قتل من جماعة عساف كثيرون ، وكثرت الحكام والاحزاب في لبنان وظلموا الرعايا واخذوا المال الاميري مرتين ، وقبضوا على رؤساء القرى وشددوا عليهم ليخبروا عن ارزاق بيت معن وبيت الخازن ، وفي السنة التالية باغت الامير علي بن

سيفا قرية أميون ونهبها واحرقها ، فجمع خاله الامير عساف الرجال ودارت الحرب بينهما في ارض عرقة في طرف الزاوية فانكسرت جماعة الامير علي ثم اعادهذا الكرة على خاله في عناز من بلاد الحصن فظفر به الامير عساف وقتل من جماعته مقتلة كبيرة واشتد الضيق بالناس ·

وفي سنة ١٠٤٦ قصد احمد الشمالي اغا الانكشارية مقاتلة الامير علي بن علم الدين لتأخره في اداء المال السلطاني ومعه متولي صفد وبيروت وطرابلس فانهزم قدامهم ، ورحل معه يمنية بلاد الغرب والجرد والمتن والشحار والشويفات بعيالهم ومواشيهم وكانوا نحو سبعة آلاف نفس فدخلوا بلاد كسروان ، وانهزم من قدامهم القيسية وكسروهم في مرحاتا في ظهور الشوير ثم طردوهم من كسروان فساروا الى عكار وسار عسكر الدولة على طريق الساحل ودخلوا طرابلس وخرجوا الى نهر البارد فانهزموا من امامهم ولحقوهم بارض الجون فكسروهم وسبوا حريمهم واخذوا مواشيهم ثم ان طروبه البدوي تداخل بالصلح بين الامير عساف وابن اخته الامير علي فرجع ابن علم الدين الى بيروت · ولما حدث ذلك الاختلال في بلاد الساحل ظهر الامير ملحم بن معن وحكم الشوف · وجمع بيت الحرفوش سكانهم وعربانهم لاسترجاع بعلبك فخرج اليهم نائب الشام بعسكره ووقع بينهم الحرب فظفر النائب ببيت الحرفوش وقتل منهم مقتلة عظيمة ·اي ان الحال لم تستتب في لبنان بهلاك الامير فخر الدين المعني وقد جرت شؤون كثيرة من خراب وقتل وشنق في السنين التي اعقبت قتله حتى آخر عهد السلطان مراد الرابع ·

وكان الوالي بدمشق سنة ١٠٤٦ درويش محمد باشا الشركسي ففتك باهلها وتجاوز في ظلمهم الحد وفي آخر ايام (١٠٤٧) اجتمع العامة على القاضي واشتكوا من الظلم و بالغوا في التوسل فلما بلغه ركب وكان في الوادي الاخضر بدمشق مخيماً واتى مغضباً وسفك دم بعضهم ثم عزل وصار امير الامراء بطرابلس · وهذه القاعدة مما كانت تسير عليه الدولة في نقل الولاة فمن ترتضيه ويوافق مصلحتها تنقله الى مكان آخر اذا قامت عليه الشكايات مهما عظمت وثبتت لديها ، كأن الولاية الاخرى ليست من ملكها ولا يهمها امر أهلها ، او ان الوالي بمجرد نقله يغير أخلاقه ·

ابراهيم الاول وسفاهته } توفي السلطان مراد الرابع سنة ١٠٤٩ بعد ان حكم سبع عشرة سنة وكان من الشدة على جانب عظيم منهمكاً في شهواته ولذاته ، قيل انه قتل مائة الف انسان منهم خمسة وعشرون الفاً بنفسه اوأمام عينيه ولكنه أمن على حدود البلاد الشرقية باستيلائه على بغداد، وهو الذي قضى على الامير فخر الدين المعني الثاني ولولا ذلك لاستقل هذا بالشام لا محالة وربما امتد حكمه الى أبعد من ذلك من الاقطار والممالك ، ولم ترتح البلاد بعد مراد الرابع ، كما انها لم ترتح على عهده فخلفه السلطان ابراهيم وكان خالعاً ماجناً فسدت المملكة في ايامه باخلاقها ومشخصاتها ، وكان أبداً في شاغل عن الامة الا بما كان فيه تحقيق شهواته ، وكان غريباً فيها . وقد عقد مرادبك في تاريخه «ابوالفاروق» فصلاً في سلطنة النساء استغرق جزءاً برمته نلخصه هنا ليتبين للقارىء كيف يكون حال مملكة سلطانها سخيف ضعيف .

ومما ذكر فيه استرسال السلطان احمد في الشهوات حتى قضى في الثامنة والعشرين شهيد الغواني والكؤوس ، اما السلطان ابراهيم هذا فهو أعظم زير ابتلي بحب النساء حتى كان كل اسبوع يبني ببكر ويجري له عرس وتقام الافراح في قصره ، وكان كلما سمع هو او والدته « كوسم والدة » او أحد حاشيته وحملة غاشيته ووزراؤه وعماله بغانية حسناء يقدمونها لسلطانهم ، حتى عجز السلطان عن ملامسة النساء لكثرة افراطه فجاء « جنجي خواجه » وكتب نسخ الادوية والعقاقير النافعة في القوة حتى أصبحت المملكة تفاخر بان سلطانها يستطيع ان يقترب من اربع وعشرين بكراً في الاربع والعشرين ساعة ! وأصبح القول الفصل في القصر السلطاني للجواري والسراري ، وكان على نسبة اشتداد أعصاب السلطان يضعف عقله وهو لا عمل له الا الافراح والنساء والغناء والخلاعة ودخول الحمام واقتناء الجواري والحلي والزهور والاموال والطرائف ، واصدار الاوامر بقتل الانفس بمعنى وبلامعنى ، واخذ يستريح الى رؤية المناظر الفظيعة من القتل شأن قياصرة رومية في أواخر أيامهم .

وكان تقرر جعل النساء الرسميات اربعاً ثم أبلغت والدة السلطان عددهن الى ثماني نساء ، لان نسل بني عثمان كاد ينقرض ، واحبت كوسم والده تكثير نسلهم

على هذه الصورة ، ولكل واحدة من تلك الجواري من الخدم والخادمات والوصيفات والندماء والنديمات والخازنات والملبسات الخ عشرات وربما مئات ، تجبى واردات الولايات العظيمة لتعطى الى المقربين والمقربات ، والوظائف تباع بيع السلع بالمزاد ولا سيما على عهد الاغوات بكتاش اغا ومراد اغا ومصلح الدين اغا وأمثالهم ، ولم يبق احد لا يرتشي من الصدر الاعظم فنازلاً ، لان السلطان يطلب من كل عامل عنده جُعلاً يليق بشأن سلطانه ، حتى تعدت الحال في طلب الاموال الى كبار التجار في الاستانة ، واخذ رجال القصر ونساؤه يسلبون من الامة ما يقدرون عليه ، واضطر كثير من التجار الى الاختفاء واغلاق حوانيتهم تخلصاً من مطالب جماعة السلطان ، ولا تسل عن رواج سوق الحلي والجواهر والعربات المرصعة والطسوت المحلاة والنعال المزينة بالاحجار الكريمة والاسراف في استعمال الذهب واللؤلؤ والزبرجد وسائر المعادن النفيسة في الآنية والزينة والنقش فانه مما لا تتصوره العقول ·

وكانت واردات لواء (سنجاق) تعطى من قبل نفقة لنساء القصر فأصبحت أيالة الشام على طولها وعرضها يخصص ريعها وجبايتها لمرأة السابعة بحسب الاصول الحديثة على العهد الابراهيمي · ولم يرض النساء ان تجبى لهن الولاة وبكوات الالوية الاموال ، بل كنّ يعين جباة مخصوصين من قبلهن يجبون باسمهن ريع الولاية او اللواء · وقد كان الذي عهدت اليه جباية واردات الشام محمد اغا الذي اشتهر فيما بعد في التاريخ العثماني باسم محمد باشا الكوبرلي الكبير ، وهو ممن منعوا بتدبيرهم الدولة العثمانية من السقوط · قال ابو الفاروق : ولا غرو فقد توجد الدرة النفيسة بين الكناسات والقمامات ·

ولم يكتف السلطان بما كان يقدم له من النساء بل كان يطوف العاصمة وضواحيها ، فاذا رأى من أعجبته وتردد وليها في ارسالها يلقى جزاءه في الحال ، وبلغ السلطان مرة ان امرأة ابيشر مصطفى باشا في جهات سيواس على غاية من الجمال ، فأرسل الى واردار علي باشا ثلاثين الف ليرة ليبعث اليه بزوجة مصطفى باشا فنفر علي باشا من اقتراح سلطانه وأجاب بالرفض ، فقرر السلطان اهلاكه ولكن علي باشا رفع راية العصيان وجعل عالي الاناضول سافلها ، وقرر السلطان ان يأتي بزوجة ابيشر مصطفى باشا

و يعريها و يجعلها في احد الشوارع المهمة بين عمودين يربط اليهما رجلاها و يداها و يطلق للعامة والعسكر ان يلمسوها حتى تموت ، فلم يقنع السلطان أصحابه بالرجوع عن هذا العمل البشع الا بعد اللتيا والتي ·

المرء يصرع ثم يشفى داؤه   والحمق داء ليس منه شفاء
والحمق طبع لايحول مركب   ما ان لاحمق فاعلمن دواء

وقرر هذا السلطان الاخرق يوماً ان يقتل عامة المسيحيين في مملكته فاحتال عليه شيخ الاسلام قائلاً ان في قتلهم نقص واردات السلطنة ، وان مئتي الف انسان اذا قتلوا في العاصمة تخف الجباية لا محالة ، و بهذا استرجعوا من هذا المعتوه الفاجر ارادته المختلة وهكذا حتى خلع وقتل سنة ١٠٥٨ بعد سلطنة ثمان سنين وتسعة اشهر · وقد قتل عدة من رجاله وقتل الصدر الاعظم مرة لانه بعث في طلبه لتدارك خطب للقصر فقال له الوزير : ان هذا الطلب ليس من الامور المهمة التي يفكر فيها من يفكر في امور السلطنة فمثَّل به في الحال ولم يجرأ بعدها على تولي الصدارة الا من كان على جانب من الرياء والنفاق ليرضي السلطان ·

وذكر مؤرخو الترك ان سلطان زاده محمد باشا الذي تولى الصدارة على عهد السلطان ابراهيم ثلاث سنين خرب خلالها في جسم الدولة ما لا يقع مثله في ثلاثة قرون ، و بلغ من ريائه مع سلطانه ما لم يوفق اليه أحد ، جاءه امر من السلطان ذات يوم يقول فيه : ان الخزينة نضبت أموالها ولا بد ان يسترجع ما اهداه اجداده السلاطين الى حرمي مكة والمدينة من الجوهرات ليسد العجز فقال الصدر الاعظم على دهائه وريائه وهو يقرأ هذه الارادة السلطانيـة : لقد سقطت الدولة الى هذه الحالة بفيلق من الجواري الناقصات من بنات الروس وبولونيا والمجر وفرنسا ·

ومما ذكروه في باب اسراف ذاك الدور انه كان عند دفتردار محمد باشا ٤٧ طاهياً و٧ رؤساء طهاة ولكل طاهٍ خدامه وخيامه واشياؤه وبغاله وجماله حاضرة على الدوام وفي بيت مؤنته من الاواني المرصعة والمذهبة والمفضضة وغيرها ما يبلغ مجموع ثمنه ثروة كبرى للغاية ، فانظر الى هذا الاسراف · وهكذا بالغ السلطان ورجاله في الاسراف بكل شيء وفسدت الاخلاق واي فساد ولا من يجسر ان يأمر بمعروف

او ينهي عن منكر حتى قال ابو الفاروق : ان معظم كبراء الامة ومن كان لهم علاقة بقصر السلطان ابراهيم كانوا يتقربون اليه بتقديم الابكار الحسان فرأوا القيادة والدياثة احسن شافع لهم عنده للترقي والاغتناء ·

فاذا كان على هذا النحو حال دار الملك وحال قدوة رجال الامة فيها ، فما الحال بالولايات ولا سيما البعيدة كهذا القطر ، وكان ولاته كولاة غيره من جماعة القصر ينصب اكثرهم بشفاعة النساء والقوادين والقوادات · على هذا المثال كان اغوات القصر الاغبياء ينصبون الولاة ولا يتركون لهم مجالاً ليقفوا على حال البلد الذي يقضى عليهم ادارته بل يبدلونهم بغيرهم بعد مدة وجيزة و يبعثون بآخر من هذا الطراز · كل ذلك من مقتضيات الجهل والطمع والشفاعة ، فاقتضى ان يكون الوالي من صنائع بعض المظيمات او العظماء ، وكثيراً ما يكون ما جمعه من المال في ولايته داعياً الى توجيه النظر اليه فيقتل لتصادر امواله ، ولطالما كان قتل العمال مما يروق السلطان لانه يقبض على اكثر موجودهم ، وكم من مرة كانت امرأة احدهم او قصره البديع في المضيق في فروق سبباً الى الغضب عليه والحسد له ، حتى يورده الوزير الاكبر او غيره حتفه ليتمتع بعده بزوجته او ليسكن قصره او ينال غير ذلك ·

وذكر ابو الفاروق عند كلامه على مصطفى سلطان وكيف تجرد في قصره عن العالم وحصر وكده في شهواته ان آل عثمان من القديم تفردوا بغلبة شهواتهم عليهم ، وقد وقع عارض لمراد الثالث فأخذ اهل القصر السلطاني يتعلمون ادوية الباه من الشرق والغرب وهو اخذ يسيء استعمالها ·

* * *

فتنة والٍ اخرق في حلب ومن الاحداث في ايام السلطان ابراهيم فتنة ثار وقدها بين الانكشارية ورؤسائهم في حلب كان السبب فيها ان الانكشارية طلبوا من رؤسائهم ان يعطوهم غروشاً بدلاً من الاقچات ، وطلبوا عزل وكيل رئيسهم وكاتبه ، فقتل منهم جملة ثم وقعت بينهم وبين رجال الصدر الاعظم فتنة قتل فيها نحو خمسين رجلاً من الطرفين وانتهت القضية بقتل آغتهم ووكيله وكاتبه · ومنها ما رواه نعيما في حوادث سنة ١٠٥٤ قال : انه كان في بر

حلب رجل اسمه الامير عساف يتولى امارة البادية ، وقد اخذ يسلب ارباب القرى اموالهم وسلط اشقياء العربان عليهم ، فأنشأوا يقطعون السابلة حتى عم شرهم وصعب استئصال شأفتهم ، فدبر والي حلب ابراهيم باشا تدبيراً اخرق وذلك بان دعاه الى مأدبة ليغتاله في خلالها ، وعلم الوالي ان الرجل لا يوافي حلب فارتأى ان يأدب المأدبة على خمس ساعات من المدينة ، فخرج الوالي في جنده وخرج عامة اهل البلد لابسين احسن بزة ، راكبين الخيول المطهمة ، حتى وافوا محل الضيافة التي اقامها الوالي لامير البر ، وكان الوالي اوعز الى جنده ان يطلقوا النار على الامير عندما يقترب منه لتقبيل الركاب على العادة فأتمروا بامره ، ولكن الامير كان يلبس ثلاث دروع فلم يؤثر فيه سلاحهم وركب فرسه من ساعته ، وكان معه زهاء ستة آلاف فارس مدججين بالرماح ، فحملوا على جند الوالي حملة منكرة وقتلوا منهم جماعة ، واحاطوا بالاهالي فسلبوهم ثيابهم وخيولهم ، ولم يكونوا اقل من خمسة آلاف وقد جرح اكثرهم ، ورجع الوالي الى حلب لم يظفر بمبتغاه فأثرت هذه الحادثة في بلاد حلب ، واخذ الامير عساف يعادي الدولة العثمانية علناً وطمعت البادية فأخذوا يطيلون ايدي اعتدائهم اكثر من قبل فاضطرت الدولة الى تنحية واليها الفاسد الرأي السيء التدبير ، وبذل الوالي اللاحق وجماعته انواع اللطف مع الامير عساف حتى اعادوه الى حظيرة الطاعة للسلطنة في الجملة ، وطفق يهادي عمال السلطان بالخيول و يرسل الى الحكومة جزءاً من الجباية . وما كان يألفه بعض العمال من اعطاء الامان للخوارج او غيرهم ثم اغتيالهم في مائدة او ادخال السم عليهم او صلبهم علناً قد ادى الى رفع ثقة الناس من عهودهم ومواثيقهم . وغلطة واحدة ارتكبها والي حلب الاحمق اخربت العمران واهلكت الانسان .

قال الشهابي في حوادث ١٠٥٤ انه عزل محمد باشا الارناووط عن ايالة طرابلس وتولاها حسن باشا وكان مدبره الشدياق رزق البشعلاني وقدمت الشكايات الى الباب العالي ضده فحضر كاتب ليعد الاشجار والرجال والبيوت والمنازل وبعدما سافر المحرر ابطل الباشا جميع ذلك واعاد الاحوال الى ما كانت عليه وكانت الناس لكثرة المظالم تبيع كل ثلاثة شنابل قمح بقرش ، ثم اعيد الى طرابلس محمد باشا الارناووط واجرى المظالم على الرعايا حتى خربت قرى كثيرة ورحل اهلها .

محمد الرابع وصدارة كوبرلي } بويع السلطان محمد الرابع بالسلطنة سنة ١٠٥٨ بعد السلطان ابراهيم فطال عهده الى سنة ١٠٩٩ اي احدى واربعين سنة ، واذ كان طفلاً عهدت والدته بعد تغيير كثير من الصدور ، بالصدارة العظمى الى رجل عاقل من رجال الدولة وهو محمد باشا كوبرلي كان امياً الا انه اتى باعمال وطدت دعائم الملك بعد تزعزعه في عهد السلطان السابق بسلطة النساء ، واشترط في تولي الصدارة ان يكون حراً في عمله لا ينازعه منازع ، ولا تقبل فيه وشاية ولا يعين للمناصب الا من يريد ، وقتل ستة وثلاثين الف انسان حتى القى الرهبة في النفوس ، وامن قيام الخوارج والنزاع الى الثورة من الزعماء وارباب الدعارة والجند والعصاة ، وخلفه ابنه احمد باشا كوبرلي الذي كان حاكم دمشق وقاتل الدروز وانتصر عليهم . وكان على غاية من العلم والعمل . ثم خلفه في الصدارة قره مصطفى باشا فأخرج الصدارة عن طورها لانه كان جماعاً للمال مستحلاً له من اي الطرق اتى وكان عنده الوف من الخيل وكلاب الصيد والبزاة و١٥٠٠ حصان و١٥٠٠ سرية و٧٠٠ خصي .

وخلفه مصطفى زاده من اسرة كوبرلي ايضاً وكان من المضاء والشجاعة وحسن الادارة والاستقامة على جانب عظيم ، واشتد على المزورين والمرتشين وقضاة السوء وملأ خزانة الدولة باهلاك اللصوص . وكان يقتل من يتناول التبغ من قبل فجعل تجارته حرة على ان توضع عليه رسوم فاحشة ، وقضى ان لا يؤخذ من الرعايا مسلمين كانوا ام مسيحيين غير المقرر من الجزى والخراج ، وقسم المكلفين الى ثلاثة اقسام يدفع الاول منهم دوكاً واحدة والثاني دوكاً اثنين والثالث اربع دوكات وهذا هو النظام الجديد الذي بقي بعد هذا الوزير زمناً وخلفه صدر آخر كان ابن اخت الكوبرلي الاول اسمه حسين عموجه زاده وكان على قدم اجداده بعد نظر وحسن ادارة فصح في هذه الأسرة ما قاله احد مؤرخي الفرنجة من ان الوزير الاول منهم لقب بالكبير او القاسي والثاني بالسياسي والثالث بالصالح والرابع بالحكيم .

ولكن تأثيرات هؤلاء العظماء من الصدور لم تكن الا ضئيلة في الشام لبعد المسافة عن العاصمة ، ولان طريق الالتزام في جباية الاموال كانت سقيمة تدعو الى اضعاف المملكة ، ولان الوالي كانت له لامركزية واسعة يعمل بقريحته على الاغلب .

وفي تاريخ فلسطين ان حكومة سورية في القرن الثامن عشر كانت حكومة لامركزية اي اقطاعات او حكومة امراء ومشايخ يقوم كل منهم بحكم منطقته فكان مشايخ ابو غوش او البراغنة يحكمون بني مالك و بني حسن و بني زيد وبني مرة وبني سالم ، فاذا اختلف اثنان كانا يتقاضيان عند الشيخ و يقبلان حكمه لامحالة ، ومن خالف عادات البلاد او اخل بتقاليدهم يسجن في سجنهم وكان الشيخ او الامير يجبي الضرائب و يقدم المقطوع عليه للوالي و يأخذ الزيادة ، واذا حدثت فتنة او خيف من وقوعها كان يطلب الوالي المعاونة من امراء منطقته فيخرجون بانفسهم ومن ورائهم رجالهم وفرسانهم . وكثيراً ما كان يستبد هؤلاء المشايخ بالفلاحين ابتغاء مرضاة الامراء والولاة فادى هذا النظام الى انتشار الفوضى واختلال الامن وسبب للحكومة خسراناً كبيراً في الاموال والرجال .

ولقد حاول السلطان محمد الرابع لما كبر وترعرع ان يقتل شقيقيه سليمان واحمد فمنعته والدته من قتلها وحال بينه وبين القتل المفتي الاعظم ، مورداً له كلام الله مخوفاً له من عذابه ، وبذلك انقضى دور قتل ابناء ملوك آل عثمان وتسلطن شقيقا محمد الرابع بعده . ووقعت في سلطنة احمد الرابع في الشام كوائن كثيرة منها الوقعة التي حدثت سنة ١٦٠٠ م في وادي القرن من عمل لبنان الشرقي ، وذلك ان ابن علم الدين اغرى ابشير باشا والي ايالة الشام بالزحف على ابن معن حاكم لبنان فالتقت عساكر الشام والمعنية عند وادي القرن وكانت الدائرة على عسكر الشام . و يقول مؤرخو الترك بل كانت على عسكر ابن معن وكان اسم ابن معن الامير ملحم ولي كما قال المحبي بلاد عمه اي الشوف والغرب والجرد والمتن وكسروان وكان حازم الرأي عاقلاً له حسن تصرف وانقياد تام الى جانب السلطنة فلهذا ابقي مدة تزيد على عشرين سنة لم ينغص له فيها عيش الا مرة واحدة لما قصده ابشير باشا وكان ذلك باغراء بعض المفسدين من غير داعية حصلت من قبله وانتصر في تلك الوقعة . وفي خلال ذلك كان الامير درويش الشركسي المعروف بالمجنون والياً على تدمر فكان يغير على العربان و ينهبهم و يأسر منهم ويدخل الى دمشق بالمواكب الحافلة ثم ولي لواء عجلون فثار بينه وبين اهلها حروب كثيرة و كسروه .

وروى نعيما في حوادث سنة ١٠٦٥ عند كلامه على والي حلب ابازه حسن باشا أنه كان من أبناء الجند بلغ المناصب بصور غريبة وهو شقي يميل الى الفساد والمظالم واذا أُريد تسطير ما اتاه من الجور على الرعايا في البلاد لاستلاب اموال اهلها اقتضى ذكر مجمله كتاباً ضخماً . وان حكام البلاد كانوا يجبون الجباية ضعفين فيأخذون ممن يقضي عليه اداء عشرة آلاف عشرين الفاً ، ومن يغرم الخمسين مئة أو مئات ، ولم يكن لتعديهم غاية ولا لظلمهم حد يقف عنده ، فتهلك القرى والدساكر بمظالم الجند الذين يرسلهم الولاة والقضاة ممن كانوا يبتاعون بالرشاوى مناصبهم فيغضي عنهم الكبراء لانهم شركاؤهم فكان من يرفعون ظلاماتهم الى الاستانة لا يجدون اذناً صاغية وربما انعكس الامر عليهم وصدّق رجالها الوالي الظالم وسفه احلام المتظلمين فيزيد الظالمون في ظلمهم . قال : وكان الفقراء يرتحلون عن البلاد فاصبحت القرى المعمورة والقصبات المشهورة مروجاً ينعق فيها غراب الخراب ، واذا كان من يحاولون الجلاء عن أرضهم أغنياء يسوق الوالي عليهم الاربعمائة والخمسمائة من جنده ينهبهم و يسلبهم اهـ . ومن الغريب أن يكون حسن أبازه باشا واليًا على حلب على عهد صدارة الكوبرلي الذي يقدسه العثمانيون بادارته ولعلهم يحكمون على الرجل من رجالهم بحسن الادارة والاصلاح بمجرد بطشه بالعصاة واجهازه على من لا تروقه اعمالهم أو ينازعونه في سلطانه ، أما تقاضي الجباية مرتين من الرعايا والقاء الفتن الدائمة بينهم فليس من المسائل الجوهرية في قائمة اعمالهم .

وحسن أبازه باشا خرج عن طاعة الدولة في حلب وفتك في تلك النواحي وانضم اليه السكبان وخمسمائة جندي كانوا مع نائب الشام احمد باشا الطيار فعينت الدولة لقتاله الوزير مرتضى باشا مع عدة امراء وعساكر فتقابل الجيشان وانكسر مرتضى ثم اخذ بالحيلة وقتل هو وأعيان جماعته وتفرق عسكره وكان ذلك سنة ١٠٦٩ .

وفي سنة ١٠٧١ قدم واليًا على دمشق احمد باشا كوبرلي ابن الصدر الاعظم محمد باشا وكان في الخامسة والعشرين من عمره . قال المحبي : وكانت الشام مختلة فاصلحها وركب على اولاد معن وبني شهاب فازالهم عن بلادهم وقمع اهل الفتن . وذكر

المؤرخون ان هذا الوالي لما كان بسعسع كاتبه بنو شهاب وعرضوا عليه جانباً من المال فما قبل فسار الى وادي التيم فهدم سرايات بيت شهاب في حاصبيا وراشيا وبيوت مدبريهم وقطعوا نحو خمسين الف شجرة من توتهم في مرج عيون والبقاع واعطى ولاية وادي التيم لاولاد علم الدين مع المقدم زين الدين وابن اخيه عبد الله . فزال بذلك حكم الشهابيين عن وادي التيم . وما اسخف هذه الطريقة في التأديب التي هي عبارة عن تخريب العمران هذا وابن الكوبرلي من خير من ولي الشام ومن رجال الاصلاح والعلم . وأقام ابن الكوبرلي على صيدا باشا وجعلت باشاوية من ذلك الوقت حتى يرفع حكم اولاد العرب واعطاها علي باشا الدفتردار . ولما بلغه ما صار من والي طرابلس واليمنية من حرق دور بيت ابي اللمع وبيت الخازن وبيت حمادة وقطع ارزاقهم وماوقع من الخراب في وادي علمات واتلاف حراج مشمش ولحفد وارض جبيل والبترون وجبة المنيطرة والعاقورة ، لما بلغه ذلك وان الرعايا ضاقت به وخربت بلادها امر بصرف العساكر ورجع الى الشام ، وعلي باشا هو الذي طلب مالاً من ناظر كنيسة مار جرجس في بيروت واذ لم يقبل النصارى امر ان تصير الكنيسة جامعاً وبنى لها مأذنة وسميت مقام الخضر . وفي سنة ١٠٧١ قدم علي باشا الى صيدا وهو أول من تولاها من الباشاوات وكانت فتنة عظيمة بينه وبين مشايخ المتاولة فأوقع بالقيسية ونهب بلادهم فارتحلوا عنها وبعد سنتين نصر الوالي القيسية .

وفي سنة ١٠٧٣ قتلت الدولة الامير منصور بن شهاب أمير وادي التيم والامير علي ابن عمه لموافقتها رؤساء جند الشام في وقعة مرتضى باشا لما ولي نيابة دمشق وقارب ان يدخلها فأرسلا جنداً من وادي التيم تجمع في دمشق وانضم الى من قام فيها من رؤساء الاجناد والاوباش والتقوا مرتضى باشا في القطيفة فهرب منهم . ولما كتب النصر للدولة نزلت العقوبة بالثائرين وفي مقدمتهم الامير منصور وأخوه والشهابيون على ما قاله المحبي في وصف ادارتهم وسيرتهم على عهده : « وجورهم بالنسبة الى امراء بلاد الشام كالدروز بني معن والرافضة بني الحرفوش وبني سرحان مقصور على انفسهم من حيث المعتقد فحسب ، ومالهم في القديم والحديث كثرة اذية للمسلمين » .

ومن مساوي حكومة الاقطاعات ان صغار امرائها من أهل البلاد كانوا

يضطرون كل الاضطرار الى المصانعة فتراهم أبداً مع القوي الذي تدوم سعادته فاذا ولت عنه لووا وجوههم ، وفي هذا السبيل كانوا يقتلون رجالهم بل يقتل أبناء الأسرة الواحدة بعضهم بعضاً وتخرب بيوتهم وبيوت شملهم وحاشيتهم . والولاة يشدون مع هذا و يرخون لذاك شأنهم مع كل صاحب سلطة وقوة . وهكذا كانوا في معاملتهم لليمنية والقيسية فتارة يقوى هؤلاء وطوراً اولئك فقد وقعت سنة ١٠٧٥ في الغاغول عند برج بيروت وقعة بين القيسية واليمنية قتل فيها عبد الله بن قائد بيه ابن الصواف وانكسرت اليمنية وانهزموا الى بلاد دمشق . واشتدت الحالة على بلاد الشام في هذه السنة بسبب الطاعون المنتشر في أرجائها الذي أقفلت به بيوت كثيرة لموت جميع سكانها حتى ان قاضي حلب ضبط الاموات في حلب فبلغوا ١٤٠ الفاً وكان القحط عم البلاد قبل اربع سنين فجيء بالقمح من مصر وبيعت غرارة الحنطة بثمانين قرشاً . ولم تفتر الحكومة مع ذلك عن حرق الدور والقرى فقد استنجد (١٠٨٢) بنو حيمور امراء البقاع بحكومة دمشق فأنجدتهم بعسكر فداسوا وادي التيم وحرقوا دور بني شهاب وقراهم . واشتد ظلم بني حمادة في عمل طرابلس وظلموا الرعايا . فخربت القرى من الظلم وكان في خلال ذلك (١٠٨١) والياً في حلب حسين باشا المعروف بصاري حسن اي الاصفر يتلطف بالرعايا وينتقم من ذوي الكبر والمناصب . كما ان ظلم والي دمشق ومتسلمه اشتد سنة ١٠٨٣ فأغلقت المدينة مرتين احتجاجاً على عمله .

وفي سنة ١٠٨٦ — ١٠٨٧ حرقت قرى البترون وفي السنة التالية حرقت بلاد جبيل وبلاد البترون أيضاً وخلت بلاد جبيل من سكانها . وفي سنة ١٠٨٧ امر والي طرابلس بحريق وادي علمات وهي فرحة وعلمات وعشاق وطورزيا والحصون واهمج وجاج وقرى جبة المنيطرة وهي كفر جال والمغيرة ولاسا والمنيطرة وأفقا ولما رجع العسكر جاء مشايخ بيت حمادة وأحرقوا قصوبا وتولا وعبد الله و بسبينا وصغار وشبيطن . وفي سنة ١٠٩٠ تولى خليل بن كيوان على صيدا فظلم الرعية كثيراً . وفيها كانت التجريدة على الامراء آل شهاب من والي صيدا ووالي دمشق وكان النصر للباشاوات . وفي السنة التالية باغت الامير عمر الحرفوش مع آل حمادة جماعة الامير فارس شهاب في نيحا قرب الفرزل فقتله وقتل خمسين رجلاً من شيوخ وادي

التيم فجمعت أُسرة شهاب العساكر وساروا الى بلاد بعلبك فتداخل الامير احمد بن معن بالصلح وجعل جزية على آل الحرفوش كل سنة خمسة آلاف قرش ورأسين من أطايب الخيل . وفي سنة ١٠٩٦ تولى الامير احمد بن معن صاحب الشوف جميع مقاطعات بيت حمادة فأحرق ايليج ولاسا وأفقا والمغيرة وقطع أملاكهم . وفي سنة ١٠٩٨ لما فر الامير شديد الى بلاد جبيل نزل الى العاقورة فأحرق من ضياع بيت المشايخ بيت حمادة نحو اربعين ضيعة وقطع أشجارها .

وكانت مصيبة البلاد في هذا الدور واحدة في الظلم ، فكان الوالي في حماة مثلاً اذا غضب على رجل يضعه على «الخازوق» ، واذا غضب على امرأة وضعها في خيش مع شيء من الكلس وألقاها في العاصي ، وأصبح الناس لكثرة المصادرات يكتمون أموالهم ويدفنونها في الارض لتنجو من المصادرات والسرقات ويتظاهرون بالفقر وربما مات أحدهم فجأة ولا يعلم أولاده بدفينته في جدار البيت او الحائط فيقع المال بعد مدة في يد من تنتقل اليهم الدار . قال المحبي : ولكثرة جور الحكام في حماة على الاهلين في القرن الحادي عشر هاجر أغلب سكانها الى دمشق .

اما في جهات لبنان الغربي والشرقي فان الوالي أو المتسلم أو المستبد اذا غضب على رجل أحرق قريته كلها أو عاقبه بقطع شجره ، ولذلك كان من الدعاء على الرجل في لبنان « الله يقطع رزقه » أي أشجاره او « يخرب زوقه » اي بيته والزوق البيت وبعض القرى في كسروان تبدأ بزوق كما تبدأ في أقليم دمشق عدة قرى باسم بيت . وفي سنة ١٠٩٨ ورد الامر لعلي باشا النكدلي متولي أيالة طرابلس ان يقتصّ من الامير شديد الحرفوش لتخريبه قرية رأس بعلبك وهدمه حصنها فكتب الى الامير احمد بن معن ان يوافيه بالرجال فلجأ الامير شديد الى المشايخ الحمادية فأحرق علي باشا قرية العاقورة وأربعين قرية من قرى بني حمادة ، ثم نزل عسكر الباشا على عين الباطية فباغتته ليلاً آل حمادة والحرافشة وقتلوا منهم خمسة واربعين رجلاً وانهزم العسكر .

* * *

عهد سليمان الثاني والحكم على الخوارج } توفي السلطان محمد الرابع سنة ١٠٩٩ وتولى السلطان سليمان الثاني والاحوال في عهده الطويل

لم تتبدل ومرض البلاد واحد وهو سوء الادارة وخراب العمران وهلاك المال والاعراض والكراع والرجال . وتم القرن والشام غرض الرماة تصيبها مطامع الولاة والامراء وأرباب الاقطاعات والالوية وأهم ما كان فيه مظالم بني سيفا وبني معن وثورة ابن جانبولاذ ، والولاة نسق واحد لانهم نسخة من عصرهم ، واذا كانت أحوال القصر السلطاني ومن فيه مختلة كانت الولايات حقيقة بان تباع فيها الارواح بيع السماح ، تساوى في ذلك البوادي والحواضر ، والناس في أمر مريج لا يستقرون في بلد و يتنقلون في الارجاء لان آمالهم كسفت وخاب منهم الرجاء ، واذا اشتد الظلم في مكان هجروه الى موطن يتوهمونه أقل مظالم ومغارم ، وأنى لهم مكان يسكنون اليه و يأمن فيه سربهم . واذا امتاز هذا القرن بنبوغ آل الكوبرلي الذين تولوا الصدارة فان ما أصاب الشام من عنايتهم جزء صغير جداً لا يكاد يشعر به ، وعهد اولئك السلاطين كابراهيم الفاجر ومصطفى الابله ينسي عهد محمد الرابع ومراد الرابع .

ولم يؤثر عن هذا القرن انه انشيء فيه غير قليل من الجوامع والمعاهد مثل جامع ابشير باشا وخان الوزير بحلب وكان بعض الولاة في القرن الذي قبله يرهقون الرعية و يقيمون شيئاً باسم العمران اما هذا القرن فغاية ما يقال فيه انه تخريب الموجود . وممن حمدت سيرته من الولاة حسين باشا الباجي امير بلاد صفد ثم بلاد طرابلس (١٠٠٢) فقد كان من انصف الحكام على ما قال المؤرخون ، واذا كتب لاحدهم ان كان على شيء من الاخلاق ينازعه المنازعون على ولايته في الاستانة فلا يتقلد زمامها الا بمقدار ما يتعرف الى اهلها و يدرس طبائعهم و يستقري بلادهم ثم يشخص الى العاصمة و يستبدل غيره به وهكذا دواليك .

هذا واهمّ ما كان من حوادث هذا القرن فتنة ابن جانبولاذ التركماني التي زال بها حكم الدولة عن البلاد سنين وذلك من اذنة الى غزة ولم يطل امد هذا الاستيلاء كثيراً اذ كانت دعامته القوة الموقتة ، وهو ابن ساعته لم تُعدَّ له الاسباب بجملتها . اما الامير فخرالدين بن معن الثاني فانه كاد يستولي بالفعل على البلاد كلها لتنظيم جيشه وتحصينه لبلاده وتعزيز قلاعه و بسط يده بالعطاء حتى استمال رجال الاستانة انفسهم ، وعنايته بادخال روح التجدد في بلاده ودعي سلطان البر كجده الامير فخر الدين الاول

ولو كان لخلفائه دوجات طسقانه اذ ذاك شيء من القوة وانجدوه بقليل من رجالهم وذخائرهم ولو لم يشتغل بال البابا وملك اسبانيا وكبير دوجات فلورنسة بحرب الثلاثين سنة لكانوا انجدوه على نيل امانيه في الاستقلال خصوصاً وهم الذين كانوا يزينون له من قبل الاستيلاء على انطاكية ، فلو قدّر لهم ان يعاونوه لسهل عليه الاستقلال بالشام من عريشه الى فراته بعد ان تمت له كل معداته ، وكان العقل رائده والحزم قائده ، خصوصاً وكان معوّله في قوته على الدروز وهم في هذه الديار على التحقيق منذ القديم من اشجع العناصر التي عرفت بمتانتها ومضائها في الحروب . وكان كثير من مدبريه ورجاله من المسيحيين ولمحبة قومه له ادعته اهل المذاهب الثلاثة في بلاده ، فالموارنة يقولون انه كان مارونياً والدروز درزياً والحقيقة انه مسلم سني — خلافاً للمحبي والمرادي — يحسن السياسة والادارة وينظر الى رعيته نظر المساواة ويأخذ لخدمته الكفاة من كل طائفة . فهو بالامراء مثال الابطال في عصره ، وكان على أتم الاستعداد للحروب ومعرفة بالادارة وطبائع البلاد ، ولولم تصرف الدولة العثمانية قوتها كلها في قتاله لعمل في الشام في القرن الحادي عشر ما عمله محمد علي الكبير في مصر في القرن الثالث عشر ولم يكن دونه ذكاءً ومضاءً ودهاءً .

العهد العثماني

من سنة ١١٠٠ الى ١٢٠٠

حال الشام اول القرن الثاني عشر

تبلج فجر القرن الثاني عشر للهجرة والدولة لا تفكر في غير مصائبها الخارجية ، والمملكة التي كانت تمتد من اسوار فينا الى جنوب بلاد العرب ، ومن فارس الى الغرب الاقصى لا وحدة فيها ، ولا جامعة تجمعها ، وليست متجانسة ولا متماثلة ، تكافحها الثورات الداخلية ، وتساورها الحروب الخارجية ، فلا تهتم للاولى اهتمامها للثانية ، وتفنى في سلطانها و يستعبدها ارباب الاقطاعات و يستبد بها الجند والولاة ، وسكان هذا القطر كسائر الاقطار العثمانية كالارقاء لا عمل لهم الا ارضاء شهوات حكامهم من وطنيين وغرباء ، ولم يكن اختلاف العناصر اقل ضرراً عليها من اختلاف الطبقات العسكرية (اوجاقات) من الانكشارية واللوند والسكبان والقبوقول ، والنزاع بين هؤلاء الجند و بين رجال الادارة على اتم حالاته في اغلب السنين ، بل بين كل صنف من اصنافهم ورؤسائه ، والارواح في هذا السبيل تباع بالمجان ، فلم يحدث شيء مما يقال له الاصلاح لان رجال الدولة لم يفكروا فيه حتى يتوسلوا باسبابه ، واذا توسلوا فلا يحسنون طرقه ، وقد اعتادوا الاخذ ولم يعتادوا العطاء بتحسين الحالة ، ليزيد الاخذ والعطاء معاً .

وندر ان يجيء من الاستانة رجل صالح في اخلاقه ، معروف باستقامته و كبر عقله وسعة معرفته ، يحسن ادارة الناس و يكف الظالم عن ظلمه ، وهل يفارق فروق الا من أكره ، وهنالك النعيم والهناء وضروب الشهوات البشرية ، واذا جاء هذه الديار والٍ كبير من العمال فلإملاء هميانه على الأكثر باموال الامة ليعود الى العاصمة

سريعاً ، يعيش عيشاً طيباً و ينعم في قصورها باموالِه وطرائفه ، و يجني في سنة ثروة كبرى تكفيه واولاده واحفاده على غابر الدهر .

لم يكن ابن الشام يتبرم بنظـام الدولة لزيادة في الجباية ، بل لان الجباية كانت على غير قاعدة مطردة ، قد تجبى جباية سنتين أو ثلاث في غير أوقاتها في آن واحد ، ولا تراعى في الجبايات اعوام القحوط والجدوب والمصائب ، واذا ضاقت الحال باحد العقلاء او ببعض الجماعات فرفع صوته بالشكوى عدوه خارجياً وقاتلوه وحرّفوا دعوته على ولاة الامر في الاستانة ، ولبّسوا على العـامة في امره ، حتى يسكتوا نأمته و يزيفوا دعوته ، والا فلا يعقل ان يسكت جميع الناس عما ينال الامة من هذه الطريقة المعوجة في الادارة ، فالخير في الناس ما انقطع ولن ينقطع ، ومهما بلغ شعب من الانحطاط لا يخلو من نبهاء يجاهرون بالحق ، ولو كان في المجاهرة حتفهم احياناً .

وقد مهر رجال هذا الدور في تزيين الباطل والباسه ثوب الحق ، وتقليل عدد الهالكين والشاكين والثائرين والناقمين، اذا نشبت ثورة اوحدثت فتنةاو تألف جماعة لمقصد وطني ، وكثيراً ما يصورون العذاب الاليم في صورة نعيم مقيم ، ولا يعرضون على السلطان الا المسائل الكبرى ، كأن تنقد ثورة في الشام لا يمكن تلافيها الا بارسال جيش كبير من آسيا الصغرى ، وتحتاج الى مال لا بد من استصدار ارادة سنية بادائه من خراج الولاية الفلانية . وغدا قتل الانسان وسبي النساء والصبيان وخراب العمران ، من الامور المألوفة في تلك الازمان .

وفي هذا القرن بدأ الحكام وارباب المقاطعات ينوعون اسماء الجباية كأن يقولوا الشاشية والبزرية ، لسد عوزهم والقيام بواجب الضمانات للدولة ، وكثير من الفتن كان الداعي اليها تأخر المقطعين عن تأدية ما عليهم من الجباية للدولة في اوقاتها ، فتعدهم عصاة عليها وتسوق عليهم قوة تكون عاقبتها نكالاً على صاحب الاقطاع او المتسلم ، وخراباً على البلاد واهلها من كل وجه .

والدولة قلما سعت الى استئصال شأفة الشر من اساسه ، وما بحثت قط في اسبابه فتلافتها قبل وقوعها ، وقلما اهتمت للفتن الا اذا التهب شرارها وخشي منها على سلطانها ،

وندر ان اعدت المستعدين ، ورفعت ظلامة المظلومين ، ولماذا تهتم وكل قطر نشز عليها تضرب به بعسكر من اهل القطر الاقرب اليه، ان لم تستطع ضربه بابناء بلده انفسهم ، واذا خافت من والٍ أو صاحب اقطاع قوة تسلط عليه خصمه او جاره ، فالناس ابداً متعادون متشاكسون ، والالفة ارتفعت من بين أهل البلد الواحد فكيف تأتلف العناصر ، وما ذلك الا لتنفيذ رغائب السلطان الذي لا يرى لمملكته بقاء الا اذا تباغض الناس ، وتربص كل فريق بالفريق الآخر الدوائر .

بدأ القرن وعبدون باشا والي صيدا يهين البلاد بمظالمه ، وجعفر باشا والي دمشق ليس دونه في انشاء المظالم ، اما الامراء المتغلبة من ابناء البلاد فكان اكثرهم من احفاد الذين سبقوهم في غزة ونابلس وعكار ولبنان ووادي التيم وبعلبك وحوران والكرك وسلمية . قال راشد : ان بعض اعيان دمشق اغراهم المال والاقبال فارادوا الخروج عن الطاعة ومفارقة الجماعة ، فكادوا لواليهم حمزة باشا وطردوا عسكره الى خارج دمشق وقاموا بافعال شنيعة رافعين علم الثورة ، فنقل حمزة باشا الى ايالة طرابلس واخذ الاهلون عند رحيله يطالبونه بما كانوا اهدوه اليه من الكراع والبسط وغيرها ونهبوا اتباعه . ثم عين احمد باشا مكانه فلم يساعده الوقت على التنكيل بهم وخلفه مصطفى باشا مكانه فاضطر ايضاً لالقاء حبلهم على غاربهم . ولما عين كورجي محمد باشا أجريت عليه التنبيهات اللازمة ليطهر البلاد من هؤلاء الاعيان فدعا الوالي تسعة منهم كما دعا العاصين محمد اغا صدقة ومحمد اغا قوشجي وبطش بهم وارهب غيرهم من الخوارج .

هذا ما قاله راشد في هذه السنة ، ولم يقل ان والي دمشق ارتشى من الناس وظلمهم حتى ثاروا عليه بل قال : انهم اهدوا اليه ايام ولايته وطالبوه بهداياهم لما رحل عنهم فابانوا عن صغر نفوسهم، وهذا مما يظهر ذهنية الدولة في تلك الايام ، وان الوالي يجب ان تهدى اليه الخيول والطنافس والاعلاق وربما الدنانير والدراهم من غير نكير . وما ندري كيف تكون الرشوة ان لم تكن هذه الهدايا هي الرشوة بعينها .

وفي تقرير لاحد قناصل البندقية أن منصب الوالي كان في الاستانة يكلف من ٨٠ الي ١٠٠ الف دوكا ومنصب الدفتردار يباع من ٤٠ الي ٥٠ الف دوكا

ومنصب القاضي يساوي أقل من هـذه القيمة ، وكلهم اذا جاؤا البلد الذي عينوا له يسلبون النعمة و يعرقون اللحم و يكسرون العظم ٠

٭ ٭ ٭

دور احمد الثاني وفتن | توفي السلطان سليمان الثـاني سنة ١١٠٢ فتولى السلطنة اخوه السلطان احمد الثـاني وهو الحادي والعشرون من ملوك آل عثمان والسادس عشر منهم في القسطنطينية ٠ وفي أيامه (١١٠٣) عاقبت الدولة أعيان دمشق على ما بدا منهم في معاملة حمزة باشا على ما تقدم، وأرسلت حملة على أبناء سرحان حمادة (١١٠٣) النازلين في الجبال الصعبة المرتقى القريبة من طرابلس كما قال راشد وكان لهم قبائل وعشائر ، فاتفقوا مع أبناء معن حكام صيدا وبيروت ، فصاروا يلتزمون أموال الحكومة ولكن لا يؤدون اليها مطاليبها في آخر السنة ، حتى قلت واردات الدولة فأوعزت الى محافظ الايالة المذكورة الوزير علي باشا فجمع ما تيسر له من الاجناد وذهب الى جبالهم التي امتنعوا فيها فقتل منهم كثيرين وأخذ زعماءهم وجعلهم طعاماً لسيوف رجاله ، وطلب أبناء معن الامان فأجيبوا اليه وتخلصت المقاطعات من تعديهم وظلمهم ٠ ونزع الحكم من آل حمادة وكانوا في بعلبك والهرمل وعكار وجبيل والبترون والضنية والزاوية والجبة وانهزموا على طريق العاقورة فلحقتهم العساكر ومات منهم ومن عيالهم نحو مائة وخمسين نفساً من الثلج ، ولما وصلوا الى قرية الفرزل انتهم العساكر وأبادتهم ولو لم يعف عنهم المشايخ الخوازنة ما سلم أحد منهم وحرقت القرى وفتشوا عنهم وقرضوهم على بكرة أبيهم ٠ وتوجه (١١٠٣) الامير يونس شهاب ودخل بلاد بشارة بعسكر عظيم فقتل ونهب ورجع الى وادي التيم ، ثم أرسل والي طرابلس الى الامير احمد بن معن يعرض عليه القطائع التي كانت لآل حمادة فلم يقبل ابن معن ذلك وأجاب انه لا يمكنه قبولها بسبب خراب البلاد ، وأخذ والي طرابلس يتأثر من بقي من بني حمادة في السهل والجبل حتى أفناهم واستعان بولاة دمشق وصيدا وحلب وغزة على قتال ابن معن فساقوا عليه ثلاثة عشر الفاً فهرب ووسد الامر الى الامير موسى اليمني بن علم الدين ٠

وفي سنة ١١٠٥ على رواية راشد رأت الحكومة ان ابناء سرحان حمادة

عادوا فنجم ناجم شرورهم وأخذوا يتقوون بمعاضدة ابن معن لهم ، فأقامت الدولة الوزير طورسون باشا قائداً عامّاً عليهم ، فجمع من أطراف سورية الف مقاتل من العرب والاكراد ثم جمع ما قدر عليه من الجند هو وحكام سورية فالتقى عشرون الف مقاتل في بعلبك والبقاع ، فلما علم العصاة بذلك أوجسوا خيفة وتأثرتهم العسكر فقبضت عليهم وأوردتهم حتفهم وطهرت تلك البلاد منهم اهـ ·

وفي سنة ١١٠٦ عينت الدولة متسلماً على حماة اسمه سعد بن مزيد فأكثر التعدي والظلم فقام الحمويون وأخرجوه من البلد قهراً ، فذهب الى المعرة وأرسل شكاية الى الدولة ينسب فيها التعدي للحمويين وان حسناً الدفتري المشهور بابن قنبق هو مثير الفتنة فجاء الامر بقتله فقتل في داره سنة ١١٠٦ · وكأن لسان حال الدولة أيها الرعايا المستعبدون اخضعوا العمالي مهما كانت سيرتهم والا قاتلتكم ، ومن فتح فاه بالشكوى أنتقم منه بما يستحقه ، فهذه خطتي ، و بالرضى عنها تنالون حظوتي ·

* * *

دور مصطفى الثاني وانقراض دولة بني معن } توفي السلطان احمد الثاني سنة ١١٠٦ وكانت مدة حكمه اربع سنين وثمانية اشهر ، فتقلد السلطنة بعده السلطان مصطفى الثاني فكتب مصطفى باشا والي صيدا الى السلطان الجديد يقول انه لا يمكن ان يحكم بلاد الدروز سوى بيت معن وأظهر استعداد الامير احمد بن معن لذلك ودفع مائتي كيس للمطبخ فورد العفو لابن معن مع أوامر الولاية على البلاد · وزاد أرسلان باشا والي طرابلس (١١٠٨) في طلب المال فتشتت كثير من الرعايا عن مواطنهم من شدة الغلاء والظلم وركب والي دمشق على حاصبيا وقطع توتها ·

وفي سنة ١١٠٩ توفي الامير احمد بن معن فانقرضت بموته الدولة المعنيـة لانه لم يكن له ولد ذكر فاجتمع المشايخ من السبع المقاطعات وهي الشوف والمناصف والعرقوب والجرد والمتن والشحار والغرب من عمل لبنان ، واختاروا الامير بشير بن شهاب من أمراء وادي التيم حاكماً على لبنان فتولاها وأحبته الناس وأطاعوه لعدله وكرمه قال الامير حيدر : كانت البـلاد يومئذٍ حزبين احدهما بنو قيس والآخر بنو يمن

وكانت القيسية اكثر وأقوى وكانوا راضين بولاية الامير بشير، وأما اليمنية فلم يرتضوا به ولكن لم يمكنهم التظاهر بالتعصب عليه لضعفهم وقلتهم ·

وفي سنة ١١١٠ تولى إيالة طرابلس أرسلان باشا وإيالة صيدا اخوه قبلان باشا ، وكان الشيخ مشرف بن علي الصغير حاكم بلاد بشارة قد قتل أناساً من رجال الدولة وقصد العصيان فاستنجد قبلان باشا بالامير بشير الشهابي ، فجمع الامير بشير ثمانية آلاف رجل وكبسوا مشرفاً في مكان يقال له المزريعة ، فقبض عليه الامير بشير وعلى أخيه الحاج محمد وعلى حسين المرجي وسلمهم الى الباشا فأمر بشنق حسين المرجي واعطى الامير بشيراً إيالة صيدا من بلاد صفد الى جسر المعاملتين ، وآجر قبلان باشا بلاد آل علي الصغير للامير بشير فأقام عليها متسلماً الشيخ محموداً ابا هرموش · وفي هذه السنة أطالت عنزة وبنو صخر أيديها على الحجاج ، وكان يعهد الى هاتين القبيلتين بتسفير الحاج ولها رواتب مقررة عليه ، وقتل منهما خمسون رجلاً في القيود فانتقموا من الحجاج وأخذوا أموالهم وعروضهم ، ودخل محمد باشا ابو قاوق الى دمشق بصعوبة · وحوادث البادية تتكرر في العقد الواحد مرة او مراراً فيهلك فيها من العربان وأبناء المدن خلائق : لان عيش البادية منذ القديم من الغزو والدولة لم تفتح لهم موارد ليعيشوا منها ويكفوا أذاهم عن الحاج والتجارة · ولقد اثنى الاجانب على والٍ من ولاة حلب اسمه يوسف باشا جاء في أوائل المئة السابعة عشرة للميلاد وقالوا انه كان يحكم بدون ان يظلم و يسلب ، وان استقامته جلبت الخير والبركة على البلاد، وقد جاء حلب في تلك الحقبة واليان اسم احدهما قائممقام يوسف باشا تولاها سنة ١١١٢ ثلاث سنين والآخر اسمه طوبال يوسف باشا تولاها سنة ١١٢٥ ولا نعلم ايهما اثنى عليه الفرنج ·

* * *

عهد احمد الثالث وسياسة الدولة مع من ينكر الظلم ووقعة عين دارة

وفي سنة ١١١٥ خلع السلطان مصطفى الثاني بعد ان حكم ثمان سنين وتسعة اشهر وعشرة ايام وتولى السلطان احمد الثالث وهو الثالث والعشرون من آل عثمان · وفي تاريخ راشد ان محمداً نقيب أشراف القدس تغلب

سنة ١١١٨ على الحاكم والوالي وأخذ يبث الفساد في تلك الارجاء فأرسلت الحكومة الفي انكشاري وثلاثمائة جبه‌جي ومئة مدفعي لتقوية مركزها في القدس فوقع بينه وبين عسكر الدولة وقائع كثيرة فركن الى الفرار واختفى في قلعة طرطوس فبلغ واليها امره فأرسل فقبض عليه وأرسله الى الاستانة فقتل . وما ندري معنىً لقول المؤرخ ان نقيب القدس أخذ يبث الفساد في تلك الارجاء ، بل نعتقد ان ثورته لرفع فساد العمال وسوء الادارة ، يعرف ذلك من عرف ان القوم اعتادوا في كتاباتهم الرسمية ان يلقبوا بالمفسدين كل من كانوا من المصلحين ، بيد انهم مفسدون لامرهم ، عاملون على نقض أساس مجدهم . كما وقع في هذه السنة ايضاً وقد أراد سليمان باشا البلطجي كافل دمشق أخذ قرض من تجارها واحداث بعض مظالم فمنعه أعيان دمشق ومنهم أسعد البكري وعبد الرحمن القاري وسليمان المحاسني فنفاهم الى صيدا وعرض للدولة اموراً عنهم لم يأتوها ثم أُعيدوا الى بلدهم واعتذر الوالي عما عزا اليهم .

وفي سنة ١١١٩ توفي الامير بشير الشهابي وخلفه الامير حيدر الشهابي فركب في السنة التالية لغزو بلاد المتاولة لان المشايخ بني علي الصغير كانوا أخذوا بعد وفاة الامير بشير بلاد بشارة من يد بشير باشا وبقي في يد الامير حيدر حكم بلاد الشوف وكسروان ، فغزاهم الامير حيدر برجال بلاده وتجمعت المتاولة في قرية النبطية فأوقع بهم هناك وظفر بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ، ورجع الى بلاده فعظم ذلك على بشير باشا فأرسل يقوي الامراء اليمنية في الغرب والجرد من بني علم الدين وغيرهم .

وفي سنة ١١٢١ تعاظم امر اليمنية في بلاد الشوف وتظاهر الامراء بنو علم الدين بذلك وساعدهم الامير يونس أرسلان حاكم الشويفات ومال اليهم من القيسية الشيخ محمود أبو هرموش ، ثم وسد الحكم الى الامير يوسف علم الدين واخيه الامير منصور ، وكان زمام ولايتها في الحقيقة بيد الشيخ محمود ابو هرموش فجاروا على القيسية وظلموهم ولم يبقوا لهم منزلة ولا حرمة . وفي هذه السنة أحرق الامير يوسف مع عسكر الدولة بلدة غزير ونهبها ، وسار والي دمشق الى جبل عجلون وياغت بلاد نابلس وقتل من أهلها مقتلة عظيمة وسبى عسكره نحو سبعمائة امرأة .

وفي سنة (١١٢٢ هـ ١٧١١ م) أنفذ الامير حيدر الشهابي امراً الى قيسية

الشوف فتجمعوا في رأس المتن ، فلما بلغ اليمنية ذلك أرسلوا الى بشير باشا والي صيدا لحضر الى حرج بيروت ، وأرسلوا الى نصوح باشا والي دمشق لحضر الى البقاع ، واجتمع القيسية من الغرب والجرد والشوف الى عين زحلتا في العرقوب ، ثم انتقلوا الى عين دارة ، وجرى الاتفاق ان تطلع عساكر الدولة المجتمعة في حرج بيروت الى بيت مري في اول المتن ، وان يطلع نصوح باشا الى المغيثة في طرف المتن ، واليمنية الى حمانا في وسط المتن ، وتمشي الثلاث فرق في يوم واحد على القيسية ، فأجمع رأي القيسية مع الامير حيدر الشهابي ان يباغتوا اليمنية في الليل في عين دارة ، فباغتوهم واعملوا فيهم السيف ، وقاتلت اليمنية أشد قتال وما زالوا كذلك حتى ملكت القيسية عين دارة ، وما سلم من اليمنية غير قليل . وفي تلك الليلة قتل خمسة امراء من بني علم الدين وأُمسك الشيخ محمود ابو هرموش وقطع الامير لسانه وأباهمَ يديه ، فقويت شوكة القيسيين وعظم أمرهم ، ونزح من كان يمنيًا من البلاد وخربت ديارهم وزال ذكر اليمنيين من الشوف وحكم الامير حيدر ، وأعطى الذين كانوا معه كل ما كان وعدهم به ، وكثرت مشايخ البلاد في أيامه . وتعرف هذه الوقعة بوقعة عين دارة التي قتل فيها جميع الامراء من آل علم الدين بيد الامير حيدر الشهابي فانقرضت بموتهم سلالة آل علم الدين كما ضعفت شوكة اليمنيين واي ضعف .

* * *

فتن ومظالم مستجدة وظهور آل العظم وفي سنة ١١٢٢ ركب نصوح باشا على الكرك وعمل لغماً ووضع فيه البارود وأعطاه النار فانهدم جانب من السور فصاح أهلها الامان وخرجوا عن القلعة فقتلهم وأسر الاولاد وسبى النساء . وفي سنة ١١٢٣ باغت ناصيف باشا والي دمشق المتن وأسر منها أناساً كثيرين وسبى النساء والاولاد . وفي سنة ١١٢٤ عهد والي صيدا بولاية بلاد بشارة الى الامير قاسم الشهابي حاكم حاصبيا فأنشأ بها مظالم كثيرة .

وفي سنة ١١٢٩ تولى دمشق عبدالله باشا الكرجي (كوبريلي) وكان عادلاً حكيماً لكنه لم تطل مدته اكثر من سنة . وفي سنة ١١٣١ كانت وقعة القرية بين الامير حيدر الشهابي والمشايخ المتاولة وكانت النصرة للامير حيدر . وفي سنة ١١٣٣

كانت الفتنة بين مشايخ المتاولة والشيخ ظاهر العمر حاكم بلاد صفد وجرى بينهم قتال شديد فانهزم عسكر الصفديين وقتل منهم خلق كثير ثم خرج عثمان باشا والي دمشق بالعسكر على بلاد صفد وقتل منهم اكثر من ثلاثمائة رجل وقتل البشناق اولاد مشايخ بلاد صفد .

وفي سنة ١١٣٦ كان الظلم شديداً وكثرت العوانية حتى صارت ارض الشام مشغولة بالظلم في شرورها وكثر الظلم واستلاب الاموال . وثارت (١١٣٧) فتنة بين القبوقول والانكشارية وظلت دمشق ثلاثة أيام مقفلة وقتلت فيها جماعات من القول والرعية وكذلك الحال في حلب .

وعرف هذا الدور بظهور آل العظم حكاماً في الشام ، واختلف الباحثون في أصلهم فمن قائل انهم أتراك من قونية ، ومن زاعم انهم عرب من المعرة معرةالنعمان . تولى دمشق (١١٣٧) اسماعيل باشا العظم وكان من قبل والياً على طرابلس وهو اول من تولى إيالة دمشق من بني العظم ، وقال بعض المؤرخين : ان ناصيف باشا كان والياً على دمشق وقتل في الرملة سنة ١١٣٠ وعلى هذا فيكون هو اول من تولى دمشق من هذه الأسرة . ذكر ابن ميرو ان والد اسماعيل بن ابراهيم العظم كان جندياً سكن معرة النعمان وكان لاهلها مع التركمان التي ترد الى جبلها شتاءً وقائع جرح في بعضها والد المترجم فتوفي وأعقب المترجم اسماعيل وسليمان وموسى ومحمداً وكلهم أعقب خلا محمداً وكانت ولادة اسماعيل قبل السبعين والف بالمعرة وبها نشأ ، وتقلبت به الاحوال الى ان صار حاكماً ببلده ثم بحماة ، وأنعمت عليه الدولة بطوخين رتبة روملي ومالكانة حماة وحمص والمعرة عليه ، وعلى اخيه سليمان ومنصب طرابلس عليه وسر عسكر الجردة فبعد عوده من الجردة سنة ١١٣٨ تولى الشام وإمرة الحاج بالوزارة وحج ست سنين وحارب في السنة السادسة عرب حرب بين الحرمين فعزل وامتحن سنة ١١٤٣ وحبس بقلعة دمشق واستأصلوا أمواله مع اموال ذويه وأفرج عنه سنة اربع واربعين وولوه خانية وأعقب السيد ابراهيم واسعد وسعد الدين ومصطفى وكلهم تولوا الوزارة خلا الاول فانه توفي بحماة سنة ١١٥٩ وهو برتبة روملي معزولاً من صيدا .

وفي سنة ١١٤٣ توفي الامير حيدر الشهابي حاكم لبنان بعدان حكم ستاً وعشرين سنة على رواية المؤرخ الشهابي بالعدل والحلم والكرم وحسن التدبير وخلفه ابنه الامير ملحم ، والامير حيدر هو الذي أحيا ذكر القيسية والقى ابنه الفتنة بين مشايخ البلاد فاختلفوا ، وكانت الدولة لا تقدر عليه على بغض اسعد باشا العظم والي صيدا له وسعيه به .

* * *

عهد محمود الاول { تنازل السلطان احمد الثالث عن ملكه باختياره (١١٤٣) بعد ان حكم ثماني وعشرين سنة وتسلطن السلطان محمود الاول وهو الرابع والعشرون من آل عثمان والتاسع عشر منهم في القسطنطينية ، وكان السلطان احمد الثالث غريباً في أطواره يحب الطيور والازهار ، ويقضي أوقاته في تسلية سراريه بالافراح والزين ، ومع هذا يسجل له الفضل ورجاحة العقل في حسن اختياره صدوراً عظاماً شرفوا باعمالهم عهده فلم يكن كبعض اجداده لا يعمل ولا يترك أحداً يعمل .

وفي هذه السنة وقع بين القبوقول والانكشارية الحرب والقتال وأُغلقت دمشق اربعة ايام وقتل من الفريقين شرذمة . وفي سنة ١١٤٤ استأجر الامير ملحم الشهابي بلاد بشارة وقبض على الشيخ نصار بن علي الصغير وباغت اخوته فهربوا فقتل ثلاثة عشر رجلاً من قبيلتهم ونهبت الدروز تلك البلاد ، وعاد اولاد الشيخ نصار واستأجروا البلاد من الامير ملحم .

قال الشهابي في حوادث سنة ١١٤٧ انتقل اسعد باشا العظم من إيالة صيدا الى إيالة دمشق وكان والياً عليها منذ سنة ١١٤٣ — وتولى إيالة صيدا اخوه سعد الدين باشا والي طرابلس وتولى طرابلس سليمان باشا العظم وقويت شوكة بني العظم في بلاد العرب وعظمت دولتهم اه . عظمت دولتهم لانهم اخلصوا في الغالب للدولة كل الاخلاص حتى أمنتهم ووسدت اليهم الاحكام في الشام وتركتهم يعملون مايشاؤن ، وجاء دور وهم حكامها من اقصاها الى اقصاها وقل جداً في هذا القرن من تولى ولاية حلب او دمشق او طرابلس او صيدا او اللاذقية او غزة بضع سنين . ومن

بني العظم من زاد زمن ولايته على عشر سنين ، فان اسماعيل باشا العظم تولى دمشق ست سنين (١١٣٧ — ١١٤٣) ، وسليمان باشا العظم تولاها خمس سنين للمرة الاولى (١١٤٦ — ١١٥١) وثلاث سنين للمرة الثانية (١١٥٤ — ١١٥٦) واسعد باشا العظم تولاها اربع عشرة سنة (١١٥٦—١١٧٠) وكان تولى صيدا اربع سنين ومحمد باشا العظم تولى دمشق مرتين اثنتي عشرة سنة ، وكان بنو العظم كسائر الأسر القديمة التي تغلبت على بعض أصقاع الشام أمثال بني معن وبني شهاب وبني الحرفوش وبني سيفا وبني طرابيه ومنهم الصالح والطالح وهل هم الا نموذج من عصرهم ، ولا شك انهم جمعوا أموالاً كثيرة لان حكوماتهم طالت ايامها والولاية بالالتزام فكان الوالي منهم كسائر الولاة يرضي الاستانة بمبلغ ويبقى له بعد كل اسراف مبلغ كبير وهو الحاكم المتحكم في ثروة البلاد والافراد . وقد صادرت الدولة سليمان باشا العظم لما توفي سنة ١١٥٦ وعذب المفوض بذلك أسرته على أبشع وجه ، وكذلك ضبطت اموال ابن اخيه اسعد باشا وأخرجت الدفائن من قصره وكان بعضها مخبوءاً في الارض والجدران والاحواض وبيوت الخلاء وفعلت مثل ذلك باتباعه ورجاله . قال الشهابي : ان اسعد باشا العظم بنى أبنية عظيمة في دمشق وجمع مالاً لا يحصى وسار بالحج مرات فأنعمت عليه الدولة العلية برتبة علامة الرضى وأمرت ان لا يشهر عليه سلاح ولا يقتل ثم أرسلت اليه فقتلته في الحمام طمعاً بكثرة امواله وضبطت ماله وأملاكه وقال : انه كان جليلاً عاقلاً حسن التدبير مولعاً بالخيل الجياد حتى قيل انه كان عنده خمسمائة فرس من جياد الخيل لاجل ركوبه .

وذكر البدويهي ان السلطان محموداً أنعم على عبدالرحمن افندي (١١٦٥) محصل حلب بالولاية فوجه في الحال متسلمه حسن اغا الى طرابلس فأمن الخواطر ونادى بالامان وصار الفلاح ينزل الى طرابلس آمناً على نفسه وأرخص الاسعار ومهد الامور التي كانت متبلبلة من ظلم بيت العظم ، وكذلك فعلوا باسماعيل باشا في الشام وباخيه سليمان باشا والي صيدا وبياسين بك بن ابراهيم باشا والي اللاذقية من قبل ابيه واسعد بك بن اسماعيل باشا والي حماة وحسن بك اخي اسماعيل باشا حاكم المعرة هؤلاء جميعاً سجنوهم وأخذوا أموالهم للسلطنة وولوا على صيدا احمد باشا بن عثمان باشا

ابو طوق اه . وقال فولنيـه الرحالة الفرنساوي : ان بني العظم كانوا من أحسن من جاء دمشق من الولاة .

وترجم ابن ميرو اسعد باشا العظم فقال : انه لما وسدت اليه الدولة مالكانة حماة سار فيها سيرة حسنة وعمر بها خانات وحمامات و بساتين ودوراً ليس لذلك كله في البلاد الشامية نظير ، ثم ولي صيدا فاستعفى منها وطلب حماة منصباً بعدان كانت مالكانة له ولعمه فرفعت منه المالكانة ووجهت له منصباً ودخلها سنة اربع وخمسين ومائةوالف وبذل الاموال الى ان جعلهـا مالكانة له بعناية الوزير الكبير بكر باشا والي جدة سابقاً . وفي سنة ست وخمسين تولى دمشق وإمرة الحـاج لموت عمه سليمان الوزير وحج بالحجيج اربع عشرة حجة وعزل عن دمشق وإمرة الحاج بالوزير حسين باشـا مكي وولوه حلب ثم عزل عنها ونفي الى جزيرة كريت ونسبوا له ما وقع بالحجيج وقتل بمدينة انقرة . وقال في ترجمة أسعد باشا ايضاً : انه كان محموداً في ولايته وأهل الشام في زمانه في راحة وأمن وطمأنينة ، وكان صبوراً صبر على زُرب الاحداث الاشقياء في الشام حتى أخذهم الله على يده ، وآذاه عرب حرب فصبر على اذاهم حتى انتقم الله له منهم عن يد الوزير المرحوم عبد الله باشا جتهجي ، وكان له صدقات وإدرارات على بعض العلماء بالشام والحرمين .

وقال جودت في وقائع سنة١١٩٧ وفيها توفي والي الشام واميرالحاج محمدباشاالعظم بعد ان اقام في وظيفته اثنتي عشرة سنة ولما كان وزيراً مشهوراً من اهل الثروة والغنى عين مباشرون مخصوصون من الاستانة لضبط امتعته وامواله . وقد اثنى المرادي على محمد باشا العظم هذا فقال: ان له من المآثر في كل ولاية وليها ولاسيما في دمشق مايحسن ذكره وانه رفع المظالم وانشأ المعالم قال : وبالجملة فهو من احسن من ادركناه من ولاة دمشق واكملهم رأياً وتدبيراً .

والغالب ان الدولة كانت مرتاحة البال من ناحية بني العظم في الشام يقاتلون الخوارج عليها ولا تحدثهم انفسهم بنزع ايديهم من يدها ويدفعون اليها الخراج في اوقاته ، ولذلك كانت ترعاهم على الجملة في حياتهم وتتركهم يستمتعون بنعمها ، فاذا هلكوا جاءت ووضعت يدها على عروضهم واموالهم كما هي عادتها ، ولعلها استبطأت

اسعد باشا في الولاية فخشيت شره فخنقته · و بالجملة فان احوال ذاك العصر يصعب الآن الحكم عليها لقلة من نظر في المؤرخين في الحوادث نظر الاستنتاج الصحيح ·

☆ ☆ ☆

فتن ومشاغب } رجع الى سلسلة الحوادث · فقد توفي سنة ١٠٤٨ الامير محمد فروخ النابلسي و كان من شجعان الدنيا تولى حكومة القدس ونابلس فأرهب العربان و كبر صيته وبقي في امارة الحج ثماني عشرة سنة ، وبلغت رهبته في قلوب العربان و كانوا اذا ارادوا ان يخوفوا احداً منهم يقولون ها ابن فروخ اقبل فتنلوى قوائمه · وفي سنة ١١٥٢ كبس وزير صيدا بلاد الشقيف وقتل الشيخ احمد فارس واولاده ورفعت القبوقول والاوط من بلاد الشام (١١٥٢) لخبث سيرتهم وهاجم (١١٥٦) الامير ملحم الشهابي بلاد المتاولة ووصل الى قرية نصار فالتقى بدسا كرهم وانتشب بينهم القتال فكسرهم كسرة هائلة وقتل منهم الفاً وستمائة قتيل وقبض منهم اربعة مشايخ ونهب بلادهم واحرقها ، و باغت والي صيدا ووالي طرابلس ووالي دمشق بلاد الامير ملحم الشهابي في لبنان لتأخره عن اداء المال السلطاني واحرقوا اقليم التفاح ومرج بشرة ثم وقع الصلح وادى ما عليه · وجهز (١١٥٦) سليمان باشا العظم والي دمشق عسكراً على الظاهر عمر الزيداني بعد ان قبض على اخيه مصطفى وشنقه بدمشق فلما وصل الوزير الى قرب عكا لحصارها رشا ظاهر العمر بعض اتباعه فادخل على سليمان باشا السم في طعامه فمات وجيء به الى دمشق في اكثر الروايات وسليمان باشا هو ابن ابراهيم ولي طرابلس وصار جرداوياً لاخيه شقيقه الوزير اسمعيل ثم ولي صيدا ، وبها صارت له الوزارة ثم ولي صيدا ثانية ثم ولي دمشق (١١٤٦) بامارة الحج وحج خمساً بالحجيج الشامي ثم ولي مصر وعاد الى دمشق فوليها سنتين ·

وفي سنة ١١٥٧ كانت الموقعة في مرج عيون بين المشايخ المتاولة واهالي وادي التيم ومعهم دروز جبل الشوف و كانت الكسرة على الدروز وعسكر وادي التيم وقتل منهم نحو ثلثمائة قتيل وحرقت المتاولة جميع قرى مرج عيون ·

وفي سنة ١١٥٨ ملك الدالاتية قلعة دمشق فقاتلهم الانكشارية ، وامر اسعد باشا العظم حاكم الشام ان يقصدوا سوق ساروجا واطلقت المدافع فخربت الدور ونهبت

دار رئيس الفتنة وخربت وجرت القافية بقية الدور ولم يبق من سوق ساروجا الا القليل واعمل اسعد باشا السيف بكل عاص وقتل عسكره اناساً وسلبوا الدور واحرقوا بعضها ، ثم صلب كثيرين وبقيت المشنقة اياماً لاتخلو من مصلوب اتهم انه كان يمالئ ارباب الدعارة على رغائبهم ، وتركت جثثهم اياماً امام السراي تأكلها الكلاب وسلخت رؤوسهم وجعلت اكواماً ، وصارت المدافع تطلق بكرة وعشية مدة شهرين وكثر العزف بالابواق واطلاق السهام النارية في الفضاء .

وفي سنة ١١٦٠ غزا أسعد باشا العظم والي دمشق البقاع فركب الامير ملحم الشهابي بعسكر بلاده الى المغيثة ونزل اليه عند برالياس فانكسر الباشا ووصل الامير ملحم الى سهل الجديدة ثم رجع واحرق جميع قرى البقاع ورجع الى بلاده منصوراً وهابته الدولة . والسبب في هذه الفتنة تأخر الامير ملحم في دفع الاموال الاميرية علة العلل واصل معظم الفتن ، وغضب سليمان باشا العظم (١١٦١) على الانكشارية في دمشق فأخرجهم عنها ، فحضر رئيسهم احمد آغا القلطقجي ومعه عدة اغوات الى جبل الشوف ، واجتمعوا عند المشايخ بني يزبك وكانوا ينزلون وينهبون من نواحي دمشق ويقطعون الطريق واحرق الامير ملحم ديار بني تلحوق في الغرب وديار بني عبد الملك في الجرد .

وحاصر سليمان باشا العظم الشيخ ظاهر العمر في قلعة طبرية (١١٦٠) ثلاثة اشهر فادركه ركب الحج فارتفع عنها ولما خرج الباشا الى الحج ارسل الامير ملحم عسكراً الى بلاد بعلبك فطرد الامير حيدر الحرفوش وولى مكانه الامير حسيناً ، وخربت الدروز بلاد بعلبك وقطعت اشجارها . وفيها حضر خط شريف بقتل اغوات الانكشارية بدمشق فقبض الوالي على بعضهم وقتل ابن الفلاقنسي . وذكر ابن بدير انه بلغ متسلم دمشق سنة ١١٦٢ ان بعض الدروز من جماعة ابن تلحوق جاؤا دمشق ينهبون ويحرقون فأرسل الى الموالي والمفتي والقاضي يأمرهم بان يأخذوا معهم الاعلام وينادوا هؤلاء خوارج فمن كان يحب الله والسلطان ليخرج الى قتالهم » . فخرج الناس فقتلت الحامية زمرة وكان الدروز يحتجون بان قدومهم كان لاخراج اخوان لهم كانوا مسجونين فلما موطلوا نادوا في حارة الميدان والقبيبات كل من لا يخرج للقتال معنا ننهب ماله وداره ، فانضم جماعة من الحارات ونزلوا الى السويقة ووقع القتال بينهم

وبين القبوقول والدالاتية ، واغلقت البلد حوانيتها وحصرت الحارات ونبه المتسلم على اهلها ان لايخرجوا الى الازقة ليحرسوا دورهم ، ثم جرت مقتلة بين الفريقين قتل فيها نحو خمسين قتيلاً من جماعة المتسلم والقبوقول ·

ثم فتح عسكر الباشا الدكاكين في باب الجابية ليلاً ونهبوا مافيها من طعام وهدموا مصاطبها وصيروها متاريس ومن الغد باكروا القتال وزحفوا الى السويقة ومعهم العملة والبناؤون فخرقوا الدور والقصور واطلقوا المدافع على الاشقياء فولوا الادبار ، فامر المتسلم عسكره ان يقعوا في نهب الدور والدكاكين · وروي انه اخرج فتوى وحجة وامراً قاضياً بان ينهب الجند من حد السويقة و يقتلوا و يهدموا ولا يعفوا عن انسان ، فسلبوا الاموال وسبوا الحريم ، ودام الامر الى وقت العصر فردهم الاشقياء والدروز ونصرهم اهل الميدان ·

ولما هرب الدروز نودي في البلد بالامان وان تفتح الاسواق و يكف عن النهب قال ابن بدير : وقد سرت مع من سار فرأيت فضائح الميدان ، والقتلى مجدلة ، والابواب محطمة ، والدكاكين مقفرة ، ثم اضطرب اهل القبيبات والميدان والسويقة و باب المصلى واخذوا ينقلون اثاثهم الى داخل المدينة مثل باب السريجة والقنوات وغيرهما من الحارات · وخاف الاكابر والحكام والعامة فجعلوا يعزلون الدكاكين و يخبأون ما حوته في البيوت وبلغ عدد الدور المنهوبة في هذه الوقعة كما قيل الفاً وتسعمائة دار واما الحوانيت فكثيرة جداً ·

هذا وقد اخذ القبوقول يمسكون الناس و يأتون بهم الى الحكام و يقولون : هذا كان يقاتل مع الاشقياء فيقتلهم المتسلم من غير حجة ولا اثبات ، ولا قصد للقبوقول الا أخذ ثارات لهم مضت مع الانكشارية ، الى آخر ما أصاب دمشق الشام في ذلك العام من حرق ونهب وغلاء وفضائح وفظائع · وكان من العادة ان تغلق ارتجة الفيحاء وحوانيتها جملة عند اندلاع لسان الفتن بين القبوقول والانكشارية وبينهم وبين الدالاتية والاشراف والاكراد والدروز ، حتى ينادي منادٍ من قبل الحاكم يأمر بفتح الدكاكين ويطمن الناس ·

وجاء دمشق (١١٦١) أحد موالي اسعد باشا العظم وكان نقل بعد ولايته دمشق

الى حلب ، فذكر الانكشارية والعامة ظلمه ايام كان سيده حاكماً في دمشق فقاموا قومة رجل واحد فالتجأ الى القلعة وحماه القبوقول ولما أُريد على الخروج من دمشق ابى فأغلقت البلدة دكاكينها ومحالها وتجمع الانكشارية وتبعهم الناس وتعصب العناتبة والاكراد والدالاتية مع القبوقول وأهل حارة العمارة وحدثت غارة في سوق الدرويشية وأُطلقت النيران على الانكشارية ثم قاموا على أهل حي العمارة فانهزم أَهلها منها وأحرقوها حتى صارت بلقعاً وراح اهلها الى الجامع الأموي ودامت الفتنة اياماً حتى قر رأْي الاكابر والامراء على اخراج مولى ابن العظم من دمشق فأُخرج ولم تطفأ جذوة الفتنة لان الثائرين ما زالوا يتلمظون بطعم الغنائم و يزدردون حلوى الغارة وجاء الخبر بان الجالين عن دمشق نهبوا الضياع في طريقهم وقتلوا الانفس وهتكوا الاعراض وصادفوا جماعة من طائفة الحكام فسلبوهم وقتلوا منهم فريقاً . وأَخذ القبوقول يطلقون النار على الرعية وظلت الفتنة قائمة في البلد بين القبوقول والانكشارية والاشراف فقتل من هؤلاء نحو ثلاثين وبضعة اولاد وثارت الحرب في شوارع المدينة اياماً ثم عتا الانكشارية على حاكم دمشق فصاح في جنده وركب الى الميدان فهربوا أَمامه فأَعمل وجنوده السيف فيهم فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ومن لم يمت بالسيف قادوه بالسلاسل والاغلال ، وعم نهب العسكر الكبير والصغير والناس بين قتيل وأسير ، ونهبت الدور والدكاكين وانتكبت الفيحاء نكبة عظيمة فعريت النساء وخطفت الجواري والعذارى ، وتمنى العقلاء الموت ثم نهض جماعة الحاكم الى النهب فمنعهم وأَمر بجمع مانهبوه فما وصل الا القليل أَودعه بعض الجوامع وامر منادياً ينادي لتأخذ الاسلاب اصحابها ، فأُخذ بعضها وذهب الاكثر ، واما أَتباع الوالي فطفقوا يقتلون كل من يصادفونه و يقطعون رأْسه او يحبسونه ، وتناول أَذاهم من في الدور وتعست الحال .

ووصف ابن النجار هذه الفتنة فقال : ان السلطان ارسل والياً آخر غير الذي كان وجرت هذه الوقعة في عهده فقتل الاشقياء من المسلمين والدروز والنصارى وخربوا وحرقوا الدور ونهبوا الاماكن قال : وتعطلت الاسواق والمعاملات بسببهم في دمشق قريباً من سنة لا تقام جمعة ولا يسمع اذان ولا يفتح جامع ولا يتمكن احد من الخروج

من منزله لحاجة ولا لغيرها ، لفسادهم وافسادهم وتعديهم على الخاص والعام . وانما كان سبب تمكنهم من ذلك عدم وجود والٍ بدمشق فان واليها كان خرج منها الى الحج اميراً فجاء الوالي الثاني وقتل منهم من قدر عليه وفر منهم من فر وسلب دورهم ومتاعهم واثاثهم ولحق دمشق واهلها من ذلك الوالي وحاشيته وجنده كل بؤس ، وذلك بسبب قيامهم على اولئك الاشقياء ، وانتهبت غالب المنازل في دمشق وقتل خلق كثير من الابرياء وتوطن هذا الجند الكثير من دور الناس واخرجوا اهلها منها عنفاً وظهر من اتباع هذا الوالي ما انسى اهل دمشق ما كانوا فيه من الضنك والشدة قبل قدوم هذا الجند اليهم وقال : ان هـذه الفتن وقعت سنة ١١٧٠ وارسل عبد الله باشا الشتجي والياً ليرفع الحيف عن الدمشقيين واعادة الامن الى طريق الحج ، واشتبك القتال كما تقدم بين القبوقول والانكشارية ثم فر الانكشارية طالبين البراري والقفار فتبعهم نفر من الجند وقتلوا منهم عدداً ، ثم ان الجند اخذ في قتل من يراه كائناً من كان وشرعوا في النهب والسلب فانتهبوا غالب المنازل والحوانيت من حدود الحقلة الى باب الجابية والجند يأتون بالرؤوس الى الوزير ، فقتل من الرعايا على هـذه الحال عدد كثير وانتهب المال والمتاع ، وظلم رئيسهم وحواشيه واختطفت النساء والغلمان جهاراً من غير مدافع ، والجند يقولون ان جميع الدمشقيين كفرة وانهم قوم يزيد . قال الشهابي في دخول والي دمشق الجديد الى المدينة : انه كان مع الشتجي ثلاثة عشر الف رجل فاجتمعت اهالي دمشق الى الميدان ليمنعوه من الدخول فدهمهم ليلاً وقتل منهم مقتلة عظيمة .

وفي سنة ١١٦٣ حصل بين سعد الدين باشا العظم وبين اهل حلب وحشة فرحل عنها جرداوياً « وكان عرض عليه منصب حوران فاستعفى من ذلك لانه لم يتول هذه الايالة في الدولة العثمانية احد استقلالاً لقلة دخلها ووفرة خرجها فولوه طرابلس جرداوياً لاخيه اسعد باشا الوزير فأقام جرداوياً فيها وفي صيدا وحلب اثنتي عشرة سنة » روى الشهابي في حوادث سنة ١١٧١ انه وقعت شرور كثيرة بين انكشارية دمشق والقبوقول وكانت دروز الجبل تعين الانكشارية في القتال فانتصروا وقتل من الفريقين اربعون قتيلاً ، وحاصرت القبوقول في القلعة وجرى بينهم اربع وقائع ، والانكشارية

تنتصر بامداد الدروز ، ثم وقعت الفتنة بين عسكر الباشا وعسكر الانكشارية فانكسر عسكر الوزير وخرج الانكشارية من دمشق نحو الف فارس ووقع القتال بين اهل البلد وعسكر الوزير فقتل من اهل البلد نحو مائة قتيل ثم نادى الباشا بالامان ٠

وعدد ابن بدير كثيراً من مظالم الدفتردار فتحي افندي ومما قال : ان الاهلين لما ضاقوا به ذرعاً استعدوا الباب العالي فاعداهم ، فأُحضر الى العاصمة ليمثل بين يدي السلطان ، فاخذ يمنح المنائح لارباب المظاهر حتى أدخلوا على السلطان شخصاً آخر بدلاً منه واوهموه انه هو المشتكى منه فأمر بقتله فقتل ٠ اما فتحي فسفره اعوانه من النظار تحت جنح الدجى فآب الى دمشق يفعل الافاعيل المنكرة ، حتى اذا ضاق الخناق ورد الامر بقطع رأسه فقطع وجرّ في شوارع المدينة وترك للكلاب تنهشه ومثل ببعض اعوانه وصودرت امواله ٠

* * *

عهد عثمان الثالث ومصطفى الثالث وبعض الاحداث في ايامهما

وبينما كانت دمشق تموج بالفتن وتستل فيها الارواح بسوء ادارة الولاة وتلاعب رؤساء الجند كان لبنان وهو ربيب القوة والمقاومة لايخلو على ذاك العهد من فتن تدك العمران ، وتفني الانسان والحيوان ، فقد ذكر المؤرخون ان المشايخ المناكرة تطاولوا (١١٦٣) على اقليم جزين فعظم ذلك على الامير ملحم الشهابي وركب لحرب جباع الحلاوة فهربت المتاولة من وجهه وأُحرق اكثر بلادهم ، وكان قد اصاب منهم جماعة في جبل الشوك فوق جباع وقتل من المتاولة نحو ثلاثمائة نفس وحرق حارة جباع وقطع الاشجار هناك ، واحرق بلاد الشقيف وبلاد بشارة ، ثم حدث بين جماعة الامير ملحم الشهابي ووالي دمشق وقائع طفيفة بسبب الظلم الواقع في البقاع على المسافرين في طريق دمشق فقتل أُناس من عسكر الفريقين ، ثم وقع الصلح بين امير لبنان ووالي دمشق على ان يؤدي الاول للثاني نفقة الحملة ٠ وفي سنة ١١٦٥ وقعت فتنة بين المشايخ بني ابي نكد فغضب الامير ملحم الشهابي عليهم وأَرسل فنفاهم من البلاد فنزحوا الى وادي التيم وهدم منازلهم في دير القمر ثم رضي عنهم ٠ وكانت

للسيد احمد باشا الذي كان واليًا في حلب سنة ١١٦٥ الحظوة عند رجال الاستانة قال ابو الفاروق : فعينوه واليًا على قونية فسبقه اليها زور با كورد محمد ، واثار افكار أهلها عليه لما عرف به من المظالم ، فحاربوه وهلك أناس في هذا السبيل ، ثم عينته الدولة واليًا على حلب فسبقه اليها كورد محمد ايضًا ومثل الرواية التي مثلها في قونية فحاصرت حلب لذلك خمسة أشهر ، ودامت الحرب في حلب مدة وأُحرقت البيوت وخربت البساتين وقطعت المياه عن البلدة ·

وفي سنة ١١٦٨ توفي السلطان محمود الاول بعد سلطنة خمس وعشرين سنة وتولي السلطنة السلطان عثمان الثالث وهو الخامس والعشرون من آل عثمان ولم يعمل عملاً يذكر اللهم ما كان من تبديل وزرائه والافراط في هذا التبديل ، وكان يميل الى الطرب والصفا ويعمر الابنية في العاصمة وأُسس بعض دور الكتب · وفي خلال ذلك تولى دمشق وامارة الحاج حسين باشا مكي او الفخر الغزي ولم يكن شرهًا في جمع المال ويميل الى العدل وحسن الرياسة غير انه كما قال المرادي : كان بطيء الحركة عن شهامة الوزراء ، فبسبب ذلك حصل من اليرلية (الجند الوطني) والقبوقول (الحرس) وغيرهما من طوائف الاكراد والعسكر فتن وحروب ، وحصل للاعيان والرؤساء الضيق العظيم وقامت عليهم الناس ·

وفي سنة ١١٧٢ هلك السلطان عثمان بعد ان ملك ثلاث سنين وثمانية اشهر وخلفه السلطان مصطفى الثالث فافتتح العهد بالاعلان بتبديل السياسة ولكن كان عهده كما قال مؤرخو الفرنج عهد انهيار المملكة الانهيار التام وسيادة الاشمئزاز على الناس ، ووضع ثقته في وزيره رجب باشا فأحسن وكان رجب باشا ذكيًا ومخلصًا ·

وفي سنة ١١٧٤ كان واليًا على دمشق عثمان باشا الكرجي وكان يلقب بالصادق وسبب هذا اللقب انه كان من بعض مماليك اسعد باشا العظم وهذا يحبه لنباهته · ولما قتل أسعد باشا وضبطت الدولة داره وامواله طلبوا عثمان هذا فاخبرهم بخزائن مولاه ثم وجدت قائمة بين تلك الاموال فكانت مطابقة لكلامه فانعمت عليه الدولة ولقبته بالصادق ، وتولى ولاية دمشق احدى عشرة سنة (١١٧٤—١١٨٥) ومما وقع في ايامه ركوبه لحرب محمد الجرّار الى قلعة صانور من عمل عكا ، ارسل الى الامير

يوسف فبعث بعسكره والتقى به عثمان باشا فعظم امره عنده واكرمه ، واصلح الامير اسمعيل الشهابي حاكم حاصبيا قلعة بانياس وبنى ما كان قد هدم منها من زمان ابن معن واقام بها فحاصره عثمان باشا الصادق مدة وجيزة ثم سلمه القلعة ونهب عثمان باشا كل ما كان فيها وامر بهدمها .

* * *

سيرة ظاهر العمر الزيداني وسياسته

استراحت الدولة من ناحية الشام لوجود والٍ مخلص لها في دمشق عثمان باشا الكرجي الصادق ، فتركته وشأنه يعمل باسمها ويقاتل اعداءها ، فطالت ولايته على حين تقلبت حلب في مدة حكمه على دمشق احدى عشرة سنة في أيدي عشرة ولاة . وكانت البلاد تتمخض في خلال ذلك بظهور رجلين في العقدين الاخيرين من هذا القرن كما تمخضت أواخر النصف الاول منه بظهور آل العظم ، ونعني بهذين الرجلين الشيخ ظاهر العمر الزيداني واحمد باشا الجزار . فانهما شغلا البلاد بامرهما ، واهتمت لعظم شوكتهما الامة والدولة ، وجاء الثاني على اثر الاول فبزه ظلماً وعدواناً . ولم يكن قيام امر الرجل في ذلك العهد يتوقف على نباهة فيه وعلم مهم ، بل غاية ما يحتاجه شيءٌ من المعرفة بطبائع من يقوم فيهم ، وتلطف باستمالة قلوب أفراد يعوّل عليهم ، ورأس مال قليل يؤديه ثمن اقطاع او نفقة الظهور ، ومهارة في البطشة الكبرى الاولى ودهاء وحيلة ، وعندها يزيد كل يوم قوة ولا تلبث الدولة ان ترعاه ، والاهلون ان يتفيئوا ظله وحماه .

في اواسط القرن الحادي عشر للهجرة جاء الى جهات فلسطين الشمالية من الحجاز رجل يدعى زيدان وله ولد اسمه عمر ولعمر ولدان اسمهما ظاهر وسعد . ظعنوا عن بلادهم لخصومة وقعت بينهم وبين عدو اقوى منهم مراساً ، فجاءوا وضربوا خيمتهم في الاطراف الشمالية من سهل البطوف في ارض يقال لها مسلخيت من عمل نابلس ولما كانت قرية العرابة اقرب القرى اليهم جاءوجهاء القرية وزاروهم وحيوهم وسألوهم ان يأتوا الى قريتهم يضربون خيامهم في ارضها لانهم كانوا على اربعة اميال منها . وكان في قرية سلاّمة المعروفة اليوم بخربة سلامة الواقعة على منحدر الوادي المسمى بهذا الاسم شيخ درزي قوي الجانب برجاله الاشداء باسط اجنحة نفوذه على ما جاوره من

البلاد . مر بعرابة ذات يوم ووقع نظره على فتاة اعجبه حسنها وطمع فيها لنفسه . ونزل بيت احد وجهاء القرية ودعا اليه الزعماء وطلب منهم الفتاة ، فشق على سكان عرابة ذلك خصوصاً وهو درزي وهم سنة . وارتبك اهل القرية فسألهم زيدان عن السبب فذكروا له ما وقع فقال لهم : الخطب سهل على ان تعاهدوني ان تعملوا ما اسألكم اياه ولا تبوحوا به فقال : اجيبوا الدرزي الى ما طلب وعينوا له وقتاً يوافيكم فيه لاخذ العروس واذا جاء مع جماعته رحبوا به فاذا استقر بهم المقام خذوا اسلحتهم ثم اتركوهم يهزجون ويرقصون الى حين الرقاد ، وكل واحد منكم يأخذ واحداً الى داره ليؤويه ولما رقد الجميع هب زيدان وافنى جماعة الدروز ، ثم اغار وجماعته على سلامة مع سكان عرابة فبطشوا بمن بقي فيها وخربوها فعظم قدر زيدان وانضم اليه اناس ممن يحبون الغزو والشقاوة وألف منهم جيشاً يغزو بهم فينزل بار باب النفوذ الويل والخراب . ثم قتل زيدان بعض رجال المقادحة وكان منهم حاكما طبرية والناصرة فقتلها ، فاضحى المقادحة بلا زعماء فاحتل اهل عرابة نمرين وغيرها . ولما كبر ظاهر رزق ستة اولاد ذكور فكفله سكان عرابة لدى والي صيدا سنين طويلة فالتزم الجباية وكان بعض السنين يتلكأ عن اداء ما تعهد به واحياناً يؤدي للدولة حقها ، حتى نمت ثروته واقام في عكا فجعل اخاه سعداً في دير حنا ، واولاده علي في صفد وعثمان في شفا عمرو ، وسعيد في الناصرة وجهات مرج ابن عامر ، وصليبي في طبرية واحمد في تبنة وجبل عجلون (لخصته من مقال في مجلة الزهرة) .

كانت جبال بيروت واعمالها بيد حكامها الامراء الشهابيين يدفعون الاموال لوالي صيدا المعين من قبل الدولة ، وكانت صور وعملها بيد المتاولة يضمنون اموالها من والي صيدا واما جبال عكا وما اليها فكانت بيد مشايخها ومن جملتهم بيت ابي زيدان كانوا يضمنونها من والي صيدا ايضاً ، فما زال الامر كذلك حتى ظهر الشيخ ظاهر العمر فصادق مشايخ المتاولة وتزوج نساء كثيرات فتكاثر بنوه واقرباؤه حتى بلغوا مقدار خمسمائة نفس وعمروا قلعة طبرية وقلعة صفد وغيرهما وبدأوا يسطون على عكا وصور واظهروا الشقاوة وقطع الطريق فضجر منهم والي صيدا واضطر ان يضمن مدينة عكا الى الشيخ ظاهر العمر ويضمن صور للمشايخ المتاولة وابتدأ الشيخ ظاهر العمر يبني في عكا سرايا

عظيمة وسوراً وابراجاً ويجمع اليه العسكر وانتشرت اعلامه في تلك البقعة واطاعته مشايخ المتاولة ودخلت عرب البادية تحت حكمه « وكان عادلاً في الرعية وسار معهم سيرة مرضية » وساعدته المتاولة في اطراف لبنان فخافه السلطان واوهمه انه يجعله نائبه في القدس و يوليه عكا والناصرة وطبرية وصفد وسائر البلدان التي في تلك الاطراف وانه امير العرب فصدق وكف عن المحاربة . وذكر شوفيه وايزامبر : ان الظاهر عمر نشط الزراعة وقضى على غزو القبائل المجاورة لبلاده من العرب فوفق الى توطيد الامن في الاقاليم ، فكان المسيحيون والمسلمون يهرعون الى نزول بلاده من جميع اطراف الشام لينعموا فيها بالراحة والتساهل الديني .

وقال واصفوه انه ما زال في ظهور حتى نشبت الحرب بين الدولة العثمانية والدولة الروسية فضعفت الدولة في الاقطار الشامية ، فزاد ظاهر العمر قوة وعدا علي والي صيدا وطرده منها وتملكها وارسل لها حاكماً من عنده ، فاستمر يحارب الوزراء سبع سنين ولم يدفع مالاً للدولة ، وله معهم عدة وقائع انتصر فيها على عساكر الترك وعسكر الدروز والعربان . وفي هذه الاثناء صادق دولة روسيا بمشورة وكيله الخاص ابراهيم الصباغ من اهل عكا ، وكان هذا صاحب عقل وتمييز الا انه يحب المال كثيراً كما حالف الامير فخر الدين المعني الثاني في القرن الماضي امراء طسقانه في ايطاليا .

واستمر الشيخ ظاهر حاكماً على عكا نحو اربعين سنة الى سنة ١١٨٩ . والسبب في وقوع الفتن بين الشيخ ظاهر العمر وولاة الاطراف ان عثمان باشا الصادق والي دمشق لما وليها سنة ١١٧٤ وكان شديد المكر كثير الدهاء ولى اولاده الاثنين صيدا وطرابلس ، فصار يظلم رعية الشيخ ظاهر العمر و يطلب المال للسلطان ، فبدأت الحرب بينهما فانكسر عثمان باشا وخلت خزائنه من المال فأخذ يلح على الاهالي في طلب المال فضج الناس من ظلمه وعصاه اهل الرملة وغزة و يافا ولم يطيعوه الا بعد حروب كثيرة فوقعت البغضاء في قلوب اهل بر القدس وتمنوا حكم علي بك صاحب مصر عليهم وكان هذا قد قوي في بلاده فاطاعته البلاد المصرية .

وحاول عثمان باشا سنة ١١٨٣ ان يغزو ظاهر العمر بالاتفاق مع امراء جبل الشوف فأرسل ظاهر يستنجد بوالي مصر علي بك وكان هذا عزم على رفع لواء العصيان

على الدولة ، وفي قلبه حقد على عثمان باشا فهش لاقتراح الشيخ ظاهر لانه كان يريد امتلاك بلاد العرب من عريش مصر الى بغداد ، وكان قد راسل الملكة كاترينا المسكوبية طالبًا منها ان تمده بالمراكب والرجال وهو يملكهم المدن البحرية في الشام . ولما وصلت اليه رسالة الشيخ ظاهر جهز له ستة سناجق كبار ورأس عليهم اسماعيل بك وأصحبهم بعشرة آلاف من الغز والعربان والمغاربة وأمرهم ان يكونوا في طاعة الشيخ ظاهر العمر ثم ساروا الى اراضي المزيريب في حوران وكانوا نحو عشرين الفًا لقتال عثمان باشا فعدل اسماعيل بك عن الغزاة لما لاقى من تمرد اولاد الظاهر العمر وعشيرته فشكا الشيخ ظاهر الى الامير علي بك ما لقي من اسماعيل بك فابتدأ الامير علي يجهز العساكر والجنود على نية الخروج لتملك بلاد الشام .

وفي هذه السنة قبض الامير يوسف الشهابي على عدة من مشايخ آل حماده فالتجأوا الى وزير طرابلس فأتوا بعسكر الى قرية بزيزا ووقع القتال بينهم في قرية ميون فانكسر عسكر طرابلس وحاصر بعضهم في برج في أسفل القرية وقتل عدة أشخاص ثم سلموا وساروا الى طرابلس ، وفيها بلغ الباب العالي ما فعله علي بك المتغلب على مصر . فأمر والي دمشق ان يسير بخمسة وعشرين الفًا لمنع جنود عكا من معاضدة علي بك فسار الوالي بالعساكر ، فوافاه الشيخ ظاهر العمر في ستة آلاف بين جبل النيران وبحيرة طبرية ورده على أعقابه .

* * *

حملة ابي الذهب على الشام } استكثر امير مصر علي بك (١١٨٤) من جمع طوائف العسكر وامر بسفر تجريدة الى الشام واميرها اسماعيل بك وكان أرسل أحد رجاله فقتل سليطًا شيخ عربان غزة هو واخوته واولاده ، فذهبت تجريدة من البر وأخرى من البحر ووقعت بين جنده وحكام الشام وأولاد العظم حروب ومناوشات . وفي سنة ١١٨٥ أخرج علي بك من مصر تجريدة عظيمة وأميرها محمد بك ابو الذهب في جند كثير من المغاربة والترك والهنود واليمانية والمتاولة ، وسافرت من طريق دمياط في البحر ، فلما وصلوا الى الديار الشامية حاصروا يافا وضيقوا عليها حتى ملكوها ، ثم توجهوا الى باقي المدن والقرى وحار بهم النواب والولاة فهزموا

وقتلوا وفروا من وجه الجيش المصري ، فاستولى على الممالك الشامية الى حدود حلب . قال هذا الجبرتي وقال غيره : ان محمد بك ابو الذهب لما وصل الى بلاد الشام حضر اليه أولاد ظاهر العمر ومشايخ المتاولة وانضموا الى عسكره فصار جيشاً عظيماً ينيف على الستين الفاً ، فسار محمد بك ابي الذهب طالباً دمشق ، وكان عثمان باشا قد رجع من الحج فجمع العساكر لقتاله ، فما لبث عثمان باشا ان انكسر فخيم ابو الذهب حول المدينة قاصداً حصارها ، وأرسل الى اهلها كتاباً يشير فيه الى ما اتاه عثمان باشا من الظلم واهانة الحجاج والزوار وظلم المسافرين والتجار ، وانه يريد ان يطهر هذه الارض منه نصرة للدين وغيرة على المسلمين ، ويذكر ما فعله بعلماء غزة في العام السابق من دفنهم في الارض احياءً ، وانه اخذ فتوى المذاهب الاربعة في قتاله ، وصرف الاموال والعساكر ليردوا الظالم ويستردوا المظالم ، فخرج العلماء والعوام من اهل دمشق كافة الى محمد بك ابي الذهب وطلبوا منه الامان فأمنهم واكرمهم ، ودخل المدينة وجلس في دار الوزارة ونادى بالامان . وكانت القلعة لم تزل محاصرة فأمر باطلاق المدافع عليها فطلب المحاصرون الامان فتسلم القلعة . وتراجع عثمان باشا الى حمص وجهز العساكر الكثيرة . وابتدأ اسماعيل بك يغير قلب محمد بك ابي الذهب على الشيخ ظاهر العمر فحصل بينهما فتور وخوفه عاقبة التمرد على السلطان فنهض بعساكره ليلاً من دمشق وسار طالباً الديار المصرية ، وشاع رحيله من الغد فتعجب أهل الشام كل العجب من ذلك ولم يعلموا السبب فيه ، ورجعت اولاد ظاهر العمر والمشايخ والمتاولة كل منهم الى مكانه وقد ذهلوا من قيامه وتأسفوا على سعيهم .

وفي رواية ان السبب في ترك العسكر المصري بزعامة محمد بك ابي الذهب حصار دمشق ان عثمان باشا واليها لما اشرف على الهلاك بعث الى قائد المماليك بصرة ثقيلة بالدنانير للرجوع عن محاربته فارتشى منه وامر عسكره بترك المحاصرة وتركوا حصار قلعة دمشق ، فلما رأى ظاهر العمر خيانتهم وانهم قد فارقوه وتركوه وحده عجز عن فتح القلعة فرجع الى دياره ، فتخلص عثمان باشا وعاد يجهز العساكر بعد مدة قليلة للخروج لمحاربة ظاهر العمر ودخل اراضيه وحاصره في عكا وجدَّ في المحاصرة حتى صعب الحال على الشيخ وكاد عثمان باشا يفتح عكا فما نجا الشيخ في هذه المرة الا بمساعدة ولديه ،

فقد جمعا العرب وهجما على الترك ليلاً فكسروهم وشردوهم فهرب منهم عثمان باشا ، ثم جمع الشيخ ظاهر عساكره وحارب الدروز فغلبهم وتملك بلادهم التابعة لعامل صيدا . ولما بلغ السلطان خبرُ فتوحه وهو مشتغل بحرب روسيا صعب الحال عليه فأرسل السلطان الى الشيخ يعرض عليه الصلح ، وقد عزل عثمان باشا وولديه عن ولاية دمشق وصيدا وطرابلس واما الشيخ ظاهر فقد اضمر في نفسه ان يدخل في طاعته الشام كله وهو يستند في ذلك على مساعدة علي بك امير مصر .

وذكر المرادي انه كان مع محمدبك ابي الذهب تسعةالوية وخمسةمن اولاد الظاهر امير بلدة عكا ومشايخ المتاولة والصفدية ونحوثمانين مدفعاً واربعون الف مقاتل ، وعينت الدولة لقتاله والي حلب عبدالرحمن باشا ووالي كليس خليل باشا ووالي طرابلس محمدباشا، فخرج للقائه هؤلاءالوزراء معوزير دمشق بالعساكرالشامية والاجناد ، وصارت المعركة في سهل داريا وفي اقل من ساعة انكسر العسكر الدمشقي وفرهارباً كل من خليل باشا وعبدالرحمن باشا وعساكرهما ، وقتل منهم شرذمة قليلة وثبت كافل دمشق عثمان باشا وولده محمد باشا والعساكر الشامية وحصل القتال معهم ثلاثة ايام ، وفر اعيان البلد الى حماة واستولى الفزع على الناس ، وغص الجامع الأُموي باهالي القرى فانهم نزلوا جميعاً باهلهم وامتعتهم ومواشيهم اليه . ولما عاد ابو الذهب عن دمشق رجع عثمان باشا وولده محمد باشا ورئيس « اليرلية » يوسف اغا جبري من جبل الدروز ومعه خمسة آلاف درزي وبعد مدة ضرب عثمان باشا عنق ابن جبري ، لانه كان السبب في تقوية الدولة المصرية على العساكر الشامية طمعاً منه في قتل عثمان باشا وصيرورته مكانه كافلاً بدمشق .

عاد ابو الذهب ادراجه الى مصر فرجع الى دمشق عثمان باشا وحضر اليه الامير يوسف الشهابي لانه كان قد ارسل اليه نائبه يوسف اغا جبري يستنجده ، وكان الامير يوسف قد جمع عسكراً وتجهز للمسير فاتفق قيام ابي الذهب عند ذلك . ولما فرغ بال عثمان باشا وقتل نائبه يوسف اغا جبري رئيس الانكشارية ونهب امواله اقام مكانه رجلاً من اهل دمشق يقال له عثمان اغاشبيب ، ثم خرج بعسكرعظيم الى ارض الحولة يريد قتال الشيخ ظاهر العمر والمتاولة الذين كانوا السبب في تلك الفتنة فجمع

ظاهر العمر رجاله واجتمعت المتاولة من تلك البلاد وكبسوا عثمان باشا في الليل فذعرت عساكره وقتل منهم خلق كثير . وهزمهم الشيخ ظاهر وما زال في اثرهم حتى وصلوا الى بحيرة الحولة فالقى كثير منهم انفسهم في البحيرة وماتوا غرقاً . وهرب عثمان باشا بنفر قليل فاستولى ظاهر العمر والمتاولة على اسبابه واسلابه . وكتب الشيخ ظاهر الى الامير علي بك يخبره بما كان ويحقق له خيانة محمد بك ابي الذهب بعد ان ملك الاقطار الشامية ودخل الناس كافة تحت طاعته . فخرج علي بك من مصر فالتقاه ظاهر العمر بالاكرام ودخل به الى عكا فارسل كتباً منه (١١٨٥) ومن الشيخ ظاهر العمر الى ملكة المسكوب يسألانها الاسعاف على الدولة العثمانية ، وان ترسل اليهما المراكب الحربية ليسلماها الديار المصرية . واقام علي بك ينتظر الجواب ، وقويت مشايخ المتاولة على الدولة ، وتطاولت على اطراف جبل الشوف ومرج عيون والحولة ، فاتفق الامير يوسف وخاله الامير اسمعيل حاكم وادي التيم الادنى وجمع الامير يوسف نحو عشرين الف جندي وسار قاصداً قرية جباع الحلاوى واحرق اقليم التفاح وحرق جباعاً وقطع اشجارها وهدم بنيانها .

وكان عسكر المتاولة مجتمعاً في النبطية نحو ثلاثة آلاف ، ولما وصل الامير يوسف الشهابي الى كفر دمان احرقها وتوجه الى النبطية فالتقى بشرذمة من عسكر المتاولة نحو خمسمائة خيال ووقع بينهم قتال انكسر فيه عسكر الامير يوسف كسرة هائلة ، ومات كثير من عسكره تعباً وعطشاً ومنهم من اختلت عقولهم ، وفقد من عسكره في هذه الوقعة اكثر من الف وخمسمائة قتيل ، وركب الشيخ كايب نكد من حاصبيا الى دير القمر وغزا المتاولة في قرية علمان فهزمهم ومنعهم من الحضور الى اقليم الخرنوب وتلك الاطراف . وسارت عساكر الدولة مع عسكر الامير يوسف لحصار مدينة صيدا وانقاذها من يد ظاهر العمر وكانوا في اكثر من عشرين الفاً معهم المدافع والزنبركات فأقاموا على حصارها سبعة ايام . وجاءت المراكب الروسية الى عكا التي استنجد بها ظاهر العمر فأرسلها الى صيدا فأطلقت مدافعها على جيش الدولة وجيش لبنان ، وساق ظاهر العمر عسكره وقدروه بعشرة آلاف جندي والتقى بعسكر لبنان وجيش الدولة في سهل الغازية ، وانتشب القتال فانكسر عسكر الدولة وقتل منه نحو

خمسمائة نفس وانقلب راجعاً الى دمشق ، واما المراكب الروسية فسارت الى بيروت وملكت جانباً منها وأحرقت بعض الابراج فهربت الشهابية من المدينة وخرج اهلها الى البر ودخلت الفرنج بيروت ونهبت كل ما وجدته فيها ثم رحلت الى عكا بعد ان أعطاها حاكم لبنان ٧٥٠٠ قرش تعويضاً ثم عادوا وأطلقوا على بيروت ستة آلاف مدفع دفعة واحدة كذا قال المؤرخ ، حتى ظن الناس ان القيامة قامت وسمع صوت المدافع على ما قيل الى قبة السيار فوق دمشق كالرعد القاصف ، وأحاطوا بالمدينة بحراً مدة اربعة اشهر ليل نهار فتضايق المتحاصرون فيها ونفد ما عندهم من الزاد فكانوا يأكلون لحوم الخيل والحمير والكلاب ، وهناك اضطر الجزار الى التسليم وطلب الامان عن يد ظاهر العمر وتسلم الامير يوسف بيروت وغرم المسلمين ثلاثمائة الف قرش وسلمها للسفن المسكوبية . قال احد المؤرخين : ضرب الروس بيروت ونهبوها في القرن الثامن عشر وكانت فيها بيوت امراء الجبل ومشايخه ، وكانوا بنوا فيها خانات وقيساريات وكان الفرنسيس يدعونها « باريز الموارنة الصغرى » وكثير من الموارنة كانوا قناصل لفرنسا .

ووقعت في هذه السنة بين الشهابيين والحماديين في العاقورة واقلمون واقعة . وفي سنة ١١٨٦ اخذ الامير سيد احمد من والي دمشق حكم البقاع فتوجه الى قب الياس وبنى ما كان هدم فيها من الزلازل وحصنها بالمدافع والرجال . وفي هذه السنة أحرق يوسف الشهابي بعض قرى الضنية لما بلغه من خيانة المشايخ بني رعد حكام الضنية مع المشايخ بني حمادة . وفي سنة ١١٨٧ حمل عثمان باشا والي دمشق في خمسة عشر الف جندي على الامير يوسف الشهابي حاكم لبنان في جهات البقاع . وجرت عدة وقائع بين العسكرين وانهزم والي دمشق في الليل تاركاً المدافع والذخائر ثم انفصل الفريقان على غير نتيجة .

* * *

عهد عبد الحميد الاول وتتمة اخبار ابي الذهب } هلك السلطان احمد الثالث (١١٨٧) وخلفه ابنه السلطان عبد الحميد خان الاول وفي ايامه استولى العجم على العراق ولم يبلغه الخبر الا بعد خمس سنين ، وهو السابع والعشرون من آل

عثمان ، مضت مدة على رحيل ابي الذهب من الشام وبقي ظاهر العمر بعد اعتصامه بروسيا وكسرته والي دمشق غير مرة واتهام ابي الذهب بالخيانة أمام والي مصر ممتعاً بولايته حتى سنة ١١٨٩ ، وفيها سافر ابو الذهب الى البلاد الشامية — رواية الجبرتي — لمحاربة الظاهر عمر واستخلاص ما بيده من البلاد وكانت الدولة أذنت له بالمسير الى الظاهر عمر وخراب بلاده فوصل الى أرجاء غزة وارتجت البلاد لوروده ، ولم يقف احد في وجهه وتحصن أهل يافا بها وكذلك الظاهر عمر تحصن في عكا فلما وصل الى يافا (١١٨٨) حاصرها وضيق على أهلها وامتنعوا هم ايضاً عليه وحاربوه من داخل وحاربهم من خارج ، والقى عليهم المدافع والمكاحل والقنابر عدة ايام وليال ، فكانوا يصعدون الى اعلى السور و يسبون المصريين وأميرهم سباً قبيحاً ، فلم يزالوا بالحرب عليها حتى نقبوا أسوارها وهجموا عليها من كل ناحية وملكوها عنوةً ونهبوها وقبضوا على أهلها وربطوهم بالحبال والسلاسل وسبوا النساء والصبيان وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، ثم جمعوا الاسرى خارج البلد وأعملوا فيهم السيف وقتلوهم عن آخرهم ولم يميزوا بين المسلم والمسيحي والاسرائيلي والعالم والجاهل والعامي والسوقي ولا بين الظالم والمظلوم . وبنوا من رؤوس القتلى عدة صوامع ووجوهها بارزة تنسف عليها الاتربة والرياح والزوابع ، ثم ارتحل عنها طالباً عكا . ولما بلغ الظاهر عمر ماوقع بيافا اشتد خوفه وخرج من عكا هارباً فوصل اليها ابو الذهب ودخلها من غير مانع واذعنت له باقي البلاد ودخلوا تحت طاعته وهدم قلعة ديرمار يوحنا وديرمار الياس في صفد وقتل رهبانهما .

ويقول جودت : ان ابا الذهب قام من مصر في ستين الف جندي الى يافا ، وبعد ان حاصرها خمسين يوماً استولى عليها وأعمل السيف في أهلها كبيرهم وصغيرهم ، وان ظاهر العمر طلب مدداً من الامير يوسف الشهابي حاكم لبنان فأبى ان يمده فلم يسعه الا الهرب من عكا والتجأ الى عرب غزة ، ولما حصل ابو الذهب في عكا استولت الدهشة على الناس حتى ان بعض الأُسر الكبيرة هاجرت ببيروت خوفاً وهلعاً ، اما الامير يوسف حاكم لبنان فقدم هدايا الى ابي الذهب طيب بها قلبه ، وجاءه متسلم صيدا احمد اغا الدكزلي ملتمساً رضاه مظهراً طاعته ، فأمنه على نفسه ومركزه كما جاءه مشايخ بني متوال فاكرمهم ابو الذهب ثم استدعى ان يولّي

امور مصر والشام فجاءه من السلطنة المنشور بذلك ولكن كان قد قضى نحبه وتفرقت جموعه وعادوا الى مصر ، فلم تنل الدولة مآربها من ظاهر العمر ولم تستفد البلاد سوى ان قتل من أهلها جمهور كبير ولا سيما في حصار يافا . وجرى على أثر هذه الواقعة بين المتاولة والغز الذين في صيدا قتال عظيم فانكسرت المتاولة كسرة هائلة وقتل منهم جماعة .

* * *

خاتمة ظاهر العمر وولاة حلب } قال جودت : لما سمع ظاهر العمر بوفاة ابي الذهب عاد الى عكا وأخذ يطيل أيدي الاذى اكثر من قبل ، فأرسلت عليه الدولة سنة ١١٨٩ قائد البحر حسن باشا الجزائري ، وكُتب الى والي دمشق اذ ذاك محمد باشا العظم والى والي إيالة صيدا والى الجزار احمد باشا الذي نُصب محافظ السواحل الشامية والى متصرف القدس ، فبعث قائد البحر اولاً يطلب من الظاهر ما في ذمته للدولة من الاموال الاميرية (وهي خراج سبع سنين) فلم يوافق على ذلك مستشار ظاهر العمر ابراهيم الصباغ ، وكان بيده جميع أموال الظاهر عمر ، وقال له : ان الدولة لا يرضيها شيء ، وأراد سيده على المقاومة ولكن عسكر ظاهر العمر استماله متسلم صيدا وقال لهم : لا يجوز مقاتلة عسكر السلطان فأبوا ان يقاتلوا . فلما علم الظاهر عمر بالامر فرَّ على وجهه لا يلوي على شيء هو وأولاده ، فضبط قائد البحر أموال الظاهر عمر وذخائره وجيءَ بابراهيم الصباغ فأُخذت منه أموال الظاهر عمر ثم قتل . ويقول بعض المؤرخين ان ما وجد من أموال ظاهر العمر اثنان وثمانون الف كيس من النقد قال جودت : سبحان الله ! بمثل هذا المال والنوال ومتسلم صيدا احمد اغا الدكزلي يطلب عشر معشاره لارضاء الدولة فتشح نفس ابراهيم الصباغ ، فيجلب البلاء على نفسه ويكون سبباً لخراب بيت مولاه بيت آل زيدان .

وذكر بعض من استوفوا سيرة ظاهر العمر انه في اواخر سنة ١١٨٩ حضر قائد البحر حسن باشا الجزائري بالاسطول السلطاني ، لان السلطان عبد الحميد الاول لما عقد الصلح مع الدولة الروسية سنة ١١٨٧ التفت لتنظيم البلاد فوجه قائد البحر الى حيفا ، وذلك بعد موت ابي الذهب ورجوع العساكر المصرية بمدة قليلة ، وان مطالب

القائد كانت اموال سبع سنين متراكمة، فادعى الظاهر ان ليس عنده مال وانه مستعد لحرب قائد البحر لان عنده باروداً وكللاً وثلاثة مدافع فاطلق قائد البحر اربعة ايام النار على عكا وكان عدد قنابله ٧٧٥٠ كلة ولم يحدث منها ضرر بل هدمت قليلاً من المحلات ، وقيل بل سقطت قنبلة على مخزن البارود فاحترق ، فخرج الشيخ ظاهر بعياله فقتله احد المغاربة في الطريق في محل يسمى الرقايق ، وكان قاتله عبداً من عبيده منذ خمس عشرة سنة فقتله القائد التركي به لخيانته سيده ، وحزوا رأسه وحمل الى الاستانة ونهب العسكر المدينة ساعتين. وكان قائد السفينة الفرنساوية التي جاءت لحماية تجار عكا الفرنساويين وحملتهم الى بلادهم نبه على التجار الفرنساويين بان كل من عنده وديعة لابراهيم الصباغ ولكل من يلوذ به ملزم بحسب اوامر السلطان ان يقدمها الى قائد البحر العثماني فأعطوها وكانت ٣٦ الف كيس ذهب عدا الجواهر والتحف ، وضبطت حواصله وكانت مشحونة باصناف البضائع وضبط مبلغ كبير ممن يلوذ بابراهيم الصباغ الذي اخذ وقتل في الاستانة ، وكذلك احمد اغا الدكزلي الذي خان مولاه فقد صلبه قائد البحر في صاري المركب ، وسلم قائد البحر ولاية عكا الى احمد باشا الجزار ، سلمه عكا وصيدا وما يليهما ، فاحتال الجزار على اولاد الظاهر عمر واقام الشيخ عثمان الظاهر شيخ المشايخ و يقول مشاقة : ان حسن باشا طلب من ظاهر العمر خمسين الف قرش تبلغ باسعار ذاك الوقت خمسة وعشرين الف ريال فرنسا فأشار اكثر معتمدي الشيخ بالدفع الا الطبيب التاجر ابراهيم الصباغ فانه خالف رأي الجماعة . وقيل انه وصل من اموال ظاهر العمر واولاده وابراهيم عبود الصباغ الى خزينة السلطان ثلاثمائة وثمانون الف كيس تساوي خمسة ملايين ليرة وخمسة وعشرين مليون فرنك خلا ما اختلسه حسن باشا لنفسه .

وفي اوائل سنة ١١٩٠ رجع حسن باشا الجزائري بالاسطول الى عكا وحضر محمد باشا العظم والي دمشق بعسكره وابراهيم باشا والي القدس بعسكره ونصبوا معسكراتهم خارج مدينة عكا وظلع معهم احمد باشا الجزار بعساكره وساروا جميعاً مع امير البحر قاصدين البطش باولاد الظاهر عمر فأمنوهم وحملهم قائد البحر الى الاستانة وقتل في الطريق احدهم واسمه احمد لانه طعن فيه جهاراً وبقي احد اولاد الظاهر واسمه

الشيخ علي يتنقل في البراري، فبلغ الدولة خبره فارسلت الى محمد باشا العظم ان يرسل اليها رأس علي الظاهر او يقتل هو به، فأرسل والي دمشق رأس ابن الظاهر مع ثلاثة رؤوس من جماعته وانكر جماعة احمد باشا الجزار الرأس المحمول، وقالوا: انه ليس رأس الشيخ علي الظاهر فاحضرت الحكومة ولديه الحسن والحسين وكانا في الاستانة وقالت لهما هل تعرفان هذه الرؤوس المقطوعة فلما رأياها بكيا فقيل لهما: ما يبكيكما فاجابا هذا رأس والدنا علي الظاهر وقد عرف من كبر عارضيه لانه كان يدعى ابو سبعة شنبات، وبذلك انقضت دولة الظاهر واندثر ذراريها وقامت دولة الجزار احمد باشا الذي ضيق على اولاد الظاهر وذراريه وبعث احد جواسيسه الى ابنه علي وقتله في مرج علما الخيط.

والغالب ان الشيخ ظاهر العمر الذي حكم صيدا وعكا ويافا وحيفا والرملة وبلاد نابلس واربد وصفد وجميع المتاولة كانت تحت امره، كان الى السذاجة والفطرة، استسلم لوكيله ابراهيم الصباغ وكان هذا مثلاً سائراً في الامساك وحب المال، فحاول ان يخلص سيده من دفع خمسة آلاف كيس مع ان لديه اضعاف اضعافها من الذهب، دع سائر العروض والجواهر، واغتر ظاهر العمر بقوته الضئيلة فكان في ذلك ذهاب دولته وهلاكه وهلاك وكيله، ولم يثمر جمع الاموال الثمرة المرجوّة، ولو قدّر له ان يعمل بما رسمه له السلطان سنة ١١٨٨ من العفو عن جميع ما تقدم من ذنوبه وذنوب غيره على شرط ان يؤدي الخراج لبقي في عزه ان كانت الدولة تريد دوام العز لاحد.

كانت الشكوى قليلة من ادارة ظاهر العمر فان ما جمعه في اربعين سنة قد جمع غيره من حكام الاقاليم مثله في مدة قليلة. ذكر فولنه ان علي باشا المعروف بچه طلجلي الذي تولى حلب مرتين آخرها سنة ١١٩٣، وكان من معاصري الجزار، جمع في خمسة عشر شهراً زهاء أربعة ملايين ليرة (الغالب أن الليرة هي الفرنك الطلياني) وانه سلب جميع أرباب الحرف حتى انتهى سلبه الى منظفي الغلايين. وقال غيره: ان مدينة حلب التزمها ملتزم من الاستانة بثمانمائة كيس أو نحو أربعين الف جنيه ويعطي الوالي ٨٣٣٠ جنيهاً في السنة لنفقات الولاية لكنه يكثر ابتزاز الاموال الطائلة من الاكراد والتركمان وسائر السكان، وقد جمع منهم عبدي باشا الذي كان والياً قبل عهد فولنه ١٦٠ الف جنيه في سنة واحدة وضرب ضريبة على كل واحد وكل صناعة.

قال بعض معاصريه وقد فر من حلب غالب تجارها ووجوه الناس ومن له شهرة وسجن الاعيان وان الكوسج خادمه لما خرج الى قتال التركمان صار يخرب القرى و يساب أموالها حتى قام أهالي حلب وحاصروه واخرجوه من البلدة . ونقل في اعلام النبلاء في حوادث سنة ١١٩٤ ابن عبدي باشا والي حلب جاء في جيش عظيم الى كلز لتأديب الاشقياء وأصدر أمره الى هذه البلدة أن يخرجوا منها أهل العرض والرعايا الى طرف الباشا و يبقى الاشقياء فأجابوه بلسان واحد ليس في بلدتنا أهل عرض صلاً بل كلنا أشقياء فزحف الوالي على البلد فحاصرها وفتحها ووقع القتل والنهب في كلز وهتكت الاعراض وذبحت الاطفال . وأن الوالي اخذ يساب أموال الناس في حلب وفي سجنه من الاكابر والمشايخ والاشراف خلا الرعايا وأهل الذمة مقدار عظيم وعسكره كثير يرتكب في حلب أنواع الرذائل و بلغ من سوء فعل اتباعه ان كسروا غراريف بساتين حلب ودواليبها واخشاب بيوتها وطياراتها من حدود قرية بابلا (باب الله) الى قرب بستان الدباغة وحرقوها وحرقوا اخشاب قرى البلد باجمعها وسلبوا متاعها ونهبوا مواشيها وتركوها قاعاً صفصفاً الا ما حماه الله من القرى البعيدة ، وجاء الوالي الجديد فنبه ان لا يحمل احد سلاحاً وكل من وجد من اهالي المحلات خارجاً عن الطريق المستقيم فعلى جيرانه ان يخبروا عنه ليقتله ومن شهد جيرانه بحسن حاله فلا سبيل لاحد عليه وصار يقتل كل من اخبر بسوء حاله ، وامر الناس ان يفتحوا دكاكينهم وارباب القرى ان يتعاطوا زراعتهم وان مامضى لا يعاد ومن لم يفتح دكانه ينهبها و يشنق صاحبها .

وروى في أخبار الحاج يوسف باشا ابن العظم الذي تولى حلب بعد عبدي باشا انه صار يأخذ بالمجان مماليك وجواري من اصحابها قهراً ، ويحضر التجار وغيرهم ويكرمهم و يقول لهم : « انا وزير إقشعوا خاطري لا يعلم بها أحد حتى لا يمشيها غيري » وأرسل فطلب من كل بلد حصاناً . وجاء بعده عبدي باشا وسار على اقدام سميه الاول في الظلم والجور على صورة لم يسبق لها مثيل واخذ يأخذ بدل القرش اربعة وصادر القوم وعذبهم وصارت حبوسه ملأى بالناس .

وصف فولنه ظاهر العمر بانه لم تشهد له الشام مثيلاً في الازمان الغابرة ، وكان

داهية باقعة في السياسة حكيماً محنكاً ولكنه كان طماحًا طماعًا ومن محاسن صفاته انه لم يكن يحب الاحتيال و يجاهر بما يضمر ولو قاسى من ذلك العنت وانه احب المسيحيين ورفع شأنهم وعدل في الناس ٠

وقال بعض المعاصرين : حكم الظواهرة البلاد نحو ثمانين سنة وامتد نفوذهم من حدود جبل عامل شمالاً الى أطراف جبال القدس جنوباً ومن البحر المتوسط غرباً الى جبل عجلون شرقًا ، وكانوا يرجعون في احكامهم الى اصول العشائر حسبما توحيه اليهم ضمائرهم ، وقد شادوا في البلاد أبنية ضخمة فرم الظاهر عمر بعض ما تمكن من ترميمه مما خربته الحروب الصليبية ورفع سورها الداخلي ، وشادفيها جامع محلة الجرنية وبنى علي في صفد القلعة الباقي شيء من آثارها الى اليوم ، وبنى صلبي في طبرية السرايا المعروفة اليوم باسم الصقرية نسبة الى عرب الصقر الذين صال عليهم صلبي واكتسحهم ، وعمر الجامع الواقع جنوب السراي ، وبنى عثمان قرية شفا عمرو ، وبنى احمد قلعة تبنا ، وشيد سعد قلعة دير حنا ٠ وهذه القلاع الثلاث لا تزال موجودة ، وعمر في دير حنا الجامع الموجود الى اليوم وكان بناؤه سنة ١١٤٤ ه ٠

* * *

اولية الجزار } أخذ الجزار بعد استلام ولاية صيدا سنة ١١٩١ يقوى وتشتد شكيمته خصوصًا بعد أن ولي دمشق (١١٩٠) مع بقاء عكا عليه ثم استقل بولاية عكا واخذ يغزو متغلبة تلك الارجاء فوقعت بينه وبين الامير يوسف الشهابي وقعة في سنة ١١٩١ في نقار السعديات بين صيدا وبيروت فلم يسلم من جماعة الشهابي الاالقليل ، وأحرق عسكر بيروت اي الجزار المكاس والجديدة والدكوانة في لبنان وقتل اناسًا من اهلها ، ثم وقعت بين عسكر الدولة وعسكر لبنان في المغيثة عدة وقائع انتصرت الدولة فيها على اهل الجبل وقتل منهم قتلى كثيرة واكثرهم من المتن وداهم عسكر الدولة بني الحرفوش في بعلبك واحرقت الدولة زحلة ٠ وقوي الجزار بمجيء ستمائة فارس من اللوند وكانت الدولة امرت بقتل جماعتهم وكانوا ستة عشر الفًا ، فلم يسلم منهم الا الذين جاؤا الجزار ، ولما عزم على الاقامة في عكا ابتدأ باصلاح

اسوارها وانقان بنيانها وجعل على كل قرية من تلك البلاد ان يحضر أهلها جميعاً ثلاثة ايام في الاسبوع بالسخرة لاجل العمارة ٠

وجرت حروب كثيرة بين الشيخ علي بن الشيخ ظاهر العمر وعساكر الجزار حتى قتل على ما سلف وكذلك بين هذا والامير يوسف الشهابي والتقى مرة في طريق صيدا عسكر الجزار بالنكدية وكانوا يكمنون له فقتل الجزار اكثرهم وقبض على بعض اعيانهم فجعل الامير يوسف يعتذر للجزار ويستشفع في اطلاقهم مقابل مئة الف قرش ولما طلب الامير المال من الجبل ابى الامراء الدفع فطلب الامير من قائد عسكر الجزار ان يتلف اشجار بيروت ففعل وقتل جماعة من رجالهم ، ثم سار الى بعلبك وعظم امره وحينئذ خرجت بيروت من يد الامير يوسف ودخلت في حكومة الجزار ، واقتتل الامير يوسف مع الجزار فانهزم في عدة مواقع ثم تصالح الشهابي والجزار ٠

وأرسل أحمد باشا الجزار (١١٩١) أحد رجاله من الاكراد في جماعة منهم فاجتازوا قب الياس فعلم أهلها فحصنوها ، وردوهم عنها باطلاق المدافع فذهب الاكراد الى بعلبك وصادروا كبار المتاولة ، ولا سيما الامير محمد الحرفوش وسجنوه ثم شنوا الغارة على سعد نايل وقتلوا بعض سكانها ونهبوها ، ثم حاربوا الدروز في البقاع وقتلوا بعضهم وقتل من الاكراد اربعون رجلاً فأحرقوا قرى كثيرة في البقاع وهاجموا سغبين ثم عادوا عنهـا ، وقد قتل منهم نحو مائتين ثم امرهم الجزار فعادوا اليه ، وكان سبب ارسالهم ان الامراء اللمعيين لم يدفعوا الضريبة الشاشية التي فرضها الجزار على اللبنانيين في السنة السابقة ٠ وفي سنة ١١٩٢ او ٩٣ نقل الجزار مركزه الى عكا لحصانتها ٠ وزاد الجزار (١١٩٤) المكوس والمغارم على لبنان ٠

وفي سنة ١١٩٥ وقعت فتن ومناوشات بين عسكر الجزار وعسكر الامير سيد احمد وعسكر دمشق في ارض قب الياس في البقاع قتل فيها كثيرون وانتصر الجزار ووقعت وقعة في الظهر الاحمر في وادي التيم لاجل النفوذ والمال ، وفي سنة ١١٩٧ استولى الجزار على بلاد بشارة بعد وقعه مهمة مع مشايخها من بني متوال ، وتسلم هونين وتبنين وشقيف ارنون ، اخذ هذه القلعة الاخيرة بالامان وقتل من بها وتسلم جباعاً و باد اسم بني علي الصغير وبني منكر ٠ وفي هذه السنة توفي محمد باشا العظم وكان وزيراً عادلاً

مهاباً على قول ميخائيل الدمشقي وقال المرادي: انه كان من رؤساء الوزراء عقلاً وكمالاً وعدلاً وديناً وسخاء ومروءة وشجاعة وفراسة وتدبيراً وكان واسع الرأي مهاباً وضرب على ايدي البغاة وقطاع الطريق ، وراقت دمشق وما والاها في ايامه ، وصفا لاهلها العيش ونامت الفتن ، فعين محمد بن عثمان باشا وكان ظالماً قاسياً ثم تولى اخوه درويش باشا ثم تولى محمد بطال باشا وكان حدثاً جاهلاً ليست له خبرة بالمقاطعات . وقتل (١١٩٧) الوزير حسين مكي باشا والي غزة وصادرت الدولة امواله وكان حارب بني صخر وعرب الوحيدات بعسكره فاستأصلهم .

وفي سنة ١١٩٨ تولى احمد باشا الجزار ولاية دمشق وفي سنة ١١٩٩ وقعت فتن ايضاً بين عسكر الدولة واللبنانيين قتل فيها فريق من الطرفين . وانتهى القرن والبلاد على هذه الحالة . ومن جملة الفتن ما ذكروه من عصيان يوسف الجرار وتحصنه في قلعة صانور على مقربة من عمل جينين في نابلس ، فحاصرها الجزار بنفسه فلم يظفر بطائل فطمع أهل بلاد نابلس وأخذوا ينهبون الناس ، فذهب الباشا ونهب بعض قراها وقتل أناساً كثيرين ثم حاصر صانور ثانية ، وأصبحت بلاد نابلس في فوضى والجزار كل مرة يغزوها ويخرب في قراها ويقتل من أهلها ولم ينل احمد الجزار من يوسف الجرار ما كان يتطال اليه حتى مات الجرار . قال بعضهم : ان نابلس لم تبرح بعصيانها تقلق الادارة التركية وكان العصاة فيها يعتصمون بقلعة صانور . هذا وقد تولى حلب في هذا القرن سبعون والياً قضى معظمهم أشهراً في الولاية واكثرهم لم يتجاوز الخمس سنين وكان ولاة دمشق في هذا القرن ستة واربعين والياً كان منها نحو خمس واربعين سنة في حكم آل العظم .

* * *

الحكم على القرن الثاني عشر قرن كله ذل ومسكنة ، وتقاتل وتشاحن ، عرف بتغلب القيسية على اليمنية بعد وقعة عين دارة ، ورجوع ابن معن الى الامارة في لبنان ، وانقراض دولة المعنيين بموت الاخير منهم ، وظهور بني شهاب حكام وادي التيم بمظهر جديد لخلفوا المعنيين في لبنان ، وبظهور ابناء علي الصغير في بلاد بشارة وانقراضهم كانقراض آل حمادة من شمالي لبنان ، وظهور بني العظم حكاماً

في الولايات الشامية وتراجع امرهم ، ثم ظهور ظاهر العمر في عكا وما اليها ودوام حكومته اربعين سنة ، ثم ارسال والي مصر تجريدة بقيادة اسماعيل بك وأخرى بقيادة محمد ابي الذهب ورجوع هذا عن البلاد بعد ان فتحها الا قليلاً واعتصام الظاهر عمر بمملكة روسيا وحصار اسطول الروس بعض الساحل ولا سيما بيروت ، ثم ظهور الجزار الذي قرض بيت الظاهر عمر .

والدولة قلما جهزت جيشاً خاصاً للقضاء على سلطة احد المتغلبين اللهم الا جيوشاً اشبه بنجدات يوم مجيء ابي الذهب لفتح الشام ، واستغاثت بابي الذهب لتنقذ البلاد من ظاهر العمر فجاء بجيش من مصر ، اي ان الدولة كانت تستعين بالجار على جاره و بابن العم على ابن عمه وتضعفهم جميعاً ، ومعظم حملاتها كانت للانتقام ممن يتلكأ في تأدية الجباية لها ، وقلما سمع بانها نحت عاملاً كبيراً لسوء ادارته ، و كثرة نهمته في جمع ثروته والعاقل المستقيم من ولاتها لا تطول ولايته كثيراً حتى يتمكن من اصلاح بعض الشؤون ، وكان الولاة في الحقيقة يستمتعون بلا مركزية واسعة لا يحتاجون معها الى مراجعة الاستانة في كل امر ، ولكن اين العامل النشيط فيهم الذي يعرف يدبر امور الناس ، واذا تهيأ الرجل هل تحدثه نفسه بذلك فيتهم حالاً بارادة الاستقلال و يشي فيه جيرانه والطامعون في ولايته .

اما سلاطين هذا القرن فكانوا وسطاً والوسط لا يعمل عملاً نافعاً ، ولم ينشأ للسلطنة صدور عظام عرفوا بالمضاء وحب العمل امثال ابناء كوبرلي وصوقوللي ، في القرن الماضي بيد ان اعمالهم لم يصل الى الشام منها الا الصدى ، ولم يخرج من الشام نابغة بعقله وادارته من ارباب الاقطاعات وغيرهم كما كان في القرن المنصرم ، وجل همهم مصروف الى دفع عادية خصمائهم من اقربائهم او غيرهم ، وكانوا دون من يأتي من الاستانة من الولاة عقلاً وعدلاً ، ومما ظهر في هذا القرن من النقص المحسوس في البلاد قلة السكان فقلق العقلاء ، وكان في حلب قبل استيلاء العثمانيين ٣٢٠٠ قرية يتقاضى منها الخراج فنزل عددها الى اربعمائة قرية حتى ان ابن معن لم يقبل ان يتولى بلاد بني حمادة لانها خربت الا قليلاً ، وهام الفلاحون على وجوههم في المدن والجبال وهكذا الحال في ولاية دمشق وفلسطين . وقال فولنيه : ان سكان كسروان وحده ضعفا سكان

فلسطين . وهكذا كان السكان يكثرون في المقاطعات التي تخلص مباشرة من ادارة الباب العالي مثل لبنان ووادي التيم ونابلس وعجلون وان لم تكن حالتها مما يستحب .

اما اعمال العمران فلم يقم فيها الا قصور لارباب الدولة امثال قصر لاسعد باشا العظم في دمشق وقصره في حماة الى غير ذلك وقامت من المدارس مدرسة اسماعيل باشا العظم ومدرسة سليمان باشا العظم في دمشق وبعض مدارس في حلب ، ولكن بدأ خراب المدارس القديمة العظيمة بمقياس واسع ، وتداعت المساجد والجوامع ، ولم يقم من المشاريع النافعة ما يستحق الذكر لان البلاد لا صاحب لها يغار عليها ، فالمتغلبة من ابنائها والقادمون من الولاة عليها ، لا يهتمون لمثل هذا الشأن ، وسلاطينها ضعاف ان افلح احدهم فعمر له جامعاً ومقبرة خاصة في دار الملك عدوه محباً للعمران ، متقرباً بعمله الصالح من الباريء الديان :

ولا تغير من قوم نعيمهم الا تكدّر منه الورد والصدر

فهرس الجزء الثاني

« من خطط الشام »

صفحة